الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جـامعة الحـاج لخضـر – باتنة **نيـابة العمـادة لما بعد التـدرج**
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية **و البحث العلمي والعلاقات العامة**
قسـم: أصـول الـديـن

فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية

دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية

تخصص: دعوة وإعلام

إعـداد الطالب الباحث
هـادف مصطفـى

إشـراف الأستاذ الدكتور
محمـد زرمـان

أعضـاء لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الدرجة العلمية	مؤسسة العمل	الصفة في اللجنة

السنة الجامعيـة
2013/2012

بسم الله الرحمن الرحيم
إنه من سليمان وإنه

أعوذ بالله من الشيطن الرجيم

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى
وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

صدق الله العظيم

سورة الإسراء الآية 85.

شكر و تقدير

الحمد لله له الحمد وله الشكر على كل شيء
و في كل حال.

أود تقديم شكري وتقديري لكل من قدم لي يد العون في إنجاز هذا الموضوع وعلى رأسهم الأستاذ المشرف الدكتور محمد زرمان شكرا جزيلا واحتراما وتقديرا.

كما أقدم شكري للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا علي بتقييم عملي وتحملوا عناء القراءة والمناقشة وتحليل هذه الأطروحة، كما لا يفوقني أن أوجه شكري وعرفاني لبعض الأساتذة الكرام الذين أمدوني بالمساعدة القيمة وأذكر منهم الدكتور أحمد بوسجادة دون أن أنسى تقديم شكري لمن ساعدني كثيرا في كتابة وطبع هذه المذكرة.

المقدمة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده و نستعينه، و نستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا الله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه و على آله وصحبه و سلم تسليما كثيرا.

أما بعد فإن الله جلت قدرته، وتعالت عظمته المتصف بكل كمال المنزه عن كل نقص، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، شاء أن يجعل في كونه وخلقه سننا ينتظم بها أمر الكون –علويه وسفليه– وتسير بها الحياة على سنن مستقيمة إذا اتبعها الإنسان وسار على نهجها حصلت له السعادة، وتنحت عنه الشقاوة وعاش مطمئن البال مرتاح النفس فيحصل بينه وبين غيره من المخلوقات في هذا الكون الفسيح وفاق وانسجام وتناغم وتوازن، أما إذا حاد عن جادة الحق وصادم هذه السنن الإلهية وخالف القوانين الربانية عاش في نكد وتعاسة وحلت به الشقاوة وزالت عنه النعم وحلت به النقم، وظهر الفساد في البر والبحر والجو، فلا يهنأ بعيش ولا يقر له قرار وحلت به النقم ولا يستقيم له حال، وتصدق فيه الآية القرآنية الكريمة: ﴿و ۞مَنْ أعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإنَّ له معِيشَةً ضَنْكا ونَحْشُرهُ يوْمَ القيامَةِ أعْمَى...﴾ سورة طه الآية 124.

ودراسة سنن الله من حيث البحث عنها و استكشافها و التفقه فيها و التفصل في أحكامها فضلا عن أنها ضرورة شرعية، و واجب ديني تقتضيه ظروف المرحلة الدقيقة والصعبة الراهنة لأحوال المسلمين وضعف شأنهم، وتكالب الأعداء عليهم من كل حدب وصوب وما الحرب الشرسة التي يشنها أعداء الإسلام وخصومه بضراوة بكل الصور والأساليب البشعة والمضللة على الأمة الإسلامية لتثبيط المسلمين، وخنق الأمل في صدورهم وبث روح الهزيمة النفسية بين جوانحهم حتى لا ترتفع رؤوسهم، ولا تنهض عزائمهم، فيظلون في تلك الوهدة التي صاروا إليها فيصل بهم الأمر إلى الذوبان والضياع والتمزق بين أنياب الأمم التي تداعت عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها.

و بناء عليه فإن الداعية المسلم المثقف مدعو في ظل واقع التخلف الشامل في كل مناحي الحياة، فان التحدي الذي يواجهه وهو على أعتاب عصر جديد يتمثل في مدى إمكانية إعادة تشكيل حياته في ظل متغيرات عالم ما بعد الحداثة، واستنادا إلى قاعدة نظامنا المعرفي التوحيدي، يقتضي الأمر والحالة هذه فهما واعيا للسنن العامة التي تُبنى عليها حركة الإنسان والكون والحياة،

فالدولة المسلمة التي تسعى إلى تحقيق رسالة الاستخلاف في الأرض تعلم يقينا أنها لن تغير ثابتا أراده الله، ولن تثبت متغيرا أراده الله، كما أنها تعرف من جهة أخرى أن للنهوض وللرقى وللإصلاح سننا ثابتة والفشل في تحقيق تلك الأهداف يستدعي فهم الأسباب التي أدت إلى ذلك وتحضرني الكلمة النفيسة لصاحب تفسير المنار حول أهمية دراسة السنن الإلهية قال رحمه الله: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، و القرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذا أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها»([1]).

وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة إحياء فقه السنن الإلهية وفهمها، وتجديد الرؤية الإسلامية إلى تصورها الصحيح، كما جاء في القرآن والسنة وفهم الصحابة والسلف لهذا الفقه السنني، في مجاله التطبيقي وذلك ليمارس المسلم استخلافه وشهوده الحضاري في هذا الكون.

إذا كان السلف الصالح والرعيل الأول من المسلمين فقهوا سنن الله في كونه عملا وتطبيقا، فدعاة هذا العصر وعلماؤه ومفكروه، مطالبون في حركاتهم الدعوية والفكرية بإحياء هذه السنن وتفعيلها في حركة الإنسان، ولا بد أن يساعدوا على فهم السنن العامة التي تبنى عليها حركة الإنسان والكون والحياة.

ومن الدعاة الذين اهتموا بهذه السنن وأمعنوا النظر في مقاصدها وأدركوا نتائجها من خلال التجارب الماضية والاستفادة منها، الشيخ محمد الغزالي، الذي تبين له أن الحالة التي تعيشها الأمة الإسلامية من ضعف وتمزق وانقسام، ذهول المسلمين اليوم في أمر دينهم ودنياهم، وغفلتهم وإهمالهم لسنن الله الكونية.

1) مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في الأمم و الأفراد – ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، مصر – 1427هـ، 2006م – ص 129.

ويعتقد الغزالي أن من أهم الضوابط التي يجب أن تعيها وتدركها الأجيال المؤمنة فقهها لسنن الله في الكون والنفس والمجتمع، إن الله سبحانه وتعالى جعل سننا كونية يجري عليها أمر هذا الكون، وأمر هذه الحياة و أن الله سبحانه وتعالى كلفنا بان ننظر في الآفاق، و أن نكتشف هذه السنن، و أن نعمل على ضوئها و أن نسخرها لدين الله تعالى و أن نستفيد من ثمراتها في حياتنا، وأي تصادم معها يحدث فتوقا وانحرافا في حياة الناس.

لقد تجرع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارة الهزيمة في غزوة احد، بسبب تخلي بعض الرماة عن مواقعهم، ومن ثمة التفريط في تقديم عنصر من أسباب النصر، وفق الخطة التي رسمها صلى الله عليه وسلم حدث هذا والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، ومعه خيرة الصحابة من المبشرين بالجنة وشيوخ بدر، وجبريل يتنزل بالوحي والملائكة ظهير...

إنه قانون الله ونواميسه التي لا تحابى أحدا حتى ولو كان مرسلا أو مقربا، ناهيك أن يكون عاصيا ومقصرا في حق الله.

فليس معنى أننا مؤمنون وأننا مقبلون على الله وأننا عائدون إلى الله سبحانه وتعالى أن نبطل عالم الأسباب، وان نبطل السنن الكونية التي أودعها الله في هذا الكون.

و الإنسان موجود ضمن دائرة مجموعة النظم التي تحكم هذا العالم، ولكن فقه هذه السنن وإحياءها وكيفية توظيفها والاستفادة منها وتسريع الحركة أو إبطاءها من خلال الاستفادة من هذه السنن، هي في متناول اختيارنا وانتخابنا وإرادتنا الحرة والإنسان كائن حر يمتلك قدرة الاختيار والانتخاب، ولكن ضمن هذه المجموعة من السنن وبهذا الشكل، فان المجتمع أيضا خاضع لمجموعة من السنن، كما أن عزة أو ذلة مجتمع ما قوته أو ضعفه تطوره أو ركوده خاضع لمجموعة من القوانين، على سبيل المثال فإن القرآن الكريم يقول بأن التقوى باعتبارها إحدى السنن سبب في النصر والصلاح سبب للوراثة، والإيمان والعمل الصالح يبعثان على الفوز العظيم، ويعد هذا سنة وقانونا قطعيا، فيقوم الإنسان في التعرف على هذا القانون وتطبيقه، بمعنى أن يقوم بإيجاد التقوى في النفس وفي المجتمع لكي تتحقق السلامة والأمن للفرد والمجتمع.

إن معرفة السنن ومعرفة كيفية الاستفادة منها تعد مسألة أساسية جدا للإنسان الحر الذي يمتلك قدرة الانتخاب والاختيار.

إن الاستكبار والتجبر والتكبر والاستعلاء التي نلاحظها كثيرا في تراثنا وثقافتنا الإسلامية الملوثة تعني ما تعنيه إنكار للقوانين والسنة الإلهية وعدم اعتبار الحق والقوانين الإلهية.

أي أن التصور القائل بأن الإنسان قادر على أن يتجاوز الحقائق تحت أقدامه وينكرها وأنه قادر على أن يظهر مخالفته للحق، إنما هو تصور باطل ومحكوم عليه بالهزيمة والانكسار ولذا يدعو الغزالي أن يكون المسلم أكثر فقها وإدراكا للسنن الإلهية من خصوم الإسلام وأعدائه، لأن الداعية المسلم والمفكر المسلم أكثر أهلية لتفقه هذه السنن لأنه يستضئ بمعرفتها بنور الله سبحانه وتعالى.

إشكالية البحث

يمثل فقه السنن الكونية محورا أساسيا في فكر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ودعوته الإصلاحية كما شغل حيزا واسعا في كتابات ومحاضرات الشيخ.

ولقد وضع الغزالي جملة قوانين سننية كآليات أساسية لنجاح الدعوة والإصلاح، وتبني الغزالي لفقه السنن الكونية ليس وليد أعوام قليلة مضت و إنما يعتبر امتدادا لما آمن به كثير من المصلحين والدعاة ممن تأثر بهم الغزالي ونسج نهج دعوته على منوالهم، و ظل الغزالي يحث الدعاة وكل العاملين في حقل الدعوة على التمسك بهذا الفقه من اجل الانطلاق والإقلاع الحضاري فالسؤال المطروح والإشكالية التي يطرحها هذا البحث ما مدى استفادة الدعاة والعاملين لدين الله تعالى بمختلف مدارسهم و مناهجهم و التي لا تبتعد كثيرا عن فكر الغزالي من فقه السنن الكونية لأنه بالنظر إلى النتائج التي حققتها الدعوة الإسلامية بين القرن العشرين و الواحد والعشرين لا تزال هزيلة بالنظر إلى ما تملكه هذه الدعوة من مؤثرات و مؤهلات، هذا من جهة و من جهة ضعف حجة الخصم، و من ثم تبرز مجموعة أسئلة يجيب عنها هذا البحث

1) ما مدى اقتناع الدعاة والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية يفقه السنن الكونية، و ما مدى استيعابهم لهذه السنن؟
2) هل حققت الدعوة الإسلامية شرائط النهوض وفق السنن الكونية؟
3) ما هي المرحلة التي يمكننا أن نضيف فيها المشروع بين الانطلاق وبلوغ الأهداف المسطرة؟

4) هل البعد عن العمل بفقه السنن الكونية مآله السقوط الحضاري وتقهقر المشروع النهضوي؟

هذه الأسئلة سيحاول البحث الإجابة عنها.

أسباب اختيار الموضوع

إن من أهم الدوافع لاختيار موضوع السنن الإلهية عند الشيخ محمد الغزالي وأثرها على الدعوة الإسلامية أمور عدة منها:

1- أن موضوع السنن الإلهية من الموضوعات المهمة نظرا لتأثيرها القوي والفاعل في حركة حياة الإنسان عموما والمسلم على وجه الخصوص، لأنها تتعلق بمنهج التفكير والرؤية الواضحة للكون وأسراره، وبدائع الصنائع الإلهية، ومن ثمرات هذا المنهج، توجيه العقل وتربيته على التفكير العلمي الصحيح، واستبعاد التفكير الخرافي المجانب للصواب البعيد عن المنطق، ويرى الغزالي أن منهج الله تعالى الذي وضعه للأمة الإسلامية كفيل بنهوض الأمة، فهو يوجه العقول ويبصرها ويوظف الطاقات ويفجرها لتسير الأمة في ظلال القران والسنة.

2- إن إهمال المسلمين بفقه واقعهم غائبين وعيا وإدراكا وإرهاصا وتوقعا لحاضرهم ومستقبلهم، حجب عنهم مواطن خللهم، ومكامن زللهم، وجعلهم يعجزون عن تغيير أوضاعهم الصعبة، وتصحيح أحوالهم المضطربة، وهذا ما يؤكد وبإلحاح ضرورة الوقوف على كل حيثيات الواقع الإسلامي، وفي ظل التخلف المريع الذي نعيشه في كل جوانب الحياة، لإدراك خطورة الوضع الذي تحيا في ظله كل بلدان العالم الإسلامي.

وفي مقدمة حيثيات خطورة هذا الوضع إغفال أهمية دراسة السنن الإلهية والإقبال **على** فهمها، في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحاضر، وهذا ما نبه إليه الغزالي في ثنايا حديثة عن السنن الإلهية في مؤلفاته.

3- من الأسباب التي تعيق الدعوة الإسلامية عن تحقيق أهدافها فهم الدين ذاته ومعرفة أبعاده السياسية و الاجتماعية و النفسية و التربوية... فما زال أكثر علماء الدعوة ودعاتها يخلطون بين مفهوم الدين ومفهوم التدين، فهم يدعون في الواقع إلى التدين لا إلى الدين بشموليته، ولهذا صاروا يولون كل اهتمامهم بتربية الأجيال وتعليمهم أمور دينهم دون وجود هدف أبعد من ذلك

يسعون لتحقيقه، وكان الأصل في فهم الدين أن يحقق التناسق والانسجام بين الكون والإنسان والحياة، وهو الذي يؤدي بالإنسان إلى الرجوع إلى الله تعالى...

وبهذا التوجه غير السليم تنكَّبت الدعوة الإسلامية المعاصرة عن السنن الإلهية بإهمال السنن الكونية والقوانين الطبيعية والاجتماعية التي ترتب عنها انهيار القيم الإيمانية.

4- حيوية الطرح وجديته في معالجة المواضيع المبثوثة والتي تتعلق بقضايا العصر وتفاعله الواضح مع قضايا الأمة ومشكلاتها فضلا عن أسلوبه المتسم بالخصوصية والثراء والتنوع...

5- إسهامات الغزالي و عطاءاته الفكرية والثقافية وطريقة تعاطيه مع الواقع المحيط به والرؤية التي عبر عنها فكريا واجتماعيا وسياسيا، ودوره المميز في انبعاث وتطور الفكر الإسلامي الحديث وتشكيل ملامحه العامة واتجاهاته الرئيسية.

6- اهتمامه بدراسة الآخر من خلال المدنية الغربية في نشوئها الحضاري و مع تعاملها مع السنن، خاصة في مجال البحث العلمي، وضبط دقة الأبحاث وتشجيع الدراسات لغرض تطبيقها على الحياة والطبيعة، ولاسيما في الحقول الصناعية والزراعية والصحية...

الدراسات السابقة

من خلال ما اطلعت عليه وما وقع في يدي من كتب تتعلق بهذا الموضوع فإن السنن الإلهية حظيت بإسهامات و اهتمامات و دراسات كثيرة، سيما في الفترة الأخيرة مع مطلع القرن الحادي والعشرين للميلاد.

و قد تنوعت هذه الكتابات في موضوع السنن الإلهية بصفة عامة.

فممن تكلم في السنن الإلهية من المتقدمين شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ) في فتاواه وألف في ذلك "رسالة في لفظ السنة في القرآن" نشرت ضمن كتاب "جامع الرسائل" وتلميذه "ابن القيم" (ت 751هـ).

عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ) في كتابه المشهور "المقدمة".

ومن المتأخرين: الشيخ "محمد عبده" (ت 1323هـ) وتلميذه محمد رشيد رضا في "تفسير المنار".

و من المفكرين الذين أسهموا في إثراء هذا العلم المفكر الجزائري مالك بن نبي "1393ه" الذي لفت الأنظار و العقول إلى قضية السنن في عديد من كتبه تحت عنوان "مشكلات الحضارة" ومنها "شروط النهضة"، و "مشكلة الأفكار"، و "مشكلة الثقافة"، و "ميلاد مجتمع"...

أما الدراسات الأكاديمية و التي استفدت منها:

1- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، تأليف الدكتور: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1419ه-1998م.

2- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، أصول وضوابط لمؤلفه مجدي محمد محمد عاشور، وهو رسالة علمية نال عنها مؤلفها درجة الدكتوراه في تفسير علوم القران، من كلية الآداب، جامعة عين شمس بالقاهرة، مصر —دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- ط1- 1427ه-2006م. في هذا الكتاب وقف المؤلف وقفات مع سنن الله في الأمم والأفراد من خلال النصوص القرآنية و السنة النبوية وقد رتب دراسته على مقدمة وقسمين و خاتمة. أما المقدمة فقد تناول فيها سبب اختيار الموضوع و المنهج...

وأما القسم الأول فقد خصصه للجانب النظري في دراسة السنن الإلهية ويضم أربعة فصول؛ الأول لتعريف السنة وأقسامها وحجيته، والثاني موارد السنن وضوابط استخراجها، أما الفصل الثالث فذكر خصائص السنن وفيه عرض ثلاثة خصائص تتسم بها السنن الإلهية في القرآن: -الثبات، -الاطراد، -العموم، وفي الفصل الرابع تناول أهمية دراسة السنن وفيه عرض لـ: 1-أهمية دراسة السنن والأثر السيئ في إغفالها، 2- فائدة دراسة السنن، 3-الشيخ محمد عبده وعلم السنن الإلهية. أما القسم الثاني فقد خصصه للجانب التطبيقي في دراسة السنن الإلهية وهو يضم تمهيدا وخمسة فصول؛ التمهيد وفيه عرضٌ للسنن من خلال القراءة المتدبرة للقرآن الكريم، الفصل الأول سنة الله في الأسباب والمسببات، والثاني سنة الله في الجزاء بجنس العمل، والثالث سنة الله في الابتلاء و الفتنة؛ والرابع سنة الله في النصر والتمكين، أما الفصل الخامس فقد تناول فيه سنة الله في هلاك الأمم، و أما الخاتمة فقد أوجز فيها الكاتب إلى أهمية دراسة السنن الإلهية مخاطبا العلماء والباحثين في الدراسات الإسلامية أن تتكاتف جهودهم في إبراز موضوع السنن الإلهية و دراسته توطئة لجعله علما مستقلا له مفهومه وضوابطه وغايته.

3- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان في العقيدة والسلوك، تأليف شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب –الدار العثمانية عمان مكتبة الرشد للنشر والتوزيع– عمان، الأردن– 1425هـ– 2004م. وفي هذه الدراسة تناول الكاتب السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك وقد كانت مصادره في هذه الدراسة جمع النصوص من الكتاب والسنة المتعلقة بكل سنة من السنن في موضع واحد ثم دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية مستعينا بكتب التفسير وشروح الحديث بحيث يستخلص من هذه الدراسة تقرير السنة وطبيعتها وأسبابها ونتائجها، وأثر الإيمان فيها والاعتبار في سلوك المؤمنين بحيث انتهت هذه الدراسة إلى أن أصبحت جانبا من جوانب التفسير الموضوعي لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد كانت خطته في هذه الرسالة أن قسمها إلى مقدمة وبابين وخاتمة؛ فقد بين فيها أهمية موضوع السنن الإلهية ودوافع الكتابة فيه كما تحدث فيها عن بعض الصعوبات التي واجهته في دراسته وذكر فيها منهج البحث. أما الباب الأول فموضوعه السنة الإلهية: مفهومها، وخصائصها وعلاقتها بالأسباب والقدر وقد تضمن هذا الباب ستة فصول: الفصل الأول التعريف بالسنة لغة واصطلاحا، والثاني أساليب القرآن الكريم في بيان وتقرير السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، والثالث خصائص السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وفيها ذكر لأهم الخصائص كالثبات والشمول والعموم والحكمة والعدل والواقعية، والرابع السنن الإلهية في الحياة الإنسانية والقدر، والخامس السنن في الحياة الإنسانية والأسباب، والسادس بين السنن الكونية والإنسانية. ثم الباب الثاني السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وقد تحدث فيه عن هذه السنن في ثمانية فصول: الأول سنة الله تعالى في الهداية والضلال، الثاني في سنة الله في الابتلاء والتمحيص، الثالث في سنة الله في الرخاء والشدة، والرابع سنة الله في التغيير وقد بين فيه أن التغيير في أحوال الأمم يقوم على أساس تغيير ما بنفوس أفرادها...، والخامس سنة الله في التدافع وفيه أوضح أن التدافع والصراع بين الناس أمر فطري وسنة جارية منذ خلق الله البرية، والسادس في سنة الله في النصر والهزيمة وفيه ذكر أسباب النصر وأسباب الهزيمة المعنوية والمادية والفصل السابع سنة الله في إظهار الحق و إزهاق الباطل، والثامن سنة الله في عقاب الأمم وفيه شرح الأسباب المستوجبة لذلك ثم

تحدث عن سنة الله في عقاب الأمة الإسلامية إذا حادت عن منهجه. وأخيرا الخاتمة التي تضمنت أهم نتائج البحث وبعض الاقتراحات.

4- سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم رسالة دكتوراه للباحث حسن بن صالح الحميد من نشر دار الفضيلة للنشر والتوزيع، عابدين، القاهرة، مصر، سنة 1432هـ، 2011م. في هذا الكتاب دراسة لـ"سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم" حيث وقف المؤلف فيه وقفات مع سنن الله في الأمم وذلك من خلال الآيات القرآنية، فتناول خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن في عرضها ثم تحدث عن مجالات سنن الله في الأمم كالحماية، والوقاية، والابتلاء والتمحيص وغيرها، ثم عرج إلى ذكر آثار رعاية هذه السنن وعواقب الإعراض عنها وختم ذلك بالحديث عن فقه هذه السنن وقد تناول ذلك في تمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

تضمن التمهيد أربعة مباحث احتوت على التعريف بعنوان الدراسة، وأهم الفروق بين سنن الله في الكون المادي وسننه في الحياة الإنسانية، وكذلك أهم الفروق بين سنن الله في الأمم وسننه في الأفراد، وتبيان أهمية مثل هذه الدراسة والجهود التي بذلت في هذا السبيل في القديم والحديث.

و تناول في الباب الأول خصائص سنن الله في الأمم ومنهج القرآن الكريم في عرضها وذلك من خلال فصلين جعل الأول منها حول سنن الله في الأمم كالثبات والاطراد والعموم والشمول. بينما جعل الفصل الثاني حول منهج القرآن في عرض السنن وتحدث في الباب الثاني عن مجالات سنن الله في الأمم: مجزأة في تمهيد وخمسة فصول فكان الفصل التمهيدي حول شمول السنن لكل مجالات الحياة، وأن الله قد أقام الحجة قبل أن يجعل هذه السنن تعمل فيه، أما الفصل الأول فجعله في الحماية والوقاية وتناول فيه بعض السنن بالتفصيل، أما الفصل الثاني فكان في مجال الابتلاء و التمحيص، وذكر فيه صور الابتلاء التي تقع عادة على الأمم، والفصل الثالث تكلم عن مجال التحذير والتهديد وشرح فيه ما هو متقرر من أن سنة الله في الأمم انه ينوع لهم في أساليب التحذير ويعضهم بالأمم السابقة، وخصص الفصل الرابع منها للحديث عن مجال الجزاء بشقيهه: جزاء المطيعين المؤمنين وجزاء المخالفين الكافرين وختم الباب بالفصل الخامس الذي جعله للحديث في مجال الكشف والإبانة وذلك بالحديث عن منهج القرآن في الكشف عن طبائع النفوس والإبانة عن المواقف والتصرفات و أنها منسجمة مع تلك الطبائع.

وفي الباب الثالث أثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها وذلك في فصلين: تحدث في الفصل الأول عن آثار رعاية السنن وذكر الآثار الحسنة والعواقب الحميدة التي تحققت للأمة الإسلامية في القرون الأولى وذكر أيضا الجوانب الحسنة عند الأمم الجاهلية المعاصرة، وأما الفصل الثاني فتحدث فيه عن عواقب الإعراض عن السنن، والواقع المؤسف للأمة الإسلامية في العصر الحاضر وكذلك الجوانب المظلمة في الحياة الجاهلية المعاصرة، وخصص الباب الرابع للحديث عن طريق الخلاص الذي ينبغي على الأمة أن تسلكه للنجاة في الدنيا والآخرة وتناول هذه الباب في ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول تحدث عن فقه السنن الإلهية وفي الثاني تحدث عن التفاعل مع السنن وتطبيقاتها، وختم هذا الباب بالفصل الثالث بالحديث عن ضمان استمرار عطاء الأمة والمحافظة على ثمار العلم النافع والعمل الصالح وكذلك استمرار قوتها وتماسكها. وخلص الباحث إلى ذكر نتائج البحث وبعض الجوانب المقترحة والجديرة بالعناية والاهتمام في بحث السنن الإلهية.

5- السنن الربانية في التصور الإسلامي تأليف راشد سعيد شهوان رئيس قسم الدعوة وأصول الدين، كلية أصول الدين، جامعة البلقاء التطبيقية –الأردن– رسالة نال عنها مؤلفها درجة الدكتوراه في الثقافة الإسلامية بتاريخ 1411/11/5هـ الموافق لـ1991م.

6- سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، تأليف الباحث، حسين شرفة أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في العلوم الإسلامية تخصص كتاب وسنة –السنة الجامعية 1424هـ–1425هـ/2003 م–2004م.

فضلا عن هذه الدراسات الأكاديمية في السنن الإلهية، استعنت ببعض المراجع التي تناولت هذا الموضوع، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر:

– مفهوم السنن الربانية دراسة في ضوء القرآن الكريم تأليف د/ رمضان خميس زكي مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر مكتبة الشروق الدولية القاهرة ط1، 1427 هـ، يناير2006م.

– أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق لمؤلفه د/ أحمد محمد كنعان كتاب الأمة–رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ط1،1990 م.

– التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القران تأليف محمد السيد محمد يوسف مدرس بقسم التفسير بكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، دار السلام للطبع والنشر والتوزيع والترجمة — القاهرة، مصر– ط3 - 1422هـ–2003م.

أما الكتابات التي تناولت فكر الشيخ محمد الغزالي، وتطرقت إلى جانب معين منه وقد تضمنت دراساتهم بعض الإشارات التي تتقاطع مع البحث الذي نحن بصدد إنجازه، أهم هذه المؤلفات:

1- الشيخ محمد الغزالي، مفكرا وداعية، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام الإسلامي تأليف الباحث إبراهيم نويري السنة الجامعية 1418–1419هـ الموافق 1998م–1999م.

2- الشيخ محمد الغزالي و منهجه الفقهي وهي مذكرة من إعداد عمر بن دحمان نوقشت في جامعة الحاج لخضر بباتنة، كلية العلوم الاجتماعية و الإسلامية، قسم الشريعة فرع الفقه و الأصول للسنة الجامعية 2000م–2001م.

3- الفكر السياسي عند الشيخ محمد الغزالي، وهي مذكرة من إعداد: خالد حباسي، نوقشت بجامعة الجزائر، كلية العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، فرع أصول الدين السنة الجامعية 2002م–2003م

4- الإمام محمد الغزالي جهوده في التفسير و علوم القران لمؤلفه د/رمضان خميس الغريب دار الحرم للتراث، القاهرة 1423 هـ–2003م

5- الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن تأليف الدكتور يوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط 1، 1421هـ–2001م.

6- الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية تأليف د/ محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1–1430هـ–2009م.

7- الشيخ محمد الغزالي، داعية النهضة الإسلامية، تأليف محمود عبده، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي —بيروت– الطبعة الأولى –2009م.

8- الوسطية والاعتدال في المنهج الدعوي عند الشيخ محمد الغزالي، تأليف نور الدين بن رابح أعزيز، دار الفكر دمشق 2010م.
9- الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه بقلم الدكتور عبد الحليم عويس دار القلم، دمشق ط1 1421هـ-2000م.

خطة البحث

رتبت هذه الدراسة على مقدمة و فصل تمهيدي و خمسة فصول:

الفصل التمهيدي و قسمته إلى ثلاثة مباحث؛ خصصت المبحث الأول فقد تعرضت فيه إلى السيرة الذاتية للشيخ محمد الغزالي مركزا على أهم المحطات في حياته، خاصة عمله الدعوي، و كذلك الحديث عن التكريمات التي حضي بها الإمام رحمه الله إلى وفاته.

أما المبحث الثاني الذي دار حول فكر للغزالي المميز مبينا مرتكزات المشروع الفكري و الدعوى عند محمد الغزالي و هي القرآن، والسنة و التاريخ و الثقافة الإسلامية و الثقافة الإنسانية و الواقع. ثم كيف يكون العقل والإسلام هما النور الذي لا يختلف و يشمل عناصر الفكر طيلة مساره الدعوي و الفكري. ثم يأتي المبحث الثالث لتعريف السنة لغة واصطلاحا، ومدلولها عند المحدثين والأصوليين والفقهاء وعلماء التفسير، و عند الأقدمين والكتاب المعاصرين.ثم تطرقت إلى خصائص السنن الإلهية وهي الربانية والثبات والعموم والشمول والتوازن و الاتساق، و ذكرنا السنن و أهميتها عند الغزالي إذ تناولت: الحاجة لفهم السنن القرآنية، حاجة المسلمين لفهم السنن والتعامل معها وحاجة المفكر المسلم لإدراك السنن.

الفصل الأول الذي يتناول مفهوم سنة التدافع، و قد توزع على ثلاثة مباحث. أما المبحث الأول فقد تطرق إلى سنة التدافع تعريفا واصطلاحا و مدلوله في القرآن الكريم، كما تناول دعوة الغزالي لامتلاك مصادر القوة و الانتفاع من خبرات و تجارب الآخرين و في المبحث الثاني دعوته إلى ضرورة الاقتباس من إنجازات الحضارة الغربية و لاحتكاك بها لأنها صاحبة الريادة و الصدارة في شتى المجالات العلمية و المعرفية و التفتح عليها بعقلانية و بحذر شديد من سلبياتها. أما المبحث الثالث يتطرق إلى أهم مصدر لتمكين الأمة الإسلامية وبقائها مستمرة و هو الإسلام و ينضوي تحت هذا العنصر الأساس دعوة الغزالي إلى مراجعة تراثنا الإسلامي -خاصة تفكيرنا الديني- وتمحيصه و تنقيته مم الشوائب و

اللوثات التي أفسدته و شوهته، كما تناول هذا المبحث الحوار البناء الذي يفضي إلى إزالة الكثير من الخلافات و الصراعات و لا يكون الحوار بناءا إلا في كنف الحرية و مواجهة أي استبداد من شأنه أن يعيق كل تطور ونهوضٍ.

و يأتي بعد ذلك الفصل الثاني و فيه تناولت سنن التداول و الأجل و قانون السببية و قد أفردت لكل سنة مبحثا. ففي المبحث الأول تناولت سنة التداول عند الغزالي و دعوته للاستفادة من توجيهات القرآن الكريم من خلال القصص القرآني و دراسة التاريخ الإنساني فهما و وعيا مع الاستفادة بعبره و بالتجديد دراسة التاريخ الإسلامي بعمق و استيعاب نظرا لخصوصيته هذا في المطلب الأول، أما المطلب الثاني تطرقت فيه إلى أثر سنة التداول في تبصير المسلمين و ذلك باستقراء التاريخ من خلال الحضارات السابقة و جريان سنة التداول عليها و أن الأمة الإسلامية ليست استثناءا. و في المبحث الثاني تناولت سنة الأجل في ثلاثة مطالب، أما المطلب الأول تحدثت فيه عن سنة الأجل والدعوة وقد تفرع تحت هذا المطلب فروع سبعة تضمنت سنة الأجل لغة واصطلاحا ثم التكامل بين الأجل والتدرج، و الدعوة بين الاستعجال وسنة الأجل، و أن الصبر تدرج في سنة الأجل ثم ختمت بأسباب داخلية وخارجية أذنت بسنن الفشل و في المطلب الثاني تناولت تفعيل الدعوة لبعث الأمة من خلال سنة الأجل و في المطلب الثالث تناولت البذور النبوية للحضارة الإسلامية و ينضوي تحت هذا المطلب الأفكار والتغيير و التدرج التربوي و شروط النهضة. و في المبحث الثالث تطرقت لقانون السببية و قد اشتمل على مطلبين ففي المطلب الأول دعوة لاحترام قانون السببية وذلك باحترام الأسباب و المسببات، في المطلب الثاني تحدثت عن أسباب تخلف العالم الإسلامي ذلك عند تخليهم عن قانون السببية و عن الأخذ بالأسباب و إذا أرادت الأمة النهوض عليها الاقتداء بالمسلمين الأوائل و الاستفادة من التجارب السابقة.

وتناولت في الفصل الثالث سنتا التدرج و التغيير في مبحثين. ففي المبحث الأول تناولت سنة التدرج و قسمتها إلى مطلبين، ففي المطلب الأول ذكرت أن سنة التدرج سنة جارية على جميع المخلوقات و أنها سنة مطردة و من ثمة يجب مراعاتها في كل مجالات الحياة خاصة الدعوة، أما المطلب الثاني فقد تركز على إحياء هذه السنة و تفعيلها في حياة المجتمع و ذلك بنقلها من النظر إلى التطبيق. أما المبحث الثاني فقد تطرقت فيه لسنة التغيير و قد اشتمل على أربعة مطالب تطرقت في الأول إلى سنة

التغيير لغة واصطلاحا و دلالتها اللفظية في القرآن الكريم ثم أشرت إلى مدلول هذه السنة عند الغزالي، أما المطلب الثاني تناول الدعوة والداعية و سنة التغيير و في المطلب الثالث تناولت صلاح أمر الدين وارتباطه بصلاح أمور الدنيا، وفي المطلب الأخير التحذير من عدم مراعاة سنة التغيير و ما ينتج عنه من تعصب مذهبي و خلافات فقهية في الفروع.

الفصل الرابع و فيه تناولت سنة الله في الاستبداد لأن أهم مظهر لتخلف العالم الإسلامي في نظر الغزالي هو الفساد السياسي الذي أصبح ميزة واضحة في أغلب الأقطار العربية و الإسلامية ونتيجة هذا الفساد السياسي استبداد الحكام والانفراد بالسلطة الذي يورث الطغيان والتجبر والإرهاب. ومن ثم ركز الغزالي على ظاهرة الاستبداد لأنها المظهر الرئيسي للتخلف الحضاري، وما يستتبعه من فساد سياسي و تخلف اقتصادي وترد اجتماعي وتدهور ثقافي و قد توزع هذا الفصل على مبحثين. أما المبحث الأول وقد قسمته إلى خمسة مطالب تناولت في الأول منها كرامة الإنسان في ظل الحرية، أما المطالب الباقية فهي ذكر لحقب تاريخية مرت بها الأمة الإسلامية في ظل دول تفاوتت فيها درجات الحكم بين الحرية والاستبداد، و قد كانت أفضل حقبة تاريخية في حياة المسلمين الحكم الراشد، ثم بدأ الانكماش و التضييق على الحريات في عهد الدولة الأموية فالعباسية فالأندلسية فالعثمانية. أما المبحث الثاني تناول الاستبداد في العصر الحديث، وكيف أن الاستبداد الحديث أخطر من الاستبداد القديم، بكونه صنيعة الاستعمار، كما تناولت في هذا المبحث كيفية مجابهة هذا الاستبداد و ذلك بتصحيح مفاهيم ملتبسة كمفهوم السمع والطاعة و متى يكون الخروج عن الحاكم و مفهوم مبدأ الشورى.

و في الأخير يأتي الفصل الخامس الذي يتناول سنة التسخير و قد قسمته إلى مبحثين. ففي المبحث الأول بدأنا بالمطلب الأول تناولت فقه التسخير بدءا بالمفاهيم ثم أقسام التسخير و أنواعه و أهميته عند الغزالي، ثم المطلب الثاني وظيفة العمل الإسلامي المعاصر و ذلك بالعودة إلى المنهج القرآني ونبذ كل ما يفرق وحدة الأمة الإسلامية كنبذ التعصب و دعوته إلى التقريب بين المذاهب، أما المطلب الثالث وفيه تناول الغزالي عنصر الوقت و تسخيره و توظيفه التوظيف الحسن في حياة الأمة لأن إهدار الوقت هو إهدار لمقدرات الأمة و هذا ما يتضح في المطلب الرابع. أما المبحث الثاني فقد اشتمل على ثلاثة مطالب، في المطلب الأول تناولت التكامل بين السنن التشريعية والسنن الكونية و

أن الجهل بأسرار الكون جهل بسننه و ينبغي أن يكون هناك توازن بين المطالب المادية والمعنوية و في المطلب الثاني لتحقيق هذا التوازن لا بد من نظرة شمولية وشاملة للدعوة بكل أبعادها و في المطلب الثالث رؤية الغزالي إلى كيفية النهوض بالأمة و ذلك بالاستفادة من التفوق الحضاري للأمم الأخرى و التحذير من الانشغال بالقضايا الهامشية وترشيد الشباب المسلم و توجيهه إلى ما هو أفيد و أنفع.
و في ختام هذا البحث، تأتي الخاتمة التي ضمنتها جملة النتائج و التوصيات.

منهج البحث

الباحث مطالب بتحديد المنهج الذي يتلاءم مع الموضوع المبحوث، وقد كان المنهج الملائم لهذا الموضوع منهجا مركبا، أو كما يسميه البعض، المنهج المتعدد الجوانب، والذي يجمع بين:

1- المنهج الاستقرائي التحليلي (الوصفي) الذي يعتمد على تتبع الجزئيات والكليات المشتركة بين القضايا والمسائل المطروحة، أي الوقوف على المواقع التي ضمَّنها الغزالي حديثه عن السنن الإلهية من الفهم إلى التسخير، ومن الإدراك إلى التوظيف.
2- المنهج التاريخي، وذلك عند ارتياد حقائق التاريخ وبعض تفاصيله من وقائع وأحداث، ومواقف، والغزالي كثيرا ما يستدعي هده الأحداث التاريخية، ويبني عليها مقارنات، ويستخلص منها العبر والدروس واستحضاره للتاريخ ليس تسجيلا لحياة أفراد، ولا هو تدوينا لمناقب أشخاص ولا هو تخليدا لما قاموا به من مآثر وبطولات، وإنما هو حركة شعوب ومجتمعات وما حققته من إيجابيات، وما تردَّت فيه من سلبيات، وما نشأت فيه من ظواهر اجتماعية متناقضة، ومتضاربة، ومتصارعة، وما حققته من تطور ورقي و ما تعرضت له من انحطاط وجمود واندثار كلها مرتبط بقانون الأسباب والمسببات ومن ثم كان المنهج المقارن والموازن الذي يستعرض الحقائق والنماذج والأنساق والأشكال.

أهداف البحث

تهدف هذه الدراسة إلى رصد و بلورة جملة من السنن المبثوثة التي تناولها الغزالي في كتبه، ومؤلفاته ومحاضراته، ومقالاته، ومحاولة ترتيبها وفق الأهمية مع العلم أن الغزالي، وهو يتحدث عن هذه

السنن يشرحها أحيانا ويشير إليها تارة في السياق الذي يعالج فيه موضوعا ما من الموضوعات يقتضيه هذه السياق.

الاهتمام بدراسة السنن و فقهها من الأمور المهمة جدا، والواجبة ديانة ومعرفتها معرفة لحقائق الدين ومقاصده، و الواقع أن العلم بالسنن الإلهية قد شغل من القرآن الكريم مساحة واسعة، وحظي باهتمام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وصحابته من بعده.

إن الهدف من رصد هذه السنن وذكرها عند الغزالي إحياء لها ومن ثم إحياء لفقه الدعوة، ولا يتحقق هذا الإحياء إلا بنماذج من الدعاة الذين يستطيعون توظيفها وتسخيرها في واقع الأمة.

الغزالي وهو يتتبع أمراض المسلمين وعللهم، وأسباب وهنهم وتخليهم عن السنن الإلهية التي هي مصدر قوتهم وعزتهم وسيادتهم.

إن تخليهم عن الإسلام عقيدة وشريعة، ونظاما للحياة، جعل الدين الحق يضيع من واقعهم، ومن مجتمعهم، فضاع السلوك والتعامل الحسن مع بعضهم البعض. فدبت الفرقة والتنازع في جسم الأمة، وحل بين أبنائها الخلاف،وتأصل في واقعها الضعف والوهن، فاجترأ الأعداء عليها.

فكل ما يحل بالمجتمعات من تقدم أو تأخر، وما يحل بالحضارات من نهوض أو سقوط كل ذلك يقع وفق قواعد وسنن، ذكر القرآن منها الكثير من أجل أن يعتبر المسلمون فلا يسقطون في الفخ الذي سقط فيه من سبقهم ، لذلك كان أكثر من ثلث القرآن يتحدث عن الأمم وما جرى لها، وهو يكرر دائما ﴿...فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ سورة الحشر الآية 2، وهي سنة باقية ببقاء المجتمعات في هذا الكون.

الإسهام في عملية بناء عالم المسلمين الثقافي والفكري، إذ لا يخفى على النابهين العاقلين دور مثل هذه الدراسات عن قادة الفكر والدعوة والتجديد في دفع وصقل مشروعات الإصلاح والتغيير، والتأسيس المعرفي، والتي تسلك في معظمها ضمن سياق المحافظة والبلورة العامة لقسمات ومعالم الهوية الفكرية والثقافية والروحية والحضارية للأمة الإسلامية.

– الوقوف عند جملة الأسباب والعوامل التي كانت وراء تخلف العالم الإسلامي وهي في معظمها —من وجهة نظر الغزالي– إغفال السنن الإلهية وإهمالها وما ترتب عنه من جمود وتخلف وعجز وتبعية، وعدم مسايرة ركب التقدم العلمي والحضاري، ويعتقد أن نهضة الأمم لا تقوم على المصادفة والعشوائية،

وإنما هي نتيجة الأخذ بالقوانين والسنن الإلهية التي بثها الله في الكون، ونظم بها المجتمعات البشرية والقرآن الكريم جاء ليحفزنا للكشف عنها، ومعرفة السنن التي تحكمها.

مصطلحات البحث

من الضروري وقبل الخوض في غمار أي بحث، وضع تعريفات محددة لأهم المصطلحات التي يتركز عليها موضوع البحث، وأهم هذه المصطلحات في هذا البحث هي: فقه، السنن، الدعوة الإسلامية و الفكر.

تعريف الفقه لغة

المعنى اللغوي: العلم بالشيء والفهم له، نحو فقه يفقه فقها وفقاهة([1]) أي فهم –مطلقا– سواء كان الفهم دقيقا أم سطحيا([2])، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُول...﴾([3]) سورة هود الآية 91، وقوله: ﴿...فَمَا لِهَؤُلاء القَوْم لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾([4]) سورة النساء الآية 78، أي لا يفقهون والفقه: الفطنة والحذق([5]).

الفقه من فَقِهَ يفقه فقهاً فهو فقيه، قال ابن فارس : الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح يدلّ على إدراك الشيء والعلم به([6]). و هو ثلاثيٌّ، فَقَه بفتح القاف، وفَقِه بكسر القاف، وفَقُه بضمّ القاف، بالكسر يأتي على معنى الفهم، ففقِه إذا فهم، وبالضمّ فقُه إذا صار الفقه له سجية، أما فقَه بالفتح فأوّل الإدراك والعلم.والفقه في اللغة يطلق على أربعة معانٍ:

الإطلاق الأول: مطلق الفهم، تقول العرب: أوتي فلانٌ فقهاً، أي فهما. وفي القرآن: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ سورة طه 27-28. ومن القرآن بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ

---

[1]) ابن منظور – لسان العرب – مادة "فقه". وأنظر الكفوي – الكليات – مادة "فقه".

[2]) محمد حسن هيتو – الوجيز في أصول التشريع الإسلامي – مؤسسة الرسالة ناشرون – ط 1 – 2006 – ص 26، وانظر وهبة الزحيلي – الفقه الإسلامي وأدلته – دار الفكر – دمشق، سوريا – ج 1 – ط 4 – 1997 – ص 29.

[3]) ابن منظور: لسان العرب مادة "فقه".

[4]) وهبة الزحيلي – الفقه الإسلامي وأدلته – ج 1 – المرجع السابق – ص 30.

[5]) الكفوى – الكليات، ماده "فقه" – المرجع السابق.

[6]) أحمد بن الفارس بن زكرياء – معجم مقاييس اللغة – ط 2 – جـ 4 – تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون – ج 3 – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – 1389هـ، 1969م – ص 442.

الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ النساء 78. و في الحديث دعاء النبي صلى الله عليه و سلم لابن عباس رضي الله عنهما: {اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل}([1]). وهذا الإطلاق اختاره الباجي والآمدي وعلي بن عقيل والشوكاني.

الإطلاق الثاني: على فهم الأشياء الدقيقة خاصة: فقولهم فهمت معنى كلامك أي ما دقّ وخفي على العامة، ولذلك لا يقال: فقهت أن السماء فوقنا وأن الأرض تحتنا، وأن الماء سائل وأن التراب يابس.

وفي القرآن: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ هود 91. و في الحديث الشريف: {من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين}([2])، ومن ذلك أن سليمان عليه السلام نزل على نبطية بالعراق فقال لها: هل هنا مكان نظيف أصلّي فيه؟ فقالت له: طهّر قلبك وصلّ حيث شئت، فقال سلمان: فقهِت، أي فهمت كلامها وفطنت للحق([3]) وهذا الإطلاق هو اختيار أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله وبعض الحنفية.

الإطلاق الثالث على العلم: فالعرب حين تقول :فقيه العرب، يريدون عالمها، وفي القرآن: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ سورة التوبة الآية 122، أي ليكونوا علماء([4])، قال الطبري: "يتعلمون ما أنزل الله على نبيّه"([5])، وقال ابن كثير: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم"([6])، وهذا اختيار ابن فارس وسيبويه من أهل اللغة وإمام الحرمين والكيا الهرّاسي وأبي يعلى في العُدّة.

---

[1]). أخرجه البخاري في صحيحه برقم 143 – جـ 1 – ص 66. وابن حبان برقم 7055 - جـ 15 – ص 531، والحكام في المستدرك برقم 6280 – جـ 3 – ص 615 – و ليس في لفظ البخاري (وعلمه التأويل).

[2]) البخاري برقم 71 جـ 1 – ص 39. ومسلم برقم 1037 – جـ 2 – ص 718 – وغيرهما.

[3]) لسان العرب – لابن منظور – جـ 13 – ص 522.

[4]) تهذيب اللغة – جـ 5 – ص 263.

[5]) تفسير الطبري.

[6]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير – جـ 2 – .

والإطلاق الرابع على فهم غرض المتكلم من كلامه، وقد قال به أبو الحسين البصري والإمام الرازي رحمهم الله تعالى. فكل المعاني و الإطلاقات دائرة على الفهم والعلم.

تعريف الفقه اصطلاحا

لقد مرّ مصطلح الفقه بمراحل حتى استقرّ معناه لدى الفقهاء.

عرّف بعض الأصوليين الفقه بالاعتبار: جاعلاً الفقه في فقه جميع الأحكام، فنجد أبا حنيفة رحمه الله يعرف الفقه بأنه: "معرفة النفس ما لها وما عليها"([1]). وهذا تعريف عام، يشمل كل الأحكام الاعتقادية، والخلقية والعملية، وهو تعريف مناسب لعصر أبي حنيفة، إذ لم تكن العلوم قد انفصلت عن بعضها بعد([2]). ونجد الجويني والشيرازي يعرفان الفقه بأنه: "معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد"([3]). والتعريفان يجعلان الفقه شاملاً لجميع الأحكام الشرعية سواء أكانت أحكام الاعتقادات أم كانت أحكام الأخلاق والوجدانيات، أم كانت الأحكام العملية.

بينما هناك اتجاه آخر يذهب إلى جعل الفقه قي فقه الأحكام العملية خاصة، فاشتهر تعريفهم للفقه بأنه: "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية"([4]).

تعريف السنة لغة

سن الشيء: صوره، وسن الطريقة: سار فيها([5])، و سنن أخذ بالسنة وعمل بها وهذا مسن السيل مجراه و استنت الطرق: وضحت، واستن به الهوى: ذهب به كل مذهب([6]).

---

[1]) علاء الدين البخاري - كشف الأسرار - جـ 1 - ص 11. و عبيد الله بن مسعود المحبوبي - التوضيح في حلّ غوامض التنقيح - جـ 1 – ص 16. و لزركشي - البحر المحيط في أصول الفقه – جـ 1 – ص 16.

[2]) علاء الدين البخاري – كشف الأسرار – جـ 1 – ص 11.

[3]) اللمع في أصول الفقه – للشيرازي – ص 6 – و الورقات للجويني – ص 7.

[4]) الإبهاج شرح المنهاج – جـ 1 – ص 28. و التمهيد للأسنوي – ص 50. و قواعد الفقه للبركتي – ص 414. و نهاية المحتاج للرملي – جـ 1 – ص 31. و شرح المنهج لزكريا الأنصاري – جـ 1 – ص 21.

[5]) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين - القاموس المحيط – تحقيق مكتب التراث – ج 4 - ط 3 - مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان - 1395هـ - ص 238-239.

[6]) جار الله الزمخشري – أساس البلاغة – ط 1 – القاهرة – 1372هـ، 1953م – ص 311.

والسنة: الطريقة، والسيرة حميدة كانت أو ذميمة، ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، من سن في الإسلام سنة سئة فعمل بها بعده، كتب له مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء([1]).

ويرى صاحب المقاييس أن "سن" أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء و إطراده في سهولة ويسر([2])، والأصل فيه قولهم سننت الماء على وجهي أسنه سنا إذا أرسلته إرسالا([3]).

السنة اصطلاحا

الأصل في فهم المعاني هو الرجوع إلى اللغة ،ولكنها قد تخرج بالاستعمال عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر، وبمجيء الإسلام، وازدهار العلوم الإسلامية التي قامت حول القرآن نظر العلماء إلى لفظه "سنة" كمصطلح من خلال اختصاصهم و اهتمامهم، ولذلك تنوع معناه وفقا للعلم الذي تندرج تحته من العلوم الشرعية، فهي في اصطلاح المحدثين غيرها عند علماء الفقه وعلماء التفسير.

وسيأتي تفصيل شامل في الفصل التمهيدي.

تعريف الدعوة الإسلامية

تعريف الدعوة لغة

الدعوة: الطلب، يقال دعا بالشيء: طلب إحضاره، ودعا إلى الشيء: حثه على قصده، يقال دعاه إلى القتال، ودعاه إلى الصلاة، ودعاه إلى الدين، وإلى المذهب: حثه على اعتقاده وساقه إليه"([1])، و هناك معاني أخرى للدعوة منها:

---

[1]) أبو مسلم بن الحجاج النيسابوري – صحيح مسلم – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – ج 2 – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ص 705.

[2]) أحمد بن الفارس بن زكرياء – معجم مقاييس اللغة – ج 4 – مصدر سابق – ص 16.

[3]) نفس المصدر – نفس الصفحة.

التعريف الاصطلاحي للدعوة

يمكن تعريفها بأنها: تبليغ الإسلام إلى الناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة"([2]). كما يتضمن معنى الدعوة إلى الإسلام طلب الناس وسوقهم إليه، وحثهم على الأخذ به، ويعرفها محمد أبو الفتح البيانوني في كتابه "المدخل إلى علم الدعوة" بأنه: "مجموعة القواعد والأصول التي يتوصل بها إلى تبليغ الإسلام للناس وتعليمه وتطبيقه"([3]).

كما يعرفها محمد زكي الدين محمد قاسم: "بمعنى الدين، إذا أطلقت لا يراد منها إلا الإسلام بتعاليمه... و التعريف العلمي للدعوة، إنما يعني –أنها العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة، الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة و شريعة و أخلاق"([4]).

ومن أهم المعالجات لتعبير الدعوة، يبدأ الشيخ محمد الغزالي كتابه "مع الله" –دراسة في الدعوة والدعاة– بعنان التعريف بالدعوة فيعرض صورا لاهتمامات الناس الدنيوية «ناسين أن الله سبحانه وتعالى خلقهم لحكمة، ويحذرهم مما انخدعوا به، ويصل إلى القول بان الله سبحانه وتعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين، ليعرفوا جماهير البشرية، ثم يمضي إلى القول بأنه لما كان البشر خاطئين بطبيعتهم وكانت أهوائهم تغلب على أحوالهم، فان نقلهم إلى الصواب، وتثبيتهم عليه، يحتاج إلى جهد متصل ودعوة مستمرة».

ثم يقول: «أن الدعوة إلى الله ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة، أنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق لإرسال التي تجمعهم راشدين»، ويشرح مفهومه لمعنى الدعوة إلى الله بتصوره للمفهوم التاريخي لإرسال الله تبارك وتعالى للرسل إلى الأمم المتعاقبة، ويشرح سمات الدعوة إلى الله في الوضوح والصدق مخاطبة العقل، بل العقل السليم، وبهذا نرى أن مفهوم الدعوة كما رآه الغزالي يعتمد على النظرة التاريخية

---

[1]) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين – القاموس المحيط – مصدر سابق – فصل اللام – باب الدال – ص104.

[2]) محمد أبو الفتوح البيانوني – المدخل إلى علم الدعوة – ط 3 – مؤسسة الرسالة – القاهرة – 1395هـ – ص 14.

[3]) محمد أبو الفتوح البيانوني – المدخل إلى علم الدعوة – المرجع السابق – ص 18.

[4]) محمد زكي الدين محمد قاسم – الدعوة إلى الله فقها ومنهجا – جـ 1 – ط 2 – دار الصحوة للطباعة والنشر والتوزيع – مصر 1413هـ، 1993م – ص 16.

الشاملة لجمهور الرسل في التوحيد، ثم يعتمد على سمات الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد بصفة عامة»([1]).

وهناك من يعرف الدعوة الإسلامية بأنها بيان أصول هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده وتبليغ تعاليمه لهداية البشر لما في مصلحتهم وصلاحهم.

ثم يزيد توضيحا لهذا التعريف قائلا: «البيان الواضح الذي يجلي مفهوم هذا الدين الذي جاء مناسبا لطبيعة الإنسان متجاوبا مع فطرته السليمة.
ثم التبليغ الواعي بجوهر هذا الدين، وأهدافه السامية، باعتباره رسالة عالمية حضارية تحترم العقل، وتحض على العلم، وتنظر إليه باعتباره فرضا، وتسعى إلى البناء والتعمير»([2]).

و ارتباط الدعوة بالإسلام إشارة إلى بناء مجتمع إسلامي، قيام حكم إسلامي راشد، واستئناف حيات صحيحة لا بد أن تسبقه "حركة إسلامية" وحركة واعية شاملة، حركة تمهد له، وتدعو إليه، و تعد له رجاله وأنصاره([3]).

تعريف الفكر لغة و اصطلاحا

قبل أن نتطرق إلى مفهوم الفكر الإسلامي و مفهوم الفكر عند الغزالي لا بد من التعرض إلى مفهوم الفكر لغة و اصطلاحا.

تعريف الفكر لغة

الفكر في مفهومه العام هو الحكم على الواقع وهو بشكل خاص عملية نقل الواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ ووجود معلومات سابقة به يفسر بواسطتها الواقع.

[1]) محمد سيد محمد – المسؤولية الإعلامية في الإسلام – ط 1 – مكتبة الخانجي – القاهرة - 1403هـ، 1983م - ص 46-47.
[2]) أحمد عرفات القاضي – تجديد الخطاب الديني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 2008م – ص 210.
[3]) محمد الغزالي – ركائز الإيمان بين العقل والقلب – ط 6 – دار الاعتصام – القاهرة - 1399هـ، 1979م – ص 21.

جاء في مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي في مادة (ف ك ر) – (التفكر) التأمل، والاسم (الفكر) و(الفِكرة) والمصدر (الفَكرُ) بالفتح و(أفْكَر) في الشيء و(فكّر) فيه بالتشديد و(تفكّر) فيه بمعنىً. ورجل (فِكّير) على وزن سِكّيت كثير التفكر(1).

كما عرّفه ابن منظور في لسان العرب الفكر بقوله: الفكر، والفكر: أعمال الخاطر في الشيء(...) والتفكر اسم التفكير، ومنهم من قال فكري وقال الجوهري: التفكر: التأمل([2]).

وعرفه الفيروز آبادي بقوله: الفكر، بالكسر ويفتح، أعمال انظر في الشيء كالفكرة([3]).

المعنى الاصطلاحي للفكر

لقد اهتم علماؤنا بتفسير الفكر وتعريفه وبيان حقيقته ومعناه أيام ازدهار الفكر الإسلامي وبداية تدوين العلوم الإسلامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين. فقد تناوله علماء التصوف بالبيان والتحديد كما عرفه علماء اللغة وعلماء الكلام والفلاسفة والأصوليون. فعند كل هؤلاء وفي موسوعات هذه العلوم نجد كلاما كثيرا عن الفكر ومرادفاته وشروطه وتنوعه، ويخرج الدكتور طه جابر بتعريف اصطلاحي للفكر من تلك المصادر جميعها بقوله: "بأن الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أم روحا أم ذهنا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أم الوصول إلى الأحكام أم النسب بين الأشياء"([4]).

الفكر في المعاجم الحديثة والمعاصرة

[1]) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – مختار الصحاح – مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – طبعة جديدة – 1415هـ، 1995م – ص 325.

[2]) ابن منظور – لسان العرب – مادة فكر – طبعة دار المعارف.

[3]) الفيروز آبادي – القاموس المحيط – مادة فكر.

[4]) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – مختار الصحاح – مرجع سابق – ص 15.

يقول جميل صليبا: "وجملة القول أن الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أو يطلق على المعقولات نفسها، فإذا أطلق على فعل النفس دل على حركتها الذاتية، وهي النظر والتأمل، وإذا أطلق على المعقولات دل على المفهوم الذي تفكر فيه النفس"([1]).

و عرفه صاحب (المعجم الوسيط) بقوله: "الفكر إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول والفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما"([2]).

أما صاحب الموسوعة الفلسفية فقد ذكر عدة تعريفات منها: «الفكر هو النتاج الأعلى للدماغ كمادة ذات تنظيم عضوي خاص، وهو العملية الايجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي في مفاهيم وأحكام ونظريات... هو الشرط الجوهري لأي نشاط آخر، طالما أن هذا النشاط هو نتيجته المجملة والمتمثلة، والكلام هو صورة الفكر»([3]).

الفكر الإسلامي

يعتبر المحدد (الإسلامي) هنا الضابط الأساسي الذي، بناء عليه، يتحدد معنى مفهوم الفكر الإسلامي؛ إذ الإسلامية هي الإطار الذي به وعليه وحوله تدور مجموع تأملات ونظرات المفكرين المنتمين إلى المذهبية الإسلامية؛ خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هوية الفكر، أي فكر، وخصوصيته، لا يتم التوصل إليها إلا من خلال النظر في العلاقة المتينة الموجودة بين هذا الفكر والمرجعية التي ينتمي إليها، والتي تمنحه الرؤية وتحدد له نوع المنهج، بل وحتى الأهداف.

الفكر عند محمد الغزالي

[1]) جميل صليبا – المعجم الفلسفي – ج 2 – دار الكتاب اللبناني، بيروت – 1982م – ص 156.

[2]) إبراهيم أنيس وآخرون – المعجم الفلسفي – ج 1 – ط 2– مجمع اللغة العربية – مصر.

[3]) نخبة من الباحثين السوفيات – الموسوعة الفلسفية – ترجمة سمير كرم – الطبعة 6 – دار الطليعة – بيروت – 1987 – ص 333.

أما قسمات فكر الغزالي تتضح من خلال تعريفه بنفسه أن له مدرسة خاصة يعتبر نفسه رائدا فيها وممهدا لها فيقول في موسوعة خطبه: «المدرسة التي اعتبر نفسي رائدا فيها أو ممهدا لها تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب و السنة»([1]).

فالغزالي لم ينتم إلى مدرسة فكرية بعينها، وإنما استفاد من كل المدارس الفكرية، فهو كما ذكر محمد عمارة أنه «يكاد يتخصص في كل تراث الإسلام ويستدعي من ثمرات إبداع المدارس الفكرية، المختلفة كل اللبنات الصالحة للعطاء في مواجهة ما نواجه من تحديات»([2]).

خلاصة

فالفكر الإسلامي يضم كل ما أنتجه العقل الإسلامي في كل المجالات وبخصوص كل الإشكاليات والقضايا المرتبطة بالوجود والطبيعة والعلاقات والحياة...، ولكن من وجهة إسلامية، أي خاضعة للمنهجية الإسلامية التي حددتها الشريعة الإسلامية ابتداء، وبذلك يتم إخراج كل الفلسفات والأفكار والمفهوم التي تعتمد خلفية عقدية أو فلسفية غير إسلامية([3]).

صعوبات البحث

نأتي لذكر الصعوبات التي اعترضت سير هذا البحث وتعتبر نسبية نظرا لكون موضوع السنن الإلهية لم يفرد لها قسم معين أو كتاب معين أو مباحث معينة و إنما جاءت في سياقات متنوعة مبثوثة

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي – الموقع الفكري والمعارك الفكرية – ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – الإسكندرية – القاهرة – 1430هـ، 2009م – ص 96.

[2]) حوار مع الشيخ محمد الغزالي – إعداد دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع – القاهرة – 1996 – ص 58.

[3]) أنظر عبد العزيز انميرات: 1 مفهوم الفكر الإسلامي، مقاربة تأصيلية – ملحق الفكر الإسلامي لجريدة العلم -1997/01/10- السنة 6. 2 مفهوم الفكر الإسلامي، مساهمة نقدية – نفس المرجع – ع 23/68 – مارس 1993.

في معظم مؤلفات الشيخ محمد الغزالي إن لم أقل كلها، وهذا يحتاج إلى قراءة واسعة ومنظمة و متأنية لتراث الشيخ الغزالي الضخم لجميع هذه السنن ووضعها في نسق منظم.

قلة وندرة ما كتب عن الشيخ الغزالي خاصة في مجال السنن الإلهية و إن وجدت جاءت في شكل إشارات لا ترمي إلى البحث والتحليل والتعمق.

و من الصعوبات التي وقفت أمامنا هي أننا لم نجد كتابات فقهية علمية درست هذا الموضوع و جمعت المتفرق منه في شكل أفكار متناسقة متكاملة، و من الصعوبات التي أرقتني أن الشيخ محمد الغزالي في تناوله للسنن الإلهية بان بعضها لا يحظى بالدراسة والتحليل و إنما تأتي في شكل «مباحث» مدعومة بنماذج من التاريخ أو الواقع، و في هذه الحالة يصعب تجميعها وتنسيقها في شكل عناصر متناسقة متكاملة تخدم الموضوع المبحوث.

الفصل التمهيدي

سيرة محمد الغزالي و مرتكزاته الفكرية و السنة لغة واصطلاحا

المبحث الأول: محمد الغزالي السيرة الذاتية والمسار الفكري والدعوي

المبحث الثاني: ركائز المشروع الفكري والدعوى عند الشيخ محمد الغزالي

المبحث الثالث: تعاريف السنة و خصائص السنن الإلهية و حاجة المسلمين إلى السنن

تمهيد

نظرا لأهمية سيرة الغزالي ومساره الفكري و الدعوي تناولنا ورصدنا أهم المحطات الرئيسية و الأحداث البارزة لحياة مديدة دامت ثمانية عقود، قضى الغزالي معظمها في الفكر والدعوة منشغلا بآلام الأمة، يعيش مِحَنَها، وكان رحمه الله يحارب بكل ما يملك من جهد في كل ميدان، لا يكل و لا يهدأ حتى آخر لحظة من حياته.

ومع تناول حياته ذكرنا أيضا الاحترام و التقدير الذي حظي بهما العمل الفكري للغزالي من خلال التكريمات والتشريفات التي قدمت للغزالي من طرف الكثير من المفكرين والعلماء والشخصيات المعتبرة في مختلف أنحاء العالم.

ثم أتبعنا بطرح الدعائم التي ارتكز عليها العمل الفكري للغزالي مبتدئين بأهم مرتكز و هو القرآن الكريم، ثم السنة النبوية، ... إلى الثقافة البشرية والواقع البشري الذي عايشه الغزالي.

و نظرا لأهمية المصطلحات و خطورتها على الأفكار و تحكمها في توجيه الأبحاث والدراسات، ارتأيت أن أعطي لمحة موجزة عن لفظ السنة لغة واصطلاحا، و مفهوماتها الأساسية عند علماء الشريعة من المحدثين وعلماء أصول الفقه وعلماء التفسير و اخترت تعريفا عاما للسنة.

و قد لاحظت أن علم "السنن الإلهية" من الحقائق القرآنية التي لم تلق حقها في الدراسة من طرف العلماء القدامى، إلا أن هناك بعض الإشارات إلى بيان بعض هذه السنن في دراسات بعض المفسرين القدامى و بعض العلماء المسلمين كابن خلدون و هو أول من جعله علما مدونا يرتقي بالتدريج كغيره من العلوم.

و عندما تناولت مفهوم السنة عند الكتاب المعاصرين لمست أن هناك اهتماما و إسهامات لبعض العلماء المعاصرين يتقدمهم الشيخ محمد عبده ثم ظهرت بعض الكتابات لتفرد مساحات يتحدث أصحابها عن السنن الإلهية و الفائدة من دراستها.

و إذا كانت معرفة السنن الإلهية من أهم الضوابط التي يجب أن تعيها الأجيال المؤمنة إدراكا وفقها لسنن الله في الكون و النفس والمجتمع، فهي بحاجة إلى معرفة خصائص هذه السنن حتى يتسنى لها الاستفادة منها و تحسن التعامل معها على أساس واضح و نهج سليم و من ثم كانت دعوة الغزالي إلى فهم هذه السنن و التعامل معها.

المبحث الأول

محمد الغزالي والسيرة الذاتية والمسار الفكري والدعوي

المطلب الأول: حياة الشيخ محمد الغزالي

الفرع الأول: كنيته، مولده ونشأته

محمد الغزالي بن أحمد السقا وقد سمي بهذا الاسم المركب "محمد الغزالي.."، ولد "محمد الغزالي أحمد مرسي السقا" في يوم السبت الثاني والعشرين من سبتمبر أيلول سنة 1917 في قرية "نكلا العنب" التابعة لمركز إيتاى بمحافظة البحيرة بأسرة ريفية متدينة و فقيرة، يغلب عليها العمل بالتجارة، وقد اختار الوالد "أحمد مرسي السقا" لابنه البكر الاسم المركب "محمد الغزالي" تيمنا بالفقيه الشافعي المتصوف صاحب كتاب "إحياء علوم الدين" "أبي حامد الغزالي" فقد كان الوالد شديد الإعجاب بأبي حامد، متأثرا بنزعته الصوفية، وقد رآه ذات ليلة في المنام([1]) يخبره أنه سيتزوج، وينجب ولدا، ويشير عليه بأن يسميه الغزالي وقد كان الأب يحفظ كتاب الله وبتعهده بالتلاوة والمراجعة، وقد حرص على أن يحفظ محمد الصغير القرآن الكريم، فأدخله كتاب القرية، حيث شرع في تعلم الخط والحساب، ومضى في حفظ كتاب الله على يد الوالد والشيخ معا، فكان يحفظ حصته المقررة على يد الشيخ و يضيف إليها حصة أخرى على يد والده حتى أتم حفظه في العاشرة من عمره([2]).

ويحكي الشيخ الإمام عن نفسه وقتئذ فيقول: "كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غدوي ورواحي، وأختم القرآن في تتابع صلواتي، وأثناء سيرى في الطريق وقبل نومي وفي وحدتي، وأذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن لي مؤنسا في تلك الوحدة الموحشة([3]).

وهكذا ولد الشيخ الإمام في بيئة مؤمنة صالحة، وحفظ القرآن الكريم وقرأ في منزل والده علم الحديث قبل أن يلتحق بالأزهر، ويحدثنا الشيخ عن نشأته فيقول: "نشأت في بيئة متدينة بين إخوة سبعة، وكنت أكبرهم، ووالدي كان تاجرا صالحا، وهو الذي وجهني إلى حفظ القرآن الكريم، بل إن

---

[1]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – ط 1 – مركز الحضارة للفكر الإسلامي – بيروت – 2009 – ض 17.

[2]) محمد المجذوب – علماء ومفكرون عرفتهم – ج 1 – ط 4 – دار الشواف – القاهرة – 1992م – ص 265.

[3]) علاء محمد الغزالي – السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي – بحث منشور ضمن كتاب العطاء الفكري للشيخ الغزالي – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن – ص 183.

من فضله علي أن باع كل ما يملك لكي يذهب بي أو يذهب معي إلى أقرب مدينة يقع فيها معهد أزهري حيث هاجر من قريته "نكلا العنب" إلى الإسكندرية كي أنتسب إلى ألأزهر و عمري عشر سنوات، و طفولتي كانت عادية ليس فيها شيء مثير، وإن كان يميزها حب القراءة فقد كنت أقرأ كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب علي بل كنت أقرأ وأنا أتحرك وأقرأ وأنا أتناول الطعام"([1]).

الفرع الثاني: تعليمه في الأزهر

ولما كان الوالد قد قرر لابنه طريقه، وقد أمل أن يحوز بعض ما حازه أبو حامد الغزالي من علم ومكانة فقد انتقل الغزالي الغلام من كتاب القرية إلى المعهد الديني المخصص لمحافظة البحيرة في الإسكندرية سنة 1928م ليحصل على الشهادة الابتدائية بعد سنوات أربع في سنة 1932 ثم شهادة الكفاءة بعد ثلاث سنوات، ثم الشهادة الثانوية بعد سنتين (سنة 1937م).

وفي العام نفسه، التحق الغزالي الشاب بالتعليم العالي الأزهري بالقاهرة، ليبدأ دراسته في كلية أصول الدين، حيث تلقى العلم فيها على يد كوكبة من كبار العلماء، أمثال الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد العظيم الزرقاني، وبعد سنوات أربع نال شهادتها العالية سنة 1941م ليتخصص في الدعوة والإرشاد، ويحصل على إجازته فيهما سنة 1942م"([2]).

الفرع الثالث: انضمام الغزالي إلى جماعة الإخوان المسلمين

كان الغزالي على وشك إتمام دراسته الثانوية حين التقى بالشيخ حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها الأول، وكان اللقاء في مسجد "عبد الرحمن بن هرمز" في منطقة رأس التين بالإسكندرية، حيث اعتاد الغزالي أن يمكث بعد صلاة المغرب كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه للعلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إماما وخطيبا بأحد مساجد القاهرة... حيث عين في العام 1942م بوزارة الأوقاف إماما وخطيبا بمسجد "العتبة الخضراء" بوسط القاهرة، ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد.. والوعظ بالأزهر الشريف... و وكيلا، فمدير للمساجد.. فمديرا للتدريب.. فمدير للدعوة

[1]) أنظر محمد الغزالي بقلمه- موسوعة الخطب – ج 1 - دار الاعتصام - ص 13.

[2]) محمود عبده - محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 18-19.

والإرشاد([1]) في 2 يوليو 1971م، فوكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية في مارس 1981" مع ختام عقده الثالث قرر الغزالي أن يدخل ميدان التأليف، واختار أن يكون البداية في مجال لم تألفه الأقلام الإسلامية، بل كان بعيدا عن الاهتمامات التقليدية للفكر الديني في تلك الفترة فأصدر كتابه البكر:"الإسلام والأوضاع الاقتصادية" سنة 1947م ليكون دراسة في الأوضاع الاقتصادية، والظلم الطبقي الذي يعانيه المصريون (كنموذج لأحوال المسلمين في العالمين العربي والإسلامي) وحكم الإسلام على تلك الأوضاع، وقد قدم فيه أفكارا أصيلة ونظرات واجتهادات غير مسبوقة، خاصة في فقه الزكاة، وفي الاتجاه عينه وفي العام نفسه أصدر كتابه الثاني "الإسلام والمناهج والاشتراكية" ثم جاء كتابه الثالث "الإسلام والاستبداد السياسي" الذي جمع فيه محاضرات ألقاها على إخوانه في معتقل "الطور"! تحدث فيها عن الاستبداد السياسي وجنايته على الأمه، وحكمه في الإسلام، ثم عاد ليكمل ثلاثيته الاقتصادية بكتابه "الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين" وتوالت كتب الشيخ التي دارت في مجملها حول هموم الأمة وقضاياها حتى زادت على الستين كتابا"([2]) لمذاكرة دروسه، ففي ليلة من الليالي رأي الطالب الشاب رجلا لا يعرفه ينهض ليلقى على الناس موعظة قصيرة، تركت أثرها في النفوس، ووصلت إلى أعماق الفتى وشدته إلى الواعظ الذي لم يكن سوى الشيخ البنّا الذي كان يقوم بجولة من جولاته في مدن مصر وقراها، وعن تلك الليلة يقول الغزالي:" كان حديثا مؤثرا يتصل بأعماق القلب، فما إن فرغ منه حتى وجدت نفسي مشدود القلب إليه. و منذ تلك اللحظة توثقت علاقتي به، ومضيت معه عقب صلاة العشاء إلى مجلس يضم بعض رجال الدعوة، ثم استمر عملي في ميدان الكفاح الإسلامي مع هذا الداعية العملاق إلى أن استشهد سنة 1948([3]).

وقد تميزت هذه المرحلة بدخول الغزالي الأول عالم الكتابة، فقد حظي بنشر أول مقالة له في مجلة الإخوان، وكان عنوانها "الإخوان المسلمون والأحزاب"، وبتلقيه التشجيع والحث على الكتابة

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري و المعارك الفكرية – مرجع سابق– ص 30.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 21.

[3]) محمد المجذوب – علماء و مفكرون عرفتهم – مرجع سابق – ص 267.

باستمرار من الأستاذ حسن البنّا" وإقبال الإخوان عليه، عكف الشيخ على التأليف وخصص له حيزا من وقته الذي أصبح موزعا بين عدة جهات، ويكتب وينشط في مجال الدعوة والإرشاد([1]).

وانطلق الغزالي في آفاق الدعوة بقلمه ولسانه، تحت ظل جماعة الإخوان فكان له باب ثابت في مجلة " الإخوان المسلمين المعاصرة بأسلوب جديد وروح ثائرة وبيان مؤثر، وقد استطاع الغزالي في سنوات قليلة أن يكون من رجال الصف الأول في الجماعة، وواحد من كتّابها وخطبائها المبرزين، وقد أطلق عليه البنّا لقب "أديب الدعوة"([2]).

وقد تميزت كتاباته الأولى ميله إلى الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ولا يتحقق هذه الإصلاح إلا في ظل الشريعة الإسلامية باعتباره المصدر الأساسي والمنهج الذي ينبغي أن تسير عليه الأمة.

الفرع الرابع: حياته في المعتقل

في ديسمبر كانون الأول 1948 م أصدر رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي قرارا بحل جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال عدد كبير من أعضائها، ومصادرة جميع أملاكها وكان الغزالي من ضمن المعتقلين الذين حملتهم الباخرة من ميناء السويس إلى معتقل "الطور" في سيناء ويروي القرضاوي في كتابه عن الغزالي كيف كان الغزالي قائدا أجمع عليه الإخوان المعتقلون يؤمهم في الصلوات، و يخطبهم في الجمع، ويلقى عليهم الدروس والمحاضرات ويلهب حماسهم للمطالبة بحقوقهم من الأغذية المقررة لهم، والتي يأكلها القائمون على المعتقل([3]).

كانت هذه إحدى مرتين تعرض فيهما الشيخ للاعتقال، وقد خرج منه قرابة عام (سنة 1949) بعد أن حدث تحول كبير في مسيرة الإخوان باغتيال حسن البنا في فبراير/شباط 1949م واضطراب سفينة الجماعة، حيث بقيت أكثر من عامين بعد مقتل حسن البنا دون مرشد معلن إلى

[1]) أنظر محمد الغزالي – قصة حياة – دار الرشاد للنشر والتوزيع – الخروب، قسنطينة الجزائر – 2006م – ص 28.

[2]) محمد المجذوب- علماء و مفكرون عرفتهم – مرجع سابق – ص 267.

[3]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – ط 1 – مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان – 1421هـ، 2001م – ص 17-18.

أن ألغى البرلمان الأمر العسكري بحل الجماعة، فعاد لها وجودها القانوني، وتم انتخاب حسن الهضيبي مرشدا عاما لها، في اكتوبر/تشرين 1951م.

في تلك المرحلة بلغ الغزالي مكانة رفيعة في الجماعة، وصار رمزا من رموزها، ورموز العمل الإسلامي في مصر، آنذاك يقول القرضاوي: «كان الغزالي بعد خروجنا من المعتقل أواخر سنة 1949م هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام والمحامي الأول عن حرماته ومفاهيمه»([1]).

الفرع الخامس: خروجه من الجماعة

بعد عام من دعوة الجماعة إلى الساحة السياسية قام الجيش المصري بانقلابه العسكري على الملك فاروق في يوليو/تموز 1952، وقد باركت الجماعة حركة الجيش وتمتعت بعلاقات طيبة في أول الأمر مع قادة الانقلاب، الذي سرعان ما تحول بالقبول الشعبي لثورة طبيعية على الاستعمار البريطاني والمُلْكِية و لكن لم يلبث الطرفان أن دب بينهما الخلاف، في الوقت الذي نشبت فيه الخلافات داخل الجماعة نفسها وحدث نزاع بين مجموعة من رجال الصف الأول فيها، وفيهم الشيخ الغزالي، وبين المرشد "الهضيبي" وتطور الأمر لينتهي بفصل الغزالي وآخرين من الجماعة في أواخر سنة 1953م.

وقد عاد الغزالي بعد سنوات فراجع موقفه من الهضيبي، والتقى به بعد خروج الأخير من المعتقل (في بداية السبعينات من القرن الماضي) فتذاكرا ما وقع، وتناسيا ما كان واتفقا على خدمة الدعوة الإسلامية([2]).

المطلب الثاني: علاقة الغزالي مع رؤساء مصر

الفرع الأول: في عهد الرئيس جمال عبد الناصر

كان خلاف الشيخ الغزالي مع الهضيبي وفصله من الجماعة سببا في نجاته من الاعتقال مع من اعتقلوا من الإخوان أوائل 1954م ليبقى الغزالي في ساحة الدعوة بقلمه ولسانه، يخطب ويكتب المقالات، ويؤلف الكتب، يبين حقائق الإسلام، ويكشف ما يحاك ضده من مؤامرات، ومما كتبه في

[1]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – المرجع نفسه – ص 20.

[2]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – المرجع السابق – ص 42.

تلك الحقبة "كفاح دين" و "معركة المصحف في العالم الإسلامي" و "حصاد الغرور" و "الإسلام والزحف الأحمر" حينما قام الجيش بحركة في يوليو/تموز 1952م كان الغزالي عظيم الترحيب بها، متفائلا بإنجازاتها، خاصة أنها أنجزت بعض ما كان ينادى به، مثل تحديد الملكيات الكبيرة الذي دعا إليه في العهد الملكي([1]).

ولكن هذا الترحيب والتفاؤل سرعان ما أخذ في الاضمحلال والانتهاء، حين اتسعت الشقة بين الرئيس جمال عبد الناصر والإخوان، وحين وجد الغزالي الثورة تبتعد عن الفكرة الإسلامية، وتتخذ سياسات ومواقف تخالف ما رآه الشيخ في صالح الدين والأمة، فجهر الشيخ بذلك في كتاباته آنذاك ودخل في معارك فكرية مع بعض الرموز الثقافية، ومن ذلك معركته مع الكاتب والرسام "صلاح جاهين"، والتي بدأت حين وقف الغزالي في "المؤتمر الوطني للقوى الشعبية" الذي عقده جمال عبد الناصر سنة 1962م داعيا إلى استغلال الأمة في تشريعاتها، فلا تكون عالة على الفكر التشريعي الغربي، وإلى تميز الأمة في أزياء رجالها ونسائها، ليختفي السفور والتبرج، وتقليد الغرب في الزي من المجتمع المصري.

التقط "جاهين" كلمات الغزالي، لينشر في جريدة الأهرام التي كان محررا بها 14 رسما كاريكاتوريا يسخر فيها من الشيخ وعمامته الأزهرية، وكلمته في المؤتمر وجعل رسومه تحت عنوان "تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية" فوقف الشيخ في المؤتمر اليوم التالي يقول: "إن تحت هذه العمامة رأس مفكر كان يحارب الظلم والإقطاع أيام كان أمثال هذا الكتاب قوادين "لفاروق"! ويقصد بفاروق الملك المخلوع.

كما وقف الغزالي على الهواء مباشرة على ما نشرته بعض الصحف من تحريف لكلماته بغرض الإساءة إليه، وتحريف ما دعا إليه، وفي يوم الجمعة أول جوان 1962، خطب الشيخ في الجامع الأزهر حول موضوع الآية: "إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون" وتناول في خطبته أدب المعارضة والاختلاف لتخرج جموع المصلين عقب الصلاة في مظاهر شعبية غاضبة، ضمت عشرات الألوف، متجهة إلى دار الأهرام للاحتجاج على الإساءة إلى الشيخ، و ادعت الصحيفة أن

[1]) أنظر دعوته لتحديد الملكيات الكبيرة في كتابه – تأملات في الدين والحياة – ط 4 – درا نهضة – مصر، القاهرة – 2005م – ص 55-56.

الشيخ حرض الجماهير العريضة لمظاهرة عارمة، فتوجه للأهرام، وقابل المسئول عنها محمد حسنين هيكل، ودار بينهما حوار انتهى باعتذار هيكل للغزالي بينما أصر جاهين على موقفه([1]).

وحين وقع الصدام الثاني بين جمال عبد الناصر و الإخوان عام 1965م ورفض الغزالي التوجيه الذي جاء من النظام بوجوب انتقاء الجماعة لتسويغ ما يراد بها، اعتقل الشيخ للمرة الثانية في تاريخه، وذلك أثناء التحقيق مع "سيد قطب" حيث قضى بمعتقل "طرة" أقل من عام([2]).

الفرع الثاني: الشيخ الغزالي و السادات

بعد عامين من هزيمة 1967 أمام "إسرائيل" توفى جمال عبد الناصر، وجيء بالسادات إلى رئاسة الدولة، وما هي إلا أشهر معدودة حتى أعلن السادات الحرب على القوى المتنفذة في عهد عبد الناصر، واستبشر الشيخ الغزالي –كأغلبية الشعب المصري– خيرا لاسيما أن العهد الجديد أعطى الضوء الأخضر للصحافة، و أصحاب الأقلام بأن يكشفوا عن جرائم و مثالب عبد الناصر، وفي هذه الأجواء التي بدأت تتنفس فيها الحرية أخذ الغزالي يتحرك بالدعوة في كل مكان «إذ كان السادات وهو يستعد للحرب مع الدولة الصهيونية بعد الفضيحة العسكرية التي تعرضت لها الجيوش العربية في حرب يونيو/حزيران 1967، يدرك أهمية دور علماء الدين في رفع الروح المعنوية للجنود وإعدادهم للمعركة، فسمح للعلماء بالقيام بذلك الواجب، ويروي الغزالي كيف كان هو، و عشرات من الدعاة الآخرين يختلطون برجال الجيش المصري في جبهة القتال ليحدثوهم عن الجهاد، و يرووا لهم من تاريخ المجاهدين، وكيف دأبوا على ذلك في السنوات التي سبقت حرب أكتوبر/تشرين الثاني 1973م حتى ظهرت ثمار عملهم في النصر الكبير الذي تحقق في بدايتها»([3]).

في الفترة نفسها تولى الشيخ إدارة الدعوة في وزارة الأوقاف، أي أنه كان مشرفا على الدعاة، وخطباء المساجد، كما كان يقوم بالخطابة في جامع عمرو بن العاص، وقد كان الجامع قبل أن يرتقي الغزالي منبره مهملا مهجورا، ورغم عراقته كأول مسجد بني في مصر وإفريقيا، فازداد الإقبال على

[1]) يوسف القرضاوي – الشيخ محمد الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 52-53.

[2]) محمد المجذوب – علماء و مفكرون عرفتهم – مرجع سابق – ص 274.

[3]) محمد الغزالي – هموم داعية – ط 6 – دار نهضة – مصر، القاهرة – 2006م – ص 95-96.

المسجد، وصار يؤمه عشرات من المصلين في الجمع وانتشرت أشرطة خطب الشيخ في أرجاء مصر وخارجها"([1]).

و مع هذا النشاط الدعوى، بدأت ملامح خلاف الغزالي مع السادات، فهي مثل خلافه مع عبد الناصر، أي بسبب دفاعه عن قضايا الأمة.

«و لم يتوقف الغزالي في الخطب والمحاضرات التي ألقاها في جامع عمرو، وفي كتاباته عن نقد الأوضاع والسياسات التي رآها مخالفة للشرع ولمصالح الناس، رغم التحذيرات التي تلقاها من جهات عليا بسبب انتقاداته تلك، وعندما أعلن عن نية تغيير الأحوال الشخصية في مصر، و تسربت بعض بنود القانون المزمع طرحه، ورأى فيها الشيخ مخالفة واضحة للشرع، ما كان منه إلا أنه جهر بتلك المخالفة، ورأيه في مشروع القانون الذي يجهز للمناقشة في مجلس الشعب، ولما كان القانون قد ارتبط في أذهان الناس بزوج الرئيس، وتردد أنها صاحبة فكرته، و لما كانت للغزالي سوابق في نقد النظام وسياساته، و لما كانت المعارضة لمشروع القانون قد ترجمت لمظاهرة شعبية، أحاطت بمجلس الشعب للإعلان عن رفض القانون المشبوه، فقد عزل الشيخ من الخطابة في مسجد عمرو بن العاص، و ضيِّق عليه، و جمد نشاطه في الوزارة بنقله من وظيفته كمدير لإدارة الدعوة في وزارة الأوقاف إلى وظيفة مستشار فيها، حتى اضطر أخيرا إلى مغادرة مصر([2]).

وكانت تهمة الشيخ التي تعلل بها النظام متعلقة بالفتنة الطائفية، ففي إحدى اجتماعات السادات سأله رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، "عبد المنعم أبو الفتوح"، عن سر التفريط في الشيخ الغزالي ليغادر مصر، ويحرم جمهوره منه فثارت ثائرة السادات، واتهم الغزالي بأنه من "دعاة الفتنة الطائفية»([3]).

المطلب الثالث: العمل و المجهود الدعوي

[1]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 54.

[2]) محمد المجذوب – علماء و مفكرون عرفتهم – مرجع سابق – ص 265.

[3]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 54.

الفرع الأول: جهود الغزالي الدعوية خارج مصر

بعد أن سحبت من الشيخ اختصاصاته في وظائف الدعوة وجد نفسه على "حصير"، دون مكتب في "سندرة" ملحقة بمسجد صلاح الدين بالقاهرة، فجلس على الحصير يشتغل بالتأليف؛ «ولما رأى الشيخ أن الدولة أصبحت تضيق به ذرعا، و أنه عليه أن يبحث عن مكان آخر، قبل العرض الذي جاءه من جامعة أم القرى للتدريس بها، ورحب بمجاورة الحرم الشريف تاركا الميدان في مصر رغما عنه»([1]).

«بحث الغزالي عن مكان يتسع لعلمه وعمله، فرحبت به جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية أستاذا معارا إليه، وقضى في المملكة فترة بين عامي 1974م و 1981م، ولم يتوقف خلال تلك السنوات السبع عن الدعوة في الجامعة أو عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية»([2]).

في السعودية «قدم الشيخ الغزالي للدعوة الكثير، فقد كان له برنامج يومي في المذياع يحبه الناس، كما كان يشارك في التلفاز وفي الصحف، فضلا عن جهوده في تربية طلابه في جامعة أم القرى لا سيما طلاب الدراسات العليا، بالإضافة إلى معاونته للمسؤولين عن الجامعة وإسهاماته في مجالس الجامعات الأخرى، ومع أجهزة الدعوة المختلفة بالمملكة»([3]).

وبعد سبع سنوات قضاها الغزالي بالمملكة السعودية، توسط الأستاذ الدكتور "زكريا البرى" وكان وزيرا للأوقاف لدى السادات وأقنعه برفع الغبن الواقع على الشيخ الغزالي، فأصدر السادات يوم 8 مارس 1981م قرارا جمهوريا بتعيينه وكيلا لوزارة الأوقاف لشؤون الدعوة الإسلامية([4]).

ولكن الشيخ ما إن استلم منصبه، حتى تركه بعد يومين "اثنين" لا غير، إذ آثر أن يستقيل من المنصب، بعدما عرف أنه لم يكن سوى وسيلة لتدجينه وكسب تأييده واتقاء جانبه([5]).

---

[1]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – المرجع السابق – ص 52.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 30.

[3]) عبد الحليم عوس – الشيخ الغزالي، مراحل عظيمة في حياة مجاهد عظيم – ضمن كتاب الشيخ محمد الغزالي، صور من حياة مجاهد عظيم – دراسة لجوانب فكره – ط 1- دار الصحوة – القاهرة – 1413هـ، 1993م – ص 15.

[4]) محمد الغزالي – قضية حياة – مصدر سابق – ص 228.

[5]) محمد الغزالي – قضية حياة – مصدر سابق ص229

التحق الغزالي بعد ذلك أستاذا في كلية الشريعة بجامعة قطر حيث "كان يمضي نصف عام كل سنة، فكان له دور كبير في تطوير كلية الشريعة، و في تخريج أجيال صالحة منها و في نشر الوعي الإسلامي في أجهزة الإعلام و في المساجد والمنتديات، وكان يعامل كضيف لدى دولة حكومة قطر، ويحظى باحترام ويستشار في كثير من الأمور.

ولفترة طويلة دأبت دولة الكويت –كذلك– على دعوته خلال شهر رمضان من كل سنة، حيث كان يشارك في بث الوعي الإسلامي، ويلقى المحاضرات ويشارك وزاره الأوقاف بالكويت في كل ما تطلبه منه.

و قد كان الشيخ يدعى دائما إلى المؤتمرات الشبابية والطلابية في أوروبا وأمريكا وكان له دور رائد في أكثر المؤتمرات، وكان يعزى إليه فضل نجاح كثير من تلك المؤتمرات، ويمثل مواقع رئيسية في إدارتها الفكرية"([1]).

الفرع الثاني: الغزالي و ما جاد به في الجزائر

كانت صلة الشيخ الغزالي بالجزائر مستمرة، وهو في مصر وفي السعودية، وفي قطر، إذ كان شبه مواظب على حضور ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تعقدها وزارة الشؤون الدينية كل سنة، حيث كانت له بها صولات وجولات فيما يلقيه فيها من محاضرات أو ما يتقدم به من تعقيبات، أو فيما يقفه فيها من مواقف مشهودة ومذكورة([2]).

وفي أحد الملتقيات في أوائل الثمانينات أبرق إلى الشيخ ابنه، بألا يعود إلى مصر لأن الرئيس السادات قد أصدر قرارا برميه في السجن نتيجة تصريحات أدلى بها منتقدا السياسة المصرية التي أفضت إلى هزيمة 1967م، وكان قد حضر في ختام أعمال ذلك الملتقى الرئيس الشاذلي بن جديد فأبلغه الأستاذ عبد الرحمان شينان وزير الشؤون الدينية في ذلك العهد بالخبر، فسلم ابن جديد على الشيخ الغزالي ورحب به داعية في الجزائر.

كانت الجهود –آنذاك– متتابعة لفتح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة و قد أصدر الرئيس –بن جديد– مرسوما بإنشاء هذه الجامعة، وكان حريصا أن يكون الشيخ محمد

[1]) عبد الحليم – عويس، الشيخ الغزالي، مراحل عظيمة في حياة مجاهد عظيم – مرجع سابق – ص19

[2])محمد الغزالي – قصة حياة – مصدر سابق – ص 265-266.

الغزالي أستاذا فيها، وكان هذا الأخير أستاذا في جامعة قطر بالدوحة، فتم استئذان أمير قطر في تحويل الشيخ الغزالي إلى الجزائر فوافق على ذلك، وشاء الله أن يحضر الشيخ الغزالي حفل افتتاح الجامعة بمدينة قسنطينة في سبتمبر سنة 1984م وكان حفلا كبيرا حضره رئيس الدولة وعدد كبير من المسؤولين وسفراء الدول الإسلامية، وتم تعيين الشيخ رئيسا للمجلس العلمي للجامعة "اختار الشيخ أن يُدَرّس تفسير القرآن الكريم، وصار في الجامعة موجها وأستاذا و مفتيا، يزوره الكثير للفتوى في الجامعة، وفي بيته.

وكان من أهم الأعمال التي اضطلع بها: الدعوة إلى الله عز وجل، وتحليل قضايا المسلمين ونقد ما يعانون من أمراض ومآس، كما كان يلقى من على شاشة التلفزيون حديثا أسبوعيا ينتظره الناس في مختلف أرجاء البلاد الواسعة بشغف كبير، ولا يفوتون مشاهدته والاستماع إليه إلا لضرورة قاهرة، وكان يلقى في قسنطينة كل يوم تقريبا درسا في أحد مساجدها الجامعة، وغالبا ما يكون في التفسير الموضوعي، لسورة من السور ينزلها على أوضاع المسلمين قديما وحديثا.

وكان يفعل هذا أيضا في جولات يدعى فيها إلى ولايات أخرى في الجزائر غير ولاية قسنطينة، حيث كان الناس يتنافسون على دعوته لإلقاء درس أو موعظة أو محاضرة، وكان لا يرد دعوة وان شق عليه السفر أحيانا، وهو في شيخوخته تحسبه شابا في عزمه وتوكله، ينتقل أحيانا بالسيارات مسافات بعيدة، وأخرى بالطائرات ثم السيارة، وهو في ذلك كله يشعر بسعادة غامرة في دعوته إلى الله، وفي لقائه مع المؤمنين شبابا وشيوخا، نساء ورجالا"([1]).

و قضى الغزالي في الجزائر ما يقارب خمس سنوات، كلها عطاء وسخاء في الفكر والثقافة والدعوة، وفي هذه السنوات المليئة بالأعمال والواجبات، والتي يقول عنها الغزالي: قد قضيت في الجزائر بضع سنين من أخصب أيام العمر خدمة للإسلام ورسالته وقد راقبت عن كثب مؤتمرات شتى تحاول النيل من ديننا و أمتنا وتبذل جهود حثيثة خبيثة لتضليل مسعى المسلمين، و إظلام مستقبلهم".

فقد كتب في هذه الفترة الخصبة بإقامته في قسنطينة العديد من مؤلفاته الهامة والشهيرة وهي: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، "الطريق من هنا" و "قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة" و "جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج" و "سر تأخر العرب والمسلمين" و

[1]) محمد الغزالي – مذكرات الشيخ محمد غزالي – قصة حياة – مصدر سابق – ص 266.

"المحاور الخمسة في القرآن"، والجزء الأول من "الحق المر" و "مستقبل الإسلام خارج أرضه: كيف نفكر فيه" و "وصيحة تحذير من دعاة التنصير" هناك خدمة أخرى قدمها الشيخ الغزالي للدعوة في الجزائر جديرة بالتنويه، وهي السماح بإعادة طبع مؤلفاته، والتنازل عن أخذ حقوقه المادية لصالح القارئ في الجزائر المتعطش للثقافة الإسلامية، بحيث يقترب الناشر من بيع هذه المؤلفات بثمن التكلفة، أما عوائد الأحاديث المسموعة والمرئية التي تم إفراغها في أشرطة سمعية بصرية، فقد تبرع بها الشيخ للمعاقين بالجزائر.

إن حب الشيخ الغزالي للجزائر، وشعبها نابع من حب الشيخ للأمة الإسلامية القطب التي انتمى إليها، ونافح عنها، وعاش في سبيل نصرة ودعم هويتها الفكرية ومقوماتها الحضارية "وإن من يطلع على بعض مؤلفات الشيخ التي كتبها إبان ثورة التحرير المباركة، مثل كتابه: "الاستعمار أحقاد وأطماع" ليلمس بعمق حب الغزالي وصدق مشاعره إزاء الجزائر.

و قد تحقق فيه الوصف الجميل الذي ذكره "عبد الرزاق قسوم" في هذه العبارات الموحية والمشحونة بأجلّ معاني التقدير والإجلال فيقول فيه: «ساقه الله إلى العقل الجزائري حينما بدأ الجدب يدب إليه، فحول قحطه إلى خصوبة وجفافه إلى نماء... و قال عنه إنه حلقه الوصل المفقودة التي انقطعت بين حركة ابن باديس، و ميلاد جيل الصحوة الإسلامية التي هي من غرس علماء هذه الحركة، فكان المنهج الحقيقي للمد الإسلامي المتنامي في الجزائر، تحت تأثير مدرسة التعليم الأصلي، وملتقيات الفكر الإسلامي، لقد أطل محمد الغزالي على الجزائر،وهي تموج وسط صراع فكري مصيري دائر بين التعريب والتغريب، وبين الإصلاح والتفسخ، فألقى بثقله الفكري داعيا ومرشدا ومدرسا... وإذا كان أبو حامد الغزالي قد استحق لقب حجة الإسلام قديما بما قدم من جهد في إحياء علوم الدين فإن محمد الغزالي يستحق أنه يلقب في عصرنا بحجة الصحوة الإسلامية، بما قدم للعمل الإسلامي من فقه وفكر مستنير، ومنهج تجديدي وفير»([1]).

الفرع الثالث: تكريم الشيخ الغزالي إكبارا لجهوده في نشر العلم والمعرفة الإسلامية

[1]) محمد الغزالي – مذكرات الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 233.

لم يسع الشيخ محمد الغزالي إلى منصب قط، بل رفض تسلم منصب وكيل أول لوزارة الأوقاف في مصر، لمجرد أنه طلب منه أن يزور ليشكر طبعا صاحب القرار الرئيس السادات فرفض المنصب والثمن!!

و لم يسع لجائزة.. بل كان حصوله على الجوائز تشريفا للجوائز نفسها وارتفاعها بمستواها.. و قد نالها قبله وبعده من هم دونه بكثير!! و خلال السنوات الأخيرة من عمر الشيخ كرمته كثير من الدول العربية، كما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في مجال خدمة الإسلام، و ذلك سنة 1409هـ-1989م.

كما حصل في العام نفسه -أي سنة 1989- على أعلى وسام جزائري سلمه له الرئيس الشاذلي بن جديد عن جهوده في تأسيس وإنشاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

حصل على أرفع وسام باكستاني (تمغة الامتياز) وتسلمها من السفير الباكستاني في القاهرة "إسحاق غلام" وذلك في جمادى الآخرة عام 1411هـ-ديسمبر 1990م

حاز أيضا جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة 1412هـ-1991م من المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وأعلنت النتيجة عام 1431هـ-1992م

جائزة كانت عام 1412هـ-1991م لما تميز به من نشاطه الفكري والعلمي، وهي جائزة تقدمها جريدة الشرق الأوسط السعودية لحمل اسم "على وعثمان وحافظ" وقيمتها 10 آلاف دولار وميدالية ذهبية.

حاز أيضا وساما رفيعا من ماليزيا حصل عليه عام 1996م قبيل وفاته.

وقد سئل الشيخ الغزالي في لقاء تلفزيوني عن شعوره إزاء الجوائز والأوسمة التي يحصل عليها فقال: "أفرح بها طبعا وهي تنشطني للعمل ولا تحدث عندي غرورا"([1]).

المطلب الرابع: وفاة الشيخ الغزالي

بعد عودة الغزالي إلى مصر للإقامة الدائمة في منزله سنة 1989، واصل مشواره الدعوى والفكري، وكان يلبي الدعوات التي تأتيه من كل أصقاع العالم للمشاركة في الملتقيات الفكرية والعلمية،

[1]) محمد الغزالي -فتاوى في الدين والحياة -إعداد وتقديم أبو أسامة عمر -خلفه للطباعة والنشر والتوزيع -الجزائر -2009م -ص 18.

وكان من أواخرها: رحلته إلى الأمم المتحدة حيث خطب في عيدها الخمسين ممثلا للأزهر الشريف سنة 1996م، وقد أمضى بين مسلمي أمريكا في تلك الرحلة ثلاثة أسابيع.

و بعد أسابيع من عودته سافر إلى المملكة العربية السعودية للمشاركة في الملتقي المنعقد تحت عنوان "ندوة الجنادرية" التي تدور موضوعاتها حول "الإسلام والغرب" هذه الندوة التي كانت آخر محطة له حيث وافته المنية، وهو في مهمته الدعوية.

و يتحدث أحد المشاركين الذين كانوا على مقربه من الشيخ في هذه اللحظات فيقول: كنا نجلس في الصفوف الأولى لا تفصلنا عنه –أي الغزالي– سوى خطوات معدودات وقد لاحظنا قبل دقائق من الحدث أن الشيخ يرفع رأسه إلى الخلف، ثم يستعيد وضعه مرة أخرى، ولقد اعتقدنا للوهلة الأولى أنه يتحدث مع أحد الجالسين خلفه، ولكننا أدركنا بعد ذلك أنه كان يقاوم الآلام فقد شهق فجأة، وأصيب بإغماء، هب على إثرها الجميع نحوه.

في هذه اللحظات يُطلب الطبيب –أي طبيب يوجد في القاعة– ليدخل بعدها مجموعة من الأطباء في محاولات يائسة بذلوا خلالها أقصى ما يمكنهم من الإسعافات الأولية، تنفس صناعي، وتدليك متواصل لعضلة القلب، ولكن حشرجة الموت كانت واضحة أمام العيان.

وصعدت روحه إلى بارئها –في قاعة الملك فيصل– و القلم في يده بدون انقطاع للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة 17 شوال سنة 1416هـ– الموافق لـ9 مارس 1996م ليدفن بالبقيع في المدينة المنورة، عاصمة النبوة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام"([1]). ولقد كان في دفن الشيخ الغزالي عبرة، إذ دفن بين الإمام مالك والإمام نافع.

[1]) محمد عمارة – الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص17.

المبحث الثاني

ركائز المشروع الفكري والدعوى عند الشيخ محمد الغزالي (المرتكزات)

المطلب الأول: ركائز المشروع

يقول محمود عبده: "قام المشروع الفكري للغزالي على جناحين، لا يستغني أحدهما عن الآخر ولا قيمة لأحدهما دون الآخر، وهما:

أ- النقل

ونعني به ما وصل إلى الغزالي من علم وفكر، انتقل عبر الأجيال ، واطلع عليه في مصادره وهي نوعان:

- مصادر معصومة، ونعنى بها الكتاب والسنة النبوية

- مصادر غير معصومة، ونعنى بها: التاريخ الإنساني العام، والتاريخ الإسلامي خاصة، والثقافة الإنسانية العامة، والثقافة الإسلامية خصوصا، والواقع البشري العام والواقع العربي الإسلامي خاصة"([1]).

ب-القرآن الكريم.

الفرع الأول: القرآن الكريم

لقد تكون الشيخ الغزالي عقلا ووجدانا -في مدرسة القرآن الكريم- حتى لا نبالغ إذا نحن قلنا إنه جاء ثمرة طيبة من ثمرات القرآن الكريم،... و لذلك فإن علاقته بهذا القرآن لم تقف-فقط- عند التلاوة والترتيل والحفظ والفهم والتفسير.. وإنما كانت معايشة لهذا القرآن الكريم- حتى ليحكي هو عن هذه العلاقة الخاصة- الروحية.. و الحميمية والمتميزة فيقول: «لقد حفظت القرآن الكريم، وعمري عشر سنين، و بذلك صار صبيٌّ ساذجٌ وعاءًا من أوعية العلم استدرج النبوة بين جنبيه، وإن كان لا يوحى إليه، ولقد استوعبت صبى الذاكرة هذه الوديعة الضخمة من آيات الله طورا بالرغبة، وطورا بالرهبة، بيد أنها لم تزد على أنها وديعة مختزنة، وظلت سنين عددا وهي مقطوعة الصلة بالعمل والخلق والتفكير والتدبر»([2]). لكن المواهب الفكرية والعلمية والكتابية لا تتفق إلا للأفذاذ، بعد

[1]) محمود عبده - محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية - مرجع سابق- ص55.

[2]) محمد الغزالي –كيف نفهم الإسلام – دار الكتب – الجزائر – 1407هـ، 1987م - ص 21-22.

الأفذاذ، والنوابغ بعد النوابغ، وكان من أهم مزايا الغزالي أنه عرف قيمة هذه المواهب وقدرها في العهد المبكر، وانتقل من دائرة الحفظ والتلقين والتدرج إلى التدبر في فهم معاني القرآن فيقول إذ كان «الحفظ يغلب على التدبر أو على إحسان الوعي.. وما بدأت أفكر حتى أكرهت نفسي على أن أعود فأدقق النظر في كل ما اقرأ، أو أحمل نفسي على ترك هذه العادة التي ورثتها مع الحفظ»([1]).

تتجلى هذه العلاقة المميزة بالقرآن، وهو يحكى عن نفسه فيقول: «كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غدوي ورواحي، وأختم القرآن في تتابع صلواتي وأثناء سيري في الطريق، و قبل نومي، و في وحدتي، و أذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي فقد كان القرآن لي مؤنسا في تلك الوحدة الموحشة»([2]).

فقد وقف الغزالي مواهبه، وطاقته لهدف واضح، ووهب حياته للقرآن الكريم فقد كان سواحا في رحابه، جوابا في آفاقه، قراءة وتدبرا وتفسيرا، بل كان زاده الأوحد، وسلاحه الأقوى في إقامة الحجة على خصومه، ورد الباطل مندحرا إلى تخومه.

و يقرر الشيخ أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام فيقول: «وقد اتفق المسلمون على أن القرآن هو المصدر الأول لتعاليم الإسلام، والمعجزة الباقية أبد الدهر للنبي صلى الله عليه وسلم، ويرى أن القرآن الكريم يبني الأمم والأفراد بطريقتين: إحداهما أعظم من الأخرى، الأولى: صوغ الأنفس على معرفة الله، واستشعار عظمته، والتهيؤ لملاقاته يوم الأشهاد، والثانية: الأحكام المحددة التي فصلها، وطلب من عباده إنفاذها سواء في أحوالهم الخاصة أو في شؤون الأسرة والمجتمع والدولة، وإنما قال: إن الأولى أعظم من الثانية، لأن ضمانات الخير في مجتمع ما ليس في قيام بعض التشريعات أو سيادة طائفة من القوانين، فربما أمكن احترام القوانين من ناحية الشكل مع تشعب الفساد في الباطن والقرآن الكريم يعالج الأمم بما يوفر لها سلامة الجوهر واستقامة الطبيعة والجيل الأول الذي أنشأه القرآن لا يمتاز بشيء إلا بهذا السناء الذي استحال جوهره إلى صدق علاقته بالوحي

[1]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق– ص31.

[2]) علاء محمد الغزالي – السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي – مرجع سابق – ص 183.

الأعلى أن مسلمي اليوم قد اتخذوا القرآن مهجورا وأقاموا في حياتهم حجابا كثيفا بين تعاليم القرآن وبين ما يريدون وما يشتهون»([1]).

وما من شك أنه رأى انحراف الأمة –حكاما ومحكومين– إنما سببه ابتعادها عن هذا الوحي بأي شكل من أشكال البعد والهجر، فراح يزيل الجفوة، ويقرب الفجوة بأسلوب الماهر الأديب ورؤية الحكيم الطبيب، مرددا قوله: «و لو عقل البشر لوقفوا بإزاء كل سورة، بل كل حرف يستنبئونه اليقين، ويتعرفون منه، كيف يوثقون صلاتهم برب العالمين، إن كلام الله فوق كل كلام، واستقباله بمشاعر الحفاوة والجد والاستقصاء أمر واجب وهو –في الحقيقة– أعود شيء بالنفع على الناس»([2]).

ووجد في القرآن كل أنواع الغذاء الروحي والذهني فضلا عن ما "قدمه من إجابات عن كل الأسئلة التي تختلج في ذهنه، وما قدمه من تصور شامل للحياة البشرية، ولمهمة البشر على الأرض، التي تترتب عليها حقوقهم، وواجباتهم، وأصبح ذلك التصور، هو الميزان الضابط لفكر الغزالي ومواقفه، والإطار العام الذي انتظمت فيه كتاباته وخطبه.

وبهذا الميزان استطاع الغزالي أن يحكم على ما يطلع عليه من الفكر البشري، ومن التراث الإسلامي المنقول لنا، والواقع الإنساني عموما والإسلامي خصوصا، وأن يميز الغث من السمين في ذلك كله ليخرج في دعوته بما يراه الحق، وإن خالف فيه المتعارف عليه في ثقافتنا الإسلامية فالقرآن يحكم ولا يحكم عليه، ويغير ولا يتغير، وهو الضابط لكل ما عداه من مصادر الثقافية الإنسانية، والإسلامية...([3]).

و قد أوقف الغزالي حياته وذلك بتسخير مواهبه وطاقته لهدف واحد هو القرآن وخدمته، و عاش وفيا له طوال حياته إلى أن لقي ربه.

الفرع الثاني: السنة

[1]) العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) – حلقة دراسية – المحرر فتحي حسن مكاوي – عمان – الأردن – 1996م– ص 169.

[2]) محمد الغزالي – ليس من الإسلام – ط 1 – دار القلم – دمشق – 1420هـ، 1999م – ص29.

[3]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 56-57.

وهي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم، وهي عنده أفضل شرح لدستور الشريعة، ووظيفتها مع القرآن معلومة واضحة، "وقد استمدت مكانتها وحجيتها لدى الغزالي، من مكانتها بالنسبة للقرآن فهي بمثابة الشرح والتطبيق العملي لكتاب الله ورسول الله لا ينطق عن الهوى، وما كان له أن يخالف كتاب الله في سنته يقول الغزالي: «ليست هناك سنة تعارض حكما قرآنيا ما، بل إنه من المستحيل أن يوجد حديث يعارض أحكام القرآن الخاصة، أو قواعده العامة»([1]).

«والسنة سليمة في جملتها، يحوز ما تواتر منها مكانة آيات القرآن في الثبوت والإلزام غير أن الفهم الذي اعترى نصوصا كثيرة كان محل نظر وبحث في فكر محمد الغزالي..رحمه الله. ويظهر هذا جليا من خلال كتابه "السنة بين الفقه والحديث، والذي أثار ضجة كبيرة من طرف بعض العلماء، وردوا عليه ردودا عنيفة، وصلت إلى درجة من القسوة والتطرف، فجعلتهم يشككون في إيمان الغزالي بالسنة النبوية. يقول القرضاوي: «أما كتابه الأخير: "السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث" الذي هاج عليه خصومات الكثيرين واستثار أقلاما عدة لترد عليه بقسوة وحدة، فمنطلقه فيه الدفاع عن السنة أمام فريق "العقلانيين" ولو أدى ذلك إلى رد بعض الأحاديث الثابتة في الصّحاح إذا ناقضت منطق العقل أو منطق العلم أو منطق الدين نفسه، حسب ما يراه.

والمبدأ مقرر لدى علماء الحديث أنفسهم، ولكن الخلاف في التطبيق، وربما أسرف الشيخ في رد بعض الأحاديث الثابتة، وكان يمكن تأويلها وحملها على معنى مقبول، وربما قسا كذلك على بعض الفئات ووصفهم ببعض العبارات الخشنة والمثيرة وربما استعجل الحكم في بعض المسائل كانت تحتاج إلى بحث أدق، والى تحقيق أوفى.

ولكن الكتاب ليس كما تصوره الحملة عليه، كأنه كتاب ضد السنة، ولا كما تصور مؤلفه وكأنه ينكر السنة، فهذا ظلم بين للشيخ الذي طالما دافع عن حجية السنة المشرفة، وهاجم خصومها بعنف»([2]).

إن هذا التحامل لم يثن الشيخ محمد الغزالي في دفاعه عن السنة، والذود عنها في كل لحظة وموقف وإذا كان هؤلاء الذين اتهموه بالتنكر للسنة الشريفة، فالرجل –رحمه الله– جاءت كتبه زاخرة

[1]) محمد الغزالي – ليس من الإسلام – مصدر سابق – ص 29.

[2]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 151-152.

بالاستشهاد بالسنة، وهو يرد على الذين اتهموه بتكذيب السنة والهجوم عليها بأنه استشهد في أربعة من كتبه بثلاثة آلاف حديث"([1]).

فكيف بباقي كتبه التي قاربت الستين كتابا؟

وقد تصدى رحمه الله بقلمه ولسانه للطاعنين في السنة والمشككين فيها، بل إن ما رده من مرويات الآحاد كان بغرض الدفاع عن السنة، فقد خشي أن تتخذ تلك المرويات وسيلة للطعن في الإسلام من العلمانيين واللادنيين، وحجة يتعللون بها في رفضهم وتشكيكهم فيها، وردها جملة وما رده من الأحاديث كان قليلا، ولا يتوقف عليها شيء من الدين فلو مات المسلم و لقي ربه دون أن يقرأها أو يعرف عنها شيئا ما نقص من إيمانه شيء و قد رد تلك ليس رفضا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اعتراضا على سننه، وإنما ردها لأنها لم تثبت عنده، أو لأنها تعارضت مع ما هو أوثق لديه، و هذا لا يسقط اعتباره، ولا يطعن في دينه"([2]).

الفرع الثالث: التاريخ

«الغزالي قارئ جيد للتاريخ مدرك لوقائعه الحاسمة، وأحداثه الكبرى، ومراحله المتلاحقة، وبخاصة التاريخ الإسلامي، وأسرار انتصار أمته وتفوق حضارته ثم تراجع هذه الحضارة، وتخلف الأمة، وتمزقها و غلبة أعدائها عليها، وأسباب ذلك»([3]).

و لا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته، ولا دراسة ولا مقال إلا وله فيه نظرة إلى حدث من أحداث تاريخ المسلمين، يحلله ويقرأ بين سطوره، ويخرج منه في النهاية بقوانين التغيير، وسنن الإصلاح، مع بيان تطبيقاتها في الأمة المعاصرة اليوم.

و يعتقد الغزالي أن دراسة التاريخ ليست مجرد أحداث يسردها المؤرخ يتسلى بها السامع، ويستمتع بها الراوي، ويذكر فيها قصصا دون هدف أو غاية، وإنما التاريخ في نظره ورؤيته يتجاوز هذا التصور البسيط المسطح فهو فريضة إسلامية تتحقق بها مصالح الأمة.

---

[1]) أنظر محمد الغزالي – هموم داعية – مصدر سابق – ص 126-127.

[2]) يوسف القرضاوي – الشيخ محمد الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص158.

[3]) يوسف القرضاوي – الشيخ محمد الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص96.

وفيه يقول: "نجد أن دراسة التاريخ فريضة دينية، وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية بل إنني- بعد التأمل في تاريخ المسلمين القريب والبعيد- أشعر بأنها ضرورة بقاء وسياج لحياتنا ورسالتنا، إذا كنا حراسا على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا"([1]).

وفي مقام آخر يقول: «إن دراسة التاريخ ليست نافلة يتطوع بأدائها من يشاء إنها ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحية...»([2]).

و التأهيل للوراثة الحضارية أو ما يقتضي الوعي التاريخي، أو الاستيعاب لحركة التاريخ، واستكناه قوانينه، أو سنن الحركة التاريخية التي تحكم سقوط الأمم ونهوضها لتحقيق العبرة واستخلاص الدرس لأن التاريخ الإنساني هو حلقات مترابطة الأجزاء متلاحقة المراحل، وهي كلها من صنع الإنسان.

ولمعرفة التاريخ العام أثر عميق في صوغ العقل ونفعه بتجارب لا حصر لها، فإن حاضر الإنسانية امتداد لماضيها البعيد ومهاد لمستقبلها المرتقب، وعلى المؤمنين أن يلتمسوا العبرة مما مضى ليصونوا يومهم وغدهم، وهل التاريخ إلا هذا"([3]).

و عندما يتحدث عن الداعية المسلم يؤكد على حاجة الدعاة المسلمين إلى قراءة التاريخ قراءة مستبصرة، و استيعاب تجاربه، واستخلاص العبر والعظات منه، لأن الأمم في الأزمات والنكبات تهرع إلى تاريخها تستلهمه، وتستضيء به في حاضرها ومستقبلها: «والداعية الموفق هو الذي يحسن توظيف التاريخ، ووقائعه، ومواقف أبطاله في خدمة دعوته وتبليغ رسالته، والأمة الموفقة هي التي تستفيد من التاريخ، فهو ذاكرتها التي يختزن فيها ماضيها...»([4]).

وفي كتابه "مع الله" يدعو إلى دراسة التاريخ بوعي واستبصار فيقول: «والداعية المسلم يجب عليه- بعد الاستبحار في الكتاب والسنة- أن يدرس التاريخ الإسلامي والإنساني معا، لا ليكون

[1]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – دار الهدى للطباعة والنشر – عين مليلة، الجزائر – 1990م – ص 123.

[2]) المصدر نفسه – ص145.

[3]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص139.

[4]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – المرجع السابق – ص96.

سجل ولادات و وفيات، سواء للأشخاص أم للدول، بل ليعرف الطبيعة البشرية على الواقع، وليعرف سنن الله في خلقه»([1]).

الفرع الرابع: الثقافة الإسلامية

إن حيوية الثقافة الإسلامية، دفعت بالغزالي إلى التفاعل معها والبحث عن مسيرة آمنة لثقافة الأمة، يحافظ على هويتها من ناحية، وتؤكد مواكبتها لتطورات العصر من ناحية أخرى.

وقد كان الغزالي على اطلاع واسع بروافد الثقافة الإسلامية المتعددة والمتنوعة وفي هدوء وتواضع يقدم رؤيته الإسلامية للثقافة، يدعو فيها المشتغلين بالإصلاح العام والباحثين عن حلول مشاكل الأمة، أن يعمقوا المناقشة و يثيرونها للآراء المرجحة والمعتبرة، ورائدهم في ذلك البحث عن الحقيقة، وما ينفع الناس بعيدا عن التعصب، وعن جو المبارزات الكلامية التي يتشاغل بها بعض أنصاف المثقفين عن إدارة حوار حضاري تحكمه قيم وآداب... وتظلله موضوعية المنهج، وأمانة البحث، وحسن الخطاب، وهذا ما ينبغي، إلا أن ما يعرض على الناس واقعا أن التيار الإسلامي، بكل روافده ليس له توجه فكري محدد، وأن منهجه في الإصلاح لا يتجاوز ترديد عدد من "الشعارات المثالية" التي تتضمنها نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية... دون محاولة لوصل ذلك كله بواقع الناس، وحقائق العصر، مما يغدو معه التيار الإسلامي –بكل روافده– تيارا غير ذي موضوع، وغير ذي جدوى في مسيرة الحركة الثقافية.

وقد وجدت الغزالي ملتزما بمنهج عدل في دراسة ثقافة الأمة الإسلامية بحيث يعتقد أن نهضة المسلمين لا تتحقق إلا بإعادة النظر في الثقافة الإسلامية، نظرا لما لحقها من انحرافات وتشويهات تركت آثارا سيئة في حياة المسلمين، وتطهيرها وتنقيها من عناصر دخيلة ألحقت بها أضرارا جسيمة، ومفاسد عظيمة.

ويشير هنا الغزالي إلى فريقين اختلفا في وجهات النظر حول هذه القضية وهما: الأنصار المتعصبون للموروث، وأنصار متعصبون للوافد الثقافي وقد شهد القرن الماضي مناقشات كثيرة حول هذه القضية تحت عناوين أخرى مثل التراث والمعاصرة، وغيرها من عناوين خرجت في بعض الأحيان عن النقاش الموضوعي وذهبت إلى اتهامات متبادلة بين الفريقين.

[1]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – ط 4 – دار القلم – دمشق – 1421هـ، 2000م – ص 213.

تجديد البناء الثقافي في المجتمع الإسلامي:

المسلمون اليوم بحاجة إلى تجديد نظرتهم إلى هذه الثقافة أي إقامة نظام ثقافي "موحد" الأساس والروح يشترك فيه جميع المسلمين ليحررهم من غزو الأنظمة الثقافية والفكرية المخالفة لمبادئ الإسلام وعقائده وذلك هو التحرير الحقيقي، نظام يسد حاجات الحياة المعاصرة، ويكون مستمدا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والغزالي باحثا في التراث الإسلامي الهائل عن مواطن القوة والبعث الحضاري للأمة محتكما في موقفه من التراث إلى المعيار القرآني الذي تفهم السنة الصحيحة في إطاره، وقد استطاع الرجل بهذا المعيار، أن يزيل الالتباس في عديد من القضايا الفكرية التي كانت عامل هدم في مسيرة الأمة وحضارتها، مثل الموقف السلبي من الدنيا وأسباب القوة فيها، تلك الفكرة التي تسللت للفكر الإسلامي، تحت شعار الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، و غذّاها التصوف ونماها في نفوس العامة حتى صارت داءا ينخر في جسم الأمة، ويأتي على بنيانها([1]).

«و العاجز في ميدان الحياة لا يستطيع مساندة عقيدة بل لا يظفر بكرامته الشخصية ولا يشيع بنظرة الاحترام...**!!**»([2]).

الفرع الخامس: الثقافة الإنسانية

لقد كان الغزالي نموذجا رائعا للجمع بين الثقافات المختلفة، فضلا عن الثقافة الإسلامية حيث أخذ قسطا وافرا من الثقافات الإنسانية الأخرى مستفيدا منها، مدعما موافقه بشهادة حية، يقول محمد عمارة وهو يتحدث عن المنهج الذي سلكه الغزالي في الثقافة والتحصيل فهو: «إلى جانب القراءة المتدبرة المتأملة في القرآن والسنة، وتراث الإسلام وآداب الحضارة الإسلامية، كان نهما في قراءة كتب العلوم الكونية، التي رآها طرقا حديثة إلى فهم الدين والبرهنة على عقائده، كما كان نهما في قراءة كتب الدراسات الإنسانية والاجتماعية التي رآها السبيل إلى تنزيل أحكام الدين على الواقع المعين... »

[1]) محمود عبده- محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية - مرجع سابق – ص 60.

[2])محمد الغزالي - المحاور الخمسة للقرآن الكريم - مصدر سابق – ص 132.

وها هو الغزالي يتحدث عن هذا المنهج الذي سلكه في الثقافة والقراءة والتحصيل فيقول: «إن أكثر ما اعتمدت عليه في دعوتي إلى الله التأمل الذاتي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ولا يمنع هذا من أن أضم- إلى ما أستفيد من تغلغل البصيرة في كتاب الله- إلى هذا جزء من القراءات الكثيرة بدأت بها حياتي.. كنت أقرأ كل شيء الهزل والجد، وأضع هذا في مستودع في العقل الباطن، وبعد ذلك لا أدري كيف تتجيشه القراءات أو الحوادث، فتخرج، وبعد هذا أوثقه من الكتب التي أعتقد أني قرأت فيها..

كنت أستغرب إذا عرفت أني كنت —في البدايات- أكره قراءة الكتب الدينية، فقد كانت الكتب التي أحب قراءتها الروايات الأجنبية المترجمة، وأحيانا ألف ليلة وليلة، وأحيانا كتب فنية مثل الجغرافيا البشرية، وعلوم الصحة وعلوم الفلك... قرأت كل شيء يمكن أن يقرأه الإنسان، ومن هذا كله كونت سجلا ضخما من المعلومات اختزنت عندي»([1]).

يعتقد الغزالي أن لا مناص من الانفتاح على علوم العصر والاستفادة منها، فعصرنا لا مكان فيه للانعزال، حتى لو أردنا، ولا مكان فيه للانغلاق حتى لو حاولنا، فالتيار جارف، ولابد أن نتعلم كيف نسبح، في هذا الخضم الجارف حتى نصل إلى شاطئ الأمان دون أن يجرفنا هذا التيار.

كما يدرك الغزالي جيدا أن العالم على أبواب عصر جديد في العلاقات بين الدول والشعوب والثقافات.. تنهار فيه السدود والحواجز، وتطوى الأبعاد والمسافات، وتبحث فيه الأمم والشعوب عن عناصر الفكر المشترك والمصالح المشتركة، حتى تلتقي عليها، وتلتف من حولها، وتوجهها نحو تقارب حضاري، وتعاون ثقافي لخدمة قيم العدل والسلام والحرية، واحترام حقوق الإنسان.

فالأمر الذي لا شك فيه أن الثقافة الإنسانية- خاصة الغربية- لا تخلو من عناصر إيجابية يمكن أن تكون إضافة ورصيدا جديدا إلى ثقافتنا.

و كثيرا ما يدعو إلى الاستفادة من تجارب الآخرين، والتي أثبتت جدواها في مبادين الحياة المختلفة، سياسيا وإداريا واجتماعيا واقتصاديا..

[1]) حوارات الشيخ الغزالي – السيرة والمسيرة – تقديم طه جابر العلواني — ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة، مصر – 1433هـ، 2012م – ص 27.

فمثلا في المجال السياسي يدعو إلى الاستفادة من الدساتير الغربية التي حققت هامشا كبيرا من الحريات وضمانا لهذه الحريات فيقول: «من الخير أن نقر- دون مراء أو مواربة-بأن الدساتير التي هديت إليها شعوب الغرب أخيرا تتضمن نماذج حسنة، لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأنها ثمرة تجارب مريرة تشبه التجارب التي مررنا بها إلى حد ما فما المانع أن نستفيد من تجارب الآخرين، وأن نوفر على أنفسنا- نحن المسلمين- عناء بحث جديد..»([1]).

و لم يكن انفتاح الغزالي على هذه الثقافات عابرا، وإنما نتيجة سعة اطلاع وأفق ويعتقد بل يجزم أن سر تفوق المفكرين الغرب- خاصة المستشرقين- يعود إلى سعة اطلاعهم وقراءاتهم المتنوعة، ويضرب الغزالي مثالا على ذلك فيقول: «ولقد رأيت المستشرق المجرى (جولد زيهر) عندما ألف كتابه: "الشريعة والعقيدة في الإسلام" اطلع على نحو مائتي كتاب جعلها مرجعا له في آخر كتابه، رجل مستشرق يطلع على مائتي كتاب، هل ينتصب للرد عليه رجل يقرأ كتبا تعد على الأصابع»([2]).

الفرع السادس: الواقع

إن أي فكرة أو دعوة لا ترتبط بالواقع أو تتواصل معه، هي دعوة محكوم عليها بالفشل بل غير قابلة للحياة..

و الدعوة الإسلامية مدعوة للتفاعل مع الواقع، إذ لا يمكن عزل التشريع عن الحياة، ولا الخطاب على المخاطب.

من هذه الرؤية ينطلق الغزالي في دعوته إلى الإصلاح والنهوض بالمجتمع إلى دراسة الواقع لأن دراسة الواقع البشري وفهمه أمر هام يمثل جزءا من التصور الإسلامي في منهاج الله ويمثل جزءا هاما في طبيعة العمل الإسلامي. «فهو ينطلق من الواقع إلى المصادر الشرعية، يحكم عليه، ويضبطه بضوابط الشرع، ثم يعود إلى الواقع ثانيا بالحلول الشرعية الملائمة حسب اجتهاده ويمكن أن نقرر أن الغزالي أتسم بالواقعية في مشروعه الإصلاحي، وأنه رغم البون الواسع بين أفكاره الإصلاحية، وبين واقع المسلمين، ورغم نقده المرير لذلك الواقع لبعده عن حقيقة الإسلام، فانه كان دائم التأمل في

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مكتبة رحاب – ساحة بور سعيد، الجزائر – د ت – ص 192.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – نوميديا للطباعة والنشر – قسنطينة، الجزائر – 2008م – ص 316.

احتياجات واقعه، محاولا القضاء على الازدواجية التي يعيشها المسلمون بين ضغوط الحضارة الغربية المنتصرة، وبين تراثهم الحضاري والديني»([1]).

وفي نظر الغزالي أن لا منا ص لفهم هذا الواقع الذي سيطبق فيه منهاج الله، لأن هذا الدين نزل به الوحي الأمين ليطبق في واقع البشر وحياتهم.

وضرورة فهم هذا الدين أمر لا يختلف عليه اثنان، ولكن فهم الواقع- في نظر الغزالي- هو مجال التقصير، وضعف الجهد المبذول، ولعل مرد ذلك أحداث الحياة في تجددها حيث تجد أحداثا وقضايا أو ظروف وملابسات، لا تنطبق عليها نصوص المنهاج الرباني انطباقا مباشرا، أو لا يعرضها نص واحد مستقل، ولكنها قد تكون نصوصا متعددة تعطي في مجموعها الحلول والإجابات.

و لكن منهاج الله متسع لكل هذه القضايا مهما امتدت واتسعت أو كثرت وتعددت وعلى المؤمن نفسه أو الجماعة المؤمنة ذاتها أن تتسع بجهودها وطاقاتها هذا الاتساع في فهمها لمنهاج الله، وفي فهمها للواقع الذي يراد تطبيق منهاج الله فيه.

ومقياس الواقعية في دعوته الإصلاحية أن تكون:

- منبثقة من طبيعة الأمة منسجمة مع خصائصها، مستوحاة من حاجاتها حتى تكون تعبيرا روحيا صادقا عن آمالها وطموحها، وهذا شرط ضروري لاستجابة الأمة للدعوة وحياتها في قلوبها ومشاعرها، و النماذج في هذا كثيرة -خاصة العصر الحديث- فكلنا يعلم أن "مصطفى كمال أتاتورك" عندما حاول إصلاح الأمور الاجتماعية والسياسية في شعبه إصلاحا لم يتفق مع عقيدة الشعب، ولم ينسجم مع ذاتيته، أخفقت محاولته الإصلاحية وباءت بالفشل، لأنه تجاهل طبيعة الفرد التركي ومحافظته وغيرته على قيمه...
- أن تكون الحركة الإصلاحية بكل أبعادها السياسية -الاجتماعية- الاقتصادية- الثقافية- مسايرة ومواكبة لتطور الحياة وتقدم الحضارة لأن طبيعة الحياة لا تقاوم، وسنة الله في تطور الإنسان وتقدمه لا تتبدل، فمن وقف في وجه الحياة صرعته الحياة، ومن أراد أن يؤخر عجلة الزمن، ويجرها إلا الوراء لا يمكن أن يستمر.

[1])محمود عبده - محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية - مرجع سابق – ص 62.

ومن ثم كانت دعوة الغزالي الإصلاحية الاهتمام بتطور الحياة، ومواكبة الظروف والمستجدات، والتفاعل معها بايجابية، ولا يجوز الرفض المطلق، و لا القبول المطلق لأي مذهب أو نظرية من نظريات الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي، فالأمر هنا أمر مصالح الأمة، والنظريات والمذاهب ينبغي تسخيرها لخدمة الإنسان، ولا سبيل لهذا التسخير بغير الدراسة الجادة الواعية.

ولم يعد من المقبول –علميا– الإدانة المسبقة للمذاهب والنظريات، و ينبغي أن يحل محله منهج موضوعي يقوم على المعرفة الدقيقة لهذه المذاهب والنظريات، ووزنها بميزان مزدوج يعرضها على مبادئ الإسلام، وقيمه الأساسية، ثم عرضها على مصالح الناس وحاجاتهم الحقيقية، والأمر الذي لا جدال فيه أن عصرنا قد تميز عن العصور السابقة بانجازات غير مسبوقة نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية، وثورة المعلومات والاتصالات.

المطلب الثاني: شمول الإسلام و العقل

الفرع الأول: شمول الإسلام

لم يغب عن ذهن الغزالي أن الدعوة الموفقة والإصلاح الحقيقي لا يتحقق إلا بشمول الإسلام، لكل نواحي الحياة في المجتمع الذي تقوم فيه، وأن المجتمع وحدة متماسكة، فالأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد والسياسة لا تنفصل عن العلم، فالدعوة إلى إصلاح الأخلاق في أمة لا يمكن أن تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأوضاع الاقتصادية فيها، والدعوة إلى تحرير الأمة سياسيا ومن الاستعمار والاستبداد لا تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأخلاق ونشر العلم وتهذيب النفوس...

و إن الحركات السياسية قد استنفدت من جهود الأمة زمنا طويلا، ولو رافقها إصلاح أخلاقي و اقتصادي وعلمي، لكانت هذه المدة كافية لأن تجعلها في مقدمة الأمم قوة وحضارة..

يقول الغزالي: «...ومن الخير أن نعرف أن كثرة الأحزاب دليل على تأخر الأمة، وضعف وعيها، بينما الأمم الكبرى لا تعرف إلا حزبين أو ثلاثة، وما تجاوز أحزاب أصابع اليد كما نرى في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وأما وجود عشرين حزبا أو ثلاثين في بلد فذلك علامة على ضعف الوعي وسيطرة الرغبات النفسية الجامحة والرغبة في بعثرة الجماهير، تحت رايات مزعومة...إلخ»([1]).

[1]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 138.

فشمول الإسلام ليس إلا تعبيرا عن وحدة حياة الإنسان وترابط أجزائها فضلا عن أنه تعبير عن وحدة الخالق "المشرع" الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ولهذا فإن اهتمام الإسلام بهذه الأجزاء المختلفة لا يعني –على مستوى التنظيم والحركة– أن تندب كل جماعة إسلامية نفسها لأداء كل المهام التي يتصدى لها الإسلام، فكل ميسر لما قدر له، وكل مسئول عما يحسنه، والتخصص سبيل لا غنى عنه لإتقان العمل وإحسانه، وهو سمة من سمات العصر، تعبر عن نمو المعارف والعلوم، واتساعها مساحة وعمقا، وعن حاجة كل جانب منها إلى انقطاع بعض الناس له وانقطاع غيرهم لغيره، ولذلك فلا غرابة أن تنشأ المؤسسات العلمية، ومراكز الأبحاث لتشمل أمور الحياة بمختلف مجالاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغير ذلك. و في هذه المجالات كلها تبرز التخصصات العلمية المختلفة بعد أن وعت وشملت.

إذن فالواقعية– عند الغزالي تتضح في أن مهمة الدعاة والمصلحين أن يقدموا للناس البدائل الصالحة لكل ما يطالبون بتغييره وهجره، والبديل لا يكون صالحا إلا إذا تحققت له، فوق التزامه مبادئ الإسلام، وقيمه وشرائعه، القدرة على تلبية الحاجات وتحقيق المصالح.

الفرع الثاني: العقل و مكانته عند الغزالي

العقل هبة ربانية منحها الله للإنسان تكريما، وتبجيلا وتمييزا له، عن باقي المخلوقات والإسلام يركز على أهمية العقل الإنساني في التعرف على وجود الله، فهذه الآيات المبثوثة في الكون وفي النفس الإنسانية في حاجة إلى عقل يفكر، حتى يفهم أسرار الكون ويدرك جلال الخالق.

يقول محمود عبده: «امتاز الغزالي منذ نشأته الأولى بقوة العقل، وحدة الذهن، وفي مراهقته مر ككثير من المفكرين برحلة الشك العقلي في الثوابت والمسلمات، وقد أبى عقله أن يأخذ دينه بالوراثة و عوامل التربية وحدها، فأخضع مسلماته الدينية والثقافية للشك والنقاش، والمراجعة، وكأنه يستلهم تجربة سميه "أبي حامد الغزالي" في الشك وصولا إلى الحقيقة، والتي رواها في كتابه "المنقذ من الضلال" ولكن شك شيخنا الغزالي مبني على أساس عقلي هو أقرب لمنهج الشك الديكارتي، وكانت النتيجة في النهاية لصالح الإيمان، كمبدأ و الإسلام كدين وشريعة»([1]).

الفرع الثالث: جمعه بين العقل والنقل

[1]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 64.

من سمات التجديد في فكر الغزالي أنه يبدأ بحوثه بالشك الإرادي، فهو لم يكتف بأنه ورث الإسلام عن أبويه، وإنما وقف يتأمل ويفكر فيما يجب اعتقاده معملا عقله الحر حتى اهتدى إلى الإسلام، ولهذا نجده يتحدث عن هذه المرحلة عنده في كتابه "كيف نفهم الإسلام" فيقول: «فلأقرر إذن أن اهتدائي للإسلام كان من الأقدار الحسنة أو في نظري من النعم التي يختص الله بها من يشاء من عباده، ولأسرع ببيان ما أقصد من هذا الكلام، فأنا لم أرث الدين عن والدي، كما ورثت قصر القامة وبياض البشرة، بل مرت على أيام فرغت نفسي من كل اعتقاد، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار والذي أعانني على إيثار الإسلام أن لغتي هي لغة القرآن، وأن الدراسة الناقدة له ولغيره كانت ميسرة لي أي أن الظروف البيئية التي احتوتني هي التي جعلتني مسلما»([1]).

و يقول القرضاوي: «فالعقل في فكر الغزالي عقل مؤمن، يتحرك في كل اتجاه ليقرر الحق ويقود إليه، وإن أسلوب القرآن في بناء الأمم يقوم على الفكر الناضج و قد أوتي الغزالي هذا العقل البصير الناقد، الذي يرفض التقليد الأعمى، سواء كان تقليدا للشرق القديم أم الغرب الجديد، ولا يلقي زمامه لأحد ليقوده كما يشاء دون أن يدري إلى أي وجهة هو ذاهب، بل هو عقل حر متفتح، يقبل ما يقبل من الأفكار، ويدع ما يدع منها، وفق ما يلوح له من الأدلة والبراهين، وما يرجع إليه من القيم والموازين ولا تهوله الأسماء ولا الألقاب، بل هو بحاثة عن الحق حيثما كان ومع أي كان. وربما كان هذا العقل الناقد الثائر هو الذي جلب على الشيخ كثيرا من المتاعب في رفضه لآراء وأقوال يقدسها بعض الناس، ويضفون عليها ما يشبه العصمة، وفي نقده الحاد لبعض الأفكار التي يراها ضارة بدعوة الإسلام سواء من داخل الساحة أو من خارجها»([2]).

ولقد كانت حياة الغزالي سلسلة من المعارك الفكرية الشجاعة، ومن المواقف العلمية الباسلة، والتي فتحت عليه جبهات كثيرة حتى من أقرب المنتسبين إلى دائرة الإسلام.

وكان من الكتب التي أثارت حفيظة لفيف من العلماء كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" وفي هذا الكتاب توجيه للذين يتناولون كتب الأحاديث النبوية، وهم يحسبون أنهم أحاطوا بالإسلام علما بعد قراءة عابرة أو عميقة، وفي الكتاب درس للذين يعرفون من الإسلام قشوره ونسوا جذوره.

---

[1]) محمد الغزالي وشهادة التاريخ – اعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية – مراجعة وتقديم محمد عمارة – ط 1 – دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع – الاسكندرية – 1422هـ، 2002م – ص 37.

[2]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 104.

ولقد ساهم هذا الكتاب في إثارة النقاش حول مناهج فهم السنة النبوية، كان له أثر حميم عند كثير من المسلمين الذين رُدّت إليهم حلاوة الإيمان وبَرْد اليقين بعد أن انزاح عن كاهلهم الأفهام المغلوطة والأحكام الصارمة التي لا أساس لها من سند أو دليل([1]).

ومن المعارك التي أثارت لغطا كثيرا حولها: التفرقة بين الإسلام كمنهج رباني له معالمه وأصوله الثابتة ومصادره الأساسية من قرآن وسنة، وبين اجتهادات المسلمين، مؤكدًا أن التاريخ يمثل تطبيق البشر للوحي، والفكر الإسلامي هو إعمال العقل في فهم الوحي والتراث.

وطالب الغزالي بضرورة تنقية التراث الإسلامي من الغبار الذي لحقه، و شوه مسيرتنا الإسلامية، موضحا أن الدعوة إلى تنقية التراث والفكر الإسلامي من الأفكار الدخيلة والمعلومات المشوهة، هي في حقيقتها دعوة للإحاء، وليس للصراع وتصفية الحسابات القديمة.

وقد تنوعت هذه القضايا والمسائل في ثنايا كتبه وحواراته بعقل متفتح مستنير وواع بل إن الشيخ يقرر في اطمئنان أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هي معجزة عقلية، وهي القرآن الكريم الذي يتحدى بإعجازه عقول البشر على امتداد الزمان والمكان، والذي يخاطب أولي الألباب، لافتا إياهم إلى آيات الإعجاز في الكون داعيا إياهم إلى إعمال عقولهم وتكريمها بألا تخضع لعبودية غير الله.([2]).

هذا العقل البصير هو الذي استطاع به الغزالي أن يفند الشبهات ويدفع المفتريات التي يثيرها أعداء الإسلام، على اختلاف مللهم ونحَلِهم وخصوم الفكر الإسلامي على اختلاف توجهاتهم...([3]).

رغم هذا الاعتداد بالعقل وتحكيمه في سائر شؤون الحياة إلا أن هذا العقل له طاقته المحدودة التي لا يستطيع تجاوزها «لا شك أن الإسلام يقوم على العقل، وأنه لم يؤثر عن دين ما أنه أكرم العقل مثل ما كرمه الإسلام، ولكن ليس من العقل إقحام العقل في بحوث لا قبل له بها و لا طاقة له عليها، إن العقل قادر على البحث في العناصر الطبيعية لكنه لا يقدر على البحث في الروح أو في

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 86.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص67.

[3]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 106.

ذات الله العظمى، وفي أسرار الألوهية، مما يتصل بالذات والصفات، وغير ذلك، و قضايا عالم الغيب تقع "فوق العقل"»([1]).

فهي عقلية مؤمنة، لها مساحتها التي تتعامل معها وتبحث فيها مما دفع الغزالي إلى نصح المسلمين على ضرورة الابتعاد عن: «تقعر العقل في دراسة ما وراء الطبيعة» واعتبر «بحوثه فيها عقيمة لما لها من أثر وخيم في تعجيز العقل المسلم عن البحوث المادية، والإفادة منها لهذا لخص أن هذا الاتجاه يعتبر شرودا وعصيانا لله الذي أمر بالنظر في الكون و بنى على النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة لأن رغم قيام الإسلام على العقل، فإنه ليس من العقل إقحام العقل في بحوث لا قبل له بها ولا طاقة له عليها»([2]).

و يعتقد الغزالي أن المصائب التي أنهكت بالأمة عبر تاريخ طويل يرجعه إلى تغييب العقل المسلم، وهذا من أخطر ما أصاب المسلم، إذ غاب عن ممارسته العقل المبدع الفعال، وأصبح قابعا خلف خرافات انتهت به إلى الخروج من التاريخ، يقول الغزالي: «ذلك أن العقل الإسلامي الذي كان يألف الحرية ويأنف من التبعية و الذي كان يحسن البحث والموازنة والاستنباط والرؤية عن بعد هذا العقل أنطفأ وهجه وذهبت حدته ويكاد لا يرى»([3]).

و يبقى العقل في فكر الغزالي أحد أهم الركائز الأساسية لإصلاح تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... وأن الإسلام حركة فعقلية تقدمية مستنيرة تنتقل بالعقل البشري من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان.

المبحث الثالث

تعريف السنة و خصائص السنن الإلهية و حاجة المسلمين إليها

المطلب الأول: السنة لغة و اصطلاحا

[1]) محمد الغزالي – السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – ط 8 – منشورات دار الكتب – الجزائر – 1990م.

[2]) عمار جيدل – دور الشيخ الغزالي في ترشيد الواقع الإسلامي، منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح – دار اليمن للنشر والتوزيع و الإعلام – قسنطينة، الجزائر – 2004م – ص 56.

[3]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص34.

الفرع الأول: السنة لغة

بالعودة إلى القواميس و المعاجم نجد لفظة سنة لها دلالات و معان عند علماء اللغة، فتنوعت هذه المعاني و الدلالات في سياقات مختلفة(*).

و من أهم هذه المعاني و الدلالات ما جاء في معجم مقياس اللغة لابن فارس في مادة "سن" ما يلي:

"السين و النون أصل واحد مطّرد و هو جريان الشيء و اطّراده في سهولة و الأصل قولهم سَننْت الماء على وجهي أسنُّه سنّا إذا أرسلته إرسالا"([1]).

"وسن فلان طريقا من الخير سُنّة إذا ابتدأ أمرا من البر لم يعرفه قومه فاستنوا به و سلكوه وهو يستن الطريق سنّا و سَنَنًا فالسنَنُ المصدر و السنَنُ الاسم بمعنى المسون"([2]).

و في المصباح المنير (السنة–السيرة و السنَنُ الطريقة يقال: استقام فلان على سَنَنٍ واحد ويقال امض على سنتك و سنَنِك، أي على وجهك و تنح عن سنَن الطريق و سُننه و سِنته ثلاث لغات([3]).

و مرَّ السهم في سَنَنِه أي في طريقه مستقيما كما هو لم يتغير أي لم يرجع عن وجهه([4]).

وقد لخصها حسين شرفة في معان و دلالات أربع مستشهدا بأقوال علماء اللغة "قد ذكر علماء اللغة معان مختلفة للفظ السنة" أو فعل "سن" و تفاديا للإطالة في ذكر تلك المعاني وحتى لا يلتبس الأمر على القارئ سأسوق المعاني المتفق عليها ثم المعاني التي انفرد بها بعض العلماء:

1– السنة بمعنى التوالي و التتابع و الاطّراد

---

*) أنظر الجوهري – الصحاح – 2141/5، الزمخشري: الأساس في البلاغة – ص 221.

إبن منظور لسان العرب 2126/3 – مصدر سابق. و محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين – القاموس المحيط – مصدر سابق – 237/4.

[1]) أبو الحسين بن فارس بن زكرياء – معجم مقاييس اللغة – 60/3 – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الجيل – بيروت.

[2]) تهذيب اللغة للأزهري – للإمام محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت 370هـ) – تحقيق عبد السلام محمد هارون و محمد علي النجار – الدار المصرية للتأليف و النشر – (د ت) - 297/12 مادة سنَنَ.

[3]) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي – للإمام أحمد بن محمد الفيومي (ت 770هـ) –المكتبة العلمية –بيروت.

[4]) المغرب في ترتيب المعرب – لأبي الفتح ناصر الدين بنو المطرز (ت 610هـ) – تحقيق محمود فاخوري عبد الحميد مختار– ط 1 – مكتبة أسامة بن زيد – حلب – 1979 م.

و هذا أول معنى مشترك اتفق بشأنه أئمة اللغة من أصحاب المعاجم و هو المعنى الذي أشار إليه ابن فارس في تأصيله للكلمة و يتفقون في ذكر عبارة سَننت الماء أو التراب بمعنى صببته صبا متتابعا دون تفريق و عبارة "جاءت الرياح سنائن" بمعنى متتابعة وانفرد صاحب اللسان بمثال آخر هو قوله "سنت العين، الدمع تسنه سنا" تصبه و هو لا يخرج عن معنى التوالي و التتابع.

2- السنة بمعنى الطريقة و السيرة

و قد أجمع علماء اللغة على هذا المعنى حتى عده ابن منظور الأصل في لفظ السنة.

3- السنة بمعنى الصقالة و الملاسة

و هو أيضا معنى اتفق أئمة اللغة بشأنه فقالوا: رجل مسنون الوجه أي مصقول و سن الحديد بالمسن أي حده و صقله، وسن الإبل سنا: أحسن رعيها و القيام عليها حتى كأنه صقلها، وسن أضراسه: سوكها كأنه صقلها.

4- السنة بمعنى الوِجْهة و القصد

و قد ذكر هذا المعنى معظم علماء اللغة و أوردوا في ذالك قولهم: "امض على سنتك أو سننك": على وجهك. جاء سنَن من الخيل لا يرد وجهه. تنح عن السنن الخيلُ: "وجهه" ثم يواصل هذه أهم المعاني التي ذكرتها القواميس اللغوية في مادة "سنّ" أو" سَنَن " و قد تبدو هذه المعاني الأربعة للفظ "سُنه" متباينة و ليس بها أدنى صلة و لكننا إذا أمعنا النظر، وجدنا بينها قواسم مشتركة و يبدو المعنى الثاني و هو "السيرة و الطريقة" هما المرادفان للفظ سنة أو هما الأصل في كلمة سنة كما ذكر ذالك ابن منظور أما بقية المعاني فهي مكملة للمعنى الأصلي إما خصائص للسنن أو أوصاف لها([1]).

الفرع الثاني: السنة اصطلاحا

مما لا شك فيه أن بين المصطلحات الشرعية وأصولها اللغوية نتائج وصلات قوية قد تتطابق أحيانا في المعنى و المدلول وقد يزيد الإطلاق (المدلول) الشرعي إضافات جديدة تقتضيها طبيعة

1) حسين شرفة – سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتواره الدولة في العلوم الإسلامية، تخصص كتاب و سنة – إشراف أحمد رحماني – جامعة باتنة – السنة الجامعية 1424/1425هـ، 2003/2004م ص 28-29.

المدلول في سياقه و سوف نوضح مدلول كلمة السنة في الاصطلاح الإسلامي على مختلف التخصصات بإيجاز و تركيز.

1. **معنى السنة عند المحدّثين**

السنة عند أهل الحديث هي ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقدير و زاد البعض: أو صفه خلقية راجعة إلى طبائعه النفسية في حالتي الرضا أو الغضب سواء كانت قبل البعثة أو بعدها و أضاف بعضهم أو إشارة منه أو ما هم به و هي بهذا ترادف في الحديث في المضمون و المنزلة([1])؛ -رعي الأغنام سنة، - الاشتغال بالتجارة سنة.

ثم يضيف مصطفى السباعي فيقول أن "السنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي"([2]).

2. **معنى السنة عند الأصوليين**

يعرف الأصوليون أنها "ما صدر عن النبي صلى الله عليه و سلم -غير القرآن- من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي عملي"([3]).

3. **السنة عند الفقهاء**

أما السنة عند الفقهاء فترد بمعان كثيرة على حسب استعمالها في فروع الفقه ففي العبادات ترد في مقابل الفرض فيقولون فرائض الصلاة و سننها و فرائض الصوم و الحج و سننهما و هكذا يَرِدون السنة في أحكام الطلاق ما قابل البدعة.

و الأصل في استعمالها عند الفقهاء أنها ترادف المندوب و المستحب و التطوع و النافلة والمرغب فيه فكل هذه الأسماء عند غالبهم بمعنى واحد وهو"الفعل المطلوب طلبا غير جازم" أو "ما يحمد فاعله و لا يذم تاركه" فهي صفة لفعل المكلف تندرج تحت الحكم الشرعي كالواجب والمباح و المكروه و الحرام([4]).

"يتبين من هذا التعريف أن الفقهاء ينظرون إلى السنة باعتبارها قسما من أقسام الحكم الشرعي التكليفي "الواجب المندوب المكروه المحرم المباح" و هذا يعني أنهم يعدون السنة فكرا

[1]) مصطفى السباعي -السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي - ط 2 -المكتب الإسلامي -دمشق -1298هـ 1978 م - ص 47.

[2]) المرجع نفسه الصفحة نفسها.

[3]) الوجيز في علوم الحديث - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - الرغاية - الجزائر 1998 - ص 16-18.

[4]) مجدى محمد محمد عاشور - السنن الإلهية في الأمم و الأفراد - مرجع سابق - ص 30.

واستنباطا من النقل و ليس النقل نفسه عن النبي صلى الله عليه و سلم كما يعُدون السنة فهم النقل لا حجيته فقط"([1]).

4. السنة عند علماء التفسير

يتفق علماء التفسير مع المحدثين في تعريف السنة من وجه و لكنهم من وجه آخر تناولوا السنة من حيث هي لفظ خاص تردد في القرآن الكريم و يفسرونها بحسب موقعها من الآيات.

ففي قوله تعالى ﴿قَدْ خَلتْ منْ قَبلِكُم سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبة المكَذِّبِينَ﴾ آل عمران الآية 137، قالوا السنن هي الوقائع في الأمم المكذبة أجراها الله تعالى حسب عاداته و قال بعضهم: السنن هنا الأمم و قال عطاء السنن هي الشرائع و الأديان التي نُسِخت.

و يحصي حسين شرفة لمعاني السنة لدى المفسرين باعتماده عينات من التفاسير القديمة والحديثة والمعاصرة، بعضها من التفسير المأثور وأخرى بالرأي لدى أهل السنة، و لدى الشيعة وقد بلغت جملة التفاسير التي اعتمدتها ثلاثين (30) تفسيرا وبعد استقراء النتائج تبين لي أن معظم المفسرين تعاملوا مع كلمة "سنة" بمعناها اللغوي لا الاصطلاحي فلم يزيدوا على تفسيرها بلفظة مرادفة لها مثل "طريقة" "طرائق" التي تكررت لديهم 44 مرة وفسروها بمعنى العادة أكثر من 24 وبمنهاج أو مناهج 12 مرة وبوقائع 9 مرات وبمعنى السيرة 8 مرات وبمعنى مثال أو الأمثال 8 مرات كذلك. ثم تأتي بعد ذلك معان أخرى بنسب أقل مثل –شرائع، –قواعد، –سُبل، –حكم الله، –أمر الله، وغيرها وقد فسر السنة بالقانون مفسران معاصران هما أبو بكر الجزائري و وهبة الزحيلي. أما تفسير السنة بالناموس فيستعملها سيد قطب كثيرا في تفسيره "في ظلال القرآن"([2]).

5. السنن الإلهية عند الأقدمين

لقد حفل القرآن الكريم بذكر لفظة (سنة) حيث وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم ثمانية عشر مرة و تنوعت معانيها و دلالتها وفق السياقات التي جاء ت فيها "و أن السياق الذي وردت

[1]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصوير الإسلامي – ج 1، ط1 – الأكاديميون للنشر و التوزيع – عمان، الأردن – 1430 هـ، 2009م – ص 39.

[2]) حسين شرفة – سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – مرجع سابق – ص 36.

فيه لفظة غالبا ما يدور حول الصراع بين الحق و الباطل و الكفر و الإيمان و صور الكفر أمام نور الإيمان و أساليب الباطل أمام ضوء الحق ناصع"([1]).

و أحيانا ترد لفظة "سنة" بغرض دعوة الناس إلى النظر و التأمل و استخراج السنة من الأرض و التاريخ يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم و للكافرين أمثالُهَا﴾ سورة محمد الآية 10، و أحيانا يذكر الله تعالى آثار هذه السنن على الأمم السابقة كما في قوله تعالى: ﴿و أذكر أَخَ عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قومَهُ بالأَحْقَافِ و قد خلت النُّذُرُ مِن بين يديه و من خلفه أَلاَّ تعبدوا إلا الله...﴾ سورة الأحقاف الآية 21.

و عندما نستحضر معاني و دلالات لفظة "سنة" كما أشرنا تختلف باختلاف سياقاتها بل تحمل حشدا هائلا من المعاني و في هذا السياق أشار صاحب المنار محمد رشيد رضا إلى هذا قائلا "إن ذكر السنن بعد آيات متعددة في موضوعات مختلفة تفيد معاني كثيرة تحتاج إلى شرح طويل جدا لا معنى واحد كما قيل و إن في القرآن من إفادة المباني القليلة للمعاني الكثيرة لمعرفة السياق والأسلوب مالا يخطر على بال أحد من كتاب البشر و كلماتهم و مثل هذا مما يجب العناية لبيانه"([2]).

هذه الإشارات السابقة الذكر تحيلنا (تقودنا) إلى ذكر السنن عند الأولين و كيف تعاملوا معها و لماذا لم تدون في كتاباتهم و لم تفرد لها مؤلفات و كان الاهتمام بها ضعيفا.

إن مما لا شك فيه و من باب الإنصاف و الموضوعية أن جيل القرون الأولى كان يتعامل مع هذه السنن بشكل عملي تلقائي لأنهم فقهوا الوحي و تفاعلوا معه و نقلوه إلى الفعل و العمل و الممارسة.

وفي هذا الصدد يؤكد محمد عبده على أهمية وضع علم السنن فيقول «والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها و القرآن ركز عليه في مواضيع كثيرة وتدلنا عليه أحوال الأمم وأمرنا القرآن أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها».

[1]) رمضان خميس زكي – مفهوم السنن الربانية – ط 1 - مكتبة الشروق الدولية – القاهرة – 1427هـ، يناير 2006م – ص 40.

[2]) محمد رشيد رضا – تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار – ج 1 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 1973 م – ص 114.

ويضيف محمد عبده وهو يتحدث عن الرعيل الأول من جيل الصحابة قائلا «فلا يحتج بعدم تدوين لهذا العلم فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها القواعد والأصول وفُرّعت منها الفروع والمسائل ولاشك أن الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها يعني أنهم بمالهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب و الأخبار في الحرب وغيرها وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض وكذلك كانت علومهم كلها»([1]).

هذا لا يعني أن هذا العلم (علم السنن) بعد جيل القرون الأولى لم يهتم به، بل ظهرت لمسات قوية في هذا الميدان وإن لم تستوعبه كمجال معرفي متكامل يحيط بكل عناصره.

وقد تجلت هذه اللمسات المتميزة من خلال كتابات بعض العلماء "ففي مجال علم النفس والاجتماع نشط الفكر الإسلامي وعلماء النفس في البحث عن علل العمليات النفسية على يد ابن سينا و الغزالي وغيرهما"([2]).

وللشيخ ابن تيمية بصمات واضحة في تناول السنن والظاهرات «فمنهجه في متناول السنن والظاهرات و إدراك الخلل الذي تصاب به الأمة ومعرفة أسباب ظهور الإسلام وأسباب غربته فيعتبر منهاجا علميا معياريا ولم يكن وعظيا فحسب فقد كان يلجأ إلى قراءة القرآن والسنة قراءة متعمقة لاستخلاص القانون ومعرفة السبب الذي هو وراء تقدم المسلمين و سعادتهم أو السر في انحرافهم وهزيمتهم فكان يطبق هذا القانون الوارد في القرآن والسنة على الوقع»([3]).

وفي مجال الظواهر الاجتماعية كان فضل السبق للعلامة ابن خلدون فقد برز في المجال الاجتماعي و بعد دراسة عميقة توصل حقائق مدعومة من الواقع تُظْهِر خضوع هذه الظواهر لقوانين

---

[1]) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – ج 5 – دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة – طبعة بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1972م – ص 99-105.

[2]) مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في الأمم والأفراد – مرجع سابق – ص97.

[3]) راشد سعيد شهوانه – السنن الربانية في التصوير الإسلامي – ج 2 – ط1 – الأكاديميون للنشر و التوزيع – عمان، الأردن – 1430ه، 2009م – ص242.

وسنن ثابتة ومطّردة كالقوانين التي تخضع لها القوانين الطبيعة والعلمية وقد تجلى هذا الجهد العلمي من خلال مقدمته الشهيرة كتاب مقدمة ابن خلدون.

يقول عمر فروخ في التعليل الاجتماعي عند ابن خلدون: "جمد العقل الأوروبي قرونا على التعليل اللاهوتي للتاريخ، و لكن في أثناء ذلك شع في العالم نور ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة، بالتعليل الاجتماعي أرقى أنواع التعليل و أشملها وأصحها و ابن خلدون من أوائل الذين اهتموا بالتعليل الصحيح للتاريخ و أول من ألف في فلسفة التاريخ وأحسن من كتاب في المجتمعات الفطرية (البدائية) وهو في الحقيقة مؤسس علم التاريخ وموجد علم الاجتماع...

أما تعليله للتاريخ فيقوم على أساسين:

1- استقراء القوانين المسيطرة على سير التاريخ من حوادث التاريخ نفسها ليس ثمة قانون خارج عن نطاق حوادث التاريخ يؤثر في تلك الحوادث،

2- الإلمام بأكبر عدد ممكن من العوامل التي يجوز أن تؤثر في تطوير المجتمع"([1]).

وقراءة هذين العنصرين تشير إلى أن ابن خلدون عندما تحدث عن التعليل الاجتماعي درسه دراسة سننيه وبمعنى آخر أن التعليل يهتم اهتماما كبيرا بالأسباب والنتائج ولاشك أيضا في التاريخ يجب أن يتخذ حافزا لدفع حركة المجتمع إلى الارتقاء والنهوض...

وإذ أردنا أن نحيط بما قدمه العلماء المسلمون الأوائل في هذا المجال لا يتسع نطاق هذا الموضوع ففي ثنايا كتابات هؤلاء العلماء الحديث الكثير عن هذه السنن المبثوثة في مواضيع متنوعة فعلى سبيل المثال ابن القيم الجوزية على غرار أستاذه ومعلمه ابن تيمية يتناول مسائل تتعلق بالسنن الإلهية كمسألة السببية وما يتبعها من شروح و تعليقات فضلا عن تفاسير القرآن التي أسهمت في ذكر الكثير من السنن الإلهية ومن هؤلاء المفسرين "شهاب الدين الألوسى" الذي يعد من أشد المفسرين المتأخرين تمسكا بالقرآن والسنة خاصة في مسائل العقيدة وإن كان حنفي المذهب في الفروع الفقهية إلا أنه يتبع الدليل ويمحص الأدلة ويجمع بينها ولا يخرج عن ظاهر النص إلا بدليل ولذالك جاء تفسيره جامعا بين المعقول والمنقول حتى قيل عنه انه منقطع النظير"([2]).

[1]) عمر فروخ – كلمة في التعليل التاريخ – ط 3 – دار العلم للملايين – بيروت – 1397هـ 1977م – ص11–12.

[2]) مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في الأمم و الأفراد – مرجع سابق – ص 199.

و خلاصة لما تقدم فالسنن الإلهية في فكر ثقافة العلماء القدامى حظيت بإسهامات وافرة وثرية وإن لم تكن مجالات تخصصية تفرد لها موضوعات مستقلة كما هو الشأن بالنسبة إلى العصور التي تلت والتي أفرد لها أصحابها مؤلفات خاصة بالسنن.

6. مفهوم السنة عند الكتاب المعاصرين

يقول محمد عمارة «لقد تمنى محمد عبده أن ينشئ المسلمون —انطلاقا من القرآن الكريم- علما إسلاميا هو "علم السنن" أو "علم الاجتماع الديني" كما استخرجوا من القرآن أيضا كل العلوم الشرعية في الإسلام»([1]).

وبدأت اهتمامات المسلمين في هذا المجال فكانت إسهامات بعض العلماء المعاصرين يتقدمهم الشيخ محمد عبده الذي يتحدث عن حاكمية هذه السنن الربانية في الكون والاجتماع وهي «أن حاكمية هذه السنن التي -لا تبديل لها ولا تحويل— لا تعني الجبرية التي تجرد الإنسان من حريته واختيار وتسخره لقوانين هذه السنن... وإنما تعني أن وعي الإنسان بقوانين هذه السنن وقواعد حركتها هو الذي يجعل الإنسان قادرا على تسخيرها في الاتجاه الذي يريد... ذلك أن كل ما في الكون -بما في ذلك السنن والقوانين— هو مسخر من الخالق سبحانه وتعالى للإنسان الذي استخلفه الله لحمل أمانة عمارة هذه الأرض وفق الشرائع والقوانين التي وضعها الله تعالى».

فاكتشاف السنن والوعي بقوانين حركتها هو الذي يحقق سيطرة الإنسان عليها ويجعله قادرا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها بينما الغفلة غفلة هذا الإنسان عن هذه السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذي يجعله ضحية لهذه القوانين التي لا تبديل لها و لا تحويل، حتى و لو حسنت نوايا هذا الإنسان و عاش غارقا في بحار الأمنيات والأحلام و الأدعية و التوسلات و صدق الله العظيم ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم و لاَ أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَ لاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لاَ نَصِيرًا﴾ سورة النساء الآية 123([2]).

تلت هذه الإسهامات المبثوثة في ثنايا كتاب محمد رشيد رضا دراسات في موضوع السنن الإلهية منها ما هو من صميم الدراسة السننية مثل:

---

[1]) رمضان خميس زكي – مفهوم السنن الربانية – مرجح سابق – ص 5.

[2]) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ 5 – مرجع سابق – ص 99.

– كتاب عبد الكريم زيدان "كتاب السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية"،

– كتاب "السنن الإسلامية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول و ضوابط" للدكتور مجدي محمد محمد عاشور،

– السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك للدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب،

– مفهوم السنن الربانية للدكتور رمضان خميس زكي،

– السنن الربانية في التصور الإسلامي د/ راشد سعيد شهوان،

– أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق للدكتور أحمد محمد كنعان،

– كيف نتعامل مع القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي.

وكان الهدف من الاطلاع على تلك الدراسات هو الوقوف على مفهوم تعريف أصحابها للسنن وقد تنوعت هذه التعاريف إلا أنها تلتقي في معنى مشترك، وأهم هذه التعاريف، تعريف صاحب المنار "محمد رشيد رضا" حيث تناول تعريف السنة بقوله "فالسنن هي النظام الذي جرى عليه أمر الأمم وأن ما يقع للناس في كل زمان ومكان من الوجود في شؤون اجتماعاهم وحياتهم مطبق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل([1]).

"أما الشيخ محمد عاشور يقول أن «سنة الله هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم والأفراد بناء على أفعالهم و سلوكهم و موقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة»([2]).

أما سيد قطب رحمة الله وضح أن السنن هي «النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة وأن ما يقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين»([3]).

[1]) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج1 – مرجع سابق – ص 141.

[2]) مجدى محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في القرآن الكريم، أصول و ضوابط – ط1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة، مصر – 1427هـ، 2006م – ص 36.

[3]) سيد قطب – في ظلال القرآن–ج 1 – ط 9– دار الشروق – القاهرة، مصر – 1400هـ،–1980م – ص 479.

أما عماد الدين خليل فيرى «أن السنن هي النواميس التي تُسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ وعبر مسالكها المقننة التي ليس إلى الخروج عليها من سبيل، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغريزة وأخلاق وفكر وعواطف ووجدانا ومن قلب العلاقات والوشائج و الارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان»([1]).

ومن التعاريف التي ركزت و أوجزت التعاريف السابقة ما ذكره حسين شرفة في أطروحته "سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة" قوله «السنن الإلهية مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطردة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات – سلبا وإيجابا– بالنتائج بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله»([2]).

المطلب الثاني: خصائص السنن الإلهية

تتسم السنن الربانية بجملة من الخصائص و قد ذكرها العلماء و حددوها في الخصائص الآتية:

- الربانية،
- الثبات،
- العموم،
- التوازن،
- الاتساق.

الفرع الأول: الربانية

الخاصية الأولى الربانية، وهي مصدر صناعي كما يقول علماء اللغة منسوب إلى "الرب" زيدت فيه الألف و النون على غير قياس، ومعناه الانتساب إلى الرب أي الله سبحانه وتعالى ويطلق على الإنسان أنه "رباني" إذ كان وثيق الصلة بالله، عالما بدينه و بكتابه ومعلما له([3]). و

[1]) عماد الدين خليل – التفسير الإسلامي للتاريخ – دار العلم للملايين – بيروت – 1981م – ص 108.

[2]) حسين شرفة – سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – مرجح سابق – ص 46.

[3]) يوسف القرضاوي – الخصائص العامة للإسلام – مكتبة وهبة – القاهرة – د ت – ص 7.

في القرآن الكريم ﴿...وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ الآية 79 من سورة آل عمران.

«و المقصود بالربانية في السنن أنها منسوبة إلى الله تبارك وتعالى فهي من خلق الله تعالى وقدر من أقداره عز وجل و تشريع من تشريعاته فهو سبحانه من سنها ووضعها و أجراها ولذلك فالسنن الإلهية من صميم العقيدة و مرتبطة بالقضاء و القدر فقد تعبدنا الله جل ذكره بالسير وفق تلك السنن تماما كما تعبدنا سبحانه ببقية التشريعات و أناط تكليف الإنسان بها»([1]).

و يؤكد القرآن الكريم على ربانية السنن و على أن كل ما في الكون سلوك لله تعالى وذلك في كثير منة الآيات و الدلائل الساطعة الجليلة التي بثها في الأنفس و الأفاق قال تعالى ﴿قل أغير الله أبغي ربا و هو رب كل شيء...﴾ الآية 164 من سورة الأنعام، و قال أيضا ﴿...أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات و الأرض و هو يطعم و لا يطعم﴾ الآية 14 من سورة الأنعام.

و الإيمان بهذه الخاصية يقتضي من الإنسان أن يؤمن بأن كل ما في هذا الكون يرد إلى الخالق الحكيم و المدبر العظيم «فكل ما في هذا الكون من قوانين جامعة و سنن جبلية قد خلقها الله منذ الأزل و هي تشير بعناية الله و أمره و تدبيره فهي ليست أزلية أبدية و لا مطلقة واجبة وقد رتب فيها الأسباب على المسببات وفق إرادته وحكمته لا بصورة تلقائية ذاتية كما يزعم الماديون وكل هذه السنن تشهد بوحدانيته الكاملة وتثبت ربوبيته المطلقة. وتبصرنا هذه الخصصية بالاهتمام بالقضاء و القدر الاختياري و الجبري في مسيرة التاريخي و تكشف لنا بأن التاريخ البشري تحكمه سنن و نواميس تتصل بالخالق المدبر العظيم و تخضع لحكم و غايات ربانية...»([2]).

الفرع الثاني: الثبات و الاطراد

[1]) حسين شرفة – سنن الله في أحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – مرجح سابق – ص 96.

[2]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – ج 1 – مرجع سابق – ص 109.

«و المقصود بالثبات هنا أنها لا تتغير عن ماهيتها و أنما أجرى الله تعالى به العادة لما يتهيأ لأحد أن يقلّب تلك العادة و لا أن يخالفها الله بغيرها لان مقتضى حكمته و علمه فلا تجرى متعلقاتها إلا على سنن واحد»([1]).

و قد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تثبت هذا المعنى و تقويه كقوله تعالى ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب الآية 62 و أيضا قوله تعالى ﴿...فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ سورة فاطر الآية 43.

والآية تفيد عدم تبدُّل سنة الله (لن تجد) تنفي أن يكون هناك إمكانا لتبديل سنة لأن 'لن' حرف نفي للاستقبال وهذا يعني نفي أن يكون هناك تبديل سنة في المستقبل ووقوع النكرة "تبديلا" في سياق النفي "ولن تجد" يفيد عموم عدم وقوع أي تبديل من أي وجه لسنة الله عز وجل([2]).

فمثلا "السنن التاريخية ثابتة وما عرفنا خرقا لها جرى في الماضي والحاضر فالمتأمل في سيرة الأمم الماضية والمتفحص للتاريخ يجد أن هناك قوانين وسننا ثابتة تحكم حركة التاريخ والتغيرات الاجتماعية التي تمر بها الأمم والشعوب وفق تعاملهم مع منهج الله ونظامه الذي ارتضاه للناس([3]). "وهذه الحقيقة أكدها القرآن في أكثر من أية كقوله تعالى ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ ألأحزاب الآية 62، وفي هذا يقول أحمد محمد كنعان "لو لم تكن سنن الله ثابتة على هذه الحال لما كان في هذا الوجود توازن ولا استقرار ولكانت الفوضى حينئذ هي سمة الخلق لله وهذا ما يتنافى مع الواقع المشهود الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار كما قال الله تعالى في وصفه ﴿...وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ سورة القمر الآية 3([4]).

ويوجزها حسين شرفة في هذا المعنى قائلا: «أن لثبات السنن الإلهية و اطرادها أسبابٌ موضوعية علمية فوق كونها تقدير الله تعالى وقدره وهذه الأسباب تعطى السنن طابعها العلمي

[1]) مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في القرآن الكريم، أصول و ضوابط – مرجع سابق – ص 99.

[2]) أحمد بن إدريس القرافي (شهاب الدين أبو العباس) – شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول – تحقيق : مكتب البحوث والدراسات بدار الفكر – دار الفكر – لبنان – 1424هـ، 2004م – ص184.

[3]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – مرجع سابق – ص 117.

[4]) أحمد محمد كنعان – أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – ط1 – كتاب الأمة دار الكتاب القطرية – 1990م – ص 68-69.

الموضوعي وتبعدها عن العشوائية والاعتباطية فيتعامل الناس بمقتضى تلك السنن وهم مطمئنون إلى كونها قوانين علمية صارمة ومعادلات رياضية دقيقة ترتبط فيها النتائج بالمقدمات والأسباب بالمسببات»([1]).

الفرع الثالث: العموم و الشمول

و من خصائص السنن الإلهية أنها شاملة عامة تنطبق على البشر جميعا و ليست خاصة بطائفة دون طائفة و لا جيل دون جيل فهي كما قال سيد قطب «لا تنخرم في أمة من الأمم أو حال من الأحوال بوجود فرد معين أو صفة خاصة فليس هنا قوم أو أمة معينة مستثناة من سنن الله فلا تتحقق فيهم سواء أكانت سنن ثواب أم سنن عقاب»([2]).

وفي نفس السياق يقول ابن تيمية «فالسنة هي العادة في الأشياء المتماثلة فإذا فعلت أمة مثل ما فعلت أمة سابقة حلت بها سنة الله نفسها التي حلت بالأمة السابقة»([3]).

و من الآيات الدالة على العموم قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُم خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ سورة القمر الآية 43.

حيث تخاطب الآية مشركي مكة و المعنى ليس الذين كفروا منكم خيرا من أولَئكَ الأمم التي تقدم ذكرها ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل و كفرهم بالكتب فلا تظن أن يشملهم العذاب دونكم أو مع كفار مكة من الله براءة أن لا ينالهم عذاب و لا نكال([4]).

فسنن الله لا تستثني أحدا و لا تحابي أحدا سواء أكان يهوديا أم نصرانيا يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه أم كانوا مسلمين من خير أمة أخرجت للناس أم كانوا من أي ملة أو شعب فسنن الله ماضية لا تتوقف و قد رد الله عز وجل على اليهود و النصارى إذ زعموا أنهم أحباء الله و أولياؤه فقالوا "نحن أبناء الله و أحباؤه" و كان الرد قويا و صريحا ﴿قُلْ فَلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و لله ملك السماوات و الأرض و ما بينهما و إليه المصير﴾ سورة المائدة الآية 18.

---

[1]) حسين شرفة – سنن الله في أحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة – مرجع سابق – ص 171.

[2]) سيد قطب – في ضلال القرآن – ج 4 – ط 9– دار الشروق – القاهرة، مصر – 1400هـ،-1980م – ص 2246.

[3]) أنظر جامع الرسائل لابن تيمية ص 55.

[4]) تفسير القرآن العظيم للحافظ إبن فداء إسماعيل إبن كثير القرشي الدمشقي (ت774هـ) – ج 4 – مطبعة دار الحديث – القاهرة – ط 2 – 1410 هـ 1990م – ص 266.

و الحاصل من صفة العموم للسنن الإلهية أن أي مجتمع أخطأ أو انحرف متنكبا سنن القانون الإلهي لقي جزاء خطئه أو انحرافه أو تنكبه و لو كان خير المجتمعات و حسبنا في هذا ما دفعه الصحابة ثمنا لخطئهم في غزوة أحد و هو ما سجله القرآن الكريم عليهم بوضوح في قوله تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم...﴾ آل عمران الآية 165، و بين في آية أخرى هذا الذي عند أنفسهم بقوله تعالى: ﴿...حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم...﴾ أل عمران الآية 152([1]).

الفرع الرابع: النفاذ و عدم التخلف

و من خصائص سنن الله النفاذ و عدم التخلف فهي قاهرة لمن يتعرض لها ﴿وَ هُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ سورة الأنعام الآية 18، نافذة لا تتخلف متحققة الوقوع ﴿...إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران الآية 47، و لا يحول هذا النفاذ جهل الأمم فمن تعرض لسنة من سننه و التي جهلها بتقصيره حلت به تلك السنة و لا يعذر بذلك الجهل قال تعالى ﴿أَوَ لَمّا أصَابتْكُم مُصِيبةٌ قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ...﴾ سورة آل عمران الآية 165([2]).

فقول المؤمنين "أنى هذا" ثم عن غفلتهم عن سنة الله التي لا تعرف المحاباة فجاءهم الجواب ينبهُهم إلى مخالفتهم لسنة الله تعالى حين عرضوا أنفسهم لها و من عرض نفسه لسنة الله تعالى لابد أن تطبق عليه مسلما كان أو مشركا"([3]).

"و لا يحول أيضا دون وقوع سنن و نفاذها قوة المجتمع أو الأمة فقوة القوى أمام قوة الله عز شأنه، هزيلة ضعيفة، فالله عز وجل لا يعجزه شيء و لا يحول دون إرادته شيء و كم من أمة كانت متمكنة في الأرض صاحبة جبروت و قوة أهلكها الله و أصبحت أثرا بعد عين"([4]).

و يوجزها حسين شرفة في النقاط التالية:

---

[1]) يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف – ط 3 – رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية – قطر – شوال 1402 هـ – ص 102/101.

[2]) أنظر : سيد قطب – في ظلال القرآن – ج 1 – ص 476.

[3]) نفس المصدر – نفس الصفحة.

[4]) عماد الدين خليل – التفسير الإسلامي للتاريخ – ط 1 – دار العلم للملايين – بيروت – 1975 م – ص 114.

– أنها تمثل قدرة الله تعالى القاهرة الغلابة التي لا يحول دون تحققها قوة أو جبروت كما أنه لا يردها جهل أو غفلة،

– أن نفاذها عام و صارم لا يعرف المحاباة و لا يفرق بين مؤمن و كافر فمن تعرض له انطبقت عليه كائنا من كان،

– أنها تمثل كلمات الله عز وجل التي لا مبدل لها، فهي تمضي إلى هدفها في أجلها المحدود، و لا تقبل شفاعة و لا رجاء و لو كان من نبي مرسل، لأن السنن من كلمات الله الكونية التي لا يجاوزهن برٌّ و لا فاجرٌ كما نطق بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه و سلم"([1]).

و من العلماء من يضيف خاصيتين هما الحكمة و العدل و الواقعية أما خاصية الحكمة والعدل فيرى فيه العلماء "أن من خصائص سنن الله سبحانه و تعالى أنها تتسم بالحكمة و العدل لأنها من فعله عز وجل و فعل الله هذه صفته دائما لأن من أسماء الله الحسنى الحكيم و العدل فهو عز وجل حكيم في أفعاله بل أنه عز وجل له الغاية و الكمال الأتم في ذلك"([2]).

و قد جاءت الكثير من الآيات القرآنية الكريمة تؤكد على هذه الصفة كقوله تعالى ﴿ألرَ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ سورة هود الآية 1، و قوله أيضا ﴿...يريد الله لبين لكم و يهديكم سنن الذين من قبلكم و يتوب عليكم و الله عليم حكيم﴾ النساء 26، أما خاصية الواقعية يقول سيد قطب «من خصائص سنن الله في الحياة الإنسانية أنها تترتب وفق معتقدات البشر و أفعالهم فأفعال الناس الصادرة عن معتقدات معينة هي التي يجعلها الله عز وجل سببا في ترتب بعض السنن عليها»([3]).

المطلب الثالث: حاجة المسلمين إلى فقه السنن

[1]) حسين شرفة – سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – مرجح سابق – ص 198.

[2]) أبو حامد الغزالي بن محمد الغزالي – المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى – تحقيق فضلة شحادة – دار المشرق – بيروت – ص 130–131.

[3]) سيد قطب – في ضلال القرآن – ج 1 – ص 17–18.

الفرع الأول: الحاجة إلى فهم السنن القرآنية

مفهوم السنة عند الغزالي

يوضح محمد الغزالى «أن لله تبارك وتعالى سننا ثابتة وقوانين خالدة في سير المجتمعات البشرية تشبه السنن والقوانين التي تدور بها الأفلاك وتتحرك بها المادة وتضبط بها قوانينها في كل جامد وسائل تلك هي القوانين التي تجعله مجتمعا يزدهر وآخر يضطرب»([1]).

وكلمة سنة في نظر محمد الغزالي تعنى «القانون المطرد الذي لا يختلف إلا في قضايا السنن الخارقة ([*]) وفي سياق آخر يقول "أن القرآن الكريم نبه فعلا إلى أنه كما توجد سنن كونية في إطار المادة تجعل درجة الغليان مثلا عند المائة ودرجة التجمد عند الصفر أو تجعل للغازات ضغوطا معينة... كذلك الأمر في الحضارات البشرية وانهيارات الأمم و انتصاراتها أنها تخضع لقوانين لا يمكن أن تتبدل...

ويعتقد الغزالي "أن سنن الله في المجتمعات هي صور أخرى مكملة أو امتداد طبيعي لسننه في ميادين العلوم التطبيقية وإن كانت كيميائية أو فيزيائية أو نباتا أو حيوانا أو أي شيء»([2]).

و يقصد الغزالي بالسنن الكونية الظواهر الكونية التي أسس عليها الكون من سماوات وأراض و ذرات وبحار ومجرات وبتعبير القرآن الكريم "الآفاق".

الفرع الثاني: حاجة المسلمين لفهم السنن والتعامل معها

إن معرفتنا بالسنن تجعلنا أقدر على تسخير الكون بما فيه من حولنا والاستفادة من ذلك في تصريف شؤون حياتنا فضلا عن تحديد مسار سلوكنا وفق ضوابط تحدد المعالم والأهداف والسبل الموصلة إليها.

لذلك نرى علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة والفكر يولون اهتماما مميزا لفقه السنن من بينهم الشيخ محمد الغزالي الذي يرى أن دراسة السنن وفهمها أشد من حاجتهم للحكم التشريعي بل

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – دار الرجاء – عنابة، الجزائر- رمضان 1409هـ، 1989م – ص 46.

[*]) السنن الخارقة

[2]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 49.

أحيانا مقدمة على الأحكام التشريعية التي ضخمت وطغت على الإسلام بكل أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ففي كتابه "سر تأخر العرب والمسلين" أدرك أهمية دراسة السنن والحرص عليها وإحيائها في الأمة و ها هو يتناول مجموعة من القوانين التي استقاها من القرآن الكريم فيقول "إن القوانين العشرة السابقة (*) نموذج لما يكفل الحضارات ويحصن الأمم، ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق ومهما كان الوزن لفروع الفقه فهذه الأصول أسبق والعكوف عليها أجدى ذلك أنها حقائق والمقابل لها أباطيل أو أنها معروف والمقابل لها منكرا أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يعدو أن يكون وجهات نظر قد تكون متساوية الأجر عند من يصوبون كل اجتهاد أ ومتفاوتة الأجر عند من يرون المجتهدين عرضة للخطأ والصواب!!...

يقول الفقهاء: «لابد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام ويقول آخرون لا تجوز قراءتها!! ليكن هذا أو ذاك وليختر من يشاء فما يقوم الدين أو ينهدم بأحد المذهبين إنما يضيع الدين والدنيا معا بذهاب الخشوع واستحكام الأثرة وإطاعة الهوى والذهول عن سنن الله الثابتة في استخلاف الصالحين وتأديب الجهله وإهاله التراب على ما يفعلون»([1]).

أما السنن الإلهية وتارة يطلق عليها بالقوانين القرآنية فهي النظام الإلهي في الأفراد والجماعات والشعوب والمجتمعات "وهي لها دقه القوانين العلمية التي تسمح بجري السفن ودوران الآلات في المصانع"([2]). ولا يتحقق هذا النظام إلا بتوافق المجالين أي سنن الأنفس وسنن الأفاق "والناظر بين هذين المجالين يجد ارتباطا عجيبا وتناسقا بديعا من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة فقوانين الآفاق التي تحكم الكون بظواهره تخضع لثبات واطراد وشمول و حاكمية مهيمنة فالماء يصل إلى الغليان عند درجة مائة ويتجمد عند درجة الصفر وهذا القانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل بل يعطى نتيجة لكل من يتعامل معه دون النظر إلى طبيعة من يتعامل معه لأنه قانون ماض على الجميع لا يحابى ولا يجامل ولا يستثنى وكما يمضى هذا النظام الإلهي في جوانب الكون الإعجازية... يمضى أيضا في جوانب الحكم على أفعال البشر في الحياة فإن مصدر هذه القوانين الكونية وتلك القوانين الإلهية في الأمم والأفراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى وهناك ارتباط و تآخ بين المجالين المجال الكوني بما فيه

(*) أنظر محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلين.

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب المسلمين – مصدر سابق – ص32-33.

[2]) نفس المصدر – ص30.

من جوانب الإعجاز والنظام والجانب البشري بما فيه من سلوك البشر وأفعالهم..."([1]). ومن هنا كثر تنبيه القرآن الكريم إلى النظر في الأرض والسماء والتفاعل بين النظام الكوني في الخلق و الإبداع والنظام البشري في السلوك والأفعال حتى لا تكاد تجد آية تتحدث عن نظام خلق السموات والأرض و إبداعها إلا ومعها حديث يخص النظام البشري، والقرآن حافل بهذه النماذج الراقية التي تتساوق وتتناسق في معان موحية و دقيقة كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق و إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل﴾ سورة الحجر الآية 85.

و قوله الحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ الأنبياء الآية 16. وقال أيضا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (16) لَوَ اَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (17) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ سورة الأنبياء الآيات 16-18، واضح من خلال هذه النظرة الشاملة، بل السنة والوحي، أن "ليس هناك فوضى في الكون من ناحية البناء العلمي له ومن ناحية الانطلاق الحضاري سنن قائمة بيقين وسنن ثابتة وقد انطبقت هذه السنن على صاحب الرسالة نفسه نصرا و هزيمة فعندما قصروا في اتخاذ الأسباب المطلوبة لاستكمال النجاح في "أُحد" هُزِموا وقيل لصاحب الرسالة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَئٌ...﴾ آل عمران 128، وإذا استكملوا أسباب الانتصار انتصروا وما يتصور أن أمة من الأمم تحابى أو تستثنى من هذه القوانين وقد طبقت هذه القوانين نفسها على أمتنا خلال الأربعة عشر قرنا من تاريخها"([2]).

و ينبه عمر عبيد حسنه إلى إهمال وغفلة العلماء والمفكرين المسلمين لسنن الحياة وعدم فقهها فيقول إن: «معظم العلماء والمفكرين المسلمين... صرفوا جهودهم كلها في استنباط الحكم التشريعي من الآيات دون الوقوف عند الأهداف الكثيرة الأخرى التي جاءت الآيات من أجلها وأنزلت للفت النظر إليها وإدراك أبعادها والتزامها في الحياة فجعلوا الآيات موضوع الدراسة هي آيات الأحكام التي وضعوا لها أعدادا متقاربة (300-500). أما ما وراء ذلك من آيات السنن والقوانين والشروط التي تكون أكثر أهمية وأولى بالنظر حيث البناء الحضاري وشروط القيام بأعباء الاستخلاف الإنساني فلم يعيروها أدنى اهتمام أو الاهتمام الكافي على الأقل وبقيت آيات القرآن الأخرى على

[1]) محمد الصادق عرجون – سنن الله في المجتمع من خلال القرآن – ط 3 – الدار السعودية – 1404هـ، 1984م – ص11.

[2]) كيف نتعامل مع القرآن – محمد الغزالي – مصدر سابق – ص49 –50.

أهميتها تتلى للتبرك إلى درجة وصلت عند بعضهم وكأن القرآن كله أصبح كتابا لفقه آيات الأحكام فقط –حتى الآيات التي وردت لتبيين أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسلمون حذرهم فلا تتسرب لهم إصابات الأمم السابقة وعللها– جعلوها دليلا لصحة القياس التشريعي بعيدا عن سياقها الأصلي»([1]).

و يُستشف من هذه الفقرة أن العلماء والمفكرين المسلمين يعلنون قصّورا في معرفة سنن الله و من ثم لم يستطيعوا توظيفها وتسخيرها والانتفاع بها.

فالأمة بحاجة إلى فكر واع يقوم على التدبر في سنن الله تعالى وفقه التعامل معها وإن كثيرا من العلل والأمراض تسربت إلى كيان الأمة، في ظل عدم الفهم الكامل لمعاني آيات القرآن الكريم، وكان الأولى بالعلماء خاصة العصور المتأخرة أن يبذلوا جهودا كبيرة في حقل الدراسات القرآنية و أن يقوموا ببيان ما هدى إليه القرآن الكريم من سنن الله تعالى في الأمم والجماعات والأفراد.

كما يحذر هذا النص من هدر وضياع طاقات كثيرة بذلها علماء ومفكرو الشريعة في مسائل و قضايا ليست من صميم الدين «وقد ألهى انشغال علماء الإسلام وفقهائه نظريات كلامية تسربت إليهم من الثقافات الأخرى وأخذتهم الافتراضات الفقهية التي استغرقت جهودهم وأوقاتهم واهتموا بالحواشي و التقارير الخاصة بالتعليق على شرح المتون الفقهية والكلامية وغيرها مما يأتي في آخر درجة في سلم الأولويات فكان كل هذا وغيره على حساب فقه السنن الإلهية في الكون والأنفس والاجتماع والحضارات وكانت هذه عوامل أقْعَدت حركة الإبداع والتقدم والازدهار في الحياة الإسلامية كما لا تزال عوامل أخرى في عصرنا الحديث تصد المسلمين عن فقه سنن الحياة واستيعابها بالقدر الذي يخرج الأمة من التكاسل والتبعية التي تعيش فيها منذ قرون»([2]).

الفرع الثالث: حاجة المفكر المسلم لإدراك السنن

الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي أي فقه السنن وتدبرها والتعامل معها والحث على الاعتبار بها والاهتمام بالسنن الإلهية من الأمور الواجبة ديانة لأن معرفتها معرفة لبعض الدين وفي هذا المعنى يقول عبد الكريم زيدان «فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء من معرفة

[1]) محمد الغزالى –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 63.

[2]) محمد الغزالى – المصدر نفسه – ص 88.

الدين أو معرفة لجزء من الدين وأن هذه المعرفة ضرورية ومن الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا تقع في الخطأ والغرور و العثار و الأماني الكاذبة وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين»([1]).

ومع أن هذه السنن ظاهرة في القرآن الكريم في سنة النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن كثيرا من المسلمين قد غفلوا عنها وأهملوها ورغم أن هذه السنن من الحقائق التي لا مرية فيها ون المحكم القرآني الذي لا شبهة فيه «ويمكننا أن نقول إن الانحسار الحضاري الذي يعاني منه المسلمون اليوم كان سبب العدول عن الانضباط و الانسلاك بالسنن التي شرعها الله للشهود الحضاري و يخشى أن نقول إن بعض علل الأمم السابقة التي حذرنا الله منها والتي كانت سبب انحسارهم الحضاري تسربت إلى المسلمين في عصور التخلف والانسلاخ عن الدين فكان العدول عن كشف السنن هو الذي أورثنا الاستنقاع الحضاري الذي نعاني منه ونظن أننا أكثر إيمانا ويقينا كما فعل رجال الكنيسة فأوقفوا عجلة الحضارة والتقدم العلمي»([2]).

أدرك محمد الغزالي الخلل الكبير الذي أصاب الأمة بسبب إهمالها للسنن الإلهية، وطرح هذا السؤال المشروع من طرف الدكتور عمر عبيد حسنه على الشيخ "كيف يمكن الوصول بالمفكر المسلم لإدراك هذه السنن من القرآن الكريم والسنة بأبعادها لتصبح فقها تغييريا ومناخا تربويا يمكن أن تنشأ عليه الأجيال من خلال النظر في القرآن وتلاوته مع الإفادة من التبصير في عمل هذه السنن في الأمم"([3]).

و في نظره أن إدراك هذه السنن لا يتحقق إلا بتهيئة ظروف ملائمة من خلال ثلاثة عناصر أساسية هي:

1- الفقه التغييري: والذي يعني تحقيق تعبيد الناس لله في كافة شؤونهم الخاصة والعامة وأن يكون هذا التغيير الجذري للكيانات الجاهلية وليس ترقيعا لها أو إصلاحا لجانب من جوانبها وأن لا يصطدم بالتقنيات العلمية أو بتعارض مع التقدم التقني كما يكون ناقضا لأسس المجتمع الجاهلي

[1]) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية – الدكتور عبد الكريم زيدان – ط 3 - مؤسسة الرسالة – دمشق - 1419هـ 1998م – ص 16-17.

[2]) أحمد كنعان – أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – مرجع سابق – ص21.

[3]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص49.

التشريعية والفكرية وإحلال أفكار الإسلام ومبادئه وتشريعاته مكانها والتغيير في نظر الغزالي "يشمل كل الجوانب –النفسية والثقافية– التي فيها إعادة تشكيل الإنسان"([1]).

2- المناخ التربوي: وينبغي أن يراعي فيه ثقافة المجتمع بكل أبعادها الحضارية والتراثية من دين وأخلاق ولغة وآداب إضافة إلى ذلك كل ما هو صالح ومفيد في المدنية الغربية كالأسلوب العلمي وتحري الحقائق بصورة موضوعية والتفتح على الغرب واقتباس أفضل ما عنده من علوم وتقنية وتنظيم فلننشئ المعاهد العلمية ذات المختبرات الحديثة والمكتبات ولننشئ المصانع والحقول التجريبية والزراعية ولتستثمر ما وهبنا الله من خيرات و لنساهم في بناء الأرض في كل مكان"([2]).

إذن فالمناخ التربوي هو توفير البيئة الصالحة المؤهلة لبناء الفرد المسلم القادر على حمل وتحمل الأمانة الثقيلة وهي أمانة الشهود الحضاري مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَالِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلىَ النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ سورة البقرة الآية 143.

3- الإفادة من التبصر في عمل هذه السنن في الأمم السابقة: يسرد القرآن الكريم بعض الحوادث التاريخية وشعوب غابرة لا من حيث كونه كتاب تاريخ بل لأن هذه الحوادث تحوى عبرا أخلاقية واجتماعية للمجتمعات البشرية في كل زمان ومكان فالكفر والطغيان و الفساد والإخلال بالموازين المادية والمعنوية كلها تعمل على تقويض المجتمع وانهياره وذلك ما حدث لقوم نوح وقوم عاد و مدين ولوط وفرعون وغيرهم فكل هؤلاء هلكوا لخروجهم عن السنن الإلهية المقررة في حياتهم الروحية والأخلاقية والاجتماعية مثال ذلك العبر التاريخية المتتالية في سورة الأعراف فهي تصور ما حدث لهذه الأقوام بسبب تخلفهم الروحي أو الخلقي أو الاجتماعي وعدم إصغائهم للأنبياء والرسل.

وفي هذا السياق يتحدث الغزالي عن أحوال الأمم السابقة كما عرضها القرآن الكريم فيقول «تدبر هذه الخلاصات المعتصرة من تجارب التاريخ ومن حصاد الأمم القائمة والذاهبة وسل نفسك كم أفدنا نحن المسلمين من تقرير القرآن لها –تدبر هذه الحكم القرآنية التي تمثل قوانين كونية صارمة.

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – المصدر السابق ص 155.

[2]) محمد الغزالي – نفس المصدر – نفس الصفحة.

و يذكر لنا طائفة من سنن الله الكونية في بقاء الأمم وهلاكها ويرى "أن هذه القوانين القرآنية في هذا المجال لها دقة القوانين العلمية...([1]).

في سورة القصص شرح مستفيض لعواقب الحكم الفردي و الاستبداد السياسي وشرح آخر لعواقب الطغيان الاقتصادي والاغترار بالمال العريض أوجزه المولى تبارك وتعالى اسمه في هذه الخلاصة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا و العاقبة للمتقين﴾ سورة القصص الآية 83»([2]).

ففرعون رغم تمكين الله سبحانه له في الأرض وإتيانه من الكنوز والحكم وأسباب الملك إلا أنه أبى أن يقابل هذه النعمة إلا بالكفر والجحود و الاستبداد و ادعاؤه الأُلُوهيه و الاستخفاف بالعقول فأرسل الله إليه موسى عليه السلام وهارون من أجل إقامة لحجة —وبيان شطط فرعون و انحرافه عن الفطرة التي فطر عليها الإنسان و جبل عليها الناس— رغم علم الله أنه لن يؤمن وإقامة الحجة ليكون هلاكه على رغم كثرة الآيات والمعجزات و طول مدة المحاججة إلا أنه أبى إلا الكفر والعناد والجحود والاستكبار فكانت نهايته الغرق والهلاك.

ومن أبرز النماذج في تاريخنا المعاصر تجربة الاتحاد السوفيتي الذي مارس كل أنواع الاضطهاد و الظلم والتعسف فضلا عن المجازر المرتكبة في حق المسلمين ولم يستفد الاتحاد السوفيتي من النموذج القيصري المستبد والذي آل أمره إلى دمار وتمزق لم تشهد البشرية المعاصرة مثلا له وقد تحققت سنة الله في النظم المستبدة بانتهاء الطغيان السياسي والاقتصادي بالدمار والهلاك.

و في سورة يوسف، و في أطواء فصول مثيرة من الغربة و السجن و الإغرار و الظلم يبرز قانونان جليلان ﴿...إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبر فإن الله لا يُضِيعُ أجْر المحسنين﴾ يوسف الآية 90، والآخر ﴿...لا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ يوسف الآية 87(3).

سنة الصبر على النوائب و الملمات فعاقبة الصبر التمكين و النصر لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمُ أَئِمَّةً يهدون بأمرنا لما صبروا...﴾ عودة إلى الآية 24 من سورة السجدة.

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 30.

[2]) محمد الغزالي – نفس المصدر – نفس الصفحة.

[3]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق — ص 8.

فلا فوز و لا تمكين و لا إمامة في الدين و الدنيا إلا بالصبر و التقوى و النجاح عن جدارة و استحقاق و تجاوز مرحلة الابتلاء بمرتبة الشرف و دوننا سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فلم ينل شرف الخلة و لم يحز سبق الإمامة إلا بعد نجاحه في الابتلاء ﴿و إِذِ ابْتَلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُنّ قال إني جاعِلُكَ للنّاسِ إمامًا...﴾، عودة إلى الآية 124 من سورة البقرة.

من النماذج الفذة في هذا السياق يوسف عليه السلام فيوسف الذي ولد حرا و نشأ معززا مكرما في كنف أب يحدوه نور النبوة فغمره بالحب و العطف ليجد نفسه مغيبًا في غيابات الجب ثم يباع في سوق النخاسة بدراهم معدودة و لم يقف الأمر عند هذا الحد بل ابتلى في عفته وشرفه فيستعصم و يستمسك بعروة الفضيلة و العفة و ينتهي الأمر به رغم ذلك إلى أقبية السجون ظلما و زورا و مع ذالك لم ينس يوسف عليه السلام ملة أبائه إبراهيم و إسحاق و يعقوب ولم يغب عن خلده منهج الدعوة إلى الله مغتنما كل فرصة لإيصال صوت الحق لأقوام ظلوا الطريق كل هذا لم يفت في عضده متوكلا على الله واثقا في نصره سبحانه و تعالى رغم هذه المقدمات السوداء إلا أن النتيجة كانت بيضاء نقية التمكين ليوسف في الأرض.

ويسترسل في استعراض نماذج تحت عنوان بعض سنن الله الكونية(*) جاءت في شكل عناوين مختصرة ومركزة. ومن النماذج لهذه القوانين من مثل قوله تعالى ﴿... إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ سورة الرعد الآية 11.

يقول الغزالي «وهذه السنة المطردة ذكّر بها القرآن عند هزيمة المشركين في بدر فقد قال لهم الله ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد(51) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب(52) ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ الأنفال 51-53.

فقيل للمشركين هذا الكلام هزمتم لأن القانون الذي أُنْطِق على الفراعنة من عشرين قرنا انطبق عليكم وينطبق على المسلمين بعد ذلك في أُحد»([1]).

إن المتدبر في هذه السنة الإلهية لا يساوره غَبَشٌ ولا يعتريه شك ضوابط قانون التغيير وكم أفدنا نحن المسلمين الراغبين في تعيير أحوالنا وأوضاعنا الراهنة من هذا القانون الإلهي والسنة الماضية

*) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 30-31.

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 50.

فالقائد الرباني صلاح الدين الأيوبي عندما احترم هذه السنة تحقق له النصر الإلهي كما تحقق النصر للقائد قطز في معركة عين جالوت، لأن كلاهما أحسن العدة و العتاد و وفرا شروط النصر.

فالغزالي عندما يستحضر هذه النماذج التطبيقية يعتقد جازما بأن تحقيق تلك الانتصارات المشرفة للإسلام، منهجه الحضاري و الإنساني إبان فجر الدعوة الإسلامية و فتوحاتها المباركة، لم تكن سوى نتيجة و ثمرة منطقية لحسن فقه الجيل الأول من حملة الرسالة الجديدة لسنن الله الإلهية وجميل التدبر لأحوال الأمم الغابرة فالله تعالى وقتئذ كما لاحظ الغزالي «لم ينصر العرب لأنه حابى جنسا على جنس آخر و إنما لأن عدل عمر أجدى و أنفع للإنسانية من جبروت كسرى و لأن ضوابط الوحي عند الصحابة الكرام أفضل للإنسانية من تحريف أهل الكتاب... إن انتصار الجيل الأول من المسلمين على الفرس و الروم يعني انتصار حضارة متفوقة على حضارات تعفنت ووجب دفنها لا محاباة هنالك و إنما هو اطّراد السنن الكونية التي وضعها الله للمجتمع البشري قديما وحديثا و طبقت بصرامة في الأنبياء و الصديقين كما طبقت على العتاة المفسدين: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظرُوا كيْفَ كَانَ عاقِبَة المكذّبين(137) هذا بيان للناس و هدى وموعظة للمتقين﴾ سورة آل عمران الآيتان 137-138»([1]).

إذًا فالجهل بالسنن الإلهية و إغفالها و عدم فقهها لا يقود إلا إلى التمزق و التفكك والسقوط فالأمة إزاء الدعوة الموجهة إليها هي مخيره بين أمرين لا ثالث لهما إما أن تنهض لتعالج مشاكل مجتمعها بما عرض عليها من هداية و إصلاح و هذا لا يتأتى إلا بالعودة الصحيحة لكتاب الله وفقه هداياته، فلا بد من دراسة هذه السنن والعكوف على فقهها واستنباط قوانينها والعمل بها وإما أن تعرض وجودها إلى الدمار لتبقى أثرا بعد عين قال تعالى: ﴿ثم أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كذّبُوهُ فأتْبعْنَا بَعْضَهُمْ بعْضًا وَجَعَلنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعدًا لِقَوْمٍ لاَّ يُومِنُونَ﴾ سورة المومنون الآية 44.

«فالعلم بالسنن الإلهية من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه وأعظم العلوم التي يرتقى بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية

[1]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – – دار الكتب – الجزائر – 1988م – ص 158.

فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء وإنما يرجى كمال الاستفادة منه إذا نُظِر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعا»([1]).

إذن هذه قوانين لا بد أن تراعى ويُهتم بها فدارستها أجدى لامتنا من دراسة أنواع الأحكام الشرعية وإن سنن الله الكونية و قوانينه الإلهية التي أثبتها القرآن الكريم أهم لأنها أدل على معرفة الله وعلى فقه أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله بين عباده.

وملخص لما سبق: أن السنن الإلهية بالنسبة للشيخ محمد الغزالي مسألة جوهرية في حياة الإنسان – أخص المسلم– فتعتبر مسألة الفقه بالسنن الإلهية وعلاقتها بأزمة تخلف المسلمين وتراجع إشعاعهم الحضاري و الإنساني قضية مركزيه في تفكيره بل إن معظم إنتاجه الفكري والدعوى يغوص في أعماق هذه القضية المحورية ومن ثم فهو يؤمن بعمق أن هذه السنن الإلهية لا تحابى أحدًا من الخلق لأنها نواميس الله ولمسات عدله في الحياة والإحياء وهذه السنن كما القوانين القرآنية لها دقة القوانين العلمية.

و الغزالي يؤكد على منهج العودة للقرآن وما أضاع المسلمون حضارتهم ودعوتهم يوم هجروا القرآن، تدبرا وعملا مقتصرين في علاقتهم به على التلاوة وحفظ الحروف دون حفظ الحدود والوصايا وشبه الغزالي تعاملنا مع القرآن كالعاصي من البشر فيقول «قد تكون مشكلتنا اليوم في القرآن كالعاصي من البشر الذي يسمع آيات تدعو إلى التوبة فلا يدرك أبعاد معصيته.

وضرورة الالتفات إلى التوبة المودعة في الآيات وإنما يلتفت إلى موسيقى القراءة ونغم التالي فيقول "الله الله" للنغمة التي يسمعها فلا يتدبر ولا يفكر قط في أن يضع شيئا للانتقال من معصيته إلى التوبة المطلوبة منه هكذا حال أمتنا»([2]).

وفي مقام آخر يستشعر الغزالي خطورة إهمال التعامل مع سنن الله و تقصير المسلمين في إظهارها ومن ثم توظيفها و الاستفادة منها حيث يقول «نحن ما فهمنا سنن الله الكونية في الأرض حسب منطق التجربة و الاستقراء والملاحظة وهو المنطق القرآني الذي عرف من كتاب ربنا ومن تطبيقات النبوة ولا أحسنا الاستفادة من سنن الله في الحضارات و المجتمعات وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيضها في قبضة استعمار عالمي لا يرحم وهي ألان تحاول الخلاص من شباكه

[1]) أنظر تفسير المنار – ج 7 – مصدر سابق – ص 417.

[2]) كيف نتعامل مع القرآن. محمد الغزالي – مرجع سابق ص 53-54.

وترمي بأجنحتها العالقة داخل الشباك دون أن تخرج لقد واجهت الأمة الاستعمار مواجهة عسكرية وسياسية لكن لم ننتبه إلى القضية الأخطر وهي أن الحل الفكري وانهيار عالم الأفكار وعدم التبصر هو الذي يمكن للاستعمار إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها في الوحي النازل عليها يجب أن ندرسه و بالتالي يجب عليها أ، تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال و الانحلال عندما فرطت في سنن الله الكونية و الاجتماعية و ظنت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط كافية في استئناف النهوض»([1]).

وهكذا يتضح أن بقاء الأمة واستمرار حضارتها مرتبط بفهم القرآن الكريم وإذا كانت دراسة هذه السنن فريضة لان القرآن دعا إلى فهمها وحسن التعامل معها فإنها ضرورة حياتية تحتمها وضعية الأمة الإسلامية –خاصة وضعها الراهن– التي تعاني أزمة وعجزا و تبعية فقدت فيه ذاتها وتوالت عليها النكبات والهزائم والنكسات. وإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تعود إلى موقعها الطبيعي ريادة وقيادة وأسوة مطالبة بقراءة القرآن دراسة وفهما وعمقا لان من يجيل النظر في ثنايا مقاماته ويحاول – قدر الطاقة– أن يتفهم منطوق آياته ومدلولاتها فإن الأمانة تجعله يتبين أنه كتاب مهتم بحياة الناس ومعالجة ما يحدث لهم من قضايا تتعلق بمصالحهم وشؤون حياتهم المختلفة اجتماعيا، سياسيا، فكريا و ثقافيا. وما يتطلبه اجتماعهم من مشاركات وجدانية ومعاملات أساسية ينتهي به المطاف إلى أن القرآن "كتاب" نزل إلى البشر يخاطبهم مباشرة ويتحدث إليهم عن قرب ويدعوهم إلى إصلاح أنفسهم وإصلاح مجتمعهم و يطالبهم بالاتعاظ مما حدث بالأمم السابقة ويدفعهم إلى النظر في الأنفس والآفاق و يحرضهم على طلب العلم.

فالقرآن يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض يردهم إلى الأصول التي تجري و فقها الأمور فهم ليسوا بدعا في الحياة فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف و الأمور لا تمضي جزافا وإنما هي تتبع هذه النواميس فإذا هم درسوها وأدركوا مغزاها تكشفت لهم الحكمة وراء الأحداث و تبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع و اطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ولم يعتمدوا على شعار الإسلام دون حقيقته لينالوا النصر والتمكين"([2]).

[1]) المرجع نفسه ص 52 –53.

[2]) أنظر في ظلال القرآن سيد قطب ج1 ص 478.

فالعلم بسنن الله "والوعي بقوانين حركتها يحقق سيطرة الإنسان عليها ويجعله قادرا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة الذي استخلفه الله للنهوض بها"، وبينما الغفلة غفلة هذا الإنسان عن السنن وغيبة وعيه عن قوانين حركتها هو الذي يجعله ضحية لهذه القوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل حتى ولو حسنت نوايا هذا الإنسان وعاش غارقا في بحار الأمنيات و الأحلام و الأدعية والتوسلات و صدق الله العظيم ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم و لاَ أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَ لاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ سورة النساء الآية 123([1]).

ذكرت في الفصل السابق (الفصل التمهيدي) تعريف السنة لغة واصطلاحا ومفهومها عند المحدثين والأصوليين و الفقهاء والمفسرين وعند الكتاب المعاصرين ثم تطرقت إلى خصائص السنن الإلهية ثم أشرت إلى السنن الإلهية عند الأقدمين بإيجاز وتركيز ثم ذكرت الحاجة إلى فهم السنن القرآنية وفيها تحدثت عن مفهومها عند الشيخ محمد الغزالي من جانبها النظري والإشارة إلى مفهومها الاجتماعي خاصة السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم.

لأن الغزالي يعتقد أن أخطر ما تواجهه البشرية بما فيها الأمة الإسلامية جهلها للسنن الإلهية والإغفال عنها كما يعتقد أن المسلمين لن يستقيم لهم أمر ولن تقوم لهم قائمة إلا بتجديد هذا العلم و هو دراسة هذه السنن والعكوف على فقهها واستنباط قوانينها و العمل بها وبتعبير أدق إدراكها ثم توظيفها والانتفاع بها بل حسن التوظيف وحسن الانتفاع.

وفي هذا السياق يقول الغزالي «فقد غفل المسلمون عن السنن الكونية و الاجتماعية في كتاب الله واشتغلوا بالمناظرات والجدال فيما لا طائل وراءه من مباحث العقيدة والفقه واللغة وانقسموا فرقا وطوائف للاختلاف على مسألة واحدة لا فائدة علمية ترجى منها بل إن من علماء الطبيعة المبرزين من تورطوا في الجدل و انشغلوا بالفلسفات المترجمة و خلافات علم الكلام والفلسفة الغيبية ما قلل من عطائهم العلمي»([2]).

وقد أصاب الشيخ محمد الغزالي عندما تحدث عن غياب الأمة عن وعيها و إدراك حقيقة وجودها عندما غفلت عن السنن وجعلتها في أدنى المراتب فقال «وجدت الأمة الإسلامية لما غاب وعيها بهذه القوانين ونسيت المعنى أصبحت تتلقى الانتصارات والهزائم دون وعى و دون استفادة و

[1]) رمضان خميس زكي – مفهوم السنن الربانية – مرجع سابق – ص 6.

[2]) كيف نتعامل مع القرآن محمد الغزالي مرجع سابق ص 144.

دون البحث في أسباب النصر و عوامل الهزيمة وران عليها هذا حتى في كتابة التاريخ فهي لا تكاد تعي ما يقع بها من مآس و أنا أنظر الآن فأجد أن المسلمين تنزل بهم النكبات التي تقصم الظهر ثم تنتهي بغير شي...»([1]).

إن إهمال السنن له من الآثار المدمرة لدرجة التأثير على جوانب الفكر والفهم والاستيعاب فتظهر أفكار ومقولات غير متزنة تخضع للأهواء والحظوظ النفسية تعود كلها إلى عدم فهم السنن الربانية من مصدرها الصحيح القرآن والسنة و السير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين والتعرف على ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن و الاعتبار بها وقد حرص محمد الغزالي على تأكيد معرفة هذه السنن و دراستها يقول «ونحن نلفت أنظار المسلمين في هذا العصر إلى ضرورة أن يدرسوا سنن الله الكونية في الكون و أن يدرسوا سنن الله الحضارية في التاريخ فإن هذه السنن تعطينا حكما نحن أحوج الناس إليه»([2]).

و المجتمع الإسلامي إذا أراد أن يعود إلى موقعه الطبيعي ريادة و قيادة و حضارة مطالب أن يعيد الاعتبار للسنن الإلهية و لا يتحقق ذلك إلا بتنشئة الجيل الصاعد و بتعبير الغزالي "المفكر المسلم " الذي يرقى بفكره إلى "فقه السنن" إدراك السنن و فقهها و الاستفادة منها.

و عندما تجد هذه السنن مكانها في نفوسنا و عقولنا نستطيع تسخيرها و توظيفها في حياتنا بكل أشكالها المختلفة وهو ما "يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية و الموعظة على أكمل وجه فيجب على الأمة بمجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم ألتي أرشد إليها القرآن بالأجمال و بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده كالتوحيد و الأصول والفقه.

و لعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم و أنفعها والقرآن يحيل عليه في مواضيع كثيرة وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها و معرفة حقيقتها"([3]).

أما دراسة هذه السنن نفسها و الخوض في غمار بيانها و توضيحها فهو يختص بهذا الفصل المعنى بالدراسة التطبيقية لهذه السنن ومن خلال القراءة و الدراسة في كتابات الشيخ محمد الغزالي و

---

[1]) كيف نتعامل مع القرآن –محمد الغزالي مرجع سابق ص ى52.

[2]) محمد الغزالي حديث الاثنين الذي سجل حصصه للإذاعة والتلفزيون الجزائري – جمع و إعداد الأستاذ عبد القادر نور – ط 1 – دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع – الروبية، الجزائر – 2011م – ص 147.

[3]) رمضان خميس زكي – مفهوم السنن الربانية – مرجع سابق – ص 7.

مؤلفاته و خطبه وقفت على عدد غير قليل من السنن الإلهية ومعظمها إن لم يكن كلها تتناول السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد وهي سنن تشمل جوانب حياة الإنسان الدينية والدنيوية تدعو للسير في الأرض والتبصر بأحوال الماضين ومصائرهم «خاصة وأننا نحن المسلمين نخضع للقوانين نفسها حيث لا يكفي النظر في النتائج كما هي حالنا اليوم بل لا بد من النظر في المقدمات و الأسباب التي أنتجتها حتى يتمكن المسلمون من التحكم بها و أخذ الحذر من الوقوع فيها و حتى لا ينتهوا النهاية نفسها فالمقدمات نملكها والنتائج تملكنا وقد تكون إحدى آفات العقل المسلم أننا ندع ما نملكه إلى ما يملكنا»([1]).

ومن أبرز السنن التي تناولها الشيخ الغزالي دراسة وشرحا وتفصيلا وربطها بالواقع:

- سنة المدافعة،
- سنة التداول،
- سنة الأجل،
- قانون السببية أو سنة الله في الأسباب و المسببات،
- سنة التدرج،
- سنة التغيير،
- سنة الله في الاستبداد،
- سنة التسخير.

فضلا عن سنن أخرى والتي جاءت في سياقات متنوعة و ذكرت ضمنيا و قلما نجد مؤلفا من مؤلفاته أو مقالا من مقالاته أو محاضرة من محاضراته تخلو من إشارة إلى سنة من سنن الله الكونية، لأن هذه السنن جارية على الناس جميعا وأن اكتشافها والتعامل معها أمر لابد منه للشهود الحضاري (عمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني) الشهادة والقيادة للناس استجابة لقوله تعلى ﴿... لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىَ النَّاسِ...﴾ سورة البقرة الآية 143.

إن اكتشاف السنن هو الذي مكن العالم المتقدم من التقدم والتحكم وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف إذ أصبحوا مسخرين بدل أن يكونوا مسخرين "وما

[1]) أحمد محمد كنعان – أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – مرجع سابق – ص 12.

استكانوا إلا يوم تركوا قرآنهم وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اِتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ سورة الفرقان الآية 30.

إذن فليس الدين الإسلامي أو "القرآن الكريم"هو المسؤول عن تخلف المسلمين و ضعفهم بل العكس هو الصحيح لو تعاملوا مع القرآن وتدبروا معانيه خاصة سننه لوجدوا فيه مصدرا للقوة والعزة والمنفعة التي تؤهل الإنسان المسلم إلى الشهادة والقيادة.

الفصل الأول

سنة التدافع

المبحث الأول: سنة التدافع بين التوازن والاستقامة

المبحث الثاني: ضرورة الاقتباس من منجزات الحضارة الغربية

المبحث الثالث: الإسلام مصدر قوة الأمة و بقائها

تمهيد

من السنن المهم فهمها سنة التدافع، هذه السنة التي تحكم التجمعات البشرية و يلمح الإنسان أثرها في كل زمان ومكان.

فهي حراك اجتماعي وثقافي و حضاري

و الأصل في هذه السنة يكون بين أصحاب الحق و أصحاب الباطل، أي بين المؤمنين وغيرهم، لأنهم هم الذين يحملون معاني الحق أو معاني الباطل ويسعون إل إظهار هذه المعاني في الواقع، وإقامة شؤون الحياة على أساسها، فيحصل التعارض و التزاحم كما يحصل التنافس و التسابق بين الحضارات والثقافات.

و التدافع الذي قرره الله عز وجل و جعله من سننه هو تدافع الخير والشر الذي ينتهي بغلبة الخير و القضاء على الشر، و الله يمن على عباده بأنه جعل من سننه أن يوجد في الأرض أهل حق وأهل إيمان و أهل صلاح يدفع الله يهم أهل الباطل فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد، أو في الخليل ينحسر الفساد، فلا يصبح هو المسيطر و تلك كانت مهمة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير امة للناس تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر و تؤمن بالله و الأمة الوسط التي تكون شاهدة وقائدة ورائدة لكل البشرية، و إن غياب هذه الأمة عن الساحة لهو الكارثة التي الكبرى التي أصابت البشرية بما أصابها من فشو الفساد في الأرض و فشو لظلم والاستبداد، و صنوف الانحراف كما أن سنة التدافع بين الخير والشر هي سنة الحياة، و سبيل النمو و الارتقاء، فضلا عن أنها شحد للهمم وتجميع للطاقات و القدرات وترقية للمواهب، واكتشاف للسنن، وإدراك للقوانين الفاعلة في الحياة.

و من رحمة الله أن جعل سنة المدافعة أهم أسباب التمكين لإظهار الحق واستمراره، وسبيل من سبل الحيلولة دون الفساد و الإفساد.

و الأمة الإسلامية اليوم في أدنى مرتبة قياسا إلى غيرها من الأمم الأخرى، فلم تتعرض أية أمة من الأمم إلى هزائم و انتكاسات مثل التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في هذا القرن، فقد هُزم

المسلمون و استبيحت دماؤهم، ونهبت ثرواتهم وطردوا من ديارهم وحرموا حق الحياة و الأمل وتعرضوا إلى كل أنواع الخداع و الاستعمار و الاستغلال و حُمّل كثير منهم بمختلف الطرق على اعتناق معتقدات و مذاهب أخرى سواء بطريق الترغيب أم الترهيب، وأبعدهم أعداؤهم أو عملاؤهم في الداخل والخارج عن جذورهم وهويتهم وحضارتهم الإسلامية.

و إن كثيرا من المشاكل المتراكمة و المعقدة في العالم العربي والإسلامي ترجع إلى الجهل بمقتضيات سنن الله عز وجل التي وضعها لتحكم حياة الأفراد و الأمم و المجتمعات ولكي تتمكن الأمة الإسلامية من تجاوز هذا الضعف و العجز عن رؤية الواقع والتعامل معه يجب أن توجه جهود المسلمين لكي تواجه التحديات المعاصرة خاصة إمكانات الحضارة الحديثة وطاقاتها وتسد وجوه النقص وتعيد صياغة القضايا الجوهرية، وتوسع مدى الرؤية الإسلامية حتى تصبح الرؤية الإنسانية الحضارية الحاكمة التي أرادها الله عز وجل للناس في هذه الأرض.

إذا كان التمكين للأمة الإسلامية طريقة سنة التدافع فعلى الأمة ا، تعي هذه السنة لتستفيد منها، وهي تعمل لعودة التمكين الذي وعدت به من الله سبحانه وتعالى و قد كان اهتمام الغزالي بإبراز هذه السنة و تأكيد على أهمية فقهها و التفاعل معها بالتسخير و التوظيف الإيجابي.

المبحث الأول

سنة التدافع بين التوازن والاستقامة

المطلب الأول: سنة التدافع لغة و اصطلاحا

الفرع الأول: سنة التدافع لغة

لفظ التدافع مصدر الفعل الثلاثي دفع و مادة (د.ف.ع) في اللغة العربية لها عدة معاني يضاد بعضها بعضا، فدفع تعني منع، وتعني أعطى، تقول «دفعت عنه حقه أي: منعته عنه، ودفعته إليه أي أعطيته إياه»([1]).

ودفع تعني أيضا ابتدأ أو انتهى تقول «دفع إلى مدينة كذا أي ابتدأ السير إليها أو انتهى إليها».

ولمادة (د.ف.ع) معنى ثالث هو الأكثر ارتباطا بمدلولها القرآني المقصود في سنة المدافعة «فدفع تعني أزال الشيء ونحاه بالقوة وأزاحه عن موضعه أو تركه إبقاء عليه مع القدرة»([2]).

هذه بعض المعاني اللغوية للفظة "دفع" والتي جاءت لتعبر عن معنى لغوي شامل لمفهوم التدافع، فالتدافع بداية تفاعل وتبادل للدفع.

و خلص عمر حيدوسي بعد سرده لمجموعة من المعاني اللغوية للفظة "دفع" إلى: «أن التدافع لغة هو تبادل طرفين أو أكثر الدفع، ومدافعة أو دفاعا عن الغير، وإسراع كل طرف لمزاحمة غيره في نيل أمر ما أو حمايته أو منعه عنه، وذلك بإزالته أو إزاحته أو بالإبقاء عليه مع القدرة».

الفرع الثاني: سنة التدافع اصطلاحا

أما التدافع اصطلاحا فقد تعددت التعاريف وتنوعت و كانت كلها تتقاسم معنى مشتركا عاما وشاملا ألا وهو الصراع بين الحق والخير والشر...([*]).

---

[1]) الزبيدي - تاج العروس 329/5 – دار صادر – بيروت، لبنان – ط 1– 1306هـ.

[2]) عمر حيدوسي – التدافع وسننه في القرآن الكريم – رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية – السنة الجامعية 2002/2001 – ص 93.

[*]) أنظر عمر حيدوسي – التدافع وسننه في القرآن الكريم - المرجع السابق - ص 95-102.

وقد صاغ عمر حيدوسي تعريفا اصطلاحيا شاملا للتدافع فقال: «التدافع اصطلاحا هو عملية تفاعل إنساني بثها الله تعالى بين البشر، في مختلف مجالات احتكاكهم دفعا ودفاعا ومدافعة للغير في نيل أمر أو حمايته منه أو منعه عنه، أو إزاحته بالحجة أو بالقوة أو بالإبقاء عليه مع القدرة»([1]).

الفرع الثالث: سنة التدافع في القرآن الكريم

و لقد ورد تقرير هذه السنة في القرآن الكريم بصفة عامة، ولكن جاء التنصيص عليها في آيتين كريمتين:

الآية الأولى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿... وَ لَوْ لاَ دِفَعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ سورة البقرة الآية 251.

الآية الثانية قوله تعالى في سورة الحج: ﴿...وَ لَوْ لاَ دِفَعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمَتْ صَوامِعٌ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اِسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة الحج الآية 40.

ويستفاد من آية البقرة ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت و أتباعه الكافرين، و يختم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿...و لكن الله ذو فضل على العالمين﴾ مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم([2]).

«فدفاع الناس بعضهم بعضا يصد المفسدين عن محاولة الفساد، و نفس شعور المفسد بتأهب غيره لدفاعه يصده عن اقتحام مفاسد جمة»([3]).

وتأتي آية سورة الحج بعد إعلان الله تعالى انه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه سبحانه لهم بقتال عدوهم، وتختم الآية بتقرير الله تعالى لقاعدة أساسية: ﴿...وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة الحج الآية 40.

«فالتدافع بين الخير والشر رغم ما يترتب عليه من قتال وصراع، إلا أنه قد يكون أحيانا أمرا ضروريا لدفع الظلم وبيان وجه الحق، ولاحظ دقة التعبير القرآني التدافع، وليس القتال حتى يعلمنا أن

[1]) عمر حيدوسي – التدافع وسننه في القرآن الكريم – مرجع سابق – ص 102.

[2]) الفخر الرازي- مفاتيح الغيب – ج3 – دار الغد العربي – القاهرة، مصر – ط 1 – د ت – ص 514.

[3]) محمد الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – ج2 – الجلى، مصر – 1394هـ، 1964م – ص 503.

القتال المشروع هو لرد العدوان ودفع المعتدين، وليس قتال الغطرسة أو القتال لتحقيق مصالح ذاتية أو قتال لتحقيق نفوذ على حساب الآخرين...

و هذا التدافع يكون أحيانا ضرورة لحماية بيوت الله من العدوان والضياع، وهذا ما أشارت إليه سورة الحج في الآية المذكورة سابقا.

فالتدافع رغم ما يؤدي إليه من خراب ودمار إلا أنه مشروع لدفع الباطل وللحفاظ على المقدسات من أن تنتهك حرمتها على أيدي المفسدين والمخربين»([1]).

و في حديثه عن السنن والصراع يذكر عمر عبيد حسنة سنة التدافع ويقول عنها: «التدافع والصراع الحضاري سنة من سنن الحياة الاجتماعية وأمر لازم لنمو الحياة وامتدادها وتدفقها، واستمرار التاريخ وابتلاءات لا بد ليتميز الحق من الباطل، ويختبر وجه الإنسان وصبره واختياره... فالتدافع دليل الحياة والسبيل إلى ظهور الحق وانتصاره وتميزه، وإلا لتساوى الحق مع الباطل والتبست الأمور، ولما تفاضل الناس، ولكان مجرد الإدعاء يكفي صاحبه تحمل أية تبعات»([2]). ويذكر محمد هيشور سنة التدافع فيقول: «فالتدافع شرع لدفع الظلم ورفع الحق ودفع العدوان، ولولا هذا التدافع لتعفنت الحياة وتأسنت وسادها الكسل والخمول»»([3]).

«فالتدافع سنة فطرية جارية بين الناس حفظا لاستقامة حال العيش و اعتدالا لميزان الحياة»»([4]).

الفرع الرابع: سنة التدافع عند الغزالي

في حديثه عن سنة التدافع أو المدافعة ينطلق محمد الغزالي في طرحه من منهج القرآن الكريم مستمدا معاني هذه السنة المدافعة من الآيتين الكريمتين السابقتي الذكر مستوحيا معانيها ودلالاتها من العلماء والمفسرين ومن ثمرات تجاربه وخبراته التي اكتسبها على مدى أكثر من خمسين عاما، قضاها في حقل العمل الإسلامي والتصدي للحملات المغرضة والأقلام والأفكار الشاردة التي تتطاول على الإسلام، هذا الجهاد الفكري والمجاهدة بالقرآن الكريم يدخل في دائرة الصراع وبالأحرى دائرة الدفاع

[1]) أحمد عرفات القاضي – تجديد الخطاب الديني- الهيئة العامة للكتاب- القاهرة- 2008م- ص 255.

[2]) عمر عبيد حسنة – حتى لا تكون فتنة – المكتب الإسلامي – دمشق – ط 1 – 1415هـ، 1994م - ص 34.

[3]) محمد هيشور – سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع –مصر – ط 1 - 1417هـ، 1997م - ص 59-60.

[4]) محمد السيد محمد يوسف – التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم – دار السلام – القاهرة – 1422هـ، 2003م - ص 218.

والمدافعة. الغزالي عندما يتحدث عن هذه السنة لم يكن في دائرة التعريف والتأصيل وإنما جاء لينبه عن الأثر السيئ لإغفال أهمية هذه السنة وإخراجها من دائرة الإهمال واللامبالاة، و إدماجها في دائرة الفعل والتوظيف والاستفادة منها وتفعيلها في واقع المجتمع الإسلامي وفيها يقول "هذه السنة الاجتماعية".

يعتقد الغزالي أن «هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان وكل مكان حيث سلط الله الظالمين بعضهم على بعض، وتكون بذلك فرصة لنجاة المستضعفين ونمو الخبر وحماية أهله... فإذا أحسن المسلم اليوم التعامل مع سنن المدافعة يمكن أن يحقق كسبا وانجازا هاما للقضية الإسلامية على الرغم من الضعف والتبعثر»([1]).

نظرة ثاقبة وفهم عميق لسنة المدافعة عند الغزالي فهو يريد أن ينقلها من دائرة التجريد النظري إلى الجانب العلمي، فقد أدرك بعمق فكره وصائب نظرته أن سنة المدافعة مغيبة في عقول المسلمين، وسوف يقف الفرد المسلم بل الأمة المسلمة كلها في حيرة من أمرها عاجزة عن فهم وتفسير الكثير من القضايا والمآسي والمحن التي تحيط بالمسلمين اليوم، وتحاصرهم من كل جانب وتدفعهم إلى النزاع والاختلاف والفرقة، وهي من أعظم الآفات وأشد الأمراض والعلل، وأقوى العوائق التي تحول دون حركتهم في الحياة ومن ثم ينبه الغزالي إلى هذه الحال التي آلت إليها الأمة جراء تقصيرها من الاستفادة من هذه السنة، وإبعادها من حركة الحياة عن قصد أو عن غير قصد.

والإنسان في هذا الكون مهما كان انتماؤه أو جنسه أو عقيدته يوجد ضمن دائرة مجموعة النظم والسنن التي تحكم هذا العالم، و منها سنة التدافع التي ينبغي أن تأخذ مكانها الطبيعي في حياة الإنسان، لأن هذه السنة الربانية ثابتة مستمرة جارية في العباد، بدأت منذ أن خلق الله آدم وأمر بالسجود له، فأبى الشيطان أن يسجد له...

فالتدافع بين الحق والباطل يبقى ببقاء هذه الدنيا، وينتهي بانتهائها، وهو يتخذ عدة أشكال، ويمتد في مساحات طويلة ومتعددة يجعل الإنسان يقضي حياته كلها فيه، إلا أنه قد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في أخرى وهكذا تمضي الحياة. قال الغزالي: «وسنة الله في خلقه أن يقيم ميل الإنسانية إذا اعوجت، وأن يعيد إليها توازنها إذا اختلت و أن يردها لذلك بين الحرب والسلم، والغنى

[1]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق- ص 127.

والفقر، والأمان و القلق، أو كما قال تعالى: ﴿... وَ لَوْ لاَ دِفَعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَ لَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ﴾ سورة البقرة الآية 251.

فلنترك للقدر الأعلى أن يبرز حكمته وأن يتخذ وسيلته، فلا شأن لنا بذلك إنما كلفنا – ونكلف أبدا– أن نقيم العدالة بيننا وأن نفرغ في تحقيقها وسعنا وأن نبذل قصارانا من أجل مصلحة الجماعة، وضمان حقوق الفرد، متجنبين الفتن والمحن بكل ما نملك من قوة وتفكير»([1]).

«و استمرار هذا التدافع والصراع يأتي من كثرة الأعداء من الداخل والخارج من النفس والأقارب من الشيطان وجنوده ومن الكفار، والكثير من الآيات التي تشير إلى معاني التدافع والصراع كقوله تعالى: ﴿...ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض...﴾ سورة محمد الآية 4. وقوله أيضا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلىَ البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...﴾ سورة الأنبياء الآية 18»([2]).

إن أي إصلاح في الأرض يتطلب وجود رأسين متناطحين وجبهتين متواجهتين يدفع كل منهما الآخر، وتصدها وتردها وتبين لنا أن في هذا الدفع فائدة كبيرة للإنسانية، وصونا لها من الانهيار التام الذي ينجم إما عن تجبر لا يقاوم أو عن تخاذل لا يثير أية نخوة، وتؤكد في الوقت ذاته أن ممارسة الدفع ضد الظالمين والغزاة المتجبرين هو نصره لله تعالى ورسالة الأنبياء التي تقوم على عبادة الله بالصلاة له، والاستخلاف في الأرض وبإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ولعل من الأمور التي لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث والتحرير في الذهنية والإسلامية المعاصرة لتصبح يقينا علميا، أن المدافعة بين الخير والشر هي سنة الحياة وسبيل النمو والارتقاء، وان الشر من لوازم الخير، وان الفعل التاريخي وامتداد الحياة هو ثمرة للضرب بين الحق والباطل قال تعالى: ﴿...كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...﴾ سورة الرعد الآية 17. و أن هذه المدافعة هي من رحمة الله بعباده، و التمكين لإظهار الحق و استمراره، و سبيل من سبيل الحيلولة دون الفساد و استمرار الإفساد)([3])، فسنة التدافع في مقصدها الأسمى، وسيلة لحماية القيم ممن يستهدفها، و يقوم الدفاع أساسا على قيام الدول والأحلاف و التكتلات وبمقاومة

[1]) محمد الغزالي – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – ط 1 – مكتبة رحاب، الجزائر – د ت – ص 159.

[2]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي– ج2– مرجع سابق– ص 143.

[3]) عمر عبيد حسنة – على طريق الشهود– ط – المكتب الإسلامي – بيروت – 1422هـ،2001م – ص 167-168.

الهجوم المادي الذي يشن من قوة خارجية، و يعتمد الدفاع أحيانا على الردع الذي يمنع الطرف الخارجي من القيام بالهجوم أصلا، لأنه يدرك أن التكلفة باهظة و رد الفعل سيكون ساحقا.

و الفلسفة العامة التي تحكم عملية الدفع تقوم على أمرين أساسيين:

1- أن النفس البشرية تنزع بطبيعتها إلى الشر في أغلب الأحيان، و هي أقرب إلى الفجور منها إلى التقوى، ما يستدل عليه من قوله تعالى: ﴿و نفس و ما سواها(7) فألهمها فجورها وتقواها(8) قد أفلح من زكاها(9) و قد خاب من دساها﴾ سورة الشمس الآيات 7-10.

فالآيات قدمت الفجور على التقوى حين تحدثت عن سمات النفس الإنسانية، لكنها عادت لتقدم التزكية على التدسية حين حضت على مقاومة شرور النفس، و دفع كل ما ينحرف بها عن مجال الخير و مداراة الشر.

2- مركزية قيمة الصراع في الحياة الاجتماعية و العلاقات الدولية، حيث شاء الله تعالى أن يظل الناس في تهارج و تصارع و تدافع حتى قيام الساعة منذ أن تصارع قابيل مع أخيه هابيل و حتى تشرق الشمس من المغرب.

وهذا الصراع يتفاوت في الدرجة و يتعدد في الأشكال، لكنه متواجد دوما و مرده ليس فقط حظ الشر من النفس البشرية، و تربص الشيطان بها، بل أيضا العوامل المكتسبة و المتجددة، ومنها ما هو سياسي يتجلى في التضاغط بين السلطة و الشعب لاسيما في الدول المستبدة والشمولية، نظرا لأن السلطة تبذل قصارى جهدها في سبيل الإنفراد بالنفوذ و الثروة، وفرض الإكراه المادي و المعنوي، و التخصيص السلطوي للقيم بينما الشعب يكافح و يناضل من أجل نيل حريته و تحصيل حقوقه، و أولها المشاركة في صناعة القرار، أما على المستوى الدولي فإن الدول تتصارع على الحدود و الثروات الطبيعية و البشرية، و مصادر الهيمنة و أدوات النفوذ.

و هناك عوامل اقتصادية، حيث يتصارع الناس على الموارد التي لا تكفي لإشباع الحاجات، نظرا للتظالم الاجتماعي و الدولي، إما في صراع طبقي داخل الدول أو صراع عابر للحدود و السدود بين الدول الغنية و نظيرتها الفقيرة أو بين الشمال و الجنوب، و ينطوي الدفع في بنيته و مقصده على التوظيف الإيجابي لـ(الطاقة العصبية المخزنة داخل الإنسان) التي لا تخلو منها نفس بشرية، و لا حالة إنسانية، و لا تفاعل جمعي ضيق أو واسع فهذه الطاقة يمكن أن تكون معول هدم، و عامل تدمير و

إهلاك، و يمكن بل يجب أن تتحول إلى فعل خلاق و خير يقوم على الدفع في اتجاه الصواب و الإخلاص معا مما يعزز على التصدي للمتربصين الطامعين و يقوى الشوكة ضد الحكام المستبدين، و يساهم في مقاومة الأفكار و العادات و التقاليد التي تشد إلى الوراء، و يساعد الإنسان على كبح شرور نفسه و التغلب على أهوائه([1]).

ناك نوعان من الدفع ليس بينهما تعارض و الاكتفاء بأحدهما لا يغني عن الآخر، والتمسك بهما معا ضروري لقطف كل ثمار الدفع، و حصد ما زرع في سبيل تحصيله و الإبقاء عليه.

الأول: هو الدفع المادي الذي يعني امتلاك الأمة أو الدولة القدرات المادية التي تؤهلها لردع أعدائها أو إجبارهم على التراجع حين يهاجمونها.

الثاني: الدفع الروحي (المعنوي) في الإسلام هو ما يتضمنه من مبادئ و قيم و أخلاق، و مثل وفضائل، و هي بحاجة إلى قوة رادعة تضمن لها البقاء و النماء، و يعتقد الغزالي: «أنه لا يمكن لأمة أن تنجح بقوة عسكرية فقط، إنما لابد من وجود القوة الروحية إلى جانب القوة العسكرية و الثقافية و العقلية، و لقد نشر المسلمون الأوائل الإسلام مع عروبته، و مع حضارته، و مع قوته المادية و الأدبية..»([2])

إن الدفع الروحي لا يستغني عن الدفع المادي، فكلاهما يكمل الآخر.

«و إذا كانت القوة الروحية في حاجة إلى القوة المادية، فإن حاجة المادية إلى الروحية أوكد لا في مواقف القتال فحسب، بل إن الروحية تعد من وجه آخر هي الحارس الأمين للقوة المادية توجهها نحو الخير، و تستخدمها في أغراض سلمية، و تحميها من التورط في النزاعات البربرية و الهيمنة الوحشية، كما هو بشأن بالنسبة إلى كثير من الدول التي تسمى اليوم بالدول العظمى»([3]).

المطلب الثاني: دعوة الغزالي إلى امتلاك مصادر القوة والانتفاع من تجارب الآخرين

الفرع الأول: دعوة الغزالي إلى امتلاك مصادر القوة

[1]) محمد الغزالي – هذا ديننا– مصدر سابق– ص 67 – 68.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق– ص 180.

[3]) محمد التومى – المجتمع الإسلامي في القرآن الكريم– المؤسسة الوطنية للكتاب– الجزائر 1407 هـ– 1986 م– ص 445 – 446.

إلا أن الأمة الإسلامية لم تأخذ بأسباب امتلاك القدرات المادية التي تؤهلها لردع أعدائها، لأنها لم تحسن استثمار القوى الطبيعية و الكنوز التي وهبها الله لها، قال الغزالي: «إن الله بين للناس أنه خلق هذه الأرض لهم لكي يستثيروها، و يستخرجوا الخيرات الوفيرة منها ثم يستمتعوا بها!!

قال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه...﴾ سورة الملك الآية 15. و القرآن الكريم مشحون بالآيات التي تشرح للإنسان أطراف سلطانه الواسع و مصادر ثرائه العظيم، فمن الذي يحول بينه و بين الغنى؟

أول أسباب الغنى، و أول مفاتيح القوة، و أول عناصر الغلب أن يضع الناس أيديهم على ما هيأته الأقدار لهم من أرزاق و بركات مبثوثة بين أيديهم و من خلفهم» ([1]).

لقد دعا الإسلام المسلمين إلى أن يكونوا أقوياء و «المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف» و أمرهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة، حيث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾ سورة الأنفال الآية 60.

لقد نكّر الله عز و جل لفظ قوة ليفيد التعدد و الكثرة، فالقوة تبدأ من قوة الإيمان، إلى قوة الإتحاد، إلى قوة المال، إلى قوة العلم، إلى قوة الزراعة و الصناعة...

إن المسلمين اليوم هم أضعف الأمم، فهم ضعفاء في الإيمان، إذ ما يؤمن أكثرهم بالله وهم عصاة، و هم ضعفاء في الاتحاد، بل إن بأسهم بينهم، و هم يستعدون الأعداء على بعضهم، ويتخذون الأعداء بطانة، و هم فقراء لا لأن الله قدر عليهم الرزق، و لكن سفهاء و إخوان الشياطين يبذرون ما في أيديهم من أموال و يكنزون الفائض في بنوك الأعداء، و هم ضعفاء في العلم حتى تكاد الأمية البسيطة و المركبة تنحصر فيهم.

و هم ضعفاء في الزراعة فلا ينتجون ما يقيمون به أودهم و يسدون به جوعتهم، و لو منع عنهم أعداؤهم غذائهم لهلكوا، و هم ضعفاء في الصناعة فلا يكادون يصنعون شيئا، و إن صنعوا شيئا ما في الأغلب لا ينافس مثيله في أسواق العالم.

يقول الغزالي و هو يستغرب الحال الذي آلت إليه الأمة حتى في توفير رغيف عيش: «وإذا كان من المستغرب أن يتسول رجل قوي في بيئة تتطلب العاملين فأشد غرابة أن توجد في الشرق أمم

[1]) محمد الغزالي، هذا ديننا –مصدر سابق– ص 67-68.

بأسرها تطلب الإعانات من الآخرين، و تحت أقدامها من ينابيع الثروة ما يمحو المتربة، و يحقق الرخاء»([1]).

هذا الفقر و العوز الذي يحيط بالأمة لم يكن وليد ظروف و قساوة و جدب الطبيعة، وإنما هو فقر الهمم، و أزمة الخلق. و إن الإسلام يعتبر هذا الفقر – فقر الكسل و الغباء – و يعتبر التسول الذي ينشأ عنه جريمة([2]).

إن العالم لن يلقى السمع إلا لمن يمتلك القوة، و لن يحاب إلا ممن يحوز القوة و ها نحن نرى الدول القوية تجتهد و تسعى لامتلاك المزيد من القوة لترهب أعداءها فلا يقتربوا منها ولتعتدي على غيرها إذا رأت مصلحة في الاعتداء، يحز في نفس الغزالي و يؤلمه هذا التفوق الحضاري في كل المجالات و القطاعات و هذا التمكين في الأرض الذي أهله أن يقود العالم المعاصر، فيقول: «الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي و الشيوعي تقود عالمنا المعاصر، و تنفرد بزمامه، و هي حضارة نجحت نجاحا ملحوظا في اكتشاف الكثير من قوى الكون، و جعله طوع بنان الإنسان يرفه به نفسه إذا شاء، و يدافع به خصومه إذا شاء، و ما أحسب الإنسان على طول تاريخه بلغ ما بلغه اليوم من سيادة و تمكين في البر و البحر و الجو، إن يده الطولى في ميادين العلم و التطبيق أمكنته من ارتقاء صناعي باهر شمل المجال المدني و العسكري على سواء، و ها هو ذا بعد أن قدر على الأرض يرنو إلى غيرها من الكواكب...»([3]). صحيح أن العقل الغربي الحديث قد أبدع في اكتشاف قوانين الكون و خصائصه، و أبدع كذلك في تحويل هذه القوانين إلى تطبيقات علمية و تقنية، و من ثم امتلك القدرات المادية التي أهلته أن يكون المهيمن و المسيطر على العالم والصانع الوحيد لسياسته كما تفعل أمريكا و من سار في فلكها.

إن المسلمين محكومون في امتلاك القوة و استعمالها بقواعد الإسلام الشرعية و قيمه الأخلاقية، فلا تستعمل إلا فيما هو حق و مشروع من دفاع عن الدين و النفس و العرض والأرض، و في هذا يقول الغزالي و هو يتحدث عن القوة العسكرية: «إن للقوة العسكرية –في نظر الإسلام–

[1]) محمد الغزالي، هذا ديننا –مصدر سابق– ص 68.

[2]) محمد الغزالي، هذا ديننا –مصدر سابق– ص 68.

[3]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 39.

وظيفة محددة، هي كسر العدوان، و منع الفتنة، فإذا خلت التربة من العوائق أمكن الزرع و أرتقب الحصاد»([1]).

و من هنا تأتي سنة التدافع لتحقق هذه الركائز في المجتمع الإسلامي و تحفظ توازنه. وليس التدافع و التنازع بين المؤمنين و الكافرين مقتصرا على جانب القتال فقط، بل هو عام لكل وجوه الصراع في كافة شؤون الحياة و كل موقع من مواقعها، و هذا هو الذي ينمي الحياة، ولولا ذلك لأسنت الحياة و تعفنت، و لكانت كتلة باردة متضخمة أشبه ما يكون بجبل من الجليد([2]).

لوفقه المسلمون هذه السنة أدركوا أثرها الفاعل في كل مراحل الحياة و حركتها المستمرة لما سرى هذا التفكك و الفساد و الانحراف، و التجربة التاريخية لا تكف عن إقامة الدليل على التلازم بين الفساد و التفكك و الانحراف، و بين الإعراض عن سنة التدافع، و الشيء نفسه يصدق على التلازم المعاكس بين النهوض و استقامة أمر المسلمين، و بين التمسك بجوهر دينهم من خلال سنة التدافع، و هي من أهم السنن التي تحقق التمكين للأمة.

و إذا كانت الأمة و ما تحياه من تخلف و تشرذم و عجز و تبعية و ترد فضلا عن عناصر الفساد التي تسربت إلى مفاصل نظمها الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية، أدى في النهاية بها إلى زوال التمكين و انهيارها من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة،هذا لا يعني أن الأمة فقدت زمام أمرها بالمطلق، و إن كان الخلل فيها يمكن معالجته، لأن هذه الأمة لا تموت، صحيح تمرض، وتصاب بعلل، إلا أن مناعتها الذاتية و ما تملكه من عناصر القوة و الاستمرار يؤهلها للوقوف من جديد لتنطلق، و تتحمل مسؤولية الأمانة التي تحملتها في عصورها المزدهرة يقول الغزالي: «و العلل التي تصيبها يجئ أغلبها من اضطراب الحكم، فالعطب يكون دائما في القشرة التي تغلف العود وهي الحكم». فساد الحكم قشرة في النظام الإسلامي، لأن الإسلام ليس حزبا سياسيا، إنما هو مجموعة قيم وتعاليم، قد يكون الحكم حزاما يشد التعاليم لكن بقيت التعاليم مع انقطاع الحزام... ويظهر هذا جليا مع سقوط بغداد، فإن التتار دخلوا في الإسلام، رغم محاولات أوروبا العصبية والشديدة في

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة، أم البواقي، الجزائر – 1988م – ص 46.

[2]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي– جـ 2– مرجع سابق– ص 146

أن تجر التتار إليها...»([1]). رغم العلل والأسقام التي أصابت الأمة لا تقتلها وإنما "تمرض ولا تموت"، بمقدورها أن تعود إلى مكانتها الطبيعية شرط أن تعيد النظر في مسيرتها الحياتية، فهي في أمس الحاجة إلى من يرد إليها ثقتها بربها ومنهجها، فهي في حاجة إلى من ينعش الأمل في نفسها، ويوقظ الإيمان في قلبها كما هي في حاجة إلى من يهيئ لها الفرصة لتعمل ويبين لها الطريق لتسير عليه ويوضح لها المعالم لتعرف كيف تعمل؟ وإلى أين تسير؟

«و لو أن الأمة الإسلامية استكملت عدتها التي توفي بها لمستوى رسالتها وتمتلك بها أزمة الحياة الصحيحة ما أمكن أن يصيبها ما أصابها»([2]).

و مع هذا كله لا يمنع إلا أن الحاجة إلى تجديد العمل الإسلامي في مختلف القطاعات ممكن، و على شتى المحاور، بل هو حاجة ماسة، و أن الجهود التي يجب أن تبذل لإحياء هذه الأمة بالإسلام من خلال فهم السنن، و على هذا فليحذر الذين ينتصبون للقيام بهذا العمل، أن يحصروا هذه الجهود في هذا الخندق، أو ذلك القطاع، و أن يبطلوا بقية الأعمال التي تنتصب لأدائها التجمعات الإسلامية الأخرى، فإن هذا أول الفشل و بداية التهارج و الاعتلال.

و إذا كان هذا الإخفاق الذي أصاب الأمة في معظم مفاصلها، و دب الخلل في رأسها، فكيف بالأطراف التي لا يمكن إلا أن تتداعى لها تباعا.

على أن مواجهة هذا الإخفاق و التصدي له، لا تستغرق كل الأسباب التي تفسره والقارئ و المتأمل في جهود و نصوص العاملين في الحقل الإسلامي سيجد ما يسعفه بالاستنتاج، أن بعض جراثيم الإخفاق يقع في إحجام الأمة و علمائها في تشخيص هذه العلل التي تنخر كيانها، و تفتك بعناصرها المحركة، «و إن كثيرا من الهزائم التي أصابت الإسلام في الأعصار الأخيرة يعود إلى قلة الدعاة الواعين و إلى القصور المستغرب في فهم الإسلام و عرضه»([3])

إذا كان المصاب جللا و الأزمة عميقة، بحيث تفاعلت عناصرها لدرجة استحالة فك الاشتباك، مما أدى إلى إهدار طاقاتها، فجعلها تراوح مكانها ولم تستطع أن تتقدم بخطوات إلى الأمام، و إن حاولت فالسكون أقرب، و عدم الحركة معناه الاندحار و الانهيار.

---

[1]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق– ص 126-127.

[2]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي– مصدر سابق– ص 107.

[3]) محمد الغزالي- معركة المصحف في العالم الإسلامي– مصدر سابق– ص 230.

و جاء الانهيار تحقيقا لسنة التدافع و التنازع، لأن هذه السنن لا تحابي أحدا، بل أحيانا تنتقم لمن غفل عنها و استخف بها، يقول الغزالي: «لقد قلنا مرارا: إن سنن الله الكونية تثأر ممن يتجاهلها، و تواجهه بعواقب تفريطه، و أمة يستقر فيها اغتصاب الحكم، ة تعشش في أجوائها الخرافات و الانحرافات لابد أن تدفع ثمن هذا السلوك المعوج، لن يغني عنها ادعاؤها للإسلام لاسيما إذا كان حكام الدول الكافرة أعدل، و معاملاتهم لشعوبهم أجدى و أرحم، و إذا كانت هذه الشعوب أدنى إلى منطق الفطرة في علاقاتها الداخلية ...»([1])

إن هذا الانهيار الذي أصاب الأمة في كيانها، و ما يحمله من أوضار لم يكن هو نهاية الأمة رغم اشتراكها —ولو بقدر— في هذه الأوضاع، بل كان المحك الذي أظهر صلابتها و معدنها الأصيل «ولكن القضية هي سنة الله في الأرض،و التدافع بين الناس، و أن التاريخ قد ذكر أنه من القرن الحادي عشر كان أعداء الإسلام يرون أن نهاية الإسلام قد حانت مع غزوات التتار و المغول و الصليبيين، و لكن سرعان ما أكد المستشرقون أن قوة الإسلام لن يقف في وجهها أي جيش في نهاية القرن، لأن الإسلام دين متجدد يمر بفترات ضعف، ما تلبث أن تعقبها فترات قوة تعيد بناء ما هدمه الأعداء، و تجدد هذا الدين»([2])

و هي إشارة واضحة إلى حيوية هذا الدين، و قدرته على الحركة و الإحياء و الانبعاث و عندما يتحدث عن النكبات و المصائب و الهزائم التي تكررت في حق المسلمين لم يكن سببها قوة العدو، و إنما «يعتقد أن سر هزائمنا لا تأتي من قوة العدو بقدر ما تأتي من فوضى و ضعف وتشتت أمتنا الإسلامية، إن المستقبل مليء بالمفاجآت و أعداؤنا يستكثرون علينا حق الحياة، ولابد من توحيد صفوفنا في عالم التكتلات حتى تتوقف جراحنا التي تنزف طوال القرن الماضي و لا زالت حتى اليوم...»([3]).

الفرع الثاني: الاستفادة من سنة التدافع

و قد يكون من المفيد الإشارة إلى أن هذه الإصابات التي لحقت بالأمة لم تكن لتصيبها، لو استقامت على أمر ربها، وفق سنن الله في كونه، و التدبر الواعي لهذه الأزمات و النكسات هو بمثابة

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب و المسلمين– مصدر سابق– ص 29.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة– مصدر سابق– ص 163

[3]) المصدرنفسه– ص 163.

منبه حضاري في معاودة اليقظة و النهوض، لكن ذلك لا قيمة له في عمر الزمن المديد، إذا استطاعت الأمة إدراك أبعاده و التخلص من الغفلة و استرداد المعاني المفقودة، و التي تشكل للأمة مرجعيتها و معيارها و هي من الأهمية بمكان، لأنها تمثل هوية الأمة و شخصيتها و قسماتها الحضارية... هذه المرجعية هي التي تحصن الأمة و تحميها من الذوبان و تحول بينها و بين الإرتهان في أحضان الثقافات الوافدة من دون رقيب أو حسيب. إنه أعظم كتاب خصه الله بالأمة الإسلامية: القرآن الكريم الذي سعد به المسلمون الأوائل و تعاملوا معه بكل ما يملكون من طاقة بشرية قراءة و فهما و استيعابا و عملا، و حكما في قضاياهم، و تجسدت معاني القرآن الكريم في خلقهم و سلوكهم، و ظهرت هدايته على جوارحهم، فارتقت به حياتهم، و سمت به نفوسهم. ثم خلف من بعدهم خلوف تفرقوا في الدين شيعا و أحدثوا فيه بدعا، و هان عليهم كتاب ربهم فهجروه، و أماتوا كل هداية فيه، فأصابهم ما أصابهم من هزائم و نكبات و تراجعوا فتركوا القيادة و الريادة إلى غيرهم، و لا غرابة إن ذكر الغزالي أن : « العالم الآن لا يعرف إلا حضارة الغرب في جميع شؤونه الحياتية، أما حضارة الإسلام في خبر كان، و لذا لا أستطيع القول إنه توجد حضارة إسلامية تلك التي سادت العالم قرابة ألف سنة، كان المسلمون فيها هم العالم الأول المتقدم، وكانت الدنيا تنقاد لهم، و تنشر حضارتهم بتقدمهم العلمي و العملي»([1]).

هذا المصدر ألا و هو القرآن الكريم عندما زحزح عن مكانه أصاب الأمة الإسلامية هذه الهزائم المتلاحقة، و قد حذر الغزالي في مواقف كثيرة تقصير المسلمين تجاه كتاب الله ليعبر عن استغرابه عن هذا التقصير، فيقول: «إنه لأمر غريب، القرآن كتاب الله الذي أحيا أمة من العدم تحول لدى بعض المسلمين إلى كتاب للموتى يقرأ في الجنائز أو يوضع على تابلوهات السيارات للزينة أو على أرفف المكتبات و العياذ بالله هجران له و فوق ذلك بدع و خرافات، في حين أن القرآن نزل ليقرأ و القراءة في جميع اللغات تعني الفهم و التدبر و العمل بما نفهم، كما أنه دستور و منهج، و للنظر إلى تاريخنا الناصع عندما قرأ العرب الأوائل كتاب الله و فهموا معانيه، و تدبروه و عملوا به تحولوا إلى أمة تعرف الشورى و تكره الاستبداد... أمة يسودها العدل الاجتماعي، وتنبذ التفرقة العنصرية. فالقرآن يبني الشعوب، و يصون النفوس، و يصنع الحضارة. في العالم الآن 5 مليارات من البشر محجوب عنهم نور القرآن لأن المسلمين أنفسهم محجوبون عن هذا النور، وفاقد الشيء لا

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة– مصدر سابق– ص 59.

يعطيه»([1]). وللعلم فإن تعداد سكان العالم وصل إلى 7 مليار نسمة سنة 2011([2])، فمن يتحمل مسؤولية حجب القرآن عن هذا العدد الهائل من البشر؟

إن الأمة مريضة عليلة تنخر كيانها جراثيم، لأنها تخلت عن سنة التدافع، ولم تجعلها من اهتماماتها، وكان بإمكانها أن تستفيد من هذه السنة و تستثمرها من خلال الصراعات والمتناقضات التي تشهدها القوى المتسلطة و المتنفذة، و الانقسامات، و التي يمكن أن تضعف شوكتها.

و من هنا تقتضي المصلحة العامة ترتيب أولويات المواجهة، لأن أي عمل يواجه خصومه من جهات متعددة، منها خصومته مع طواغيت الحكم، و خصومته مع العلمانيين و اليساريين، وخصومته مع اليهود و الصليبيين، و هو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يتعامل مع كل هذه الجبهات في آن، فالحكمة تقتضي أن يرتب هؤلاء الخصوم على سلم الأولويات.

و أحيانا تقتضي المصلحة مداراة بعض الاتجاهات البدعية، بحيث لا يدخل في مناوشات جانبية مع بعض أهل البدع، تحييدا لهم في هذه المعركة، أو تجييشا لهم لنصرة الدعوة الإسلامية بدلا من اختراقهم من قبل الخصوم.

و التعامل مع أهل البدع و الخرافات يتفاوت مع الهجر و المجافاة إلى التأليف و أحيانا إلى المداراة بحسب المصلحة أو المفسدة المترتبة على هذا أو ذاك.

و كلما كانت المداراة مع بعض الخصوم كان أمكن حصره في دائرة الصراع، كما أن بعض التحالفات المرحلية مع بعض الاتجاهات الفكرية المسالمة —من علمانية و يسارية و قومية— تقتضي تنسيقا مرحليا لإمضاء أمر هو محل قبول من الناس كافة، فقد يعوز العمل الإسلامي في بلد ما إلغاء الأحكام العرفية، و قوانين الطوارئ و هو مطلب جماهيري عام فلا حرج عليه في هذه الحالة لنصرة هذا المطلب و ذلك بالاستعانة بالاتجاهات الدينية و العلمانية و يكون عمله هذا من جنس حلف الفضول و سائر الأحلاف المشروعة التي تكون على نصر المظلوم و الضرب على يد الظالم، و إشاعة العدل و التناصف و نحوه...»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة– مصدر سابق –ص 73.

[2]) الموسوعة الحرة ويكيبيديا – http://ar.wikipedia.org. تاريخ الإطلاع : 15 أفريل 2013.

[3]) صلاح الصاوي –الثوابت و المتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر– ط 1– منشورات دار قرطبة للنشر و التوزيع– 2003– ص 259.

و قد دعا الغزالي إلى هذا النوع من التحالف و غيره من التجمعات التي تخدم المصلحة العامة و تسند الحق العام و المطالب المشروعة التي تشترك فيها جميع طوائف المجتمع، فيقول: «نحن نساند كل تجمع يشبه حلف الفضول الذي تم في تاريخ العرب قديما، و نقتدي بنبينا في احترامه وإجابة دعوته... لقد جعلنا ديار الآخرين دار حرب لما جعلوا بلادنا دار حرب فإذا كفوا كففنا»([1]).

كما يدعو إلى الاستفادة من أي مؤسسة تكون دعما لمطالب مشروعة، و تحقق أكبر قدر من العدل و الإنصاف، و نساهم في تصحيح مسارها إذا حادت عن مبادئها و أصولها التي قامت عليها، بل يطالب أن ننتسب إلى هذه المؤسسات العالمية مثل هيئة الأمم المتحدة و غيرها من المنظمات الدولية، فيقول: «إذا تكونت هيئة الأمم على ما يشبه حلف الفضول، انتسبنا إليها، لنضبط سيرها و نحدد وجهتها، و نعلي مسيرتها»([2]).

الفرع الثالث: الانتفاع بتجارب الآخرين و الاستفادة من منجزاتهم في ظل التدافع

مما لا شك فيه أن المسلمين في حاجة إلى النظر فيما وصل إليه غيرهم من منجزات علمية و تكنولوجية، ولم لا تكون الاستفادة في ميادين الاقتصاد و الإدارة و السياسة و هذا ما يدعو إليه الغزالي كالنظام الديمقراطي و إجراءاته التي تقي الأمة خطر الحكم الاستبدادي فيقول: «لقد تعرضت أمم لنزوات الساسة المستبدين، و قاست منهم مثل ما قاسينا أو أشد و استطاعت أن تتخلص منهم بالعزل أو الفتك.

ثم وضعت دساتير تنظم العلاقات بين الشعوب و الحكام تنظيما يمنع المظالم و يوصد الأبواب في وجوه لصوص السلطة الذين يثبون على الأمم بين الحين و الحين فيملكون زمامها ويعبثون بها كيفما شاء لهم الهوى.

لماذا لا ننتفع بتجارب الآخرين في مضمار تشابهت فيه الآلام و توحدت فيه المصالح.

إن هذه الدساتير كسب كبير للإنسانية، و عون واسع لتحقيق ما ينشده الإسلام للشعوب من رعاية، و ما يحفظ لهم من حرمات»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر– مصدر سابق– ص 112 – 113 .

[2]) محمد الغزالي –تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل– دار المعرفة – باب الوادي، الجزائر – د ت – ص 53 .

[3]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي– مصدرسابق– ص 143.

كما يدعو الغزالي للتعامل مع منجزات الغرب بعقلانية و تفتح و دون حرج من الأخذ من حضارته، فالحق ليس حكرا على أمة من الأمم، ثم إن حضارة الغرب لم تكن جهد أهله وحدهم، فلولا ما قدمته الحضارة الإسلامية لأوروبا ما انتعشت أوروبا و لا سادت، فلماذا يعز علينا أن نسترد بعض ما وهبنا و هم لم يخجلوا، و هم ينقلون حضارتنا منذ مئات السنين»([1]).

إن هذا التقصير في حق هذه السنة و الاستفادة منها، هو الذي مهد للحضارات الأخرى، خاصة الحضارة الغربية هذا التفوق المادي الذي أهله أن يكون سيد العالم و المسيطر عليه في معظم مجالات الحياة، و من ثم السيطرة على مقدرات الشعوب في هذه المعمورة حتى و التحكم في مصائرها.

إن إغفال سنة المدافعة في حياة المسلمين دفع الغزالي إلى التنبيه بضرورة اهتمامهم بهذه السنة، و هو يطرح السؤال: «فكيف يستفيد المسلمون من سنة المدافعة، حتى تستمر حياتهم حيثما لا يكون الغلبة لهم، و لا تكون الحضارة لهم في مثل حالنا اليوم؟ و هل من شواهد قرآنية موضحة؟»([2])

و إذا أردنا أن نحقق هذه السنة ما علينا إلا أن نعود إلى تجارب و خبرات الماضي، خاصة السيرة النبوية الشريفة و ما تفعم به من دروس و معان إنسانية راقية.

الفرع الرابع: إحياء سنة المدافعة من خلال التجارب و الخبرات السابقة

و الغزالي غالبا ما يستدعي هذه التجارب التاريخية و الخبرات السابقة لأنها الوعاء الذي يزخر بالعبر و الدروس، ففي مقال له بعنوان: متى نستفيد بأخطاء أعدائنا، و هو يتحدث عن غزوة بدر، و غزوة الفتح، فيقول: «درست الهزائم الكبيرة التي أصابت أعداء الإسلام في بدر، وعند مكة عام الفتح، حزنت أن المشركين هم صانعوا هذه الهزائم وملحقوها بأنفسهم قلت ما كان أغنى هؤلاء عن القتال في بدر بعدما أن نجت قافلتهم، و فقدت الحرب سببها، لكن الزهو والغرور لعبا بقادة الفكر فمضوا في طريق البطر و الرياء، يقولون لابد أن يسمع بنا العرب، و أن نقوم باستعراض للقوى يذل جانب الإيمان و يكسر أفئدة الداخلين فيه، فنشبت الحرب لغير ضرورة و كانت الكبرياء التي دفعت إليها هي القطرة التي فاض بها الإناء، و القشة التي قصمت ظهر البعير، إن أخطاء المبطلين لا

[1]) محمد الغزالي – كيف نفهم الإسلام– مصدر سابق– ص 132.

[2]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن– مصدر سابق– ص 127.

تتبدد، و إنما تتراكم في سجل دقيق حتى إذا بلغت حدا معينا أحاط بها أولها و آخرها: ﴿... و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾ سورة الرعد الآية 31.

و ما حدث ببدر مثله في غزوة الفتح، فإن معاهدة الحديبية تفرض على الناس هدنة مدتها عشر سنين تستطيع دولة الوثنية خلالها أن تبقى كما شاءت! لكن الكفر المتمرد على الله له سورات ينتحر بها و هو يحسب أنه ينتصر... إن أخطاء أعداء الله كثيرة بيد أن السؤال الخالد: من الذي يستطيع إستغلال هذه الأخطاء، و تحويلها لمصلحة الحق؟ يستطيع ذلك مؤمنون ترشحهم خلالهم لوراثة الأرض و الإمساك بزمامها على نحو أقرب للشرف و العدل و خشية الله، و كفار زماننا لا يقلون شرا عن أندادهم الأولين، و يظهر أن زمام الدنيا قد يبقى في أيديهم زمنا أطول؟»([1]).

و يجيب عن هذه الأسئلة، فيقول: «في رأيي لانعدام الورثة الذين يصرفون شؤون الناس بمواريث الوحي الأعلى، إننا نحن المسلمين لم نستكمل بعد خلال القيادة الروحية و الفكرية لجماهير البشر، و سنن الله الكونية و الاجتماعية لا تعرف المحاباة»([2]).

يستفاد من الفقرة السابقة أن المسلمين عندما تخلوا عن سنة المدافعة، وقع لهم ما وقع من اضطراب يدعو إلى التساؤل خاصة محاربة الإسلام و إبعاده عن الحياة بمختلف مناحيها لحصره في زوايا محدودة، و من هنا يمكن أن نذكر ما فعلوا في هذا المضمار: تشويههم لتاريخ الأمة الإسلامية، و ذلك بإبراز العناصر السلبية فيه، فعمدوا لطمس سيرة الخليفة العادل و إبراز السلطان الجائر، و إخفاء صورة القائد المجاهد و إظهار صورة السفاح الماجن، و حجب ذكر الإمام و العالم و القاضي التقي المستقيم.

يقول الغزالي: «و حماة الإسلام الكبار لم يلقوا الترجمة الصحيحة لأعمالهم، بل تناثرت هنا و هناك دون ضوابط!

و أحيانا أرمق ما كتب عن دولة الخلافة، فأجد إبرازا للسلبيات، و إخفاء للمحامد و الأمجاد، و كأنما كان التاريخ للفتن وحدها!!

---

[1]) محمد الغزالي – الحق المر– مكتبة التراث الإسلامي– دار الشهاب باتنة الجزائر– 1987 – ص 30 – 31.

[2]) المصدر نفسه– ص 31.

أجل ما كان حقه أن يوضع في الهامش كتب بالثلث، و جعل عنوانا، و منح الصدارة، أما الخير الكثير لسلفنا الأول، فكأنما وضعت فوقه حجب. عندما أقرأ أنباء المسلمين في أذربيجان، و هم يقاومون الضغط الروسي، و يحاولون النجاة، ذكرت أن هذه البقاع تم فتحها أيام الخليفة الثالث، هي و أقطار أخرى تتكون منها جنوب الاتحاد السوفيتي، إن تلامذتنا لا يعرفون هذا و لا رسمت لهم خريطة تجلى أمامهم هذا الإعماء الذي درس لهم الأكاذيب المفتراة على عثمان و محاباته لنفر من عشيرته كان المفروض في تدريس رسالة ضخمة أن تذكر المبادئ و التطبيقات التي نهض جيل الصحابة الأوائل و غير به وجه الأرض!

و خرج بها العرب من أكوام الجاهلية الأولى يحملون كتابا أشرقت به الظلمات و نشأت عنه حضارة ازدانت بها الأرض ألف سنة..

إن معرفة هذا العمل بتفصيل أجدى – في ميدان السياسة و التربية – من حديث الجمل و صفين وبقية السلبيات التي رسبت في الأذهان، و اختفى غيرها مما كان يجب أن يشرح و يخلد!! لحساب من يتم هذا الغمط؟!»([1])

المطلب الثالث: محاولة إبعاد الإسلام و معاييره عن التداول

الفرع الأول: محاربة الإسلام و إبعاده عن العقول و النفوس و نفيه عن الحضارة

كما عمدوا إلى تصفية الهوية الأساسية للأمة أي الهوية الإسلامية من خلال العودة بالشعوب الإسلامية إلى تاريخ ما قبل الإسلام، لإبراز الهوية الوثنية و الإثنية، و اعتبار الإسلام غزوا و احتلالا، و هذا ما ركز عليه في كثير من دول العالم الإسلامي كإيران و تركيا، و هنا تحضرني محاورة مع طالب جامعي سنة 1984 نوقش فيها موضوع الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا بالتحديد الجزائر، فقد اعتبره حملة استعمارية بكل المقاييس، و هؤلاء الفاتحون ما هم إلا غزاة جاءوا ليسيطروا و يهيمنوا على مقدرات المجتمع الجزائري، فضلا عن التوسع و النفوذ.

و بسياسة إبعاد الهوية يريدون أن تصبح الأمة كتلا بلا هوية، و يصبح لكل قطر هوية ضعيفة هشة عاجزة على تحصين كيانها، و في هذا يقول الغزالي: «المؤسف حقا أن المسلمين في

[1]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل– مصدر سابق– ص 114 – 115.

حاضرهم تشغلهم قضايا مصطنعة و دخيلة دستها عليهم أيدي أعدائهم عن العناية بقضاياهم المهمة التي تحتاج منهم للرعاية و الجهد لضمان مستقبل مشرق لأمتهم...»([1])

كما حاربوا الإسلام و ذلك باستبعاد معاييره عن التداول عند بحث المشاكل أو القضايا الفكرية والاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الثقافية، و عزلوه في زوايا لا تكاد تذكر في حياة الناس واعتبروه غير صالح، لمعالجة مثل هذه القضايا و المستجدات فأبعدوا الشرع من القانون المدني الوضعي أولا ثم حاصروه فيما بعد ليقتصروا على الأحوال الشخصية، ولم يسلم من هذا الاستبعاد العلماء و المفكرون و الفلاسفة في التاريخ، فقد أهمل ذكرهم في الغالب و طمست أعمالهم عند بحث تاريخ العلوم أو تاريخ القانون.

فقد شنوا حملات إرهابية فكرية، ضد من يتمسك بالإسلام و يرفض ثقافة الغرب وتبعيته، و قد انتقلت هذه الحملات الإرهابية الفكرية إلى تعرض أصحاب الفكر الإسلامي أحيانا للتعذيب و التنكيل خاصة عندما يكون هذا العالم أو المفكر مجاهدا بالقول و العمل. ولعل من أبسط مظاهر ذلك، تلك الإجراءات التي اتخذت ضد الحجاب و الملتحين في تركيا، و كذلك الإجراءات التعسفية في حق المسلمين في فرنسا، و ذلك بسن قوانين تحضر على المسلمات الحجاب عند مباشرتهم لأعمالهم و وظائفهم، و في هذا السياق يقول الغزالي: «و قد انفجر الغضب على الإسلام و أتباعه يوم ارتدت ثلاث فتيات زيا إسلاميا محتشما، و قال كثير من المسئولين، هذا تحد للحضارة الفرنسية، و كان غليان الرأي العام مثيرا للعجب، يصفه رجاء جارودي قائلا: "إن ما حدث هو في رأيي لحظة جنون جماعي! لو رآها أحد سكان المريخ لشعر بالدهشة! بل إن فيليب جوانزاليس رئيس وزراء إسبانيا صرح في التلفاز بأنه مندهش لما يجري في فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامي إذ كيف يستطيع ثلاث فتيات يرتدين الحجاب، أن يعرضن للخطر الهوية الثقافية الفرنسية..."

أنا شخصيا أتساءل: أن الشبه قريب جدا بين الحجاب الإسلامي و ملابس الراهبات المسيحيات فما الذي أثار الذعر و التوجس، لأن تلميذات آثرن الاحتشام و التقوى و ارتدين ما يرد عنهن الأعين الجريئة و الخائنة؟

[1]) محمد الغزالي – من مقالات الشيخ محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسانين حسن– ج 3 – ط 4 – شركة نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع – يناير 2005م – ص 43.

لا ريب أن هناك حساسية بالغة ضد كل ما يقترب من الإسلام أو يقرب من معالمه وشعائره....»([1])

و تتنوع هذه التصفية من خلال بوابة الغزو الثقافي الذي يقوم على شعبتين: إحياء النزعة البربرية كي تقاوم الإسلام و تمنع صحوته، و كذلك إنشاء نزعة جديدة عنوانها: ثقافة البحر المتوسط، كي تقطع الشعوب المطلة على هذا البحر من عالمها الإسلامي الرحب إلى عالم آخر تهي روابطه بالإسلام تاريخيا و اجتماعيا، لعله في نهاية المطاف يرتد على عقبيه! و ينسى رسالته وحضارته.

أما في شرق العالم الإسلامي: «فثم أمر آخر هو قاصمة الظهر، و كارثة الدهر هو الاستعداد الحار الجارف لإقامة إسرائيل الكبرى! وإسرائيل الكبرى غاية دينية مقررة لدى اليهود والنصارى على سواء»([2])

و من العوامل التي اعتمدها الغرب في تصفية هوية الأمة الإسلامية ما يسمى بالقومية، وفي هذه القضية يتحدث الغزالي "عن قصة القوميات"، قائلا: «يجب أن يراجع المسلمون أنفسهم في قضية القوميات... مصر لها قومية خاصة، السودان لها قومية خاصة، كل بلد إسلامي —الآن— صنع الاستعمار له قومية خاصة، فأصبح كل علم خاص يقاتل تحته و أصبحت له حدود يتحرك داخلها، و ينظر إلى الآخرين نظرة أنهم جيران أو غرباء عنه أو مصالحهم ثانوية بالنسبة إلى مصالحه الداخلية، هذه القصة هي أول أسباب الخراب في العالم الإسلامي...»([3])

بهذه السياسة التي انتهجها الغرب، و هي تحطم مقدمات الأمة الإسلامية، و ذلك بإقامة كيانات تجزيئية يسهل السيطرة عليها و التحكم في مقدراتها، بحيث لا تسمح بالاستقلال الحقيقي، و لا بتحقيق تنمية و نهضة، فهي حالة تحكم على الأمة بالعجز الدائم.

و من ثم كان نقل هذا التغريب الفكري المنظومة الغربية بكل أبعادها إلى المجتمعات الإسلامية، ثقل الضربة القاصمة التي أراد الغرب إنزالها على رأس الأمة، لأنه يحمل سمة الإتباع والإلحاق و التقليد، و فقدان القدرة على الاستقلال و الإبداع و هذا المصاب الجلل الذي أصاب

[1]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل– مصدر سابق– ص 119.

[2]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل– مصدر سابق – ص 120.

[3]) محمد الغزالي – محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع– جمع و إعداد قطب عبد الحميد قطب – دار رحاب للنشر و الفنون المطبعية – ساحة بور سعيد، الجزائر – 1987م – ص 47.

الأمة في كيانها يتحمله المسلمون بالدرجة الأولى، لأنهم أعرضوا عن صراط الله المستقيم، يقول الغزالي: «و لو عقل المسلمون أحوالهم، في هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم لأدركوا أن ما لحقهم من عار يعود إلى انحلال عراهم، و تفرق هواهم... فلقد أكلنا الاستعمار فرادى و مزقنا قطعا يسهل التقامها، فالقطيع السائب لابد أن تفترسه الذئاب.

و من المعروف أن الهجمات الاستعمارية لم تنجح في ضعضعة الأمة الإسلامية إلا عقب ما جهزت لذلك بتقسيم المسلمين شيعا منحلة واهية و دويلات متدابرة يثور بينها النزاع و تتسع شقته لغير سبب، و الاستعمار في ذلك يتبع سياسته المعروفة: فرق تسد»([1])

ثم «إن طرد المسلمين من أماكن القيادة العالمية، لم يكن ظلما نزل بهم، بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم و حطوا مكانتها، و شابوا معدنها بركام هائل، من الأهواء و الأوهام في مجالي العلم و العمل على سواء»([2]).

فضلا عن إلغاء المنهاج الإسلامي من المدارس و التعليم، ثم عملوا على تحطيم كبرياء الجامعات الإسلامية إما بالإهمال، و إما بعدم الاعتراف بشهادتها، و إما بالدعم الذي قدم للجامعات و المدارس ذات النمط الغربي، و أعطيت الامتيازات و فرص العمل لخريجي هذه المدارس.

و من نتائج إلغاء المنهاج الإسلامي تعرض العلماء و المثقفون و الإسلاميون و المفكرون النُّزهاء إلى التهميش و التجاهل، و أحيانا التهكم على ثقافاتهم، و وصفها بالتخلف و الرجعية وأنها سبب البلاء للمجتمعات العربية و الإسلامية، و في مقابل ذلك، اتخاذ الثقافة الغربية، معيارا للعلم و الثقافة، و كان مصير هؤلاء العلماء و المفكرين المسلمين التهميش و الإقصاء، و الأبعاد عن المراكز الحيوية، كالقضاء و التدريس، فضلا عن المراكز السياسية الحساسة.

و احلوا جامعيين متشبعين بالثقافة الغربية مكانهم يطبقون القانون الوضعي و المناهج العلمانية، ثم سعوا إلى وضع الأوقاف الإسلامية و المساجد تحت وصاية الدولة (العلمانية) حتى تتحكم بأرزاق العلماء و الوعاظ و ما تبقى من معاهد إسلامية.

و ذهبوا إلى أبعد من هذا فحاربوا الإسلام من داخله –خصوصا– حين كانوا يواجهون الصحوة إسلامية واسعة، و قد كانت أساليبهم بشعة في محاربة الإسلام، فأحيانا يشجعون الاتجاهات

[1]) محمد الغزالي – خلق المسلم– دار الكتب المصرية – عابدين مصر– ط 9– 1403 هـ، 1983م – ص 255.

[2]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا– مصدر سابق – ص 181.

و الأفكار التي تقدم الإسلام على صورة مشوهة تبعد أهله عن الجهاد و مواجهة التحديات، و ثأره تقدمه في لبوس يتوافق مع العلمانية، و تستخدم نظرية فصل الدين عن الدولة، و وصل الأمر أحيانا بتسويق موالاة أهل الكفر و الشرك أو بقبول بعض الاتجاهات بأن يستخدم الإسلام في مصلحة هذا الطرف محل طرف آخر قصد خلق صراع، كما تفعل أمريكا في صراعها مع روسيا، و افتعالها لصراعات عربية-إيرانية و الأمثلة على ذلك كثيرة.

الفرع الثاني: المفهوم الغربي للتدافع

و الغرب لا يعتقد بسنة التدافع بمعناها الإيجابي، و هو الصراع البناء الذي يحقق التوازن في هذا الكون و استمراره بتعبير الأستاذ زهير عبد السلام: «التدافع سنة إلهية غايتها ضمان استمرار توازن الكون و النجاة في الآخرة، و ليس هو مبدأ وضعي مفرغ من غاياته الخيرية و الإنسانية والغيبية، كما هو مصور في الرؤية العلمانية الوضعية حيث تستعمل مضمونا صداميا قهريا استئصاليا تطلق عليه لفظ الصراع و من هنا جاءت الكتابات حول نهاية التاريخ "لفوكوياما" و"صدام الحضارات" لـ صامويل هينتنغتون، و غيرها من الكتابات الغربية التأصيلية المعرفية.

فالصراع لفظة تحمل شحنة رؤيوية قوامها نفي الآخر و قهره و السيطرة عليه، و هي لا تعني فقط استلحاق الآخر أي الإنسان الآخر غير الغربي، بل هي صراع مستمر مع الكون كله، وحتى مع الله حتى ظهرت فكرة موت الله!!! عند نيتشه و فكرة قهر الطبيعة (الكون) عند جل فلاسفة الغرب»([1]).

و الغرب يؤمنون بفكرة الصراع المبنى على القوة المادية و المشحون بالكراهية و الحقد على الأمم التي تنافسه، خاصة الأمة الإسلامية، و قد كان صراعه مع الأمة الإسلامية هو سحقها، و لما لا إفناؤها، و التجارب التاريخية المريرة خير شاهد على ذلك.

و هذا فيلسوف لإستراتيجية الأمريكية المعاصرة "صموئيل هينتنغتون" صرح في كتابه الشهير "الإسلام و الغرب آفاق الصدام" و الذي أكد فيه أن الصراع في القرن الحادي و العشرين هو صراع حضارات، و أن التفوق الحتمي سيكون للحضارة الغربية إي للمادية العلمانية، و للعالم الصليبي و ليس لعالم الإسلام، بل و إن الأمر عند أعدائنا لم يقف عند تصريحات رجال الدين أو المخططين من

[1]) زهير بن احمنة عبد السلام – آلية الحوار قراءة لمفهوم الحوار في وضع سنتي التنوع و التدافع- ص 3 و ما بعدها- بحث على شبكة الانترنيت.

صناع الفكر السياسي، فقد تجاوز الأمر إلى أن يعلن الرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نيكسون" في كتابه الشهير "الفرصة السانحة"أنه بعد القضاء على العدو الأحمر "الاتحاد السوفيتي" لم يبق أمام الغرب بزعامة أمريكا سوى العدو الأخضر، يعني بذلك الإسلام»([1]).

الفرع الثالث: تدافع أم صراع و تصادم

الغرب استطاع أن يؤجج هذا الصراع –بعدما امتلك عناصر القوة المادية الرادعة– و أن ينقله من الأفكار إلى الواقع، و من البيان إلى الميدان، و لم يألوا جهدا في تأجيجه و تغذيته بكل الوسائل الكفيلة بتحقيقه، و هو يدير هذا الصراع بتفوق و تحكما وفقا لمصالحه و خدمة لمآربه.

إذا كان الغرب قد فرض أجندته المتمثلة في الهيمنة الاستعمارية الأمريكية العالمية المسماة بالنظام الدولي الجديد، ذلك النظام الذي ينتهي بطحن الشعوب الإسلامية و النامية و سحقها، وتمكين الدولة القوية من تحقيق مزيد من القوة و الرفاهية على حساب الشعوب المكافحة التي كانت تستحق أن تأخذ الدول القوية بيدها، أو تعلمها أساليب التقدم العلمي الحقيقي، إلا أن ما حدث كان عكس ذلك.

و هذا ما يبين الوجه الحقيقي للغرب الذي استطاع بمنظومته الغربية و غزوه الثقافي والفكري و الاجتماعي أن يبسط نموذجه التغريبي ليكون بديلا عن الولاء و الانتماء للهوية الإسلامية، إنها غطرسة القوة و أنانية الثروة.

لكن السؤال المطروح: فهل يكون من المقبول أو من المعقول شرعا و سياسة أن نسمح لأنفسنا بالتفريط و لو للحظة في إعلان التفافنا حول شعار وحدة المسلمين لمواجهة هذه المخاطر الكبار، و إن حالت دون تحقيق الوحدة اعتبارات و ظروف لا نملكها، فيلكن شعار التضامن الإسلامي هو الحل تعبيرا عن الحديث النبوي الشريف الذي يعتبر حال المسلمين في صورة الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى.

لكن هل من الممكن أن يتحقق ذلك في ظل حالة الاستقطاب الحاد و اختلال ميزان القوى، و تجاذب القوى العالمية لأبناء الأمة، و تياراتها و سيطرة منطق البقاء للأقوى، بل و حالة الفُرقة الشديدة بين الدول العربية و الإسلامية.

[1] محمد عمارة – فقه المواجهة بين الغرب و الإسلام – ط 1 – مكتبة الشروق الدولية – القاهرة – 1423هـ 2003م – بتصرف – ص 60 إلى 64.

إذا كان التدافع في الرؤية الإسلامية هو «سبيل للنمو، و تجميع للقدرات، و ترقية للمواهب، و اكتشاف للسنن، و تطوير للملكات، و إدراك للنواميس الفاعلة في الحياة، بل هو سمة الحياة الدنيا، و سبيل استمرار التاريخ البشري على الأرض»([1])، فإن التدافع في المفهوم الغربي يستعمل مضمونا صداميا استئصاليا ذو نزعة صراعية.

المطلب الرابع: تفعيل سنة التدافع

الفرع الأول: المدافعة عامل قوي لإنهاض الأمة و تحريكها

إن المعروف المأمور به و المنكر المنهي عنه ليس محصورا في بعض الشعائر و الآداب، ولكن المراد به ما هو قائم في العالم من حولنا من المنكرات العظمى التي تتمثل فيما يسيطر على العالم اليوم من غطرسة القوة و أنانية الثروة و الاندفاع المحموم إلى مهاوي الترف المفسد و الرذائل المدمرة التي أشار إليها القرآن الكريم من "الفرعونية" و "الهامانية" و "القارونية" المتمثلة في نماذج، فرعون و هامان و قارون، و ما تمثله هذه النماذج من شر يضار به عباد الله في كل مجتمع يبتلى بهذه النماذج على نحو ما هو قائم في العديد من الدول في العالم اليوم و العالم العربي و الإسلامي ليس استثناء من هذه النماذج، ماذا يكون مصير هذه الأمم التي فرضت عليها هذه النماذج، إنه الدمار و الهلاك، فالأنباء المتعلقة بالأزمان الغابرة في القرآن الكريم تحدثنا غن هلاك الأمم بالظلم والفساد و الانغماس في الرذائل.

و الأمة عند ما تنكبت طريق ربها فتحت المجال لهذه النماذج أن تحيا و تنتعش في غفلة من المسلمين تحت عناوين مغرية و مزيفة، تقدم نفسها لبوسا إسلاميا و الإسلام بريء من سلوكاتها وممارساتها، وفي هذه الصدد يقول الغزالي داعيا إلى مواجهتها و رفضها: «إن الإسلام يوم تقدمه فرعونية حاكمة، أو قارونية كانزه، فمن حق الشعوب أن ترفضه و تنأى عنه... فمن الذي يؤثر العيش في ظل فرد متسلط إذا كان في مجتمعه يمرح في ظل حقوق الإنسان؟ و من الذي يرضى الانتقال إلى مجتمع ضاع فيه الحق المعلوم، إذا كان في مجتمعه الأول معانا تحيط به ضمانات ضد المسغبة و الضياع؟

[1]) عمر عبيد حسنة – حتى لا تكون فتنة – مرجع سابق .

ثم من قال إن الذي يعرض على هؤلاء الحائرين هو دين الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه و سلم و حكم به خلفاؤه الراشدون؟»([1]).

إن البلاء الذي أصاب البشرية من غطرسة القوة و ما يفرضه الغرب بسبب امتلاكه القدرة على فرض نموذجه العلماني المادي على العالم –خاصة العالم العربي والإسلامي– عن طريق سياسة العولمة، أضف إلى ذلك اختلال توازن القوى و انحياز الغرب إلى عدو الإسلام و العروبة "إسرائيل" و دعمه لها بكل ما يكفل تفوقها المادي و المعنوي، و تغاضيه عن تجاوزاتها الظالمة في حق فلسطين، و معاقبة كل من خرج عن طوعه و إرادته.

هذا المنكر يوجب على الأمة الإسلامية أن تتصدى له و أن تقوم بالنهي عنه و أن تمكن في أرض الله لكلمات الحق و العدل و التكافل... و لن تقوى على القيام بهذا الدور الإسلامي الإنساني العظيم إلا إذا توحدت كلماتها و إرادتها و قواها ز السبيل إلى إدراك هذه المعاني وترجمتها في واقع الأمة لا يتحقق إلا بإحياء سنة التدافع التي تنبثق من رؤية واقعية، تتفاعل مع المتغيرات المستجدة و هذا فرض عين على كل الأنظمة و الشعوب الإسلامية، بل و على الأفراد المسلمين من ذوي الرأي و المشورة، أو أهل الحل و العقد، و على هؤلاء جميعا أن يكونوا على وعي تام بخطر ما يخفيه المستقبل للمسلمين، فالغزالي في دعواته المتكررة، و من أولويات اهتمامه دعوته لتوحيد الأمة، حيث يعتبرها أولى القضايا، و فيها يقول: «في اعتقادي أن أول شيء نلتقي عنده ونجمع القوى عليه هو الرغبة في توحيد الأمة الإسلامية، وراء رسالتها الأولى مع طرح الخلافات الجانبية و المطالب الجزئية و الأفكار الثانوية، فلا حل و لا علاج لمشكلات الأمة بدون تحقيق هذا الهدف الذي نلتقي إليه و نحاول أن نصل إليه»([2]) خاصة في خصم عالم تفرض عليه تكتلات.

الفرع الثاني: سنة التدافع تحفيز للطاقات و شحذ للهمم

لا يخفى أن تحقيق المناط في هذا الأمر، هو ارتباطه منوط بالرجوع إلى أهل الاختصاص، في إطار من قواعد الشريعة الكلية، و مقاصدها العامة و استقراء الواقع و فهمه على وجهه، وذلك مما

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 133.

[2]) محمد الغزالي، لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 178.

يتسع فيه المجال لتفاوت الاجتهادات، و تباين التقديرات، و الوقوف على القوة التي تتوقع أن يدفع بها الخصوم في هذه المواجهة، و القوة اللازمة لدفعها و تحقيق الغلبة عليها»([1]).

و لا يتحقق هذا إلا بإعداد العدة الكافية و المتاحة، و هي من المقدمات الأساسية في فقه الجهاد (أو المدافعة) و لكن المواجهة تقع في دائرة تحقق العدة الكافية التي تؤهل للقيام بهذا الفعل.

و يضيف قائلا: «أن الحسابات التي تجريها الفعاليات الإسلامية في هذا المجال يجب أن تكون بشرية، وألا تكل أمر الثغرات و القصور لديها إلى المعجزات و الخوارق وألا التقدم على عمل من الأعمال إلا إذا غلب في ظنها في ضوء السنن البشرية المعهودة حصول الظفر و تحقق الغلبة، فإن قصّرت في ذلك فهي مسؤولة آثمة»([2]) و في هذا السياق يقول صاحب الظلال في آية الحج: «لقد شاء الله –تعالى– أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم، كما يتم نضجهم في أثناء هذا التدافع، فالبنية الأساسية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها، كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، و هي تدفع و تدافع، و هي تستجمع كل قوتها لتواجه القوى الهاجمة عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع الله تعالى فيها من استعداد لتؤدي دورها، و لتتساند من الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، و لتؤتي أقصى ما تملكه و تبذل آخر ما تنطوي عليه وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها، و ما هي مهيأة له من الكمال.

و الأمة التي تقوم على دعوة الله تعالى و رسالته في حاجة استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، و تجمع كل طاقاتها كي يتم نموها و يتم نضجها، و تتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة و القيام عليها.

و النمو السريع الذي لا يكلف عناء و الذي ينزل هينا على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لا يدعوها و لا يحفزها، و ذلك أن فوق النصر السريع الهين سهل فقدانه، و ضياعه لسببين:

أولا: لأنه رخيص الثمن لم يبذل فيه تضحيات عزيزة،

[1]) صلاح الصاوى – الثوابت و المتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي – مرجع سابق – ص 262.

[2]) صلاح الصاوى – المرجع السابق – ص 262.

ثانيا: لأن من نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به، و لم تشحذ طاقاتهم و تحشد لكسبه، فهي لا تتحفز و لا تحشد للدفاع عنه»([1]).

و من ثم فإن معظم الإصابات التي مُني بها العمل الإسلامي، في هذا المجال، كانت أسبابها بدرجة أعلى ترجع إلى التقصير في هذا الجانب، و تغافل خطير لا يمكن تسويغه عن إستفراغ الوسع لاستيفائه و تهيئة أسبابه.

و لهذا فإن الدقة في فهم الواقع على وجهه، و في حساب العدة بلا عجلة يعد من آكد الفرائض التي يجب أن تسبق الدخول الفعلي في مواجهة عملية ما، و لا يخفى أن الإطلاع بأمانة هذه المهمة ليس من شأن الفقهاء أو أصحاب التخصصات الشرعية فحسب، لكنه يمس شرائح المجتمع المختلفة، و كل في مجال تخصصه...

و قد سبقت الإشارة إلى هذا المعنى أن من الأمور الهامة التي دعا الغزالي لمراعاتها، تعامله مع الواقع، بحيث كان ينطلق من الواقع إلى المصادر الشرعية، ثم يعود إلى الواقع ثانيا بالحلول الشرعية الملائمة حسب اجتهاده فالغزالي اسم بالواقعية في مشروعه الإصلاحي، و أنه رغم الفارق الكبير بين أفكاره الإصلاحية و بين واقع المسلمين، و رغم نقده الشديد لهذا الواقع لبعده عن حقيقة الإسلام»([2]) إلا أنه دائم الصلة بهذا الواقع و ضغوطاته محاولا بل حريصا على إبراز حقيقة هذا الواقع و تشخيصه، حتى يمكن التعامل معه و من ثم تقديم الحلول المناسبة له، و قد تجلت ملامسة هذه الوقائع في باكورة كتبه «الإسلام و الأوضاع الاقتصادية» و عندما تتفحص فهارس مؤلفاته تجدها كلها تصب في هذا المنحى.

و حتى تكون الدعوة في بيئتها الملائمة لها و تحقق مقاصدها، ينبغي مراعاة الواقع وملابساته، بحيث لا يستطيع الداعية نشر دعوته دون عوائق و حواجز، و ضغوط و لهذا نجد الغزالي يطالب الداعية مراعاة هذا الجانب ألا و هو فقه الواقع، فيقول: «أرى أن يبدأ الداعية المسلم بإصلاح بيئته، و إعدادها إعدادا نفسيا و عقليا لتكون منطلقا إلى ما بعدها، و كلما أصلح جزء من الأرض التي يقف عليها بقدميه انتقل إلى آخر، و ضم إلى قدميه جديدا الرقعة التي ينطلق منها إلى العالم كله و عليه أن لا يكون مقلدا تقليدا حرفيا لحركات الإصلاح الأولى، فإن التغيرات التي حدثت

[1]) سيد قطب في ظلال القرآن مجلد 4 ط 5، دار الشروق القاهرة 1408 هـ 1982.م ص 24-25.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 62- 63.

في العالم تجعله الآن حذرا و مقدرا لأبعاد ما يقول. و ما يخشاه الغزالي و يحذر منه هو "عجز المسلم عن أبصار الساحة التي يتعامل معها أن يعلن عن قضايا كبيرة، فلا يستطيع من خلال إمكانياته أن يحققها فيقع في شيء من الإحباط، و يوقع الآخرين بشيء من الانكسار، و الذي أردته أن يكون عنده فقه للصورة التي يتعامل معها من خلال إمكاناته المتوفرة، و من خلال الفرص المتاحة له...»([1]).

الواضح من هذين النصيين فضلا عن نصوص كثيرة أخرى لم أذكرها (أثبتها) أن الغزالي يدعو إلى دراسة الواقع و فهمه، لأن هذا الدين نزل به الوحي الأمين ليطبق في واقع البشر، وحياتهم و بدون فهم هذا الواقع، لن يستطيع الداعية إيجاد حلول لكثير من المشكلات و القضايا التي يعج بها المجتمع و بدون دراسة واعية للواقع، فإننا نعيش في أجواء مضطربة من التناقض النفسي و الفكري، و لهذا نجد الشيخ محمد الغزالي يؤكد على الإعداد النفسي و العقلي، لبناء أرضية متينة تهيئ لأرضية صالحة تحقق المقاصد و الغايات.

الفرع الثالث: سنة التدافع تحفيز للطاقات و قدرة على تحريكها و تفعيلها

لا يشك الغزالي في أن سنة التدافع من شأنها أن تحرض الطاقة البشرية، على صورة أجهزة كامنة من ذكاء و قدرة و إرادة و إيمان و تقوى، كلها مجتمعة معا حتى نستطيع أن نمارس قدرا من التأثير لتغيير الواقع و تصويب ما أعوج في ممارسة الدين و الدنيا عند المسلمين، و العودة بها إلى الأصل الذي لم يلحقه فساد الزوائد و الأحداث، حتى تكون متوافقة بين إسلام معيشي و إسلام مرجعي. و لاشك أن القدرة على توظيف هذه الطاقات الكامنة، و كما سماها الغزالي "القوى الداخلية" تكون في حالة استنفار قصوى عند ما تجابهها تحديات و صعوبات، فواقعنا اليوم يحتاج إلى هذه الطاقة البشرية المتميزة و تحفيزها.

والمتأمل لعبارة الشيخ محمد الغزالي: "...ربما تنشط أجهزة الإيمان وتتحرك فيه قواه الداخلية إذا كانت فاترة عندما يشعر بالتحدي ويكون هذا سببا في إمداده بحياة جديدة وهنا سنن الله الكونية التي يجب أن يخضه لها المؤمنون والكافرون: أن الحياة فيها هذا التصادم المستمر بين قوى ومبادئ مختلفة، وهكذا الحياة يحاول الكفر أن يفرض نفسه فتنشط قوى الإيمان لكي تبقى... فيبقى الإيمان

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 46–47.

بعد أن تمت قواه بضغط الكافرين عليه"([1])، إشارة إلى صفوة الأمة وما تمثله من قوة تأثير في الساحة قادرة على إحداث تطور حركة واعية في المجتمع تتشوف إلى المعاصرة و مواكبتها والتطلع إلى توظيف قيم العصر في نسيج الفكر والمجتمع".

وفي مقدمة هذه الصفوة (الطليعة) الدعاة و ينتظرهم من مهام ومسؤوليات يقول الغزالي: "أن الداعية روح مفعم بالحق والنشاط والأمل واليقظة، فمهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين نافذة وبصيرة حتى إذا رأى فتورا نفخ فيه من روحه ليقوى وإذا رأى انحرافا صاح به ليستقيم، إن في الأمة جرس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الإسلام، ما يعكر صفوها و يعوق انطلاقها.

و الأمة الإسلامية فقيرة جدا إلى ذلكم النوع من الدعاة الأيْقاظ، الذين يحيون لتبليغ الرسالة، نظريا و مراقبة تنفيذها عمليا، نعم إن أيديهم قد تكون عاطلة من أسباب التغيير لأي منكر ينجم، و لكن ألسنتهم في حلوقهم سوف تكون صوت عذاب، إن لم تكن صوت إنذار لأولئك الذين يجورون على حدود الله»([2]) و في مقام آخر يكبر فيهم أمانة و مسؤولية الدعوة التي تشرفوا بحملها و هو يوجه النصح للعاملين في الحقل الإسلامي فيقول: "أطلب من إخواني الذين شرفهم الله بالعمل في ميدان الدعوة الإسلامية أن يصمدوا و أن يرابطوا في أماكن الدفاع عن عقيدتهم، و عن مقدساتهم حتى يحرزوا النصر و يسلموه إلى أولادهم و أحفادهم كي يتموا المشوار. إن المرابطين الآن في ميادين الدفاع عن الإسلام و دعوته يتحملون الكثير من العنت والإرهاق..."([3]).

لا يعقل أن يكون للأمة الإسلامية كل عناصر القوة، من مؤهلات و قدرات و كفاءات، بحيث يجعلها قادرة على قيادة العالم، بل بإمكانها أن تشكل قوة عظمى مرهوبة الجانب ترضى بهذا الذل و العجز و الارتهان والولاء لنظم وضعية مختلفة في أجهزة الحكم والقضاء والاقتصاد... وتجاوزت كل حقائق الأمة الإسلامية.

وقد بلغ هذا الارتهان نفوذ الدول الكبرى و قراراتها السياسية في صناعة كيانات ضعيفة هزيلة تتصارع فيما بينها تارة على الحدود و أحيانا على مواقع النفوذ أو الزعامة، أو نوع التبعية

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن الكريم – مصدر سابق – ص 128.

[2]) محمد الغزالي – مع الله – مصدر سابق – ص 176.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص53.

للخارج أو منافسات فيما بين أجزاء على أجزاء أخرى، ناهيك عن دور الدول الكبرى في التلاعب من خلال هذه الصراعات.

فالقضية في نظر الكثير من المفكرين و العلماء المسلمين قضية صراع حضاري و فكري وعقائدي.

و حتى تكون الأمة الإسلامية في مستوى هذا الصراع ينبغي عليها أن تعي سنة الله تعالى في دفع الناس بعضهم ببعض: «لتدرك أن سنة الله تعالى في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة ثم يقذف الله تعالى بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»([1]).

و قيام الحق في الأرض لا يتحقق إلا بتوفير الأسباب و بذل الجهد البشري، و في حركة الأنبياء و مسيرتهم مع أقوامهم و ما لاقوه من تصد و إعراض يؤكد هذه الحقيقة، ألا و هي الأخذ بالأسباب و بذل الجهد البشري.

و لم ينتظروا العون و السند من الله دون حركة أو فعل، و إنما كانت قناعاتهم أن هناك سننا يجب التعامل معها و الأخذ بها، و متى كان هناك عجز أو ضعف عندها تتدخل العناية الربانية لتنتصر لأهل الحق، في هذا السياق يقول صلاح الصاوي: «أن العمل الإسلامي عندما يكون في اتخاذ الأسباب، و حساب النتائج المتوقعة، يجب أن يكون في أدائه لهذا العمل بشرا من البشر، يزن بموازين البشر، و يتعامل في حدود السنة المعهودة في حياة البشر، و لا ينبغي له أن يقدم على عمل من الأعمال، يحتوي على عدد من الثغرات، و جوانب الضعف، تعلقا بمعجزات تتنزل عليه من السماء، فهو يتعامل مع السنن و الأسباب، و كأن السنن و الأسباب هي كل شيء. و عندما يكون في مقام التوكل على الله و التماس النصر من عنده يجب أن تنمحي من حسه هذه الأسباب، و أن يطرق باب ربه بكامل الشعور بالعجز و الإفلاس و الافتقار و كأنه لم يأت من الأسباب بشيء، وهذا يجمع بين عبودية السعي وعبودية التوكل، و لا يعطل إحداهما لحساب الأخرى»([2]).

إنها سنة الله تعالى مرت على جميع الرسل، و مضت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و على أمته، و ستظل ماضية إلى أن ينتهي الكون.

---

[1]) سيد قطب – في ظلال القرآن – ج 2 – ط 9 – دار الشروق – القاهرة – 1400هـ، 1980م – ص 1091.

[2]) صلاح الصاوي – الثوابت و المتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر – مرجع سابق – ص 255.

و الغزالي عندما استعمل لفظة التصادم المستمر بين قوى و مبادئ مختلفة، أراد بها سنة التدافع الذي قدره الله و جعله من سننه، و هو تدافع الخير و الشر الذي ينتهي بغلبة الخير، والقضاء على الشر، و الله يمن على عباده بأن جعل من سننه أن يوجد في الأرض أهل حق و أهل إيمان، و أهل صلاح، يدفع الله بهم أهل الباطل، فيزهق الباطل و ينتصر الحق و تخلو الأرض من الفساد أو في القليل ينحصر الفساد فلا يصبح هو المسيطر، و تلك كانت مهمة (رسالة) الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف و تنهي عن المنكر و تؤمن بالله، والأمة الوسط التي تكون شاهدة و قائدة و رائدة للبشرية، لكن غياب هذه الأمة عن الساحة أفسح المجال للحضارة الأوروبية بقيمها و نظمها و أفكارها و نظرياتها و معاييرها، و عاداتها و أخلاقها من أجل امتلاك أعظم قدرة للممارسة هيمنتها و نفوذها و إخضاع العالم لسيطرتها، و كان من تداعيات هذا الإخضاع و النفوذ، فشو الفساد في الأرض و انتصار الظلم و التعسف و الاستبداد، و صنوف الانحراف، و يكفي منه السيطرة العالمية اليهودية، و العولمة التي تريد أن تفرض الظلم الاقتصادي و الانحلال الخلقي في الأرض، كلا ما أبعد سنة الله التي تهدف إلى حفظ الأرض من الفساد و عن أعراف البشر الضالة في عصر طغت فيه عبادة الماديات التي تجعل الفساد هو الغالب في الأرض، و لا يذهب عقل القارئ إلى تأويل التصادم بمعناه السلبي، و إفراغه من مضمونه القرآني الإيجابي.

إذا كان التدافع هو سنة إلهية غايتها ضمان استمرار توازن الكون و النجاة في الآخرة 'كما سبقت الإشارة' فإن الصراع و التصادم بمفهومه الوضعي يقصد به الغلبة و الانتصار، بغير قيم و لا أخلاق و هو السائد في عالم اليوم، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذي جعل قانون القوة و الهيمنة هو المسيطر. فالتصادم بمفهومه الوضعي مفرغ من غاياته الخيرية والإنسانية كما هو مصور في الرؤية العلمانية والنظم الوضعية.

إن هذا التدافع كما يذكر الغزالي: «جزء من الاختبار الإلهي، و جزء من تمكين الخير من أن تزداد صلابته في مواجهة الشر»([1]).

و حقيقة المعركة بين الدعوة و أعدائها، و حقيقة المخططات الصليبية و الصهيونية و كل القوى المعادية للإسلام تدخل في دائرة سنة الابتلاء و التمحيص و سنة التدافع و لا يتحقق التمكين إلا من خلال هاتين السنتين، فهما مرتبطان ارتباطا وثيقا. فلقد جرت سنة الله تعالى، لا يمكن لأمة

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 128.

إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، و إلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث فيميز الله الخبيث من الطيب، و لابد أن تسفر كل محنة يتعرض لها الصف المؤمن عن فرز حاسم للعناصر الأصيلة عن العناصر الداخلية.

و إذا كان الاختبار الإلهي في العقائد و الدعوات من أشد الابتلاءات و المحن التي تصيب الصف المؤمن، فيلقى أنواع الأذى في الأموال و الأنفس لإعراض فلابد من صبر و مقاومة واعتزام. و في هذا السياق يستشهد الغزالي بالآية القرآنية الكريمة التي تشير إلى قانون إلهي يجب معرفته. قال تعالى: ﴿و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون﴾ سورة السجدة الآية 24.

«هذه الآية في بني إسرائيل، و يقول ابن القيم و قد سئل: أيمكن للإنسان أو الشعب أولا ثم يختبر؟ أو يختبر أولا ثم يمكن له؟ فأجاب، بل يختبر أولا، فإذا نجح في الامتحان، و محص البلاء معدنه، و خرج من المحنة و هو مجلو نقي كان أهلا للقيادة و السيادة و الصدارة و للإمارة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون﴾ الآية.

إن إمامة الناس أو الصدارة في الأرض، أو قيادة المجتمعات البشرية تحتاج إلى مرشحات ومؤهلات عقلية و خلقية... هذا يعني أن المعاناة لابد منها لمن يريد الإمامة كان فردا أو كان جماعة»([1]).

و في سياق ذي صلة بهذا المعنى يقول الغزالي: «إن الأمم لا ترزق التمكين في الأرض ولا تنال حظا من عناية الله إلا إذا مرت بأدوار من العمل المضني و الجهاد الشاق، و صبرت على تكاليف الرسالات التي تحملها و التقدم الذي تنشده»([2]).

[1]) حديث الاثنين للشيخ محمد الغزالي التي سجلها للإذاعة و التلفزيون الجزائري – إعداد للأستاذ عبد القادر نور – مصدر سابق – ص 149.

[2]) محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة و الدعاة – مصدر سابق – ص 84.

المبحث الثاني

ضرورة الاقتباس من منجزات الحضارة الغربية

المطلب الأول: التعامل مع منجزات الغرب بعقلانية و تفتح

و كلما ازدادت هذه المحن و الابتلاءات، إنما تزيد أصحابها صبرا و تجلدا و تحديا وإصرار لمواجهة كل الشر بكافة أشكاله. و في ظلال الآية الكريمة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لاَ يُفْتَنُونَ(2) وَلَقَدْ فَتَّنَا الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الّذينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ سورة العنكبوت الآيتان 2-3.

يقول سيد قطب في ظلال هذه الآية الكريمة: "إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف و أمانة ذات أعباء، و جهاد يحتاج إلى صبر وجعد يحتاج إلى احتمال فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا، و هم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا و يخرجوا من الفتنة صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم..."([1]).

إذا كان الغرب و الحضارات الأخرى لا تملك موروثا حضاريا بشقيه المادي و الروحي إذا ما قورن بحضارة العالم العربي و الإسلامي إلا أنها استطاعت أن تصنع حضارة هي أرقى ما توصلت إليه الإنسانية في هذا العصر من انجازات كبيرة خاصة في مجالات البحث العلمي، واكتشاف أسرار الطبيعة في القارات المختلفة، و تحت الأرض و في أعماق البحار، و في أجواء الأرض و الأجرام السماوية و أولها الهبوط على سطح القمر و حتى بعض المواريث الروحية والفكرية استطاعت أن تحقق فيها إنجازات حاجتنا إليها ملحة وضرورية وقد كانت دعوة الغزالي الاستفادة منها والاقتباس فيما يتوافق وقيمنا وعاداتنا كسبيل للنهوض، و يعد موقف الغزالي من قضية الاقتباس و الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية واجب في عصر اختلت فيه موازين القوة ونجد هذه الدعوة في قوله أن: "و الإسلام لا يمنع هذا الاقتباس ولا يحرمه، في ميدان العلائق والمعاملات الإنسانية التي وكل الله إلى الناس تنظيمها و تحسينها، و ناط بعقولهم اختيار الوسائل الناجعة فيها، كما لا يحرمه في مجال المخترعات و العلمية و الكشوف، فالحكمة ظالة المؤمن حيثما وجدها فهو أولى بها، بل قد ترتفع

[1]) سيد قطب – في ظلال القرآن – جـ 2 – مرجع سابق – ص 1090.

الإباحة في هذا الصدد إلى درجة الواجب الذي يأثم المسلمون بتهاونهم فيه، إذا كان الاقتباس من تلك الحضارة يسهم في علاج التخلف و الضعف الذي يعانيه المسلمون، بعد أن أفاقوا فوجدوا الغرب قد سبقهم إلى الإجراءات و الوسائل التي تحقق غايات الإسلام في الميادين السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية"([1]).

و إن ما وصلت إليه دعوة حقوق الإنسان من قواعد و ضمانات لكرامة الجنس البشري، ليدل عل احترام هذه الحقوق بدءا بتقديس الحرية و الأخذ بمبادئ الديمقراطية السياسية والاجتماعية التي تضمن حرية التعبير و كرامة الإنسان، و حرية المعتقدات الدينية و الفلسفية...

و في إشارة ملفتة يوجه الغزالي أنظارنا إلى هذه التجارب الغربية و ينوه بإنجازاتها ويعتبرها نواحي إيجابية في المدنية الغربية، تتفق كل الاتفاق مع ما يستهدفه المجتمع العربي الإسلامي الأصيل، ويمكن لنا أن نستفيد من هذه الخبرات التي صنعت حضارة الغرب.

فبعض علماء الحضارة الغربية مثل توينبي وغيره يعتبرون التحدي والاستفزاز هو سبب هام في الاستجابة و النهوض الحضاري، هو الذي يقضي على العناصر الشائخة و يستفز الأمة لتنهض، و تواجه ظروفها، و عدوها، و أن فترات التحدي هي فترات خير للأمة، لأنها تعيد إليها شبابها و نهوضها... هذا ما ذكره عمر عبيد ليؤكده الغزالي في قوله: "هذه القضية لا شك أنها تقع ضمن مساحة ما أسميناه سنة التدافع و لكن هناك هامش آخر في سنة التدافع، أرى أنه –أحيانا– في حالة ضعف المسلمين و عدم قدرتهم على المواجهة الكاملة تكون هناك قوى عالمية متناقضة تحمل العداوة للمسلمين، لكنها في الوقت نفسه تحمل من التناقض فيما بينها ما يحملها على الاقتتال و المواجهة، فإذا أحسن المسلمون التحرك الحكيم من خلال الظروف المتاحة مستثمرين التناقض القائم، يمكن أن نقول: بأنهم أفادوا من السنة المدافعة التي وردت في القرآن و أدركوا أبعادها...

و يضرب مثالا على ذلك بالصحابي نعيم بن مسعود الذي أحسن التحرك بين بني قريظة و قريش في غزوة الخندق (على الرغم من حصار المسلمين و ضعفهم المادي)([2])([*]).

---

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 111.

[2]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 129.

يدعو الشيخ الغزالي إلى الاستفادة و استثمار هذه التناقضات القائمة بين أعداء الأمة قصد دفع لبعض المفاسد، أو منع لمزيد من الانهيارات، كما يفهم من العبارة السابقة دعوته إلى مداراة بعض الاتجاهات تحييدا لها في معارك، الأمة في غنى عنها و أحيانا تقتضي المصلحة، بعض التحالفان المرحلية مع بعض الاتجاهات اليسارية و العلمانية و القومية، التي لا تشكل خطرا على سيادة الأمة و قيمها، و قد تقتضي المصلحة ألا تفتح جبهات كثيرة تمزق شمل الأمة، و في هذه الحالة لا ضير من مدارة بعض الخصوم و حصر دائرة الصراع ما أمكن، لان العدو يحاول بكل ما أوتي من وسائل تبديد طاقات العمل الإسلامي وإشغاله بمسائل جانبية، قد يستدرج فيها العمل الإسلامي إلى تحالفات تكون على حساب رسالته و قضيته، فيذهب تفرده و ينطمس أثره، و يزداد الالتباس، و تتسع دائرة الخلاف والصراع الداخلي الذي يجعل الأمة تنكفئ على نفسها إذا لم تجد القدرة على المواجهة و في مقال له بعنوان "عدو و لكن له فضل" يقول: «أستطيع أن أقول أنني استفدت من أعدائي بقدر ما استفدت من أصدقائي، فلئن كان بر هؤلاء بي قد دفعني إلى الإجادة و تطلب الكمال لقد كان كره أولئك لي يدفعني إلى الحذر و توقى النقص، و المرء تتيسر له سبل الاستقامة بين عوامل الرغبة و الرهبة فقلما يحيد أو يتراجع.

و الهيئات و الأحزاب بإزاء هذه الحقيقة كالأفراد و ليس يغير من أثر هذه الحقيقة أن الناس يكرهون أعدائهم و يودون أن يختفوا من أمام وجوههم.

فكم من هيئة تريثت في حكمها، خشية امتداد الألسنة إليها، و كم من حكومات لزمت الصواب خشية ثورة المعارضة عليها.

و من ثم يجب أن نرقب أعدائنا لنستفيد منهم، كما أننا نرقبهم لنتقي غوائل حقدهم وكوامن خصوماتهم»([1]).

المطلب الثاني: التدافع لاستغلال ما بين الجبهات المتصارعة

و يحث الغزالي العاملين في الحقل الإسلامي و يدعوهم لاستغلال هذه الجبهات المتصارعة في العالم فيقول: "يستطيع الإسلاميون في هذا العصر أن يستغلوا ما بين الجبهات المتصارعة في العالم

*) أنظر محمد الغزالي – فقه السيرة – دار المعرفة – بولوغين، الجزائر – 1999م – ص 235.

[1]) محمد الغزالي– من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث– ط 2– شركة الشهاب للطباعة و النشر– باتنة– 1987م – ص257.

من فروق و من نقائض اجتماعية و سياسية لكي يظفروا بحق الحياة أولا، و لكي يعرضوا أيضا ما عندهم، و يُعرف ما فيه من خير... و أخيرا لكي يستطيعوا أن يستردوا ما فقدوا من مساحة مكانية في الاستعمار و ما أصابهم من نكبات اجتماعية و سياسية كثيرة في الهزائم التي لحقت بهم، و يستعيدوا ما فاتهم"([1]).

إن الفقرة السابقة تلخص تراجع الأمة الإسلامية، و إبعادها عن الحياة بمختلف مناحيها وإذا أراد الإسلاميون أن ينهضوا وأن يستبدلوا ضعفهم هذا بالقوة، و أن يستعيدوا عزتهم وكرامتهم جمعاء، عليهم أن يستغلوا هذه الجبهات المتصارعة و أن يستفيدوا من سنة المدافعة ويوظفوها لصالح الأمة والإنسانية في هذا الكون.

إن عملية رصد بسيطة و مركزة للمدنية الغربية كل المؤشرات توحي بأنها تعين ثورات جديدة و صراعات متناقضة تنبئ بعواقب غير محمودة، فهناك ثورة دينية و أخرى أخلاقية وأخرى فلسفية، و أخرى اجتماعية و سياسية... ففي الحقل الديني نلاحظ موجة عنيفة من الإلحاد باسم المذهب الإنساني تجتاح العالم الغربي فصلا عن العلمانية و الليبرالية و الحداثة.

أما في الحقل الأخلاقي فالمدينة الغربية تشكو من انتشار جرائم القتل و الاختطاف والسرقات و الزنا، و العنف و سفك الدماء، أما الكحول و المخدرات، فانتشارها بدأ يهدد الإنتاج الاقتصادي، كما تهدد سلامة المجتمع.

و في الحقل الفلسفي ظهرت فلسفات عديدة تدعى أنها جديدة، منها ما يدعو إلى المادية و الإلحاد، و منها يشجع على الثورة الدامية، و العنف بين طبقات المجتمع، و منها ما يحرض على الفوضى، و منها ما يدعو إلى اليأس و العدمية.

إن هذه الفلسفات تشوش أفكار الناس، و تلبس علهم الحقائق، كما تزيد من القلق والتشاؤم في الحياة في عالم هو في أمس الحاجة إلى الطمأنينة و الأمان.

أما الثورة الاجتماعية رغم ما تحمله من ايجابيات خاصة في تنظيم العمال على اختلاف مهنهم في نقابات و المطالبة بالمساواة المرأة بالرجل في الحقوق و الواجبات، و القضاء على التمييز العنصري. إلا أن تداعيات هذه الثورة الاجتماعية و ما أفرزته من مشاكل كالإضرابات أو تعطيل

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 129.

المصالح الحيوية، دفع بالشباب المعاصر أن سخط على هذه النظم الاجتماعية و النظم الجامعية، وشكواه من العزلة و الإهمال لذاتيته.

هذا السخط دفع بالشباب إلى العنف و الفوضى، كما اندفعت شريحة من هذا الشباب إلى الاستهتار بالقيم الأخلاقية و الاجتماعية، و تعاطي العقاقير المخدرة و إدمان الخمر و الشذوذ الجنسي... إن هذه الانحرافات الاجتماعية و الخلقية و الشذوذ الجنسي، صاحبه ارتفاع مطرد لنسب الجريمة و الجنحة، و في كتابه "جدد حياتك" ينقل الغزالي عبارات لـ "ديل كارنجي"(*):

ينقل الغزالي عبارات لـ 'ديل كارنجي' "يتعرض فيها إلى معضلات و أمراض وعلل تشكو منها المدينة الغربية، في مقدمتها القلق يقول: 'ديل كارنجي': «لقد أثبت الإحصاء أن القلق هو القاتل رقم 1 في أمريكا، الحرب العالمية الأخيرة قتل من أبنائنا نحو ثلث مليون مقاتل، و في خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليون نسمة، و من هؤلاء مليون نسمة كان مرضهم ناشئا عن القلق و توتر الأعصاب»([1]).

و في مقال بعنوان "مأساة الأخلاق في السويد" و هو مقال نشرته مجلة التايمز الأمريكية ينقله الغزالي في كتابه "نظرات في القرآن" يتحدث فيه عن «الانهيار الخطير الذي أصاب الكنيسة عندما تخلت عن دورها الروحي في الحياة، و تخلى القسيس عن مسؤوليته كرجل دين في ظروف فرضتها ملابسات تاريخه حيثما أعلن الملك جوستاف انفصال السويد عن روما خلال حركة صلاح الدين، و اليوم يرتبط نشاط الكنيسة السويدية و اعتقادها بالدولة ارتباطا وثيقا، حتى أنها تكاد تكون إدارة من إدارات الحكومة، ليس لها من الأهمية أكثر مما لأية إدارة أخرى...!

و لقد سارت الكنيسة منذ ذلك العهد في ركاب حكومة تحاول بكل الوسائل أن تظفر برضائها مما أدى إلى فقدانها كل تأثير روحي على رجل الشارع في السويد».

و كان من تداعيات هذا المسلك الذي فرض على الكنيسة أن يقل نشاطها و تحسر دورها، ما ترتب عنها من انحدار في الأخلاق «فقد انحدرت الأخلاق في السويد إلى درك هائل وتبين الإحصاءات أنه يوجد على الأقل 27 ألف أم لم يتزوجوا، و معدل المواليد في السويد هو 110 آلاف

(*) ديل كارينجي: صاحب الكتاب المعروف "دع القلق وابدأ الحياة".

[1]) محمد الغزالي – جدد حياتك – دار القلم – دمشق – ط 13 – 1420هـ، 2000م – ص 42.

مولود فقط كل عام، و إذا قارنا هذا بتعداد السويد البالغ 7 ملايين نسمة لأدركنا الخطر الذي يهدد مستقبل البلاد و 10 في المائة تماما من المواليد غير شرعيين، و تجرى لنصف الأمهات غير المتزوجات اللاتي يحملن كل عام عمليات إجهاض قانونية»([1]).

و بلغ الانحلال الأخلاقي حدا لا يطاق يقول الغزالي: «كلمات نشرت على عرض بضعة أعمدة بالحروف اللافتة في صحيفة الأهرام تقول تحت عنوان: 'تخلع ملابسها في مزاد للخير' لأول مرة في تاريخ "المجتمع الراقي" البريطاني يستخرج حفلة خيرية عامة عن وقارها! و للأول مرة في تاريخ هذا المجتمع –أو هكذا تقول الصحف البريطانية– تنظم حفلة من الحفلات الخيرية الكبرى برنامجا من البرامج التي تقدمها "علب الليل" الباريسية!!. تؤديه راقصة فرنسية مشهورة اسمها "مس نيفر" دعتها اللجنة المشرفة على الحفلة لكي تقف أمام الجمهور بملابسها كاملة ثم تخلعها قطعة بعد قطعة حتى تبقى عارية كما ولدتها أمها...!!

بقى أن تعرف أن اللجنة التي نظمت الحفلة تظم أكثر من سيدة من "علية القوم" و أن الذين سيحظرون الحفلة أكثر من "دوق" و أكثر من "سير"و أكثر من "لورد" و بينهم كذلك السفير الأمريكي في لندن. و أما الحفلة فتقام لصالح اللاجئين الأوروبيين طبعا»([2]).

و هذا غيض من فيض فقد امتلأت فضاءات العالم الغربي بهذه الروائح الكريهة التي زكمت الأنوف، و هي تتبجح باسم عناوين إنسانية أقل ما يقال عنها أنها داست قيمة الإنسان فأغرقته في وحل الهمجية و سلخته من آدميته. و يعلق الغزالي على هذا المشهد الممسوخ فيقول: «إنما نبرز تواطؤ أمم غفيرة على نسيان الله و هدم حدوده، و الظهور بهذا النسيان و الهدم في آفاق الشرق و الغرب.

و نحن نحذر القردة الخنازير من تزيين هذا السبيل لأمتنا، و من تضليل سعيها و نشر هذا السقوط الاجتماعي على أنه تحضر و ارتقاء، أو على أنه خلق أهل الحضارة و الارتقاء»([3]).

إنها أمراض وعلل تشكو منها المدينة الغربية المهددة في كيانها و استقرارها و وجودها حضارة عرضت العالم إلى حربين عالميتين زهقت فيها عشرات الملايين من الأرواح لازالت تهدد هذا العالم، و ها هي ذي تدفع به الآن إلى حافة كارثة نووية تهدد الوجود البشري، فضلا عن المواد الكيميائية

[1]) أنظر محمد الغزالي – نظرات في القرآن – ص 193–196 بتصرف.

[2]) محمد الغزالي – هذا ديننا – مصدر سابق – ص 160–161.

[3]) محمد الغزالي – هذا ديننا – المصدر السابق – ص 161.

الضارة التي تقذفها المصانع إلى البحيرات ناهيك عن إشعاع التفجير الذري و ما يسببه من أخطار على حياة الإنسان و ما نشهده في انفجار محطة "تشرنوبل" النووية في الإتحاد السوفيتي و ما حدث في اليابان من تدمير في المحطة النووية (محطة فوكو شيمة) وانتشار شظاياها وما خلفته من إشعاعات مدمرة لحياة الكائنات والبشر وكيف لنا أن ننسى خطر يتهددنا في أي لحظة ألا وهو تدهور طبقة الأوزون، فعلينا أن نتذكر الخرق الذي اتسع في هذه الطبقة وما يمكن أن ينتج عن ذلك من مخاطر للبشرية كلها إذا لم نتدارك أخطاءها ونتلافى الأسباب المؤدية إلى هذه المخاطر ويذكرنا هذا الخرق في طبقة الأوزون بالحديث النبوي الشريف الذي يصور فيه النبي صلى الله عليه وسلم البشرية كلها وقد اجتمعت في سفينة بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا احتاجوا للماء صعدوا إلى أعلى السفينة، وبعد أن تعبوا من الصعود والهبوط ومن مضايقة الآخرين لهم فكروا في إحداث خرق في أسفل السفينة يستقون منه حاجتهم الماء. إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجحوا جميعا»([1]).

إن على الإنسان المسلم أو الأمة الإسلامية أن تفي بمسؤولياتها وفي الوقت نفسه لا يجوز لها أن تستهين بقدراتها وملكاتها ومقدراتها التي تعينها على حمل الأمانة والوفاء بحقها وعلى الرغم من أن الإسلام يركز دائما على المسؤولية الفردية ويؤكد على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، فإنه من ناحية أخرى يحمل كل فرد أو كل جماعة مسؤولية منع العبث بمصير هذا العلم، فالأمة مطالبة بتحصين هذا العالم من كل التهديدات المدمرة للحياة والأحياء، والوقاية من أي صراع أو اصطدام يهيئ لحروب طاحنة تحصد نفوسا بشرية في أعداد هائلة كما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية، وما يحدث من اقتتال بين الفرقاء العرب والمسلمين...!

المطلب الثالث: سنة التدافع حصانة لكيان الأمة

الفرع الأول: سنة التدافع بين الإفراط و التفريط

"و لم تبخل هذه الحضارة عن كشف مسارها الذي يتجه نحو مزيد من الانحطاط في مجال القيم و الأخلاق و المعايير و العلاقات الإنسانية، فقد تصاعدت في رحابها الاتجاهات العنصرية والمظالم الاجتماعية و صراع الطبقيات...

[1]) صحيح البخاري – رقم 2313 – من حديث النعمان بن يسير.

هذا النموذج الحضاري الأوروبي المعاصر تأسس و نما و ترعرع في ظل السيطرة و الهيمنة على العالم لا يمكن أن يكون نموذجا قابلا للحياة، و لن يستطيع أن يحقق الحياة الإنسانية الفاضلة، و أثبت الواقع فشله و الدول العربية التي حاولت أن تنسخ هذا النموذج الذي دللت عليه التجارب لا ينتج عنه غير المزيد من التجزئة و التبعية و العجز و العقم و الشلل إن لم نقل إلى حتفها، لأنها لم تستطع أن تقدم للعالم نموذجا حضاريا يرقى بعلاقات الإنسان بأخيه الإنسان أو بعلاقات الشعوب و الجماعات و الأقوام ببعضها، فهي غير جديرة بالاستمرار([1]).

و من ثم يأتي البديل الذي يستطيع أن يحقق كل القيم ذات البعد الإنساني و السمو الأخلاقي، و الأمة الإسلامية بإمكانها الاستفادة من هذه التناقضات و الصراعات و أن تعرض ما عندها من عناصر قوة و الإبداع، لأنها تملك كنوزا من المواهب و القابليات، إلى جانب ما تملكه من كنوز تاريخية و موروث حضاري راق يحرر الإنسان من العبودية لكل المخلوقات و القوى طبيعية كانت أن بشرية. و بهذا يستطيع المسلمون "الظفر بحق الحياة" كما عبر الغزالي، و لا يتحقق لهم هذا الظفر إلا بالعودة إلى ميراثهم الضخم، ألا و هو الإسلام، و ما يحويه من ينابيع الخير و الصلاح، فالإسلام يهدي الإنسان و يرشده في كل مكان إلى سلوك أفضل السبل لتحقيق سعادته، و التغلب على مشاكله الدنيوية و التمتع بإنسانيته.

فالإسلام و هو يكرم الإنسان، يعرفه بأن هذا الكون لم يخلق عبثا، و بدون قصد إنما خلق لتحقيق هدف سام و وفق سنن إلهية ثابتة، منها سنة التدافع و أن الإنسان يستطيع إذا حقق إنسانيته أن يساهم في تحقيق القصد الإلهي العظيم على هذه الكرة الأرضية.

و لكن مع هذا كله تبقى أوروبا متقدمة من الناحية المادية و التقنية، رغم هذه التناقضات و الصراعات التي يمكن أن تصل إلى حد الاقتتال، والحقيقة التي يؤكدها الواقع والحقائق هي: «أن هذا الكون يعطي ثماره لمن يستغله لأن سنن الكون المادية فيه محايدة تستجيب لكل من يتعلقها، ولكل مجتهد فيها نصيب وهم ساروا وفق سنن الله في الطبيعة الكونية وقوانينه في المادة([2]). ولكن تقدمهم

[1]) منير شفيق – الإسلام و تحريات الانحطاط المعاصر – ط 1 – دار طه للنشر –لندن – 1403هـ، 1983م – ص 130–132.

[2]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – ج 1 – مرجع سابق – ص 180.

ظل ماديا يحوم حول الطبيعة الكونية وسننها وضلوا فيما عدا ذلك، لأنهم تنكبوا سنن الله التشريعية ولم يسيروا بها جنبا إلى جنب مع السنن الكونية».

لا شك أن هذا التقدم والتقوي المادي لأوروبا هو نتيجة منطقية وطبيعية، فهم تعاملوا مع هذه السنن وساروا وفقها فتجاوبت معهم فاستفادوا من اكتشافاتها وحققوا ما حققوا من إنجازات تفوق التصور، ربما هذا التقدم العلمي والتقني والمادي يمكن أن يسهم في الحفاظ على كيان أوروبا وسيرتها الحضارية وهو ما يعتبره الد/ راشد سعيد شهوان: «هناك عدالة جزئية ومكاسب جزئية وهناك خصال تنظيمية مازال يحملها الغرب، ولا شك أنها هي التي تحفظ كيانه إلى هذه اللحظة، أما هذا السيل الجارف من المدمرات في الفوضى الجنسية والخلقية والإلحادية وتفكك الأسرة والمجتمع والانفلات من القيم والمعنويات والخبرات المتناثرة في كل الأرض على ضخامته ضئيل حين يقاس على الشر المنتشر فيها.

فأوروبا على وشك الزوال كما تفصح عن ذلك كثير من التنبؤات الصادقة والتقارير لبعض مفكريها وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا...»([1]).

الفرع الثاني: تحصين الجبهة في حسن التعامل مع سنة المدافعة

إذا كان هذا البديل المتمثل في الأمة الإسلامية غير مهيأ للمواجهة و المجابهة لتحديات تفوق قدراته المادية و التكنولوجية و العسكرية، فأقل ما تقوم به هو الاستفادة من هذه الانقسامات و التكتلات التي قسمت العالم إلى معسكرات تتصارع فيما بينها إلى حد الاقتتال.

لماذا لا يستفيد العالم العربي و الإسلامي من هذه الصراعات و الانقسامات و يدفع بسنة التدافع إلى الواقع، و يستفيد منها، و من ثم يحقق حضوره و شهوده الحضاري في هذا العالم.

علما أن المسلمين يعيشون حالة ضعف و عجز و تبعية في كل مناحي الحياة، مع أنه بإمكانهم أن يقوموا و لو بالحد الأدنى، للحفاظ على كياناتهم التي أخذت في التهاوي و الانهيار نتيجة التعارك و التنازع و التطاحن فيما بينها فضلا عن الجبهات الخارجية التي تتربص بالأمة في كل لحظة سانحة.

[1]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – المرجع السابق – ص 180.

و قد سئل الشيخ الغزالي عن أسباب هذه الأوضاع، عن عوامل الفشل في مواجهة علل الأمة فكان جوابه كالتالي: «الأمراض التي تشكو منها و التي أصابت أمتنا على امتداد مساحتها الجغرافية ترجع إلى رافدين:

- رافد قريب منا و نحن الأساس فيه، و هو ما انحدر إلينا من مواريث فكرية سيئة عبر تاريخنا الإسلامي الطويل الذي يتأرجح خطه البياني بين الصعود و الهبوط ففي عصور الانحدار الحضاري و الثقافي في تاريخنا تكونت تيارات آمنة استطاعت أن تبقي بين طبقات من الأمة وأن تظل تنحدر حتى تصل إلى عصرنا هذا، تاركة موجات فكرية رديئة و أحوال نفسية سيئة.
- و الرافد الآخر: هو سوء اقتباسنا من الحضارة الحديثة التي استطاعت أن تصبغ العالم كله بصبغتها، و يظن عدد كبير من الناس أن التحضر و التمدن أن يسكن الواحد في ملابس هذه الحضارة.

و التقى الرافدان معا في أيامنا هذه فوجدنا المتناقضات، وجدنا من لا يزال يحارب المعتزلة، و وجدنا من ينقل من هوليود أسوأ ما فيها...»([1])، و بعبارة موجزة و بالمختصر المفيد يلخص الغزالي الرافدين في هذا المعنى: «إن الأمم تحكمها سنن كونية، واحدة هي: أنها إذا اختل أمرها، احتلها الغرباء عليها!! الاختلال الداخلي يسبب الاستعمار الخارجي»([2]).

إن هذه التحديات التي تواجه العالم الإسلامي (الأمة الإسلامية) في هذا العصر بما فيها منا لمتناقضات و العلل و الأمراض التي أصابت الأمة في عمقها، «تحتاج إلى نقطة فكرية عند من يعالجون أمرها، ة الأمر يحتاج إلى أن نحسن التشخيص فنعرف ما كان من مواريثنا و نحاكمه إلى كتابنا (القرآن الكريم)، فإن هذا الكتاب جاء شفاء للناس و دواء لعللهم، و يكون طريق حضارة استطاعت أن تسود العالم كله عدة قرون، و عندما لم نفهم هذا و لم نعمل به تخلفت الأمة واشتد بها اليأس. كذلك لابد أن ننظر إلى ما نقتبسه منا الآخرون، و لنعلم أن أوروبا لم تنتصر بملابسها ولم تنتصر بمآكلها، إنما انتصرت بالتجربة و الاستقراء و التأمل و الملاحظة للكون و التسخير لقواه و

[1]) محمد الغزالي – مقالات الشيخ محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسنين حسن – مصدر سابق – ص 150–151.

[2]) محمد الغزالي – محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع – مصدر سابق – ص 98.

الالتفات لما فيه من خير، لابد أن نستفيد من تجارب الآخرين، و نتعامل مع الكون على هذا الأساس»([1]).

و الحق أن الأمة الإسلامية جنت على نفسها جناية كبيرة حينما تنكرت لدينها و أعطت ظهرها لكتاب ربها و سنة نبيها، فهي مسئولة أولا و آخرا عما آلت إليه من هوان و ضعف وعجز فحال الأمة يرثى لها، فلا ضعف المسلمين الراهن و وهنهم، و لا تفوق أعدائهم عليهم بالعنف وإخضاعهم لهم يرضى الإسلام إنما ما يحدث للأمة الإسلامية من هزائم متكررة، و انهيار واستسلام و مذلة و هوان لا يمكن أن نحمله إلى أطراف أجنبية، و غالبا ما نعلق هذا التخلف وهذه الهزائم، و نحملها الاستعمار الأجنبي، خاصة أمام العدو الإسرائيلي و الأمريكي فهي في نظر الغزالي مبالغ فيها، غير دقيقة التشخيص، بل تدهور أوضاع الأمة و المساهمين فيها إلى المسلمين أنفسهم فيقول: «و ليس من الحق تحميل الاستعمار الأجنبي أوزار تخلفنا المادي و الأدبي... نعم إنه يستديم ضعفنا و لكن ليس سبب في هذا الضعف، إننا نحن المسلمون الذين أفرطنا في ديننا، وأسأنا إليه طورا بالإهمال الشنيع، و طورا بالتأويل الفاسد، و طورا بالتطبيق الغبي»([2]).

و تجده دائما يحذر من الجبهة الداخلية، لأنها تعتبر النواة الصلبة التي يتماسك بها كيان الأمة و تقوى شوكتها فبضعفها و عدم تماسكها تتعرض إلى التجزئة، و صناعة كيانات هشة غير قادرة على حماية نفسها، و تبقى تتعرض لشتى العلل و الأمراض التي تنخر كيانها، و في هذا المعنى (السياق) يتحدث الغزالي عن التحديات التي تواجه الدعوة و الرسالة الإسلامية قائلا: «هناك تحديات تواجه الدعوة الإسلامية بل تواجه الرسالة الإسلامية ذاتها، أقلها من الخارج و أكثرها من الداخل... ثم فالآفات التي تنخر في الكيان الإسلامي أشبه بالأمراض المتوطنة، و قد ألحقت بها معاطب مخوفة ثم انتهت به خواتيم القرن الرابع عشر الهجري إلى حال تسوء الصديق و تسر العدو» ([3]).

[1]) محمد الغزالي– مقالات الشيخ محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسنين حسن – مصدر سابق – ص 151.

[2]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية – مصدر سابق – ص 21.

[3]) محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 12.

و يضيف قائلا: «أنا لا أرهب الأخطاء المحذوفة بالإسلام، و أن خصومه كذا و كذا من أسباب القوة، و كذا و كذا من وسائل الموت، إني لا أكترث لتلك القوى المدمرة، و لا لما يكمن فيها من دمار، و إنما أوجل أشد الوجل عندما أرى المسلمين يتحللون من عهودهم مع الله تعالى، و يسلخون من لباس التقوى و ينساقون بغباوة الاستعمار المهدم لقوانا الروحية و المقطع لحبالنا الدينية»([1]).

إن ما يخشاه الغزالي عندما تكون حصر الأمة مهددة من الداخل و ما الاختلالات التي أفقدت الأمة توازنها طوال هذه القرون إلا بعدما انحرفت بوصلتها عن المسار الطبيعي عندما تخلت عن جوهر حياتها و حركتها و ديمومتها و هو الإسلام الذي شكل تلك القوة الجبارة التي تزود جسد الأمة بعوامل الدفاع و المقاومة و الهجوم، و لهذا ما كان على الأمة من خطر يطغى فيها من يطغى، أو ينحرف من ينحرف، و ما كان عليها من خطر حقيقي حين يجتاحها الغزاة أو يتعدى على ثغورها المعتدون مادام الإسلام عامرا في قلوب الناس.

المطلب الرابع: نماذج عملية لسنة المدافعة

و بالعودة إلى حديث الانقسامات و الصراعات الذي أشار إليه الغزالي في فقرته السابقة، أن هذا الصراع داخل هذه التكتلات الدولية يمكن استثمارها و استغلالها لصالح المسلمين، خاصة ظاهرة الظلم العالمي التي أخذت في الاتساع فتراكمت هذه المظالم و مست نسبة كبيرة من المجتمعات في هذا العالم.

لماذا لا يمكن الاستفادة من هذه المظالم، وذلك بفتح ثغرات قادرة على اختراق صفوف هؤلاء الظالمين، و الأمر في هذه الحالة يحتاج إلى مدارة في التعامل مع هذه الجبهات ليبقى الأمر دائما في نطاق تحقيق المصلحة ودفع المفسدة. ولا شك أن ترتيب الأولويات –كما سبقت الإشارة إليه– وحصر دائرة الصراع يعد من أولويات التخطيط الناجح لأي مشروع يريد النهوض بالأمة. فلا ينبغي للعمل الإسلامي أن يدخل في خصومة يدرك نتائجها مسبقا ولا يستفز أكثر من عدو في وقت واحد حتى لا تتفرق وتبعثر الجهود يمنة ويسرة. وهو لا يزال يدرج في بداية الطريق فلا يصح مثلا أن يدخل

[1]) محمد الغزالي – مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – مصدر سابق – ص 11.

في خصومة مع اليسار الصليبي، ويفتح على نفسه جبهة إذا قرر أن يتوجه إلى مجاهدة ومصارعة الوجود اليهودي واستنفار الأمة بمختلف طوائفها ضد جرائمه حتى لا يقع بذلك بين شقي الرحى اليهود من جانب والنصارى من جانب آخر، وما قضية فلسطين الجريحة وما تحدثه من تفاعل وصراع عالمي ليدل على حضورها في كل مناسبة ولقاء دولي، فإسرائيل هذا الكيان الغاضب، وهذا ما أشار إليه الإمام الغزالي في قوله: «لتكن لنا في قيام دولة إسرائيل الحالية عبرة، فاليهود عن طريق البراعة السياسية والاقتصادية واستغلال أخطاء عدوهم استطاعوا أن يبنوا دولة رغم أن كل الدول كانت ضد إسرائيل([1]).

ولم لا ونحن نملك كل الحق، الحق التاريخي الحق الإنساني والحق القانوني ما ينقصنا سوى تفعيل القضية الفلسطينية، فالقضية الفلسطينية هي قضية الإسلام بيقين، ولا بد أن يحشد المسلمون قواهم فيها»([2]).

فلو استطاع دول العالم العربي والإسلامي أن يحركوا هذه القضية ويدفعوها إلى الساحة الدولية، ويجلوا حقائقها التي تثبت حقها التاريخي والديني والقانوني والإنساني ويرافعوا عليها في كل المحافل والمنتديات الدولية ويدفعوا عنها هذه المظالم لأمكنهم ذلك إذا كانت الإرادة عازمة وصادقة في دعواها. بإمكاننا الاستفادة مما استفادت منه إسرائيل عندما قامت ككيان ودولة في قلب العالم العربي وأخذ العبرة من قيام هذا الكيان، فعندما نتحدث عن الانتفاضة الفلسطينية كمثال على ذلك، استطاعت هذه الانتفاضة أن تحرك الضمير الجمعي العالمي، وأن تستثير فيه الناحية العاطفية الإنسانية.

استطاعت أن تستعطف شرائح كبيرة من الشعوب في الغرب بكل انتماءاته وعرقه وجنسه وأن تكسب مواقع متميزة في وسائل الإعلام الغربية فضلا عن الإعلام العربي وقد امتد هذا التعاطف إلى شريحة من المجتمع اليهودي أي أظهر تعاطفا واسعا للقضية الفلسطينية وما المسيرات والمظاهرات والتجمعات الشعبية للأوروبيين ضد حكوماتهم إلا دليل على رفض سياسة التعامل بمكيالين. وقد

[1]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة، الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 104.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة، الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 152.

تجلى هذا الدعم من رموز غربية تعاطفت مع القضية الفلسطينية أيما تعاطف بحيث ترجم إلى سلوك وممارسة وعمل فهذا النائب البريطاني "جورج غالوي" أخذ على عاتقه تفعيل القضية الفلسطينية عالميا من خلال حركته الدؤوبة وتنقلاته المستمرة في أصقاع العالم ليعيدها إلى الواجهة وإلى الساحة لتتصدر مكانها الطبيعي، ولا أدل على ذلك من مساهمته في إغاثة وإعانة الشعب الفلسطيني بعد تعرضه لعدوان عنيف على قطاع غزة فقد قاد سفينة محملة بكل أنواع المساعدات، ولا نبالغ إن قلنا أن هذا الرجل صار الناطق الرسمي لقضية فلسطين يدافع عنها في كل المحافل والمنابر الدولية، مما حدا ببعض المناوشين والخصوم والأعداء والحاقدين على مواقفه اتهامه بدخوله الدين الإسلامي.

كما أن المظاهرات العالمية ضد الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003(*)، يمكن أن يكون مدخلا لاستثارة الرأي العام العالمي أكثر ضد هذا الغزو الظالم كما يمكن أن يكون وسيلة لكسب الرأي العام العالمي.

وأشار الإمام محمد الغزالي إلى هذا المعنى قائلا: «لو استقرأنا ذلك نلمح بأن الله سبحانه وتعالى لم يسلط على البشرية ظالما واحدا إلا وكان هناك من يواجهه ويدفعه، فمن خلال الخصومات العالمية والظلم العالمي والمواجهات العالمية يمكن أن تفسح فرجا إذا أحسنا التعامل بما أسميناه سنة التدافع»([1]).

ويصب في هذا المعنى (السياق) المتغيرات الدولية الجديدة وموقع الولايات المتحدة الأمريكية منها، فنظام توازن القوى أو الثنائية القطبية أي كان قائما بين المعسكرين الشرقي والغربي، أتاح للولايات المتحدة الأمريكية لعب الدور المحوري والقيادي للمعسكر الغربي، ولكن المتغيرات الجديدة على الساحة الدولية أفرزت معطيات جديدة أهمها الحديث عن نظام دولي جديد بقيادة أمريكية ولكن كثيرا من المحللين أكدوا أن هذه القيادة العالمية مل هي سوى شعور ونشوة انتصار لا أكثر ولا

*) الإمام محمد الغزالي لم يشهد الغزو الأمريكي للعراق لأنه رحمه الله توفى سنة 1996م.

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 129.

أقل، ولبست نهاية التاريخ كما صورها "فوكوياما"(*) لصالح النموذج الأمريكي، فسياسة الهيمنة الأمريكية على المستوى الدولي تتعارض رأسا مع الديمقراطية الغربية التي تروج لها أمريكا، وهو ما دفع الكاتب الأمريكي "يغوم شومسكي" لتأليف كتابه "تعويق الديمقراطية" إن هذا النظام الجديد جعل الولايات المتحدة الأمريكية عدوا للجميع، لقد كان مصف العالم في مواجهة الاتحاد السوفيتي، ولكن نشهد اليوم تحول الجميع في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، وخذا ما يؤكد انتقال الصراع على جميع المستويات إلى داخل المعسكر الرأسمالي فضلا عن الصراعات التقليدية مع روسيا والصين والعالم العربي والإسلامي، حيث نجد فيها أمريكا طرفا في الحرب والسلام.

وانتقل عدوى الصراع إلى أوروبا حيث ظهر تمرد أوروبي فأمريكا تحولت إلى عدو لأوروبا التي تبحث عن التخلص من المظلة الأمريكية سياسيا وأمنيا، وكانت الأزمة البوسنية أحد أساليب التفاوض بين الأمريكان وأوروبا، حيث أثبتت الأزمة فشل كل الحلول الأوروبية للأزمة، وكان ذلك إشعارا أمريكيا بعدم قدرة الأوروبيين عن التخلي عن الحل الأمريكي، ومن ثم المظلة الأمريكية.

أما من جهة روسيا، فالروس يحاولون الاستفادة بأكبر قدر من الدعم المادي الغربي، لا يخف جنرالات روسيا وساستها امتعاضهم من تقلص دورهم الإقليمي والدولي فحشروا أنفسهم في الأزمة البوسنية للتفاوض مع الأمريكان ومن موقع قوة وللتأكيد على أهمية (أوروبا الشرقية) كمجال حيوي للسياسة الخارجية الروسية ويقف الجنرالات الروس موقف الرافض من مسألة توسع الحلف الأطلسي لدول أوروبا الشرقية مما دفع أمريكا لتليين موقفها في قمة الأطلسي (جانفي 1994) ببروكسيل حيث دعت إلى صيغ جديدة تسمى "الشراكة من أجل السلام" وهو حل وسط همش فيه العامل الأمني والاستراتيجي لصالح العوامل السياسية و الاقتصادية، و هو ما يجعل روسيا مطمئنة حتى الآن، إلا إذا فهمنا أن حري الشيشان هو لون آخر من ألوان المفاوضات الغربية مع روسيا، حيث تجد روسيا نفسها مضطرة لقبول توسيع الحلف الأطلسي أمام تهديدات وحدتها الوطنية.

*) فوكوياما: هو فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام 1952م. يعد من أهم مفكري المحافظين الجدد. من كتبه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" و "الانهيار أو التصدع العظيم". ويعتبر الرجل من أحد الفلاسفة والمفكرين الأميركيين المعاصرين، فضلا عن كونه أستاذا للاقتصاد السياسي الدولي ومديرا لبرنامج التنمية الدولية بجامعة جونز هوبكنز

و إذا ما تحدثنا عن آسيا، فاليابانيون لا يخفون امتعاضهم عن الوجود الأمريكي في أرضهم و لذلك يرفض سكتن جزيرة 'اكيناوا' كراء أراضيهم أو الترخيص مجددا للقوات الأمريكية بالبقاء فيها، هذا الامتحان تتداخل فيه عوامل التاريخ و الثقافة و المصالح الاقتصادية حيث أصبح الصراع الاقتصادي بين اليابان و أمريكا في مراحل متقدمة، و كلنا نتذكر التهديدات الأمريكية لليابان في هذا المجال التي دفعت مطالبها إلى المنظمة العالمية للتجارة، و الصين هي الأخرى، و في محاولة لاسترجاع أراضيها، و عودة 'الصين الكبرى' جوبهت بالدعم الأمريكي لجزيرة 'تايوان'، ونتذكر في هذا المجال الحشود العسكرية الأمريكية الذي صادفت إجراء الانتخابات التايوانية التي تزامنت مع المناورات العسكرية الصينية، إن هذا السلوك يجعل الولايات المتحدة الأمريكية العدو الأول للآسيويين الذين يبحثون عن هوية آسيوية.

أما العالم العربي الإسلامي يشكو أكثر من السياسة الخارجية الأمريكية التي تقف ضد مصالحه، و تلتف إلى جانب إسرائيل في كسر طموحاته، فالعرب لا يمكنهم تناسي مأساة العراق، و ليبيا و لبنان و فلسطين، و كلهم يتذكر المواقف الأمريكية المؤيدة، و بدون شروط لسياسة إسرائيل بالمنطقة العربية.

و لعل الظاهرة الجديدة زيادة مساحة العداء للأمريكان بالعالم العربي و الإسلامي فالسعودية و تركيا ترفض وضع أراضيها تحت خدمة العسكر الأمريكان لخدمة الانتخابات الأمريكية، و هو موقف جدير بالملاحظة و التقدير لدول تحسب من أصدقاء أمريكا إن المنطق العالمي الجديد لا يجعل من أمريكا قائدة العالم، و لكن يجعل منها عدو الجميع و هذا ما يؤكد أن سياسة الهيمنة لا تخدم بالضرورة مصالح الطرف المهيمن، خاصة إذا لم يكن هذا ما يملك عوامل السيطرة كلها، و يتغافل مصالح الأطراف الأخرى، و أمريكا من خلال هذه المظالم التي وزعتها وفرضتها على العالم دون ، خاصة العالم العربي و الإسلامي، استعبدت الجميع، و أدركت سبب هذا العداء، و من ثم حاولت أن تلمع صورتها أمام الرأي العام العالمي، و قد طرحت على نفسها هذا السؤال. لماذا يكرهوننا؟

إن هذه الخصومات العالمية و الظلم العالمي و المواجهات العالمية، كما ذكر انتشرت و تصاعدت في ظل غياب العدل و الحكم الإسلامي، الذي يحقق الأمن و السلام، يقول الغزالي: «في غياب العدل و الحكم الإسلامي، لا يمكن أن يسلط الله على البشرية ظالما واحدا يتحكم بها ، بل

يوجد دائما أكثر من ظالم، و من خلال مواجهتهم و صراعهم تتحقق فرص النهوض و البناء الحضاري»([1]) و هي من حكمة الله تعالى أن يدفع الشر بالشر و الظلم بالظالم، فمن حكمته ورحمته بعباده أنه إذا قامت دولة و قويت و أرادت أن تفسد في الأرض و تستبد بالشعوب يجعل الله عز و جل أماها دولة أخرى تنازعها فتصدها قال الله تعالى: ﴿و كذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ سورة الأنعام الآية 129.

فالله سبحانه و تعالى سلط بعض الظالمين على بعض أو يسلط المؤمنين على الظالمين حتى لا تفسد الأرض، فعندما قويت انجلترا —لو يكن هناك قوة للمؤمنين— قوى الله سبحانه و تعالى ألمانيا لترهيبها و لتدافعها، و عندما قويت أمريكا أقام الله تعالى روسيا أمامها تدافعها و تنازعها ليستقيم ميزان القوى العالمية، و حتى لا يعم طغيان و إفساد أمريكا الأرض كلها([2]).

هذه الحكمة الإلهية تقتضي النباهة و الفطنة ة الذكاء في التعامل مع هذه التحديات ليس الهروب من المشكلة خلالها، كما أن الاستسلام لمنطقها القاهر يقود إلى الذل و الهزيمة، و لابد هنا من إيجاد ممرات (منافذ) ممكنة تسمح بقبول هذه التحديات، و لكن من خلال الضوابط و المعايير الإسلامية، بمعنى أن علينا بدلا من أن ندخل رؤوسنا في الرمال أن ندرس التحديات الجديدة، ونفهمها جيدا و أن نسعى إلى توظيف الحلقات الممكنة منها لتعزيز وجودنا.

و ليس أمامنا قبالته إلا لمزيد من استدعاء عوامل التحصن مستندين في ذلك إلى الإمكانات التي تتمتع بها الأمة الإسلامية على مستوى الجغرافية و الإستراتيجية و الثورة المعدنية، والإمكانات الغذائية، و القوى الديمغرافية، فضلا عن العمق العقائدي الذي يمنحها و يعدها الكثير، و إن هذه الإمكانات العظيمة التي يتوفر عليها العالم الإسلامي لو نميت و استثمرت لقدمت للإنسانية نتاجا حسنا، و غيرت في موازين القوى و حققت القوة و المتعة و العزة.

«لكن هذا يحتاج إلى أن الذي يحسن الاستغلال يجمع بين أمرين: بين الإخلاص العميق للعقيدة و المبدأ، و الذكاء العميق أيضا الذي يستطيع أن يفتق الجبل حتى يصل إلى ما يريد»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 127.

[2]) راشد سعيد شهوان – جـ 2 – مرجع سابق – ص 146.

[3]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 129.

إن التركيز على العقيدة و الإخلاص لها (فيها) يحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله كما يحرر من كل ارتهان، يحرر وجدانه من كل خوف إلا من الله، و من كل رجاء إلا من الرجاء بالله. 'فالعقيدة بهذا المعنى قوة دافعة'.

فالإنسان لا يخضع إلا لرب العالمين، و هو حر كامل الحرية متى عمل بأوامره، و اجتنب نواهيه، فالإنسان المؤمن لا يخشى أحدا إلا الله، و هذه العقيدة هي قوة اجتماعية عظمى رادعة عن الشر دافعة إلى عمل الخير، فهل من قوة أعظم من هذه القوة تتسلح بها الأمة تزيد الحياة و تزيد العزة و الكرامة.

فالعقيدة قوة دافعة فاعلة، فهي الطاقة النفسية الهائلة، و القدرة الذهنية الفائقة، و العزيمة الإرادية الصلبة، و السعي الحثيث الخلاق، و العمل الحضاري المبدع، بل هي النظرة الشاملة المتعمقة الراشدة و المسؤولة.

هذه العناصر المتضافرة و التي منبعها العقيدة المخلصة في تبل بالأمة المرحلة التي تؤهلها لتلمس طريق الحضارة و التطلع للريادة، عندما تستكمل الشروط التي تجعلها قديرة على تقديم المشروع الحضاري البديل، و لكن ذلك لن يكون قبل أن تتقدم بهذا المشروع لذات نفسها أولا "أقيموا شرع الله في أنفسكم يقم في دينكم" فتتحقق به في مستوياته العليا الممكنة، و من ثم تقنع الآخر بمصداقيته، و هذا كله لن يكون ما لم تع الأمة جيدا قوانين الحرمة التاريخية، و سنن الله سبحانه و تعالى في الكون و العالم.

أما الأمر الثاني الذي يؤكد عليه الغزالي هو "الذكاء العميق" و الذي فقد نضارته في واقع المسلمين خاصة الدعاة.

و يقصد بالذكاء العميق 'دقة الفهم للدين و الدنيا' و لا تتحقق هذه الدقة في الفهم إلا من خلال "الداعية الحصيف الذي يشخص العلة التي أمامه و يهيئ لها الشفاء المناسب من كلام الله و رسوله. و بذلك يجيء نصحه طبا للمريض، و رحمة تذهب عناءه، و نورا يهديه السبيل، والقدرة على هذا الأسلوب لا يلقاها إلا من استجمع:

1- ثروة طائلة من نصوص الكتاب و السنة تكون رصيدا عنده لأي أداء وافد أو مرض عارض.

2- إحاطة تامة بطبيعة البيئة، و أحوالها الجلية و الخفية و ظروفها القريبة و البعيدة "([1]).

و يوضح هذا المعنى في مقام آخر فيقول: «إن الدعوة إلى الله تتطلب من المنتصب لها اطلاعا غزيرا على القرآن الكريم، و على سيرة الرسول بوصفها للتطبيق العلمي الرشيد لروح القرآن، ثم سير الخلفاء و الأصحاب في جهادهم المادي و الأدبي لإرساء دعائم الإسلام و إبلاغ رسالات الله. و لعل هذا القدر من دراسة العصر الأول يعطي صدره دقيقة عن تعاليم الإسلام في كل شأن، فإذا استكمل الداعية هذا النصب الواجب، يبقى عليه أن يدرس عالمه الذي يعيش فيه دراسة فحص و استقصاء. أجل تبقى عليه أن يكون ذا خبرة واعية بالميدان الذي سيعمل فيه حتى يدرك كيف يصلح دنيا الناس بدين الله»([2]).

بهذا الرصيد المعرفي بحقائق الدين و فهم الدنيا، يكون المسلم الداعية قد تسلح بسلاح لا يقل، يستطيع أن يشهره إذا ما أحسن بالخطر يحدق به، و أن حماة يمكن أن يتعرض للاختراق أو الانتهاك، إنه سلاح سنة المدافعة و فقهها.

إلا أن تعطيل هذه الموهبة و الملكة الفطرية 'الذكاء' أعاق حركة المجتمع الإسلامي، وصرفه عن قضاياه الحيوية و قد تحدث الغزالي عن هذا الجانب فقال: «مما صرف الناس عن الدين في هذا العصر التخلف العقلي الملحوظ عند بعض رجال الدين، و ندرة ثروتهم من الثقافة العامة، و حالة أنصبتهم من ففقه الحياة و الإحياء. و من السخف انتظار نهضة للدين على رجال يحبون حبوا في أوائل طرائق المعرفة، بينما سبق خصومهم سبقا بعيدا في دراسات الكون و الحضارة والتاريخ حتى كأنهم أحاطوا بل شيء خبرا»([3]).

المطلب الخامس: تعاملوا مع سنة المدافعة فتفوقوا

فهو عندما يتحدث عن الصراع المزمن بين العرب و اليهود، و كيف استطاعوا أن يحتلوا و يسيطروا على فلسطين معللا: «أن اليهود عادوا إلى فلسطين... الحقيقة هي أنهم لم يعودوا بقواهم الذاتية، قدر ما عادوا الآن المسلمين شحبت وجوههم، و غاضت منابع الإيمان من تربيتهم، و انقطع تيار الإيمان الذي يمدهم بالقوة... فلما جاء اليهود و انتصروا، لم يكن انتصارهم فخرا لهم بقدر ما

[1]) محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة و الدعاة – مصدر سابق – ص 189.

[2]) محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة و الدعاة – المصدر السابق – ص 194.

[3]) محمد الغزالي مع الله – المصدر السابق – ص 240.

كان هذا الانتصار خزيا لنا»([1]). إن العقل اليهودي يفكر و يخطط ويرسم الإستراتيجيات، و قد لا نبالغ إذا قلنا أنهم يتمتعون بقدرة كبيرة على الاقتصاد في الجهد المبذول، بل لديهم قدرة عظيمة على توجيه طاقاتهم التوجيه الذي يخدم مواقفهم ز مصالحهم.

و مما لا شك فيه أن حسن توجيه الجهد الوجهة السليمة (الصائبة)، إلى إنتاج أكبر، و إلى يسر في العمل، و إلى توفير كثير من الطاقة التي كانت لتنفق سدى لولا حسن توجيهها، و تسديد اتجاهها التسديد الحسن.

و من هنا فإنك تجد الأذكياء من الغرب —سواء سياسيين أو اقتصاديين، اجتماعيين أو نخب مثقفة— يستشعرون الثقة بأنفسهم، لا يغرقون حتى هاماتهم في تفاصيل و تفاريح الأعمال، بل يركزون هممهم على الأساسيات، ولا ينظرون إلى التفاصيل إلا للإفادة منها لخدمة الأصول والأساسيات، فزعماء اليهود و الصهيونية عندما أرادوا أن يجدوا لأنفسهم أرضا، اختاروا أرض فلسطين كموطن لهم، أجمعوا أمرهم على تحقيق هذا الهدف الكبير، و خططوا له تخطيطا دقيقا، ورسموا له حيزا زمنيا لتنفيذ هذه الخطة، و هذا ما تحقق فعليا و على أرض الواقع في الفترة الزمنية المحددة. و قد طرح سؤال مهم على الشيخ محمد الغزالي مفاده:

لماذا يكون غيرنا قديرا على ربط نتائج عمله بزمن طويل؟ فيجيب: «في أول مؤتمر صهيوني (سنة 1897) قال هرتزل: "إن إسرائيل ستقوم بعد خمسين سنة، و أراد اليهود أن يحققوا وعدا لرجل أو نبوءته، فأقاموها سنة 1947م عندما صدر قرار تقسيم فلسطين 29 نوفمبر (تشرين الثاني) 1947م، و في الحقيقة لم يكن هرتزل يفكر في أنه سيعيش حتى يدرك هذه النتيجة، و لكن ربما أن ما يعجز هو عنه سيحققه أبناؤه، و ما عجز عنه أبناؤه سيحققه أحفاده المهم أن جنسا تتعاون أجياله المتعاقبة على إدراك نتيجة»([2]).

هذا السياسي اليهودي المحنك و المخلص لدينه و ملته، أراد أن يخدم قضية مصيرية كبرى طالما أرقته و أخذت منه أثمن ما يملكه في حياته ليتجاوز نفسه، و يرتفع عن شهواته، و يصب

[1]) محمد الغزالي – خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين و الحياة – ج2 – إعداد قطب عبد الحميد قطب – مراجعة الدكتور محمد عاشور – مكتبة رحاب — الجزائر — 1988م – ص 48.

[2]) فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة – حوار مع الشيخ محمد الغزالي — رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية – مطابع الدوحة الحديثة – — قطر — 1404هـ – ص 10.

اهتمامه كله لإيجاد وطن يجمع شباب أمته و هو فعلا ما تحقق في الواقع بعد سنين من التدبير والتخطيط و انتهاء بصنع القرار. فالرجل قدم المصلحة العامة فوق أي مصلحة.

يقول الغزالي: «إن اليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمم العروبة مجتمعة، لأن ملائكة السماء نزلت تعينهم، أو لأن الخوارق القاهرة صنعت من أجلهم، فقد علمت أن انتصارهم جاء وفق سنن مطردة، و أن الوسائل التي رجحت كفتهم عادية بحتة، و أننا يوم نعمل مثل ما يعملون و نجهد مثل ما يجهدون فلن يقر لهم قرار»([1]).

و في سياق آخر يتحدث عن الوجود اليهودي في فلسطين يقول: «و الوجود اليهودي في فلسطين المحتلة لا يجوز أن يستغربه العرب، لماذا لا يكون إحساسهم به على أنه واقعي طبيعي لابد منه ؟ و نتساءل، هل الوجود العربي إلى جوار اليهود له أي احترام في توراة اليهود و تلمودهم...؟ و بلوغ المرام يتم خطوة خطوة عند قوم يستغلون الزمن و يحسنون التريث، و يعرفون متى يضربون...»([2]).

إن الإنسانية عامة و المسلمون خاصة، لم يدركوا بوضوح تام بعد أبعاد الأهداف الصهيونية، و إن كانت ملامح هذه الأهداف تظهر من حين لآخر من خلال الممارسات والسلوكات([3])، و يتجلى هذا من خلال شن حملات الإرهاب الفكري ضد من يتمسك بالإسلام و الثقافة الإسلامية كما حدث للفيلسوف الفرنسي 'رجاء غارودي' الذي شنت ضده حملة عنيفة كانت من نتائجه إقحامه في محاكم فرنسا و اتهامه بمعاداة السامية، " هذا الرجل الذي اعتنق الإسلام، عندما أحس إفلاس الحضارة الغربية، و استوحش خوائها الروحي، و شرودها الفكري، و عندما درس الإسلام دراسة خبير بالأديان و الفلسفات، عارف بالحضارات البشرية و أسرارها، ازدهارها و انهيارها، لقي في العالم العربي من الصد...

[1]) محمد الغزالي – من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث – ط 2 – شركة الشهاب – باتنى، الجزائر – 1987م – ص 42.

[2]) محمد الغزالي – هموم داعية – شركة الشهاب – باتنة، الجزائر – 1402هـ – ص 58.

[3]) زيارة ليبرمان وزير خارجية إسرائيل يوم 2010/08/15 إلى دول المصب لنهر النيل، تكشف حقيقة الصهيونية في توتير العلاقات بين هذه الدول، و المقصود بدرجة أكبر السودان – مصر.

و ذهب الرجل ليلقى علماء الخليج –و كنت يومئذ في دولة قطر– و تتبعت أبناءه، و هو بين حال و ترحال، و سمعت أحد الناس يقول: "أنهم وصفوه بأنه صوفي مبدع...(مساكين لا يدرون شيئا) و ولى الرجل وجهه شطر القاهرة، و قلت في نفسي: لم يلقى هناك محمد عبده، و لا حسن البنا، من سيلقى الرجل هناك؟ بقايا سدنة 'مجمع الأديان' التي أوعزت به الصليبية العالمية ثم دفن في وادي الراحة بأرض سيناء؟

و أصدر غلام شيوعي كتابا عن ردة 'جارودي' فقلت التقي الدهات من الكفار بالأغبياء من المؤمنين على مهاجمة رجل عظيم"([1]).

هكذا يعامل الرجال العظماء، و يغمط حقهم، و تنتهي سيرتهم بالتهام و التلفيق، ويسدل عليهم الستارة، و كان يمكن أن يصنعوا الكثير في إنقاذ الإنسانية من لوثات فاسدة.

هذا الخلل الذي حاق بالأمة الإسلامية، عمق المأساة، و فتح المجال واسعا لنفوذ إسرائيل، فإسرائيل اليوم بعد أن حققت أهدافها السياسية و القومية و الدينية، في أقل مما كانت تتوقعه، ازدادت أطماعها في بلوغ المزيد من الأهداف، فهي لا تكتفي بأرض فلسطين التاريخية التي اقتطعتها لها منظمة الأمم المتحدة، و إنما أصبحت تسعى جاهدة لبلع المزيد من الأراضي العربية عبر مساحات جغرافية واسعة تمتد من النيل إلى الفرات باعتبارها أرضا مقدسة حياهم الله بها في غابر السنين، و هي الأرض التي تعهد الله لإبراهيم بأن يمنحها لذريته من شعبه المختار 'اليهود' حسب زعمهم، و هذا ما يعرف بإسرائيل الكبرى.

قال الغزالي: «إن اليهود لم يخفوا ملامحهم، و هم يجتاحون أرضنا، يهجمون على فلسطين، و كأنهم وصايا العهد القديم، تنزلت عليهم الساعة، إن نداء الكتاب المقدس يرن في آذانهم...»([2]).

«فالصهيونية العالمية اليوم بتحالف مع الغرب الصليبي يخططان في مراكزهما الإستراتيجية لإعادة تقسيم العالم العربي و الإسلامي، لما يخدم مصالحهما القومية والسياسية و الدينية، و نحن

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب و المسلمين – مصدر سابق – ص 44–45.

[2]) محمد الغزالي – مستقبل الإسلام خارج أرضه – هؤلاء الفرنسيون اختاروا الله...؟ – ط 2 – مكتبة رحاب – الجزائر –1409هـ، 1989م – ص 97.

غافلون، لا نهتم إلا بحياكة المؤامرات و الدسائس ضد بعضنا البعض، و عدونا ينقض علينا من أطراف الأرض ليذلنا و يهيننا، و يغتصب أرضنا و ثرواتنا مثلما يقع للعراق اليوم»([1]).

و قع لإندونيسيا عند قطع شطر من مساحتها، و أصبحت تسمى بتيمور الشرقية قطعة تتحكم فيها السياسية الغربية بحجة أنها تدين بالديانات المسيحية، و كذلك الشأن بالنسبة للسودان الذي قسم إلى شمال و جنوب، و مازالت المؤامرات و الدسائس لتقسيم المقسم و تجزيء المجزأ، فالشمال السوداني الآن مهدد بالتقسيم؟

هذا التفوق و التواطؤ الغربي المسيحي و الصهيوني استطاع أن يستثمر و يستفيد من سنة المدافعة و هو ما يخشاه الغزالي، و هي خشية لها ما يبررها في واقع الحياة من خلال الوقائع والأحداث، و في هذا الصدد يقول الغزالي: «و أخشى أن أقول أن غيرنا طبق هذا، و لعل اليهود استطاعوا أن يستفيدوا من سنة المدافعة أكثر منا... نحن الآن في حاجة ماسة لسنة المدافعة... وليس أمامنا في هذه الظروف إلا الأخذ بسنن المدافعة، فكيف تحتال لتشق بين الأقوياء طرقا لك؟»([2]). و الأخذ بسنة المدافعة، أحيانا يمكن الاستفادة من الأمور الصغيرة التي نستهين بها عن استثمارها نكسب مواقع تعدل من كفة ميزان القوى المتصارعة، بل تقلب الموازين لصالح أطراف ضعيفة، بل تصبح رقما صعبا في أي معادلة في ميزان القوة.

و يضرب الغزالي مثلا على ذلك أن «الحزب الديمقراطي "المسيحي" في ايطاليا لم يحكم إلا فترات قليلة على الرغم من الأكثرية، و كان يكسب الحكم حزب صغير، فيه رجل ذكي، كان رئيسا للوزراء قبل سنتين استطاع أن يؤلف من مجموعة الأحزاب، ما وقف به أمام الأكثرية الديمقراطية المسيحية عدة سنين...»([3]).

لماذا هذا التفوق و القهر و الغلبة و الرسوخ في مجالات الحياة خاصة التكنولوجيا و العلم و الاكتشاف و الابتكار؟

---

[1]) خير الدين هنى – الصهيونية وجه آخر للصليبية – ط 1 – دار مداني للطباعة و النشر و التوزيع – الجزائر – 2003م – ص 10–11.

[2]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 129.

[3]) المصدر نفسه – ص 130.

«لأن أقدام اليهود الراسخة في ميادين العلم و المال و الفن و الإعلام، أخرست الأعداء، و خططهم المحكمة في سراديب هيئة الأمم المتحدة، و في سراديب كل دولة على حدة، و جعلت الانتماء الديني تقدما حضاريا في إسرائيل، و تأخرا إنسانيا بيننا.

هم لم يقاوموا سنن الله الكونية بمسالكهم، بل نحن الذين نقاومها، تقول: كيف؟ و أقول: أن بريطانيا يسكنها نحو مليوني مسلم، يحملون الجنسية الانجليزية، و يسكنها كذلك نحو مائتي ألف يهودي يحملون الجنسية نفسها، و المضحك المبكي أن اليهود لهم في مجلس العموم أكثر من أربعين نائبا، أما المسلمون فليس لهم نائب واحد، إن طول باعهم في كل ناحية منحهم الصدارة... و ما طال باعهم إلا أنهم يحترمون انتماءهم و يغالون به و يريدون تشريفه، أما نحن فانتماؤنا الإسلامي ضعيف و إذا قوي فإن وسائله في الإبانة عن نفسه قاصرة فاترة»([1]).

أما نحن فلنا شأن آخر، فلم تستطع الأمة الإسلامية أن تمارس دورها المنوط بها في هذا الوجود، و لم تتحمل مسؤولية الحفاظ على هذا الكون و عمارته، فعدم الاكتراث و اللامبالاة يجعل الأمة مسؤولة مسؤولية مشتركة مع المتسبب في هذه المزالق و الأخطار التي تهدد الإنسانية كلها بالدمار و الفناء... فوجدت الأمة نفسها تشغل في المعارك الجانبية، فيغرقون في التفاصيل، وأحيانا التفاصيل تغرقهم في غيامها، و من ثم فإنهم يتشوقون إلى من يأخذ بيدهم من تلك الغمرة التي لا مفر من الغرق فيها، و قد وهنت و خارت نفوسهم تحت وطأة الأعمال التي لا يستطيعون العوم على سطحها، و الإمساك بأول الخيط فيها، خير نموذج على ذلك سقوط حضارة عظيمة كحضارة الأندلس، يقول الغزالي: «لقد انتحر المسلمون في الأندلس، و قضى عليهم العفن السياسي و الترف الاجتماعي، و انشغال العلماء بقضايا جزيئية و مسائل جدلية، لم يكن الأندلسيون في النصف الثاني من تاريخهم نماذج مقبولة للإسلام، بل كانوا ينفرون منه، و فقدوا فقدانا تاما خصائص الدعوة و الدعاة...

و هذا البلاء انتقل من الشرق الإسلامي إلى المغرب، فإن فساد السياسة و الاقتصاد والعمران تكاثرت جرائمه، و تنامت نتائجه حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة ثم قضى الصليبيون

[1]) قصة حياة – مذكرات الشيخ محمد الغزالي – دار الرشاد للنشر و التوزيع – قسنطينة الجزائر – 2006م – ص 110-111.

من بعد على الدويلات الإسلامية في الأندلس، و التي كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثورة»([1]).

في الواقع هذه القضية معقدة و متشابكة و عميقة الأزمة تمتد إلى قرون طويلة و تستحق من العناية و الاهتمام خطة مدروسة علمية بعيدة المدى، يقول الغزالي: «ماذا علينا نحن المسلمون —و نحن نرث أخطاء لها عدة قرون— أن نضع خطة بعيدة المدى لمي نتخلص من هذه الأخطاء، ولكي يشعر أبناؤنا أنهم يحملون عبثا مع الذين وضعوا الخطة، فإذا كان بعض الناس ففي نخبة، فإن بعضهم الآخر ينتظر و الذي ينتظر ربما يموت قبل أن يرى النتيجة، و لكنه يخلف من بعده الأولاد أو من الأنصار من يجعلهم يؤدون حق الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمُ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ...﴾ سورة يونس الآية 46، و لهذا لا أزال أناشد أهل الحق ألا تكون العاطفة الحارة هي التي تسيرهم، بل ينبغي أن ينضم إلى القلب الواثق عقل ثاقب و نظر دقيق حتى يمكن أن نخدم ديننا، خصوصا بعد أن اتسعت مسافة الخلف بيننا و بين أعدائنا... إننا من الناحية المعاشية الفكرية و العلمية والفلسفية متخلفون جدا... الآخرون غزو الفضاء و وضعوا أرجلهم على بعض الكواكب و نحن لا نزال نعتمد على الرغيف الذي نأكله على ما يصنعه الآخرون في الحقول لا ما نصنعه نحن...»([2]).

[1]) محمد الغزالي — تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل — مصدر سابق — ص 92–93.

[2]) الشيخ محمد الغزالي– في حوار: فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة – مصدر سابق — ص 10–11.

المبحث الثالث

الإسلام مصدر قوة الأمة و بقاؤها

المطلب الأول: دعوة الغزالي إلى مراجعة تفكيرنا الديني

الفرع الأول: مراجعة لا رجوع

وفي سياق ذي صلة بهذا المعنى يطرح الإمام الغزالي تصورا لمعالجة هذه المشاكل العميقة ففي مقال له بعنوان: "مراجعة لا رجوع" وبعد أن يسرد الحالة التي آلت إليها الأمة وما أصابها من أعطاب وعلل بعد سقوط الخلافة العثمانية، وانفرط عقد الأمة الكبيرة على الصعيد العالمي يطالب الغزالي مراجعة تفكيرنا الديني فيقول: «إن مراجعة تفكيرنا ضرورة ماسة، ولا أعني بتاتا رجوع عن أصل قائم أو فرع ثابت فهذا والعياذ بالله ارتداد مقبوح!

هناك فرق بين الرجوع والمراجعة:

إنني أعني بالمراجعة: الحساب العقلي الشديد على مواقفنا من أنفسنا وديننا وماذا فعلنا وماذا تركنا وماذا قدمنا وماذا أخرنا؟

وكل محاولة للنهوض –من دون هذه المراجعة– قد تكون تكرارا للمأساة...

وهذه المراجعة سهلة ما دمنا ننطلق من قواعد معصومة أساسها الكتاب والسنة». وحتى تكون هذه المراجعة صحيحة وسليمة فاعلة «لا بد من إبعاد العقول الملناثة عن علم الكتاب والسنة، ولا بد من تنقية منابعنا الثقافية حتى تروج أقوال الأئمة والعباقرة وأهل الذكر وتستخفي أقوال المعلولين وأذناب السلطات وأشباه العوام»([1]).

ونضيف بأن الساحة الإسلامية لا تخلوا من علماء يمتلكون من القدرات والكفاءات لتحقيق هذه المراجعة فيقول: «لأؤكد أننا لا نبدأ من فراغ، فالعلماء الراسخون كثيرون في تاريخنا الطويل وإن كان فساد الحكم قد طوى أسماءهم وأهان تراثهم وقدم عليهم من لا يساوي قلامة أظافرهم...!»([2]).

---

[1]) محمد الغزالي – من مقالات الإمام محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسانين حسن – مصدر سابق – ص 46.

[2]) محمد الغزالي – من مقالات الإمام محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسانين حسن – مصدر سابق – ص 47.

رغم وجود هذه الزوايا المظلمة في واقع الأمة الإسلامية وما وصلت إليه من يأس وقنوط إلا أنه من حين لآخر ينبجس شعاع ثاقب يوحي بعودة الأمة الإسلامية إلى رشدها في ظل وجود وعي سياسي وقومي وحضاري، بمخاطر ما تخططه الصهيونية في مخابرها الإستراتيجية لتقويض أركان العالم العربي والإسلامي الفسيح.

رغم هذه التحديات التي تواجه الأمة وموازين القوى في غير صالحها غلا أن منسوب هذا الوعي الحضاري الذي أخذ مكانا هائلا للارتفاع بالأمة إلى مستوى هذا التحدي حتى في ظروف ما تواجهه من اختلال في نسب القوى بينها وبين أعدائها.

ومصدر هذا التحدي في مخزون هذا الأرق العظيم والذي لا ينضب إنه الإسلام الذي يحمل في ذاته عوامل قوته وبقائه وصموده أمام المتغيرات والتحديات رغم المحن التي مر بها المسلمون طوال حقب التخلف والانحطاط، وما تلاها من ليل الاستعمار إلا أن هذا الدين وما يبثه من إيمان ويوفره من قوة روحية هو الذي جعل «الجهاد على أرض فلسطين هو الأمل الباقي... وهو الأداء الصحيح لجند الله على أرض القدس التي بارك الله فيها وحولها... ولن تجلس الصهيونية يوما إلى مائدة أو تصغا إلى كلمة إلا مثل هذا الجهاد المبارك... أما السودان فرغم الهفوات المأخوذة على أهل الحكم هناك... إلا أننا لا نملك إلا الدعاء لهم، ن الساحة متسعة والتداعيات كثيرة على رؤوسهم وجيوش الكنيسة مدججة في الجنوب وأصابع إسرائيل وأمريكا تعملان هناك بكل وضوح، إلا أن الخيار الإسلامي قد أصبح هو خيار الشعب والحمد لله... أما اليمن فإنه يراد لها أن تكون درسا ثانيا من جنوب السودان لكن كلمة إسرائيل البحر الأحمر من بابه إلى نهايته، ولكي ترهب الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، ولكي تضع البترول كله تحت رحمتها... وعلى أهل اليمن أن يعقلوا ذلك جيدا... وأنا أعتبر أن استقبال الصهيوني أسياس أفوركي على أرض مصر ترخص لا يليق، أم الجزائر... فإن حزني عليها أكبر من أن نحدث عنه، لكن صوت العقل بدأ يعلوا هناك والمستقبل سوف كون بإذن الله تعالى... والبوسنة هي درس البقاء الخالد في هذا الزمان، وليتنا نملك عشرة من الرجال من أمثال "بيقوفيتش" الذكي المؤمن المجاهد، وكشمير وغيرها هي من بقايا البؤر التي تركتها جيوش الاستبداد و الاستعمار... و أنتجت معها خلق بؤر للصراع و النزاع في كل البلدان

الإسلامية تقريبا... لكن قدرنا أن ندفع ثمن تقصيرنا في حق ديننا على مدى ثلاثة قرون أو تزيد»([1]).

فهذا النص يبين لنا ما آلت إليه أحوال المسلمين، فهو يلاحظ –بمرارة– الصورة البائسة التي أصبحت عليها علاقتهم بالإسلام "كنهر جف مجراه، أو بريق خمد سناه"([2]).

كما أن هذا النص يبحث عن أصل الداء، و مكمن المرض الذي جعل الأمة الإسلامية تخرج من التاريخ لتقبع في زواياه المظلمة ذليلة خائرة القوى تابعة لكل ما يأتي من الآخر.

و حاول أن يتلامس أسباب السقوط الحضاري في العديد من دول العالم الإسلامي فأرجعها إلى الاستبداد السياسي و الاستعمار، و إلى ما طرأ على الأمة من خلل في التعامل مع مصادر الهداية عندها.

و تمنى لو أنجبت الأمة الإسلامية رجالا ك " عزت بيخوفيتش"، الذي استطاع بذكائه الثاقب، و جهاده الأصيل لأن يعيد للقضية البوسنية مكانها الطبيعي و يرافع عنها في كل المحافل الدولية لاستعادة حقوقها لأن هذه القضية لم يقد حجمها الحقيق في اهتمام المسلمين و لهذا دق الغزالي ناقوس الخطر إن لم يتداركها المسلمون، فيقول الغزالي: «إن الوضع في البوسنة و الهرسك شديد الخطورة، و ما يحدث هناك جريمة كبرى لم تحدث في تاريخ البشرية قبل ذلك، حيث أن القوافل تحمل الملايين من الأطفال لتصل إلى حدود ألمانيا و ايطاليا و أبواب الكنائس تفتح لهم على مصراعيها، و كل هذا يحدث و العرب و المسلمون يقفون موقف المتفرج منتظرين إشارة من أمريكا هل يشتركوا أولا، و ما أعلنه الرئيس الأمريكي بوش عن عدم إمكانية استخدام القوة لإنقاذ المسلمين، و يكشف عن الإمبريالية الأمريكية الوقحة التي تزداد سوءا يوما بعد الآخر»([3]).

و في نفس السياق يعتقد الإمام الغزالي أن: «المجزرة التي أقامها الصرب الكاثوليك ضد إخواننا المسلمين في هذه الجمهورية إنها حرب على المسلمين و من يقول غير ذلك من المسلين يعد خائنا لدينه و أمته، إنهم يهدفون إلى اقتلاع الإسلام من قلب أوروبا... وإذا كان البعض يصور هذه المأسات عاى أنها حرب قومية أو عرقية فهو يريد خداعنا بذلك، لأن هؤلاء تحركهم أحقاد دفينة

[1]) قصة حياة – مذكرات الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 113.

[2]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 25.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية – مصدر سابق – ص 171.

وعندهم وحشية غربية في معاملة خصومهم، هذه الوحشية عرفت في التاريخ القديم وهي تجدد اليوم([1]).

إن موقف المسلمين من البوسنة والهرسك والجبل الأسود وكوسوفو وألبانيا يجب أن يدرس بأناة وأن يتحرك العالم الإسلامي لمساندته ورد العدوان عنه»([2]).

إن هذا النوع من الرجال الذي تجلت فيه مواصفات القائد القدوة الكفء هو الذي يستطيع أن يعيد الأمة إلى مراشدها ويحقق لها الحضور والشهود الحضاري، وكأن الغزالي يوجه الأمة – خاصة صفوتها– إلى أن تقتدي بتلك النماذج، إذا أرادت العودة إلى ساحة الفعل الحضاري من جديد.

إذا كان الاستبداد والاستعمار قد استطاع أن يزرع ألغاما ويخلق بؤرا للصراع والنزاع في كل البلدان الإسلامية تقريبا كما ذكر الشيخ الغزالي في فقرته السابقة فإن تداعيات هذا النزاع والصراع تقسيم العالم العربي إلى كانتوانات صغيرة لكي يصبح الصراع بينها أمرا حتميا لحماية كياناتها المتصدعة، مما يجعلها تحتمي بالقوة الأمريكية والغربية وحليفتهم إسرائيل على المديين الوسط والبعيد.

وافتعال الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات العربية والإسلامية بقدر ما يجعل بأسهم فيه بينهم ولا ينصرفون إلى بناء اقتصاداتهم وأوطانهم ويأسف الإمام الغزالي لهذه الحال التي آل إليها المسلمون فيقول: «والمؤسف أن المسلمين في حاضرهم تشغلهم قضايا مصطنعة ودخيلة دستها عليهم أيدي أعدائهم من العناية بقضاياهم المهمة التي تحتاج منهم للرعاية والجهد لضمان مستقبل مشرق لأمتهم»([3]).

وفي هذا يقول د/ عمر عبير حنة في هذا السياق: "لقد أصبح بأس المسلمين بينهم شديدا، و خلافهم كبيرا، أصبحوا يخربون بيوتهم بأيديهم الأمر الذي أذهب ريحهم وساهم بفشلهم وقلل من شأنهم وأغرى بهم عدوهم، لقد تحول الكثير من بلاد العالم الإسلامي إلى ألغام موقوتة يفجرها الخصوم متى شاءوا هذا عدا عن الأعداد الكبيرة التي هجرت العالم الإسلامي بسبب الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والأعداد الكبيرة من المسكت عنهم في السجون والمعتقلات الأمر الذي

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية – مصدر سابق – ص 239.

[2]) نفس المصدر – ص 142.

[3]) نفس المصدر – ص 69.

يفرق جميع أشكال المعانات وسيول الدماء التي نسمع بها ونراها على خريطة العالم الوم من كشمير إلى يوغوسلافيا إلى بدرما إلى الفلبين إلى الصومال.

وقد لا يكون مستغربا بل لعل ذلك يشكل مزيدا من الفتنة أن نرى كثيرا من المسلمين اليوم في العالم الإسلامي يلوذون بالأعداء ويجدون عندهم فرض من العيش والحرية والكرامة وحقوق الإنسان أكثر مما يجدونه في بلادهم، وطبعا هذا ليس أمرا عفويا...»([1]).

من خلال هذا النصين يتأكد ضعف الأمة الإسلامية وعجزها الداخلي والخارجي، وأين إذن الإرادة الإسلامية وأين مسؤولية المسلمين أنفسهم إزاء مجتمعهم ودينهم؟

هل نجح الأعداء تماما في سلب إرادة الأمة وشل حركتها وتخدير أبنائها وهل يكفي أن نعود إلى الماضي لنتأسى به، ونتغنى بأمجاده ومن ثم الاكتفاء باجترار الذكريات الحافلة بالأمجاد لحضارة كانت عريقة وشامخة فيما مضى من الأزمان؟ أين ذلك كله من السنة الإلهية القرآنية القائلة: ﴿...إن الله لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم...﴾ سورة الرعد الآية 11، ولنتأمل هذا الوصف الدقيق لحال الأمة الإسلامية يقول الإمام الغزالي: «الأمة الإسلامية في أسوء عصورها التاريخية وإن كان هناك رسم بياني يمثل ازدهار الأمة عبر التاريخ منذ 14 قرنا فالرسم البياني هذا يصل بنا حاليا قريب من الصفر لأن الأمة الإسلامية اليوم تكاد تكون عالة على العالم من الناحية الصناعية ومن الناحية الزراعية والتجارية، عالة عليه من ناحية التسليح والحرب، وعالة عليه من ناحية استقاء الأنظمة التي تعيش بها الأمة الإسلامية جاهلة لدينها ولم تعمل به فكانت العقوبة تخلفها عالميا، وهذه العقوبة جزاء عادل لخيانتها لتراثها ولرسالتها»([2]).

إذا أرادت الأمة أن تخرج من هذا الهوان الحضاري والضعف والعجز والتبعية يتعين على الأمة الإسلامية أن تصارح نفسها عن طريق النقد البناء لذاتها وواقعها وأحوالها لأن وصف العلة وتشخيصها جزء من العلاج ولأن النقد هو الخطوة الأولى نحو الوعي بعيوبنا وأدوائنا وما تتحمله من مسؤولية لما يعانيه العالم الإسلامي من التخلف والعجز...

والوعي بأن هناك واقعا متخلفا في عالمنا الإسلامي يجب أن يتغير، والوعي بأننا –نحن المسلمين– نسهم بشكل أو بآخر بقصد أو عن غير قصد بحسن نية أو بسوء نية في تخلف مجتمعنا

[1]) عمر عبيد حسن – حتى لا تكون فتنة – المرجع السابق – ص 288-289.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية – مصدر سابق – ص 358.

الإسلامي، لهذا نجد الإمام الغزالي يؤكد على جانب النقد فيقول: «نحن في حاجة إلى مصارحة عن طريق النقد الذاتي لواقعنا وأحوالنا، يوم نقوم بدراسة عميقة للإسلام وتاريخه وحضارته، لا بد أن نعترف بأخطائنا».

ويضيف قائلا: «لا بد أن يعترف المسلمون أنهم مصابون من داخلهم بأمراض شتى وانهم لا يزالون يغلفون الإسلام بشهواتهم ويعالجون أمراضهم بغير كتاب الله عز وجل، ويطبقون إسلاما توهموه من هواهم بنزغ وبعجز عن إرادتهم، لا بد أن يعترف المسلمون أن الذي هم عليه الآن ليس إسلاما صحيحا ولكنهم يمارسون عادات موروثة وتقاليد ممسوخة تعتمد على قشور سطحية من أصول الإسلام وفروعه»([1]).

الفرع الثاني: بالتخطيط والبناء تتحقق سنة التدافع

و رؤيته في ذلك أن الخروج من هذه الأزمة التي شلت حركة الأمة «... الحاجة إلى تخطيط صحيح وقويم لبناء أمتنا الإسلامية فقيرة على قواعد ثابتة وراسخة من العلم والفكر والثقافة حتى تتعاون على البر والتقوى وتتواصى بالحق والصبر ولا تحيى هذه الأمة بلا هدف ولا انتماء»([2]).

و يؤكد على هذا المعنى في قوله أن: «الخروج بالأمة الإسلامية من حاضرها المؤلم يتطلب بالضرورة مراجعة خططها والبحث عن أسباب الوقوع في الأخطاء حتى لا تتلقاها مستقبلا... وليعلم المسلمون انه يسير أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون ان يملكوا أسباب الاستخلاف، وذلك لأن الأمة والقيادة والسيادة في الإسلام إنما تكون لعباد الله المخلصين الذين نجحوا في الإذعان لتعاليم الإسلام والاستلام بأحكامه وقيمه ومبادئه»([3]).

إن الدارس لهذه النصوص يلاحظ أن الشيخ الغزالي كان تحاول دائما التركيز على العلل التي أصابت الأمة الإسلامية في كل مناحي الحياة و يؤكد أن هناك تحديات كبرى داخلية وخارجية تواجه أمتنا الإسلامية ولا خيار أمامها إلا قبول التحدي ومواجهو الأخطار إذا أرادت أن تجد لنفسها مكانة طبيعية تليق بها كعمق حضاري ورصيد معرفي وثقافي يؤثر في الحضارة الإنسانية.

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية – مصدر سابق – ص 197.

[2]) نفس المرجع – ص 197.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية – الصدر السابق – ص 274.

كما يستفاد من النصوص السابقة: إذا كان الغرب في نظر الإمام الغزالي عائقا يحول دون تقدم الأمة الإسلامية ونهوضها، هذا لا يعني أن نحمله كامل مسؤولية تخلفنا، ونجلس دون حركة فعلية مرتاحي الضمير مع الدعاء بأن يشتت الله شملهم كما شتتوا شملنا، –وهذا دين علمائنا وأمتنا– إن الإشكالية كبيرة في الواقع الإسلامي تبدأ بالفرد البسيط وتنتهي بأعلى النخب ثقافة وفكرا وعلما وعقيدة، وتقصير و اتكالية فظيعة يختلطان مع اليأس والقنوط والانتظار السلبي، غنها أزمة عميقة تمتد إلى مراحل تاريخية متراكمة، وهو في جوهرها أزمة فكر وتفكير وما يعانيه المسلمون اليوم من تخلف وعجز وتبعية واستبداد ومصادرة لحقهم في تقرير مصيرهم هو نتيجة أزمة قيم تنعكس عواقبها على الإنسانية كلها، ولكن أزمة القيم هي أزمة داخلية في المقام الأول، و يجدر بنا أن نذكر بمفهوم القابلية للاستعمار الذي طرحه مالك بن نبي لا يمكن للإسلام أن يقدم شيئا للعالم اليوم والمسلمون لم يبذلوا جهدهم في التجديد و الإحياء الحقيق للقيم التي تنهض بالأمة.

ومن ثم يكون المطلوب –في نظر الإمام الغزالي– التبصر بهدايات الدين سبيل التدافع هو التبصر بهذا الدين ليهتدى به في مواجهة المشكلات والمعضلات، بعد أن يكون المرء قد سلم نفسه وعقله وحياته للعقيدة الإسلامية تسليما، فالإيمان الذي لا يشوبه شك هو نقطة البداية والعودة إلى الإسلام يجب أن تستند إلى قاعدة العقيدة والإيمان ومن ثم يأتي موضوع معالجة المشاكل والتحديات التي تواجه الأمة.

لماذا التركيز على العقيدة، لأنها في نظر الإمام الغزالي: "هي الدعائم التي ترسوا في الأرض وتغور في الثرى، ثم بقدر رسوخها ومتانتها تعلو بعد ذلك الأدوار او الطوابق التي يتكون منها البناء..."

ولماذا الإيمان: "الإيمان كائن حي، وان لهذا الكائن الحي أجهزة حساسة هي التي تضمن حياته وتديمها، فإذا كان الإنسان لا تنتظر له حياة طويلة مع انكسار عموده الفقري أو مع ضباع رأسه أو مع انخلاع قليه أو مع ذهاب كبده، لأن هذه الأجهزة مهمة ومصيرية في جسم الإنسان، ولا يتصور لهذا الجسم أن يحي بعد فقدان احد هذه الأجهزة، كذلك الإيمان ما يتصور أن يبقى ولا أن يحي ذا قرر فرد أن يترك الصلاة فلا يؤدي منها شيئا أو قرر أن يدع الجهاد، فلا يبذل درهما من ماله أو قطرة من دمه في سبيل القيم التي ورثها وكلف بحياطتها وصيانتها"([1]).

[1]) محمد الغزالي – حديث الاثنين الذي سجل حصصه للإذاعة والتلفزيون الجزائري – مصددر سابق – ص 51-53.

وما ضعف المسلمون وما استكانوا وما وهنوا إلا عندما فرطوا في حق أهم عناصر القوة في الدين الإسلامي ألا وهي العقيدة بمفهومها الشامل، وقد دعوة الإمام الغزالي إلى ضرورة إصلاح هذا العلم (العقيدة) من التركة الثقيلة من الخلافات الكلامية (الخلافات بين الفرق في المسائل العقدية).

يقول الإمام الغزالي: «وقد رأيت ان أسوق الأصول العلمية لـ(عقيدة المسلم) في نسق يخالف ما ألف الناس قراءته من هذه الأصول في مضامينها من ثقافتنا الدينية لا لأني سآتي بجديد في هذا الميدان بل نزولا على منطق التجارب وانتفاعا بما اكتنف جوانب التاريخ الإسلامي من أحداث وتوخيا للسير على هدى النصوص المجردة من الكتاب والسنة»([1]).

ويعلق الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال على هذا النص قائلا أن الإمام الغزالي يضع أمامنا أمرين:

الأمر الأول: أن صياغة علم العقيدة كما عرفته الثقافة الدينية في المراحل السابقة لم يعد وافيا بحاجة المسلمين المعاصرين نظرا لاختلاف الزمان وتغير التحديات التي ترد على أصول العقيدة الإسلامية.

الأمر الثاني: أن أسلم طريق لإصلاح علم العقيدة هو العودة بأصول العقيدة إلى نصوص الكتاب والسنة على أن تكون هذه العودة مجردة من الآراء التي أنتجها صراع الفرق والمذاهب عبر التاريخ الإسلامي([2]).

إن العقيدة الصحيحة —في نظر الإمام الغزالي– هي التي تستطيع بناء مجتمع إسلامي قادر على مجابهة الواقع وتقدير صعوبة التركة التي خلفتها عصور الظلام والتخلف، فالمسلمون اليوم مختلفون في الحقل الروحي والأخلاقي والفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ومعظمهم لا يعرف الشيء الكافي عن دينه وهذا كله ناتج عن ضعف العقيدة في النفوس.

في حين كان المجتمع الإسلامي الأول بكل مقوماته وخصائصه منبثقا من عقيدة إسلامية صحيحة وشريعة ليس للشر فيها من عمل الا تلقيها والتكيف بها والتقيد بقالبها والنمو في حدودها

[1]) الإمام محمد الغزالي– عقيدة المسلم — شركة الشهاب — باتنة، الجزائر — د ت – ص 7.

[2]) منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، ثنائية العقل والقلب – لـ عبد الوهاب بوخلخال — دار اليمن للنشر والتوزيع – — الجزائر — 2004م– ص 170.

ومن ثم فهو نتاج العقيدة والشريعة الربانيتين وهو على هذا الاعتبار نظام رباني، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: «... كنتم خير أمة أخرجت للناس...».

و عند التأمل والتدبر غي لفظة "أخرجت" فإنها تدل دلالة واضحة على حقيقة نشأة هذه الأمة، وحقيقة النظام الذي يقوم عليه وجودها.

خلافا للنظم الوضعية التي كانت من صنع المجتمع ذاته، فأوروبا مثلا عند تحولها من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي كانت تحت ضغط التحولات الواقعية في حياة الجماعة، وغن كان الغالب أن تتفاعل التحولات الواقعية مع الفلسفات النظرية وتؤثر فيها وتتأثر بها.

فالعقيدة بهذا المعنى تحصن المجتمع الإسلامي وتدعوه إلى الأخذ بوسائل القوة والدفاع عن النفس والحقيقة التي لا مراء فيها، إن الدين الإسلامي هو دين القوة والمنعة ودين العزة والكرامة وقوة الحق التي تصرع قوة الباطل وكل هذا لا يتحقق إلا بسنة المدافعة.

الفرع الثالث: الجهاد أحد ركائز سنة التدافع

1- مقاصد الجهاد في سبيل الله

يقول الغزالي وهو يتحدث عن مقاصد الجهاد في سبيل الله: «هناك ثلاثة مواطن يجب فيها على المسلم أن يقاتل في سبيل الله ويعد مسيئا إذا تخلف عنها:

الموطن الأول: منع الفتنة فقد يتعرض المسلمون في بعض البلاد لصنوق (أو لطوق) من الترويع والأذى تنزل بهم حتى يرتدوا عن دينهم، ولا يجوز ترك حملة العقيدة تحت وطأة هذا العذاب بل يجب كسر شوكة المعتدين لإسقاط سلطتهم حتى تتقرر حرية الضمير ويؤمن من شاء دون خوف.

الموطن الثاني: تامين الدعوة، فمن حق المسلمين أن يعرضوا ما عندهم على غيرهم عرضا عاديا لا تقترن به رغبة أو رهبة، فإذا عطلت إذاعتهم أو صودرت كتبهم أو حبس دعاتهم جاز لهم أن يقاتلوا حتى يتقرر لهم هذا الحق.

الموطن الثالث: عند الحفاظ على الدم والعرض والمال فلا يجوز لمسلم أن يسلم حقوقه الطبيعية لقطاع الطرق المحليين أو الدوليين، عليه أن يناضل ولا يحل له لأن يقبل الدنية في دينه ودنياه، ويمكن أن

يضاف إلى هذا الموطن جهاد المجرمين الذين يحيون في الميدان العالمي والتفرقة العنصرية لإيقاع المظالم بالضعفاء أيا كانوا وأين كانوا»([1]).

وإذا كان الإسلام يدعوا إلى الإعداد والاستعداد والجهاد، فهو في ذات الوقت يدعوا إلى السلام، فالسلام وعدم الاعتداء هو الأساس في الدين الإسلامي مصداقا لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لَكُم عدُوٌّ مبين﴾ سورة البقرة الآية 208. و يقول تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ سورة الأنفال الآية 61، كما يقول أيضا: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ سورة البقرة الآية 190. و الغاية من القتال هي محاربة المعتدين إلى أن ينتهوا عن العدوان ويكفوا عن الأذى، وما شرع القتال إلا لهذه الغاية، وعندما نستحضر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم «أنه لم يصل إلينا ما يثبت أنه قاتل أو أمر بقتال أناس مسالمين أو حياديين ومن يمعن النظر في الوقائع الجهادية يلاحظ انه لم يبعث سرية ولم يباشر بغزوة ولم يشتبك بقتال إلا ردا على عدوان أو انتقاما من عدوان أو تنكيلا بغدر أو تأديبا لبغي»([2]).

وقد وضح محمد عبده قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ سورة البقرة الآية 244، بأن القتال في سبيل الله أعمُ من القتال لأجل الدين لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة، إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا أو أراد العدو الباغي إذلالنا والعدوان على استقلالنا ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا في ديننا، فهذا الأمر مطلق كأنه أمر لنا بأن نتحلى بحلية الشجاعة، ونتسربل بسرابيل القوة والعزة لتكون حقوقنا محفوظة وحرمتنا مصونة، لا نؤخذ من جانب ديننا ولا نغتال من جهة دنيانا، بل نبقى أعزاء الجانبين جديرين بسعادة الدارين و قد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – فتاوى في الدين والحياة – إعداد وتقديم الأستاذ أبو أسامة عمر خلفة – نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع – قسنطينة، الجزائر – 2009 م – ص 144.

[2]) محمد التومي – المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – الدار التونسية للنشر – تونس – المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر – ربيع الثاني 1407هـ، 1986م – ص 432.

[3]) محمد التومي – المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – المرجع السابق – ص 432-434.

2– تداعيات التخلي عن فريضة الجهاد

وما ارتكس العالم الإسلامي وانتكس إلا عندما تخلى عن فريضة الجهاد فالعالم الإسلامي الآن في مأزق شديد وذلك لأنهم تركوا الجهاد، وما ترك قوم الجهاد إلا هلكوا، لأن الجهاد وعندما أقول الجهاد لا أقصد الجهاد بالسلم وإنما أقصد الجهاد بالنفس والمال والكلمة وغير ذلك... ومما أدى إلى اتساع هذا المأزق هو تبعية العالم الإسلام لأوروبا وأمريكا و وجود النزاعات بين الزعماء العرب علاوة على الاستعمار الذي فرق شمل الأمة، وضعف المستوى العلمي لدى الدعاة، وضعف بصرهم بالواقع حيث أنهم لم يفرقوا بين حقائق الدين والدنيا... الجهاد هو أفضل الطرق للخلاص من الأزمات وكذلك عملية إعداد الدعاة مطلوبة جدا، لأنه من المفروض أن تهتم الدول الإسلامية برفع المستوى العلمي لدى الدعاة وإعدادهم الإعداد السليم وإفهامهم اللغات الأجنبية حتى يواجهون الدعاية المضادة للإسلام باللغات الأخرى ويفندوها ويردون عليها بما هو أفضل ليقوى الإسلام ويزداد انتشارا...([1]).

إذا كان السلام مطلبا دينيا فطريا فهذا السلام لا يقوم ولا يدوم إلا بالاستعداد والإعداد، فالضعيف غير المستعد يُهاجَم ويُستولى عليه، ولذلك فقد أُمر المسلمون أن يكونوا دوما على استعداد كما قال عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل...﴾، سورة الأنفال الآية 60. فالإسلام يدعو إلى الاستعداد وإلى القوة لضمان السلام والسلامة.

3– شمولية الجهاد في الإسلام

ويبقى الجهاد في مقدمة الأولويات لأن الجهاد في الله حقَّ جهاده ميدان أرحب وأرحب، فهو تعبئة للقوى المادية والأدبية والخصائص النفسية والاجتماعية وحشد لها في صعيد واحد كي تعمل جميعا في تكافل ووئام خدمة للمُثل العليا في الدين، وتثبيت قواعدها، و مد رواقها، وهذه الأمور المتتابعة تدرجت في السعة والشمول حتى لم تبقِ أفقا في الحياة العامة إلا طلعت عليه([2]).

فالجهاد بهذا الشمول والإحاطة يشمل أنواع الجهاد بدءً بالدفاع عن النفس والتغلب عليها وإصلاحها وسلامة الوطن وتجديد بناء الأمة و اعمار البلاد، والجهاد في مختلف شؤون الحياة كالجهاد

[1]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 272.

[2]) محمد الغزالي – نظرات في القرآن الكريم – مصدر سابق – ص 65.

السياسي والاجتماعي والاقتصادي والدعوي والإعلامي والجهاد التقني والجهاد الحربي والعسكري. و على المسلمين أن يكونوا دوما مستعدين ومهيئين لكل أنواع الجهاد والقرآن الكريم عندنا أطلق لفظ "القوة" في فوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل... ﴾، سورة الأنفال الآية 60، لم يقيدها لتأخذ شكلا متطورا يتلاءم مع كل مرحلة من مراحل الدفاع وينسجم مع روح العصر الذي يحتويها، ولتنموا وترقى بالعلم فتصبح قادرة على الردع والإرهاب بالطراد، وقد كانت هذه القوة بسيطة فيما مضى بسيطة يسيرة، كانت سيفا ورمحا وقوسا... إلى غير ذلك من الوسائل التي تلاءمت مع العصر الذي احتواها، وصارت الآن قنبلة ودبابة ومدرعة ثم طائرة وصاروخ ومصفحة حتى أصبحت الآن قنبلة ذرية ونووية وأقمارا صناعية وكل ما يصلح ليردع ويرهب العدو... وتوحي كلمة "أعدوا" بان القوة الفعلية هي ما كانت ذاتية من إعدادنا وصنع أيدينا بعيدة كل البعد من المساومة والتبعية والشروط القهرية، وتحدد كلمة "ترهبون" الهدف من القوة المادية فهي لإرهاب العدو وإخافته حتى يحترم وجودنا، ويهاب جانبنا، وليس الغرض منه التسلط والغزو والتوسع وإراقة الدماء، وإذلال الشعوب وامتصاص خيراتها([1]). وإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تكون لها قدم ثابتة في هذه المعمورة «لا بد من بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار وتقف في وجه المؤامرات وتجاهد في كل المجالات والجبهات، وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء»([2]).

المطلب الثاني: سنة التدافع و الحوار

المفرع الأول: الحوار البناء سبيل لتحقيق سنة التدافع

قال عبد الحليم عويس: "عاش الشيخ الغزالي ينافح عن الإسلام بقلمه ولسانه وكان ممن امتلكوا زادا ثقافيا رفيعا شرقيا وغربيا، وكان موهوبا بيقين، عبقريا حين يكتب أو يخطب وقد تعرض

[1]) محمد التومي – المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – المرجع السابق – ص 434.

[2]) محمد الغزالي – ركائز الإيمان بين العقل والقلب – مصدر سابق – ص 75.

لكل التيارات التي اخترعها الفكر الصهيوني أو الفكر الصليبي وجند لها بعض الذين يتكلمون بألسنتنا لكن قلوبهم مع أعدائنا إنهم ﴿...يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ ءَايَاتِنَا...﴾ سورة الحج الآية 72، ومع ذلك كان الشيخ يعاملهم بالحسنى حتى يدخل إلى قلوبهم إن كان هناك أمل في أن يتجهوا إلى الحق وأن يقلعوا من مواقع التبعية والخيانة الحضارية وإيثار المصلحة الدنيوية على مصلحة الدين والدنيا معا... ومما كان يتميز به الغزالي أنه يعترف بالحق الذي مع خصمه، بل ويثني على ما يرد عند المستشرقين أو اليهود أو النصارى من حق في ثنايا كتابهم بل إنه أثنى على بعض مواقف الشيوعيين عندما انسجمت مع الحق مع العلم أن أكثر ما يرد عند هؤلاء إنما يرد سُلّما لنتائج لا علاقة لها بالحق ولا بالخير، وقد كان دائما يثني على كتاب السير آرنولد "الدعوة إلى الإسلام" ويأخذ على المسلمين أنهم لم يكتبوا في تاريخ الدعوة كما كتب المستشرق المذكور!!.

هكذا كان شأن الغزالي مع الناس بصفة عامة... فماذا كان موقفه مع إخوانه المسلمين من سلفيين وصوفيين وغيرهم؟

إن الشيء الطبيعي أن يكون الإسلام رحيما بين أهله، و أن يكون المسلمون رحماء بينهم لكن الغريب أن بعض المسلمين لم يقدر تاريخ الشيخ الغزالي ولا جهاده ولا مكانته وسمح لنفسه أن يتجاوز أدب الحوار إلى درجة آذت مشاعر الشيخ الغزالي، فدفعته إلى شيء من الحدة في مواجهة شباب و رجال كانوا لعقود كثيرة يتباهون بالجلوس إليه ويعترفون بعلمه وقدرته وجهاده...([1]).

أشرت فيما سبق كما يكون التدافع عن الحق بالقوة المادية مطلوبا في بعض الأحيان لردع المعتدي وكف آذاه، فإن هذا التدافع ينبغي أن يكون بالحوار والحوار المستمر من أجل حل المنازعات والخلافات أيسر وأفضل، وضرورة ملحة في عصرنا الراهن تفرضه علينا ضرورات كثيرة لتوضيح حقيقة هذا الدين، وما يتعرض له من حملات تشويه من قبل أعداء الأمة.

الفرع الثاني: الحوار البناء يتحقق في كنف الحرية

[1]) عبد الحليم عويس – الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه – ط 1 – دار القلم – دمشق – 1421هـ، 2000م – ص 112-113.

لا يتحقق هذا الحوار إلا في كنف الحرية والمسلمون الأوائل عندما نشروا الإسلام لم يمارسوا منطق القوة والإكراه والفرض، بل تركوا الناس على فطرتهم يختارون دون إجبار أو تعسف. لأن الإسلام كفل لمن يستظلون بظله كافة الحريات الإنسانية: وأهم هذه الحريات عند الغزالي هي:

الحريات السياسية: وتعني في عصرنا هذا أمرين –حق كل إنسان في ولاية الوظائف الإدارية صغراها وكبراها ما دام بكفايته أهلا لتوليها. –حق كل إنسان أن يبدي رأيه في سير الأمور العامة وتخطئتها أو تصويبها وفق ما يعتقد.

الحريات السياسية بشقيها تقوم على أن المناصب المختلفة وسائل لخدمة المجتمع، وأن من يشغلها موضع الرقابة الدقيقة من طرف جمهور الأمة.

والواقع أن الإسلام لا يفهم وظائف الحكم داخل هذا النطاق المحكم، رئيس الدولة فمن دونه من الموظفين أشخاص تختارهم الأمة ولا يُفرضون عليها أبدا، وهي تختارهم لما تتوسمه فيهم من صلاحية لإدارة الأعمال التي تستند إليهم، وتعطيهم نظير ذلك أجرا يقوم بأودهم ويكفل معاشهم وأولادهم وهم باقون في وظائفهم ومستحقون أجرتها ما بقيت لهم هذه الصلاحية، وإلا نُحوا عنها وخلفهم عليها من يقدر على أعبائها([1]).

الحرية الفكرية: يقول الغزالي: «إن وظيفة العقل هي أن يفكر كما أن وظيفة العين أن تبصر... والحق أن الإسلام لا يلوم على حرية الفكر بل يلوم على الغفلة والذهول وهو لا يجعل هذه الحرية أيضا من المباحات التي يباشرها من شاء ويتركها من شاء، بل يجعلها حقا لله على الإنسان، فالمصابون بكسل التفكير واسترخاء العقل عصاة في نظر الإسلام، وتبدأ حرية التفكير من علاقة المسلم بدينه نفسه، فإن قوام الإسلام ولب رسالته كتاب مفتوح ميسر للذكر، مطلوب من الأمة أن تتدبره و أن تستفيد منه شرائعها جميعا»([2]).

[1]) محمد الغزالي – حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة – دار الهناء للطباعة والنشر والتوزيع – برج الكيفان، الجزائر – د ت – ص 54.

[2]) محمد الغزالي – حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة – مصدر سابق – ص 72.

الحرية الدينية: هي «الإيمان الصحيح المقبول يجيء وليد يقظة عقلية، واقتناع قلبي إنه استبانة الإنسان العاقل الحق ثم اعتناقه عن رضا ورغبة والإسلام ما قام يوما ولن يقوم أبدا على إكراه، لأنه واثق من شيء واحد... من نفاسة تعاليمه وجودة شرائعه، كل ما يبتغي من الناس أن يجد مكانا في السوق العامة يعرض ما لديه على العيون المتطلعة والبصائر الناقدة، فإذا لم تكن جودة الشيء هي التي تغري بالإقبال عليه وقبوله، فلا كان قبولا ولا كان إقبالا...! وهذا سر قانونه الوثيق: كما قال عز وجل ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ سورة البقرة الآية 256»([1]).

الحرية المدنية: «ونعني بها كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته وضرورة اعتراف الجماعة بشخصه وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد وعلى أساس هذه الحرية يملك كل إنسان أن يقيم حيث يشاء وان يسافر متى شاء وأن يجتمع و أن يحوز من المال ما يكسب وأن يباشر العقود التي يرى إبرامها...» ([2]).

حرية القول: أو حرية الكلام وهي: "الحرية التي ينشدها المصلحون ويكرهها الطاغون، هي حرية النقد البناء، وحرية النصح والتقويم وحرية مقاومة الحجة بالحجة لا بالعصا أو بالسيف.

والإسلام دين شديد الوضوح في تفاصيله لهذه الحرية وفي تحديد موقفه منها، فهو ينظر إلى حرية النقد والنصح لا على أنها حق مباح لكل إنسان يأخذه إذا أحب أو يتركه إذا أحب «لا» الأمر في نظر الإسلام أجل إن الكلام –و الحالة هذه– واجب لا مباح...

و فرض حتما على المسلم ألا يدع الخطأ يمر وهو صامت، لابد من تعقبه بما يبقي على الصواب حرمته وعلى الحقيقة كرامتها نقد الخطأ واجب و إسداء النصح للخاطئين واجب وعلى المجتمع كله أن ينهض بهذا الواجب لا لشيء إلا لأنه الحق ينبغي أن يحي ويبقى، وأن الصواب ينبغي

[1]) محمد الغزالي – هذا ديننا – مصدر سابق – ص 64.

[2]) محمد الغزالي – حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة – مصدر سابق – ص 84.

أن يظهر ويشتهر»([1])، ويعتبر الغزالي أن «هذه الحريات أسس في الكيان الإسلامي»([2]). و «إن التوسع الإسلامي لا يعتمد على القهر وحروب العدوان، بل إن العملة المتداولة في ميدان الدعوة الإسلامية هي الفكر الحر!!»([3]).

و عن نفسه يقول: «إنني أنا الداعية المسلم، لا أحتاج إلا إلى الحرية لأؤدي واجبي وأُنجحَ رسالتي ويوم أفقد الحرية أفقد كياني كله!!».

إن الإسلام لا يحتاج إلا لهذه الحرية كي ينتشر وينتصر وإذا كان بعض الفاشلين في العرض القاصرين في الفقه يخشون هذه الحرية، فليجاوزوا ميدانا لا يستطيعون أعباءه وليحترفوا شيئا آخر غير الدعوة الإسلامية...!!»([4]).

ولماذا فقدان الحرية في نظر الغزالي يساوي فقدان الكيان كله لأن الحرية هي التي تقدر قيمة الحياة الإنسانية، وتحمي كرامة الإنسان الفرد ومواهبه وإبداعاته وابتكاراته، إن العبقريات والمواهب إنما نزدهر في جو من الحرية أما الجو الدكتاتوري الاستبدادي فالإنسان فيه ينفد إرادة من فوقه سواء أراد ذلك أم لم يرد، وهناك الكثرة الساحقة التي تحرم حق إبداء الرأي وممارسة الحريات فتخسر الأمة ثمار مواهبهم وعبقرياتهم والفرد في النظام الاستبدادي قد يفقد الأمن على حياته وعرضه وماله وحرياته، وفي ظل الحرية تحترم كرامة الإنسان وحقه في الحياة وكسب المال الحلال والحرية هذا ولا يقدر نعمة الأمان والحرية إلا من يبتلى بفقدهما.

ومن أراد أن ينشد الحرية الحقيقة فعليه أن يتجه مباشرة إلى الدين والتفقه فيه فالحرية الحقيقة تتحقق من خلال التدين، لأن التدين بمفهومه الشامل هو التحرر من واقع القهر والسلطان والحرية لازمة من لوازم التوحيد وضرورة من ضرورات تنمية التدين والمؤشر الصحيح للتحول الإسلامي سوف يبقى رهين الحرية السياسية والتي أكد عليها الغزالي عندما ذكر أنواع الحريات.

---

[1]) محمد الغزالي – هذا ديننا – مصدر سابق – ص 60-61.

[2]) قصة حياة مذكرات الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 118.

[3]) محمد الغزالي –جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج –ط2 – الدار الشامية – بيروت – 1420هـ/1999م – ص 16.

[4]) قصة حياة مذكرات الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 50.

فالحرية بهذا المعنى عامل أساسي وضروري لحياة الإنسان ووجوده، ولا تتحقق إنسانيته بالكامل إلا بالحرية، وفي هذا الصدد يقول محمد محفوظ: «تعتبر النزعة إلى الحرية و الانعتاق من القيود والأغلال لدى الإنسان من النزعات الأصلية والعميقة في وجوده الطويل إذ لا تخلوا مرحلة من مراحل حياته من البوح والتعبير المباشر وغير المباشر عنها، سواء لتحقيق هذه النزعة في الواقع الخارجي أو للدفاع عنها من مخاطر داخلية أو خارجية تهدد هذه النزعة في وجودها وآفاقها، وتعتبر حياة الإنسان السوي كلها بحثا مستمرا عن معنى الحرية المتأصل في وجوده وكيانه والمتجذر في مختلف مستويات تجربته الإنسانية، والحرية كتوق إلى الكرامة و الانعتاق من كل الأغلال والتحرر من الكوابح والقيود إرادة طبيعية ومتأصلة لدى الإنسان، وتقر بهذه الحقيقة كل الأديان السماوية والمذاهب الإنسانية على السواء، وهي من ضرورات الوجود الإنساني، إذ كل المعطيات الوجدانية والدينية الحضارية تدفع إلى الاعتقاد الجازم بأن الحرية كحاجة إنسانية هي من ضرورات حياته ووجوده، ولا تتحقق إنسانيته بالكامل إلا بها لذلك نرى ان الثقافة الإنسانية السوية هي في جوهرها صوت الوعي بالحرية ووسيلة اكتشاف المفارقات العميقة في أي كيان اجتماعي، من جراء غياب أو تغييب الحرية في مستوياتها المتعددة»([1]).

المطلب الثالث: غياب الحريات في الفضاء العربي و الإسلامي

الفرع الأول: الاستبداد يعيق تطور المجتمع

و الحرية في الفضاء العربي الإسلامي تكاد تكون مغيبة نظرا لهيمنة وسيطرة المؤسسات الاستبدادية التي تدوس حقوق الإنسان وحرياته و في مقال للغزالي بعنوان "الاستبداد يشل القوى" يقول: «الحكم الذي ساد بلاد الإسلام من بضعة قرون كان طرازا منكرا من الاستبداد والفوضى، انكمشت فيه الحريات الطبيعية وخارت القوى المادية والأدبية وسيطر على موازين الحياة العامة تفر

[1]) محمد محفوظ – سؤال الحرية في الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، مجلة فكرية ثقافية إسلامية: – العدد 24 – السنة السادسة – 1420هـ، 1999م – ص 20.

من الجبابرة أمكنتهم الأيام العجاف أن يقلبوا الأمور رأسا على عقب، و أن ينشروا الفزع في القلوب والقصر في الآمال والوهن في العزائم.

والحكم الاستبدادي تهديم للدين وتخريب للدنيا فهو بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعا وهو دخان مشئوم الظل تختنق الأرواح والأجسام في نطاقه حيث امتد فلا سوق الفضائل والآداب تنشط ولا سوق الزراعة والتجارة تروج...!!، ومن هناك حكمنا بأن الوثنية السياسية حرب على الله وحرب على الناس»([1]).

لا شك أن الاستبداد لا ينحصر في حكم فردي مطلق بل إن تأثيراته تنعكس في بنية المجتمع على كل الأصعدة، فهي تنعكس في المؤسسة الصغرى الأسرة إلى أعلى مؤسسة وهي الحكم، فهي تنعكس داخل الفئات العلمية والدينية وفي أساليب الإدارة والثقافة، ففي كل هذه المجالات تنتشر الروح الفردية والأنانية، ويتحكم القمع وهكذا نرى أن الاستبداد يمحو شخصية الإنسان ويزكي العادات والسلوكات الدنيئة والوضيعة كالتملق والاستعداد للعبودية، وهذا الاستبداد تجاوز كل الضوابط الأخلاقية و الإنسانية وحشر أنفه في خصوصيات الإنسان لدرجة لا يمكن له حتى عبادة الله بشكل صحيح، فأصبح المجتمع يشوه الحياة المعنوية والروحية للبشر، ويعيث في الأرض فسادا ويمنع الناس من الارتباط الحقيقي بربهم ومن إقامة موازنة صحيحة بين حياتهم الدنيوية ومعتقدهم الديني وأكثر من ذلك فالاستبداد والقمع لن يخلقا سوى نفوس مشوهة وخدم مسلوبي الإرادة.

إن هذا الاستبداد كنتيجة منطقية يعيق تطور المجتمع على جميع المستويات والأصعدة ويجعله عاجزا عن اللحاق بمسيرة البشرية المتطورة، فالإنسان الذي تنتزع منه حريته وكرامته يعجز عن الإبداع والبناء. ولكي تستعيد الحرية دورها وتمارس تأثيرها يجب: «إزالة العوائق المفتعلة من أمام الفطرة الإنسانية عند ما تطلب حقوقها في الحياة الآمنة العادلة الكريمة، الحياة التي تتكافأ فيها الدماء وتتساوى الفرص وتكفل الحقوق وينتفي منها البغي، ويمهد فيها طريق التنافس أمام الطامحين

1) محمد الغزالي – الإسلام والطاقات المعطلة- نشر الزيتونة للإعلام والنشر – باتنة، الجزائر – 1982 – ص 50.

والأقوياء، ويمهد طريق الاندثار والاستخفاء أمام التافهين والسفهاء قلا يكون لهم جاه ولا يقدّس لهم حمى...!!»([1]).

الفرع الثاني: معارك الغزالي الفكرية وتصديه لأعداء الأمة

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان أن الحريات الإنسانية دائما لا توهب وإنما ينجزها الإنسان بإرادته وكفاحه وسعيه الحثيث في سبيل حريته وكرامته بل هذه الحريات أحيانا تُنتزع انتزاعا، وهذا ما دأب عليه الشيخ محمد الغزالي في معاركه الفكرية، يذود عن حياض الدين من خلال مرافعاته ودفاعه عن حق الأمة في تقرير مصيرها ورفض مصادرة حرياتها والتأكيد على مقوماتها من مبادئ وقيم. و الغزالي وهو ينافح عن الحرية في حلبة صراع أعداؤها متنوعون ومتعددون يلخصها في جبهتين:

الجبهة الأولى: فهي «جبهة الخصوم الكائدين للإسلام المتربصين به الشر الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد، بعض هؤلاء من خارج الإسلام وخارج أرضه من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية الذين اختلقت دياناتهم واختلفت طرائقهم، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام...، و بعض آخر من داخل أرض الإسلام بل من أبناء المسلمين أنفسهم و لكن لا يضمرون للإسلام إلا شرا ولا لدعاته إلا عداوة ولا للشريعة إلا تنكرا.

أما الجبهة الثانية: جبهة الأصدقاء الجهلة للإسلام الذين يضرون الإسلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه ويهشمون وجهه من حيث يظنون أنهم يدفعون ذبابة عنه، هؤلاء الذين سماهم الغزالي "الدعاة الفتانون" الدين يشغلون الناس بالفروع عن الأصول وبالجزئيات عن الكليات وبالمختلف فيه عن المتفق عليه وبأعمال الجوارح عن اعتقاد القلوب»([2]).

وفي مقال ليوسف القرضاوي بعنوان "مصارعة القوى المعادية للإسلام" يذكر أهم الأعداء الذين واجههم الإمام الغزالي ووقف في صدهم وقد تجلى هذا الصراع في وجه الاستعمار الذي يحمل

1) محمد الغزالي – الإسلام والطاقات المعطلة- مصدر سابق – ص 60.

[2]) قصة حياة مذكرات الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 210.

ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة، كما وقف في وجه الصهيونية العالمية التي احتلت أرض النبوات وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق وصنعت كل ذلك باسم التوراة وتحت راية العقيدة اليهودية...

كما وقف في وجه التنصير «الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم، فإن لم يقدر على إدخالهم في النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم وتشكيكهم في دينهم.

في وجه الشيوعية: و وقف في وجه الشيوعية ومحاولتها لغزو ديار الإسلام وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدي من تصفيات جسدية وحملات قمعية وحمامات دموية وللشيخ في ذلك كتابات كثيرة أهمها كتاب "الإسلام في وجه الزحف الأحمر".

أيضا وقف الشيخ في وجه مادية الحضارة الغربية وإباحتها الجنسية وعصبيتها العنصرية...

في وجه العلمانية: ولعل أبرز المعارك التي خاضها الشيخ وأطولها نفسا وأشرسُها هجوما هي معركته مع "العلمانية" اللادينية التي تعارض حاكمية الله لخلقه وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التطور»([1]).

وهذه الصراعات والمعارك الفكرية غالبا ما تفتقد لجو الحرية، إدا ما غلب العلمانيون والليبراليون ومن سار في فلكهم على الدعاة إلا في أجواء الكبت والظلم والقمع.

ومن ثم كانت دعوات رواد الفكر والعلماء ومن بيتهم الشيخ محمد الغزالي أنه لا تقدم أو إصلاح في المجتمع في غياب الحريات، ودون تحرير الإنسان من كل المسلمات والبديهيات والميتافيزيقيات والأساطير وتحرير التاريخ من مقولة الحتمية. وقد كان دفاعه عن الحرية نابعا من قناعته أن الحرية هي أقصر الطرق لتحقيق الأهداف المنشودة.

وقد سئل يوسف القرضاوي في إحدى حصصه بالقناة التليفزيونية الجزيرة "الشريعة والحياة" إذا خُيرت بين الحرية وتطبيق الشريعة فأيهما تختار فأجاب الحرية لأنها الفضاء الطبيعي الذي يمهد لانتشار الإسلام وتطبيق الشريعة.

[1]) يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن – مرجع سابق – ص 77-79.

إن أي حوار يفتقد لمناخ الحرية لن يصل إلى نتائج إيجابية بل يتحول إلى مناوشات ثم إلى صراع وصدام من شأنه أن يحدث خلافات ونزاعات بين أبناء المجتمع الواحد.

ونماذج هذه الخلافات والنزاعات والصراعات كثيرة في العالم العربي والإسلامي وقد تحولت هذه الخلافات والخصومات إلى حروب أهلية، ولا أدل على ذلك تلك الصراعات بين العديد من الحكومات العربية وبين الجماعات الإسلامية وما نتج عنها من قتل وتدمير أثر سلبا على صورة الإسلام في الغرب الذي استغل هذه الأعمال وضخمها لكي يقول أن الإسلام يدعوا إلى قتل المخالفين وأنه دين إقصائي يجبر الآخرين على حمل الآراء بالقوة، إلى آخر تلك التهم التي ساعدت بتغذية الخلافات والصراعات الداخلية على لصقها بالإسلام.

ويستحضرون أمثلة على ذلك كالحرب الأهلية في أفغانستان، الجزائر...إلخ.

إن الحوار في غياب الحرية تتعطل الشرائع وتختل القوانين ويفقد الإنسان الأمل في الحياة.

الفرع الثالث: مرتكزات الحوار عند الغزالي

لذا كانت حوارات الغزالي ومناظراته وهو يتصدى للحملات المغرضة والأقلام والأفكار الشاردة يسموا بها أمام خصومه ومناوئيه فلا ابتذال ولا استهتار ولا انحراف عن المنهج الإسلامي الذي يدعوا إلى الحوار بالحسنى والحرص على إظهار الحق، إلى جانب ميزة الاختلاف والتنوع والتمايز وهي سنة إلهية، وعندما تتضح هذه المعالم الحوارية يكون الدعاة إلى الله على بينة في حوارهم نع الخصوم بألا يتجاوزوا آداب الحوار مع المجادل أي كان دينه أو عقيدته أو إيديولوجيته.

لأن الجدل في إثبات البراءة والقدرة على مقارعة الخصوم وإثبات فساد أدلتهم مما حذر منه القرآن الكريم وذلك لما يترتب عنه توسيع هوة الخصومة، ولا تؤدي إلى نتائج مفيدة في الحوار بل ربما تؤدي إلى عكس ما يراد من هذا الحوار.

وفي هذا الصدد يقول الغزالي: «يجب أن نصارح وعلينا ونحن نعامل الملاحدة من العلمانيين والحاقدين من أهل الكتاب والشيوعيين والوثنيين ومن عصاة المسلمين وأصناف أخرى من الخلق أن

نكون متمكنين علميا ثم أخلاقيا بحيث لا نُستفز ولا نُستثار، ونستطيع أن نجمع بين الحلم والأناة ونحن نعارض خصومنا ونجادلهم وندعو بالتي هي أحسن»([1]).

فالدعات الذين يستطيعون أن يكسبوا قلوب وعقوا هؤلاء الخصوم ينبغي أن تتوفر فيهم جملة من الخصال ذكرها الغزالي في نصه السابق:

- التمكن العلمي، والتحلي الأخلاقي والجمع بين الحلم والأناة، إلى جانب الحوار بالحسنى وهي خصال مستوحاة من المنهج القرآني في الجدل مع المخالفين، وقد كان موقفه من المشاركة في الحوار القائم بين الأديان ضروري شرط توفر مناخ ديمقراطي بعيد عن الضغط والإكراه فيقول: «نحن لا نرفض الحوار ولكن لا بد أن نتفق أولا على الهدف من الحوار، وإذا كنا نقبل الحوار لأن بضاعتنا جيدة ورسالتنا سامية، فإننا نؤكد على ضرورة أن يجري هذا الحوار في مناخ ديمقراطي كي يثبت كل منها أنه أولى بالحياة و أجدر بالبقاء، والغريب أن بعض المنتمين إلى الإسلام يجهل هذا الواقع ويرتكب حماقات تسيء إلى دينه بل تنفر منه وتصد عنه»([2]).

وفي سياق آخر ينبه ويحذر من مغبة المشاحنات والخلافات التي تحدث شرخا في كيان الأمة فيقول: «إن الإسلام دعوة إلى كل فكر ناجح ورأي عاقل وعلم نافع ولا عيب أن يختلف المسلمون فاختلاف الناس وتعدد مشاربهم وثقافتهم سنة من سنن الله في الأرض... ولكن للأسف المسلمون لا يعرفون كيف يختلفون وكيف يتحاورون ويتجادلون ويحسمون قضاياهم، فتحولت الساحة الفكرية في بلاد الإسلام إلى معارك ومشاحنات وخلافات عقيمة أحدثت انقسامات خطيرة في صفوف أهل الفكر والرأي، ولو عدنا إلى منهج الإسلام في الحوار والتزمنا بآدابه في الخلاف والحوار لاستطاع كل فريق أن يعبر عن رأيه ويدافع عنه في مناخ إسلامي دون أن يكفر بعضنا بعضا ودون أن نتبادل الاتهامات ونضيع جهودنا ونشغل أنفسنا بمعارك وهمية تحدث بيننا البغضاء وتفرق صفوفنا وتجعلنا فريسة سهلة للأعداء»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 37.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 240.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 240.

فهي دعوة واضحة على أن الاختلافات لا يجوز أن تكون منطلقا للنزاع والشقاق، قال تعالى: ﴿...ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...﴾ سورة الأنفال الآية 46، إنما يجب أن تكون منطلقا للتعارف والتواصل والتآلف والتعاون واختلاف الرأي لا تفسد للود قضية. كما هي دعوة للانفتاح على الرأي الآخر دون سابق إصرار أو ترصد والتخلي عن الأحكام المسبقة.

الفرع الرابع: بالحوار تحل كل أشكال النزاعات والخلافات

فالحوار هو السبيل القويم لحل كل النزاعات بين الأفراد وكذا الأمم، وإذا كان الغزالي يدعو إلى الحوار البناء الذي يوثق الصلات والعلاقات ويدعوا إلى نقاش صريح مبني على المجادلة والدعوة بالتي هي أحسن، حتى مع ألد أعداء الأمة الإسلامية سواء في الداخل أو في الخارج، فهو ينطلق من ضرورة محاورة المخالفين بالحسنى مصداقا لقوله تعالى: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...﴾ سورة النحل الآية 125.

وفي شهادته في مقتل فرج فوده العلماني يؤكد على معنى المجادلة بالتي هي أحسن فيقول بعد جملة من الأسئلة تتمحور حول حكم من يدعوا إلى استبدال حكم الله شريعة وضعية تُحِل الحرام وتُحرِّم الحلال، وبعد أن يسترسل في الإجابات مدعومة بأدلة وآيات قرآنية، يوضح ويقول: «أن مهمتي الشخصية هي أن أشرح له كعالم وأدحض شهادته وأبين له الحقيقة، وليست مهمتي كداعية إلى الله أن أتلمس العيوب للناس ولست أفرح بإيقاع أقدامهم في الحبائل والشباك... وإنما أنا طبيب أعالج المرضى وأريد أن أنقذهم من الجراثيم التي تفتك بهم، فإذا كان عنيدا يرفض كل ما أقول ويأبى إلا تكذيب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا أستطيع أن أقول أنه مؤمن»([1]).

«ويعد موقف الإمام الغزالي من قضية الكاتب المصري الهالك فرج فودة أبرز مواقفه ضد العلمانيين وهو خلاصة آرائه في الحكم الشرعي على هذه الفتنة الضالة كما أنه يعد واحدا من أهم المواقف في حياته؛ فمع أن الشيخ الغزالي واحد من أبطال حرية الفكر الذين يؤمنون بقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾ سورة البقرة الآية 256، ويؤمن بأنه ليس من حق المسلمين أن يحكموا على قلوب الناس، أن يتتبعوا عوراتهم وأن يقتحموا عليهم بيوتهم، كما تفعل

[1]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 288.

أجهزة الشرطة الثورية في العالم المتخلف. إلا أن الشيخ الغزالي يؤمن الإيمان نفسه بأن الإسلام وطن وجنسية وليس مجرد دين لاهوتي مفصول عن الوطنية والجنسية، ويؤمن بالتالي بأن إعلان حرب على قواعد الإيمان بنشر الإلحاد والانحلال الفكري والخلقي يمثل إعلان حرب على كيان المجتمع المسلم يهدد سلامته ووجوده وبالتالي لا يجوز لأبناء المجتمع المسلم أن يسكتوا إزاء هذه الحرب الإلحادية المعلنة بل يجب أن يقاوموها على أساس أنهم حماة التوحيد والإيمان والأخلاق...

كما أن عليهم أن يقاوموها على أساس أنها منكرا والرسول صلى الله عليه وسلم يأمرهم أن يغيروا المنكر بالوسائل التي يستطيعون استعمالها من يد أو لسان أو قلب»([1]).

[1]) عبد الحليم عويس – الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه – المرجع السابق – ص 90.

خاتمة

بعد استعراض ما تقدم يمكن أن نلخص ذلك في النتائج التالية:

- يعتقد الغزالي جازما أن سنة التدافع ضرورة في حياة الأمة الإسلامية، فالتدافع سنة جارية في هذه الحياة، و الله سبحانه و تعالى يوجهنا إلى استثمار هذه السنة و أخذ خيرها و دفع شرها.
- هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية، يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان و مكان و الأمة الإسلامية عندما غفلت عن مسالك هذه السنة الإلهية، و لم تراع حقها في الحياة، أدى إلى نتائج سلبية كان من شأنها تردى أحوال الأمة، و ترجعها في كثير من الميادين.

و من ثم جاء التنبيه إلى إعادة سنة المدافعة إلى موقعها الطبيعي في حياة الأمة، و الاستفادة منها.

و إذا كان العالم العربي الإسلامي يواجه تحديات كبرى لا تقوى الدول الإسلامية متفرقة على كواجهتها فهي تحديات تتجاوز قدرات أية دولة مادامت وحدها، فضلا عن الخلافات والصراعات الداخلية التي تنهك وحدة الأمة و استقرارها. فهو يطلب منهم، أن يتجاوزا خلافاتهم الداخلية –التي تزداد أحيانا ضراوة دون داع– و أن يعلموا ما وسعهم الجهد للقفز فوقها، لأن طبيعة المرحلة تحتم عليهم التوحد و لم الشمل و أن عوامل التقارب و المشتركات أكثر من عوامل التفرقة و التشتت.

إن الانقسامات و الصراعات و التناقضات التي زادت وترتها في العالم، يمكن الاستفادة منها و توظيفها لصالح الأمة الإسلامية، و لي تحقق هذه الفوائد من سنة التدافع لابد من تكوين وإيجاد قيادات راشدة و ذكية مؤهلة لفهم هذه السنة و نقلها من دائرة التجريد النظري إلى التوظيف العلمي.

و إذا كان الغرب قد خطا خطوات كبيرة في مجال التفوق الحضاري، و في قطاعات حيوية بارزة كالسياسة و الاقتصاد و الإدارة، و ما إلى ذلك، في حين بقيت حركة الحياة في العالم الإسلامي تراوح مكانها دون حراك يذكر لدرجة الغيبوبة، فآن الأوان لتستنفر قواها الداخلية، وطاقتها الكامنة و أن تدرس هذه الآفاق الغربية، و هذه المنجزات، و تتخير ما يفيدها و يفيد نهضتها، و لما لا تقتبس

من هذه الحضارة التي تزخر بقيم جمة يمكن الاستفادة منها كالنظام الديمقراطي الذي يعتبره الغزالي: "من أرشد النظم و أحسنها، و أنا أحترم هذا النظام لأنه نظام يحترم حقوق الإنسان و يرفض الإكراه"([1]).

هذه المنجزات الغربية لم تكن وليدة طفرة أو جاءت عن طريق المصادفة، و إنما جاءت نتيجة جهود متضافرة و مساع حثيثة، أحاطتها مخاطر و معاناة، إنها سنة التدافع و الصراع التي استفاد منه الغرب.

و إذا أرادت الأمة الإسلامية أن تلحق و تستفيد من هذا الإنجاز الحضاري، عليها أن تنفتح على هذه المنجزات، من ابتكار و اكتشاف، خاصة في أسرار هذا الكون، الزاخر بالثروات، و أن تقدم الأسباب و توفر الوسائل لتستفيد من سنة التدافع.

و الأمة الإسلامية واقعها الراهن يشي بضعفها في كل المجالات، حتى علاقتها بدينها تشوبه الكثير من المفاهيم الفاسدة، و حتى هذه البقية من الدين تتعرض للكثير من السهام المسمومة سواء في الداخل أو الخارج، و قد جاءت محاولات عزل الإسلام عن الحياة، و ذلك بإلغاء منهجه، و استبعاد معاييره عن التداول و الممارسة، فصلا عن تشويه تاريخه و غمط علمائه...

إن أمة فقدت عناصر القوة، و فرطت في أقوى سلاح، ألا و هو الإسلام الذي كان حصنها المنيع، و سياجها الحامي لكيانها من كل عدوان أو خطر، هل تستطيع أن تواجه قوة تضخمت ماديا و عسكريا؟

عندما تجرد أمة من سلاحها، هل يمكنها أن تواجه عدوا يفوقها في كل الميادين، فضلا عن حنكته في مجال المكر و الكيد و الدسائس. أمة بهذا الوضع و الحالة اليائسة لن تستطيع أن تكسب الجولة لأنها مجردة من سلاحها، و غير مؤهلة للدفاع عن نفسها، و قيمها و مبادئها، لأنها فرطت و قصرت في الاستفادة من مصادر قوتها، خاصة الإسلام الذي يربي و ينمي فيها روح الدفاع و الجهاد و رد كيد العدو، و إسلامها هو الذي يستطيع أن يحفظ كيانها و يوطد أركانها ولا يتحقق ذلك إلا بالاستعانة بسنة التدافع.

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 208.

كما ينبه الغزالي إلى أن الغرب عندما يوظف سنة التدافع، يفرغها من مضمونها الإيجابي ويعطيها بعدا صراعيا، تجردها من كل قيمة خيرية إنسانية، و يذهب من أبعد من ذلك عندما يرفض قبول الآخر، و لا يعترف به و لا يريد محاورته، لأن رؤيته قائمة على ممارسة القوة و القهر، و يفترض دائما وجود عدو يوجه له هذا العنف، و الأغرب من ذلك أنه إذا لم يجد عدوا يحاربه، يخترع عدوا يحاربه، و قد كان الإسلام هو العدو الذي ينبغي محاربته، و هذا ما تأكد واقعيا من خلال ممارساته التعسفية الظالمة في حق الشعوب العربية و الإسلامية.

إذا كان الغرب بهذا السلوك الظالم لا يتردد بضرب كل ما له علاقة بالأمة الإسلامية، فهل تبقى الأمة على هذا الحال الخانعة، أم تبادر و تتحرك و تدافع عن نفسها؟

و هذا ما يدعو إليه الغزالي، بأنه حان الوقت لكي ننشغل فيه بقضايانا الكبرى، وبمستقبلنا المشترك و بالبناء الحضاري كالذي نتطلع إليه، و هذا يتطلب منا إغلاق ملفات أهدرت جهودا وأضعفت قدرات.

و كانت دعوته أقوى عندما طالب بوقف النزيف الداخلي للأمة، و كافة أشكال التصادمات و المنازعات و الانقسامات –خاصة المعارك الجانبية و القضايا الفرعية– و التوجه إلى توحيد الكلمة و الإرادة و القوة الفاعلة، و هي كلها سبيل لتحقيق سنة التدافع.

و لا يمل الغزالي من التذكير من استغلال سنة التدافع ما بين الجبهات المتصارعة والمتناقضة، لأن الأمة في وضع لا يسمح لها بمواجهة قوة الغرب، لأنها تفتقر لعناصر القوة التي يملكها الغرب، وكثيرا ما يستدعي تجارب تشبه الحال التي آلت إليها الأمة، ويستعين بنماذج تصلح أن تكون مدخلا لسنة التدافع، مثل المتغيرات الدولية الجديدة أو ما يسمى بالنظام العالمي الجديد(*)، يمكن أن تبيح للعالم العربي الإسلامي أن يناور ويتحايل ويحقق مساحات يتحرك من خلالها تجعله رقما مهما في توازن القوة العالمية، ولعل إيران في عصرنا الحالي كبلد مسلم قد خطى خطوات كبيرة من الناحية الاقتصادية والتكنولوجية والحربية مستثمرا في ذلك هذه السنة وهذا التناقض الموجود بين المعسكرين.

*) يعتقد الغزالي أن ما يحدث في العالم ليس نظاما جديدا فالنظام لم يتغير لأن القوي ما زال يسود الضعيف الذي لا حقوق له، وما زال أعداء الإسلام يتربصون به ويحيكون المؤامرات لإبادته وتنصير معتقديه – أنظر لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق ص 71.

وإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تجد لنفسها هذه المساحة يدعوها –الغزالي– إلى التصالح مع نفسها ولا يتحقق هذا التصالح إلى بالعودة إلى مصادر قوتها، إنه الإسلام بعقيدته التوحيدية وتنقيته من الشوائب التي لحقت به على مر العصور والمؤهل لهذه الأمانة هم العلماء والذين تتوفر فيهم مواهب وملكات وقدرات من تخطيط وتنظيم وتوظيف وتوجيه ورقابة وما إلى ذلك من أوجه الحرية والنشاط وهي عناصر تتميز بها القيادة الفاعلة القادرة على الابتكار والتجديد.

وإذا كانت سنة التدافع أحد ركائزها الجهاد فالغزالي يؤكد على هذه الفريضة ويضعها في مكانها الطبيعي لتحقق غايتها المرجوة، فهو ينظر إلى الجهاد بمعناه الواسع بحيث لا يقتصر على القتال وحتى هذا القتال لم يشرع إلا في حالات الضرورة القصوى ككف الأذى ورد العدوان والظلم، فالجهاد بمعناه الشامل أرحب وأوسع، فهو يغطي المساحة الأكبر في ميادين الحياة بدءا بجهاد النفس إلى أرقى مراتب الجهاد وهو خدمة الدين وقيمه التي ترقى بإنسانية الإنسان وتكريمه عن باقي المخلوقات.

ويعتقد الغزالي أن سنة التدافع بإمكانها أن تستفيد من الحوار الذي تظلله الحرية لأنها الضمانة الحقيقية وصمام الأمان الذي يحمي كرامة الإنسان ومواهبه وملكاته الفطرية.

وعندما فقدت وغُيِّبت هذه القيمة الإنسانية النبيلة في الفضاء العربي الإسلامي، فقد الإنسان كرامته وآدميته، وعصفت به رذائل الاستبداد وهوت به إلى مستوى الهمجية والبهيمية...

ولم يسلم الإمام الغزالي من هذا التحدي الذي يريد أن يصادر حريته، وكانت له معارك وجبهات في حلبة صراع تكاثر فيها الأعداء والخصوم، نافح ودافع فيها عن هذا الحق المغتصب الذي ينبغي انتزاعه بقوة الحق.

وقد كان حواره لخصومه راقيا متعاليا عن سفاسف الأمور، فالرجل ابن القرآن الكريم وتربى في كنف وظلال القرآن فكان منهجه الحوار منهج القرآن الذي يدعوا إلى المجادلة بالتي هي أحسن إنها رؤية واضحة لسنة التدافع وتفعيلها في حياة الأمة حتى يتحقق الصلاح والاستمرار بالحياة الدنيا والتمتع بخيراتها والفوز برضى الله تعالى.

الفصل الثاني

سنن التداول و الأجل و السببية

المبحث الأول سنة التداول

المبحث الثاني سنة الأجل

المبحث الثالث قانون السببية

المبحث الأول
سنة التداول

مقدمة

إذا كانت سنة التدافع قد غطت المساحة الأوسع في مجموع أعمال الغزالي المسموعة والمكتوبة نظرا لأهميتها و تفاعلها في حركة الحياة لأن معظم المعضلات و القضايا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية و الاقتصادية. في تفاعلاتها لا تحيد عن سنة التدافع.

ويعتقد الغزالي أنه ما أصاب الأمة من أمراض و علل و أزمات داخلية و خارجية و التي أنكت بالأمة عبر تاريخ طويل إهمالها لسنن الله الكونية و من أهمها سنة التدافع. فالجيل الأول عندما أخذ بأسباب هذه السنة في حياته رزق القوة والتمكين، وسعدت الأمة الإسلامية ردحا كبيرا من الزمان، وفتح الله عليها بركات من السماء والأرض يقول الغزالي: «ويمكن القول بإطلاق أن السلف الأول كانوا أجدر أهل الأرض بالتمكين في الأرض واعتلاء مكان الصدارة، كانت المدينة المنورة – عاصمة الإسلام– تصدر المثل الرفيعة لأقطار الدنيا، على حين كانت الجماهير في روما أو المدائن لا تعي شيئا، و السر في ذلك استقرار الثقافة القرآنية الهادية. وهي ثقافة تفتق الأذهان و تنضج الملكات، وتنمى الفضائل و تضبط السلوك ثم هي تحترم العقل و منطقه و تستضيء به في تجاربها و أحكامها...»([1]).

والى هذا المعنى ذهب محمد قطب ليؤكد ما قاله محمد الغزالي عن فترة الخلافة الراشدة فيقول: «إذا كانت فترة الخلافة الراشدة التي لم تتجاوز ثلاثين عاما قصيرة في عمر الزمان ولكنها في ميزان القيم أثقل من عمر إمبراطورية ظلت قائمة في الأرض عشرة قرون. فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى القيم صعدتها البشرية في تاريخها كله، وكان التمكين في هذه المرحلة في ذروته التي لم تصل إليها الأمة في وقت آخر كما كان شاملا، فكان يشمل تمكين الدين والشعائر، تمكين الدنيا والسيادة برا وبحرا ، سياسيا واقتصاديا وعلميا...»([2]).

[1]) محمد الغزالي– الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 105.

[2]) محمد قطب– حول التفسير الإسلامي للتاريخ – المجموعة الإسلامية – ط 3 – بدون تاريخ – ص 218.

وقد تحققت كل هذه الإنجازات الخالدة باستثمار سنة التدافع و الانتفاع منها، وعندما تخلت الأمة عن هذه السنة لحقها ما لحقها من نكبات وهزائم وانكسارات كما أشرت آنفا، فحديث الغزالي عن سنة التدافع بهذا الإسهاب والتطويل فرضتها طبيعة الحياة الزاخرة بصنوف الصراعات والنزاعات والتصادمات، ومن ثم كانت سنة التدافع حاضرة في كل ميادين الحياة.

«فالمعركة بين العدل والظلم والحرية والاستبداد و الخير والشر بدأت مع الإنسان وهي سنة طبيعية للتدافع بين هذه العناصر المضادة (بين الخير والشر) وسوف تستمر استمرار الحياة نفسها وهي سر استمرار الحياة ونموها وإلا توقفت رحلة الحياة وتوقف التاريخ الإنساني، إذ أن سنة التدافع الحضاري سنة ماضية إلى يوم القيامة»([1]).

المطلب الأول: مفهوم سنة التداول

الفرع الأول: تعريف التداول لغة

يعرف ابن منظور التداول بالتعاقب، فهو يحمل نفس معانيه.

جاء في لسان العرب التداول: "التعاقب، الورد مرة بعد مرة... والتعاقب و الاعتقاب التداول...([2]).

و اعتقبه أي خلفه، و هما يعقبانه و يعتقبان عليه و يتعاقبان عليه،

و يقول أيضا دالت الأيام أي دارت و الله يداولها بين الناس، و تداولته الأيدي أخذته هذه مرة و هذه مرة.

و يعرف الحموي التداول فيقول: "التداول والدولة و هو الانتقال من حال إلى حال([3])، أما الجرجاني فيقول التداول حصول الشيء تارة في يد هذا و تارة في يد هذا"([4]).

---

[1]) عمر عبيد حسنة – حتى لا تكون فتنة – مرجع سابق – ص 94.

[2]) سفيان ابن الشيخ – سنن الله في الخلق بين السنن الاجتماعية و السنن الكونية – ديوان المطبوعات الجامعية – المطبعة الجهوية – قسنطينة – د ت – ص 100-109.

[3]) ياقوت الحموي أبو عبد الله ابن ياقوت عبد الله– معجم البلدان – دار الفكر – بيروت – 74/5.

[4]) أبي الحسن على بن محمد الجرجاني – التعريفات 166/1 – تحقيق إبراهيم الابياري – ط 1 – دار الكتاب العربي – بيروت – 1405هـ، 1985م.

و في التفسير الكبير للإمام الرازي: التداول أو المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، يقال تداولته الأيدي إذا تناقلته.

و يقال: الدنيا دُوَلٌ أي تنتقل من قوم لآخرين ثم عنهم إلى غيرهم.

و يقال: دال له الدهر بكذا إذا انتقل إليه([1]).

الفرع الثاني: تعريف التداول اصطلاحا

التداول في القرآن الكريم

ورد معنى التداول في كتاب الله مرتين بصيغة نداولها في قوله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله و تلك الأيام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء و الله لا يحب الظالمين﴾ سورة آل عمران الآية 140.

و بصيغة دولة في قوله تعالى: ﴿ما أفاءَ الله على رسولِه من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم...﴾ الحشر الآية 7.

فالتداول ورد في سياقين مختلفين، المعنى الأول متعلق بالتداول الحضاري و أما الثاني فهو عن تداول المال([2]).

و التداول سنة إلهية جارية ليس في حياة البشر فحسب بل في الكون كله، و «لقد عرف الإنسان منذ القديم ظاهرة تبدل أحوال الطبيعة و تعاقب الليل والنهار بانتظام و تغير فصول السنة و غياب الشمس و القمر، و تبادلها على أطراف الأرض واستبدال بعضها ببعض بين كل فترة وأخرى من الوقت، و إن الفلاسفة والفلكيون قد تجادلوا حول كيفية حدوث ذلك منذ سالف الدهر وتفرقوا طوائف ومذاهب شتى فإن ذلك لبروز هذه الظواهر في حياتهم و معايشتهم لها، ولعل العامل في هذا الاختلاف يرجع إلى الجهل بقوانين الطبيعة و أسنان وأسباب تبدل حياة الناس»([3]).

أما تناول الغزالي لسنة التداول فهو متعلق بالتداول الحضاري فقد كان محورها التركيز على الناحية الاجتماعية والتاريخية مستوحيا هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا

[1]) الإمام الرازي – التفسير الكبير – ط 1 – دار الغد العربي – 1412هـ، 1991م – ص 466-467.

[2]) ابن منظور – لسان العرب – 616/1.

[3]) محمد هيشور – سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها – مرجع سابق – ص 278.

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس و هدى و موعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله و تلك الأيام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء و الله لا يحب الظالمين﴾ سورة آل عمران الآيات 137-140.

المطلب الثاني: القصص القرآني و سنة التداول

الفرع الأول: سنة التداول عند الغزالي

أردت بهذا التمهيد أن أنتقل إلى سنة من سنن الله تعالى وهي سنة مترتبة عن سنة التدافع إنها سنة التداول، والإمام الغزالي في تناوله لهذه السنة لم يفرد لها فصلا أو بحثا بقدر ما كانت إشارات ولمحات هي أقرب إلى التنبيه والتذكير والاستفادة منها في إصلاح المجتمع وتصحيح مساره في الحياة وفق منهج الله تعالى.

و هو عندما يتحدث عن هذه السنة لا يعزلها عن سياقاتها التاريخية في حياة الأمم وكثيرا ما تستوقفه محطات هامة يستحضر أحداثها ووقائعها و ذلك لما تزخر به من تجارب وخبرات يمكن الاستفادة منها خاصة عندما يتعلق الأمر بمحطات مصيرية في حياة الأمم كالانطفاء الحضاري الذي لحق بأمة من الأمم، ودراسة جوانب الصعود والقوة وأسباب الضعف والسقوط، وتحديد السنن الكونية الإلهية الفاعلة في الإنسان عبر المراحل التاريخية، وعندما يستعرض هلاك الأمم ودمار المجتمعات يرى أن هلاكها لا يحدث إلا بأسباب موضوعية، وأن تدمير المجتمعات واندثار حضارتهم وخلاء مساكنهم من بعدهم كان بسبب ما ينشأ فيها من بطر واستكبار وطغيان وبما تتردى فيه من استغراق في الشهوات وإسراف في المتع و اللذائذ ولم يسلم العرب من هذا الهلاك والدمار، يقول الغزالي: «كان للعرب وجود في الأعصار القديمة، عاد في الأحقاف جنوبي الجزيرة وثمود في الحجر شمال الحجاز ومدين في شرق سيناء وقرى المؤتفكة في الأردن، لكن هذا الوجود عدت عليه عوادي الفناء بسبب أخلاق الترف والجبروت والشذوذ و التظالم، كل ذلك من أسباب الهلاك و الدمار»([1]). وعندما يستحضر هذه الأعصار القديمة ويجري مقارنات بينها وبين ما يحدث للأمة

[1]) محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – –كتاب الأمة – رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية – دولة قطر – 1402هـ – ص 47.

الإسلامية من «تشابه الأحوال واستواء المواقف». ولهذا يؤكد: «أن أخطاء الأولين تتكرر الآن في الحضارة التي تقود العالم ويفرض عليها أساليبها في الحياة، و ظاهر أن رذائل الترف والبطر و الجحود والأثرة تسود العالم الأول وأن رذائل الفرعنة والمسكنة والبلادة الفكرية والنفسية تسود العالم الثالث...»([1]).

و الغزالي عندما يدعو إلى فقه القصص القرآني ويتحدث عن الأمم السابقة والجدوى من دراستها يريد أن يبين أن الغاية من هذا القصص وربطه بالملابسات الجديدة يدخل في دائرة «أن الإنسان هو الإنسان من مائة قرن خلت إلى مائة قرن يلدها المستقبل المنظور –لو امتد أجل الحياة– لن تتغير طبيعته ولن يتبدل جوهره وقد تتغير وسائل تعبيره عما يهوى، وقد تتبدل مظاهر أشباعه لما يريد ولكنه هو، هو...»([2]).

فهو يتحدث عن دعوة نوح لقومه وصدهم لرسالته ويقيم مقارنة بين دعوته ودعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لكفار قريش يخلص إلى أن: «قوم نوح هم صورة كاملة لما نراه في أنحاء الشرق والغرب فإذا وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم وجدد على الناس ذكرها بعد ما طوت الليالي أصحابها فلكي يداوي عللا متشابهة. وقد كثرت القصص لتحصي جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشتى النذر»([3]).

الفرع الثاني: الاستفادة من توجيهات القرآن من خلال قصصه

ولهذا كان الغزالي كثيرا ما يلفت النظر إلى توجيهات القرآن وتنبيهاته من خلال القصص القرآني، وذلك لما يحفل به من حقائق ووقائع وأحداث تكشف عما وقع للأمم السابقة، حيث يقول وهو يتحدث عن أسلوب القرآن الكريم في إخباره عن الأمم الأولى: «إنه يسوق عوامل الرفعة والهبوط والبقاء والزوال على أنها سنن كونية لا تتخلف، طبقت على المستقدمين وتطبق على المستأخرين، لأن

[1]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 114.

[2]) محمد الغزالي – نظرات في القرآن الكريم – – شركة الشهاب – باتنة – الجزائر – د ت.– ص 111.

[3]) المصدر نفسه – ص 116.

الحقائق الاجتماعية التي تربط بين الأحياء كالحقائق المادية التي تربط بين عناصر الأرض والسماء»([1]).

فدراسة القصص القرآني كثيرا ما تكشف سنن الله في كونه، ولهذا نجد الغزالي يدعو إلى دراسة هذا القصص واستخلاص عبره ودروسه فيقول: «إن روح القصص القرآني هو احتواء على جملة من سنن الله الكونية هي قيام الأمم وفنائها»([2]).

ويدعم كلامه هذا بما وقع لأمم انحرفت، وتنكبت عن الفطرة السليمة، فكان مصيرها الدمار والهلاك، ويستشهد على ذلك بما وقع لقرى المؤتفكة "عندما استمرأ رجالها الشذوذ الجنسي عز عليهم أن يقوم فيهم ناصح ينهاهم عنه، وكان صوت هذا الناصح من الغرابة بحيث هدده المجرمون بالرجم... و البلد الذي تصل فيه الأوضاع إلى هذا الدرك السافل لا بد أن تحل به العقوبة العدل، وما تقوم لأهله عند الله حجة أو ينهض لهم عذر...([3]).

الفرع الثالث: دراسة التاريخ سبيل لمعرفة سنن الله

والنماذج في هذا السياق عن الأمم الغابرة حافلة في كتابات الغزالي، وقد ذكرت في سياقات متعددة، فقل أن نجد كتابا لا يتعرض لنماذج وشواهد تاريخية لأمم سابقة ومصدره في ذلك القرآن الكريم وما تضمنه من قصص لأقوام سبقوا فضلا عن القصص القرآني، لا يفتأ يدعو إلى الاستفادة من التاريخ وعبره، بل كما يقول نجيب بن خيرة أن الغزالي ينظر إلى التاريخ على: «أنه المعبد الذي تعرف فيه سنن الله في الكون وقوانينه في الحياة والأحياء، وهو مختبر سلوك البشر ومجال فرز الحقائق من الباطل وميزان الفوز من الخسران وليس دخول هذا المعبد من نوافل الأعمال بل هو واجب كل مسلم يريد أن يعرف سنن الله في خلقه، ولهذا نجده يؤكد على دراسة التاريخ والانتفاع بعبره واستخلاص الدروس المستفادة منه، بل يبوئه مكانة الفريضة فيقول: «إن دراسة التاريخ فريضة دينية

[1]) محمد الغزالي – نظرات في القرآن الكريم – مصدر سابق – ص 117.

[2]) محمد الغزالي – نظرات في للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 116.

[3]) محمد الغزالي – نظرات في للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 102.

وهي إلى جوار ذلك فريضة إنسانية بل إنني بعد التأمل في تاريخ المسلمين القريب و البعيد أشعر بأنها ضرورة بقاء وسياج لحياتنا ورسالتنا إذا كنا حِراصا على صون حياتنا وتبليغ رسالتنا»([1]).

فأهمية التاريخ بالنسبة للغزالي لا تشمل مقاطع معينة كتسجيل لحياة أفراد أو تدوين لمناقب أشخاص أو ذكر لأحداث ووقائع بعينها...

و إنما تكون دراسة التاريخ على اعتبار أنه يستوعب كل جوانب النشاط الإنساني وتراثه الحضاري بالمعنى الشامل أي الحضارة متمثلة في إنتاجها الفكري والعملي والاجتماعي والخلقي والسلوكي، وفي القيم التي أوجدت كل ذلك. فالتاريخ في رؤية الغزالي عنصر أساسي في توجيه الأمة والإسهام في بناء كيانها ومثلها الخلقية والاجتماعية وتكوينها العقدي، والأمة التي تقطع صلتها بماضيها محكوم عليها بالسقوط والانهيار.

وهو ما وقع «للأمة الإسلامية التي سلخت من عمرها المديد هذه القرون وخرجت بثروة هائلة من الأحداث الجسام والوقعات العظام، يجب أن تضع أمام عينها الدروس التي تلقتها خلال هذه الأماد، حتى لا تقع في ذات الحفر التي وقعت فيها من قبل أو تلدغ من الجحر القديم نفسه. هذا التاريخ كيف ينسى؟ وعبره الغائرة الدفينة كيف لا تستخرج وتدرس وينتفع بها»([2]).

إن دراسة التاريخ —في نظر الغزالي– لا تقتصر على تسجيل الوقائع ورصد الأحداث برغم الموضوعية والحيادية، بل وظيفة التاريخ أن يكون ذاكرة الأمة الإسلامية وسجلا لعملها بالإسلام يقول الغزالي: «إنه ذاكرة الأمة ومستقبلها ومستودع تجاربها ومعارفها وهو عقلها الظاهر والباطن وخزانة قيمها ومآثرها وأساس شخصيتها الغائرة في القديم والممتدة مع الزمان»([3]). وكثيرا ما يستفيض الغزالي في ذكر التاريخ إذ يرى أن لدراسة التاريخ أهمية قصوى في حياة الأمم والشعوب، وفي حياة المسلمين خاصة لأن: «ما وقع أمس لا يعني أصحابه وحدهم يجب علينا أن نكترث به ونفيد منه ونوازن ونحكم وإلا دفعنا ثمن جهالتنا من دمائنا و استقرارنا. و قد أبان القرآن الكريم أن هناك عقلا يتكون من التجربة ومن السير في الأرض ومن الرحلة إلى الماضي! وبين أن الإنسان الذي تقوم معرفته على

[1]) نجيب بن خيرة – منهج الغزالي في التجديد والإصلاح: نظرات في التاريخ الإسلامي للشيخ محمد الغزالي — — دار اليمن للنشر والتوزيع و الإعلام — قسنطينة، الجزائر — 2004م – ص 219.

[2]) محمد الغزالي — معركة المصحف في العالم الإسلامي — مصدر سابق – ص 147.

[3]) محمد الغزالي — المحاور الخمسة للقرآن الكريم — مصدر سابق – ص 122.

قراءات سريعة وأحكام نظرية أضعف حسا من إنسان له معاناة في الدنيا وتجارب مع الناس. هذا العقل المتولد من المدارسة والمعاناة هو الذي يشير إليه القرآن الكريم عندما يقول: ﴿أَفَلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ سورة الحج الآية 46. وقد تساءل القرآن الكريم مستنكرا حال قوم يمرون بآثار الماضين الهالكين ثم لا يراعون ﴿و لقد أتوا على القرية التي أُمطِرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ سورة الفرقان الآية 40»([1]).

الفرع الرابع: خصوصية دراسة التاريخ الإسلامي

و التاريخ بهذا المعنى والتصور –خاصة التاريخ الإسلامي– ليس تاريخ فكر وأحداث وظواهر اجتماعية و أوضاع سياسية ودول سادت بل أيضا وقبل ذلك هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها ومقوماتها المميزة ومن ثم وانطلاقا من هذه النظرة: «لا بد من فقه التاريخ وفلسفته ولا بد من محاكمة نشاطه البشري إلى النصوص السماوية التي سار باسمها ولا بد من تنحية الأخطاء التي ألصقت به وهو بريء منها... لقد تحمل الإسلام في صدر تاريخه أخطاء وخطايا واستطاع الغلب عليها والنجاة من غوائلها ولكن العالم الإسلامي في قرنه الخامس عشر تتجمع في ربوعه بقايا شتى من انحرافات مضت...»([2]).

بهذا المعنى يريد الغزالي أن تدحض كل الافتراءات والشوائب التي أقحمت على هذا التاريخ وكذلك التفسيرات الخاطئة والباطلة التي قامت عليها، فضلا عن التشويهات والأخطاء التي شابت هذا التاريخ.

وإننا كمسلمين مرتبطون به وهو جزء من حياة الأمة المسلمة. بتاريخها تنتصر وبدونه تنكسر ومتى استوعبنا عبارة الغزالي: «أن دراسة التاريخ فريضة دينية» على اعتبار أن التاريخ الإسلامي مرتبط بالعقيدة من حيث الدافع والتأثر ومن حيث المحرك والصبغة الدائمة مع بيان أثر العقيدة في العمل ونتائجها.

[1]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 122.

[2]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 131.

و قد وظف الغزالي معرفته التاريخية في تفسير كتاب الله عز وجل وكان في كل مرة يرجع إلى التاريخ ليستخلص منه الدروس الواقعية التي تأتي خلاصتها مجملة في الآيات والسور القرآنية. ومن ذلك ما أورده في تفسير سورة المائدة عند حديثه عن أهل الكتاب المسيحيين منهم خاصة وما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بشأنهم، حيث يروي في إيجاز قصة الود الذي كان بين أتباع المسيحية والإسلام منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم و كيف تحول هذا الود إلى صراع مرير ظل يشتد مع الأيام وقال: «النزاع الذي يسود العالم الآن هو بين الإسلام الذي يصف الله بالوحدانية المطلقة ويعد ما عداه في الأرض والسماوات ملكا له خاضعا لعز جلاله ومجده، الملائكة والأنبياء والبشر كلهم يجثون خاضعين للواحد القهار وبين مسيحية استحدثها الغلاة و عبدوا فيها ثلاثة وزعموا بعدئذ أن الثلاثة واحد ويظهر أن هذا النزاع سوف يبقى حتى قبيل الساعة، إذ يُنزل الله عبده عيسى عليه السلام ليحسمه بإعلانه عبوديته لله ومقاتلته من جعلوا لله ندا»([1]).

أريد أن أشير إلى ملاحظة هامة تتعلق بأسلوب الغزالي في كتاباته، فهو عندما يعرض حقائق الإسلام «يجمع بين أمرين قلما يجتمعان لكاتب أو مفكر وهما البساطة مع العمق فإن القارئ لكتابات الغزالي بقدر ما يستمتع بتلك اللغة الرشيقة، يخرج بتصور واضح هو في الحقيقة خلاصة لقراءات عميقة ومستوعبة زادتها التجارب عمقا وصقلا، وما أشبهه —رحمه الله– في ذلك بالنحلة التي ترتاد حقلا تنوعت أزاهيره لتقدم في النهاية عسلا خالصا فيه شفاء للناس»([2]).

هاتان الميزتان أو الخاصيتان جعلت الغزالي لا يهتم بالتدقيقات الأكاديمية والضوابط المنهجية كأن يعرف سنة التداول الحضاري مثلا، أو يهتم بتأصيلها تأصيلا نصيا دقيقا، بل يتجاوز كل ذلك إلى الانتفاع بالهداية القرآنية واستثمار هذه السنة فيما يرنو إليه من البيان والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

[1]) مسعود فلوسي — الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث — ط1 — دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع — القاهرة — 1421هـ، 2000م - ص 177.

[2]) منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، مقال لعبد الوهاب بوخلخال — ثنائية العقل والقلب عند الشيخ محمد الغزالي — مرجع سابق - ص 144-145.

قد يقال هذه مصادرة على المطلوب فيفرض على القارئ المستمع هذه الآراء والأفكار دون أن يفسح له المجال للبحث والنظر أو أن يورد له الأدلة والشواهد والنصوص على تلك السنن، والجواب إن ذلك قد استقر في نظر الشيخ الغزالي وفكره من خلال تجربته العلمية القرآنية الدعوية الفكرية، لذلك يكتفي عند ذكر أي سنة من سنن بشاهد أو اثنين معولا على نباهة القارئ واجتهاده.

المطلب الثالث: سنة التداول الحضاري (التنقل الحضاري)

الفرع الأول: للحضارات أعمار

أصل هذه السنة قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾ سورة آل عمران الآيتان 139-140.

هذه الآية يبين الله فيها سنة التداول ومعنى هذه السنة أن عوامل الضعف والقوة تعتري كل المجتمعات وأن موازين القوة متحولة وليست ثابتة فلا المجتمعات القوية تبقى على قوتها أبد الدهر، ولا المجتمعات الضعيفة تبقى على ضعفها إلى مالا نهاية...

و هذه السنة قد يكون عمرها أطول من عمر الإنسان فقد يعيش الإنسان ويموت في ظل أحوال وموازين وقوى أممية واجتماعية وبالتالي لا يصح أن يجعل الإنسان من حياته معيارا. ينقل عمر فروخ هذه الفقرة لابن خلدون يتحدث فيها عن سنة التداول فقال: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل العصور ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع هذا التبدل إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليفة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول، سنة الله التي خلت في عباده...»([1]).

[1]) عمر فروخ- كلمة في تعليل التاريخ- ط3- دار العلم للملايين بيروت - 1397هـ، 1977م - ص36.

و في هذا السياق يقول سفيان بن الشيخ: «و باستقراء التاريخ نجد أن الحضارات تعاقبت زمانا و مكانا، و أن كل حضارة تصل إلى قمة شامخة من الرقي و الازدهار و التطور ثم تبدأ في السقوط شيئا فشيئا حتى تنقرض، و تبقى بصماتها مسجلة في تاريخ الإنتاج الحضاري البشري، و بالمقابل تكون حضارة أخرى قد انطلقت في الأفق و تنتعش من سابقتها و تأخذ عنها، و عندما تغرب الأولى تبزغ شمس الثانية و تزيد عنها في الابتكار و الإنتاج الفكري و المادي و الثقافي، فيكون مردودها أكثر من الأولى نوعا و كما و تبقى كذلك تعمر زمنا محسوبا في غيب الله، ثم تصل القمة و تبدأ عوامل النخر من الداخل، و على رأسها الانحلال الأخلاقي و الفساد الاجتماعي اللذان يأذنان بالزوال و الانقراض... و هكذا يبقى التسلسل لكل حضارة عمر ثم تنتهي فللحضارات أعمار..» ([1])

الفرع الثاني: أثر سنة التداول في تبصير المسلمين

و الغزالي عندما يتناول هذه السنة يستحضر نماذج من التاريخ الإسلامي مستفيدا من الآية سابقة الذكر ﴿...ولا تهنوا و لا تحزنوا ...﴾ سورة آل عمران الآيتان 139-140، حيث أدرك أثر هذه السنة في تبصير المسلمين بسبب السقوط و الهزيمة فبين هنا من خلال هذه الآية: ﴿أَوَ لَمّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ... قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ...﴾ سورة آل عمران الآية 165.

إن المسلمين كانوا قد حققوا نصرا باهرا في لقائهم الأول مع المشركين في غزوة بدر و لكنهم في غزوة أحد وقعت الغلبة للعدو، وفق سنة التداول الحضاري، لأنها تتفق مع من يبذل الأسباب و يحقق الشروط، و المسلمون في هذه الكرة فاتهم شرط من أهم شروط النصر و هو طاعة أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم و من هنا جاءتهم الهزيمة. ففي هذه الغزوة نسوا سنة كونية من شأنها أن تسهم في تحقيق النصر، و هي ضرورة الالتزام بطاعة القائد في المعركة، كما ذكرتهم هذه الهزيمة بسنة هي منهج الحياة و تقلب ألوانها و أنها دول.

و الغزالي يستثمر هذا الملمح السني في الدعوة إلى الله، حين يبذل البيان و التوجيه للمسلمين إلى أسباب الظهور، و شروط الانتصار و أهلية التداول الحضاري. هناك معنى آخر في

[1]) سفيان بن الشيخ الحسين- سنن الله في الخلق بين السنن الاجتماعية و السنن الكونية - ديوان المطبوعات الجامعية - المطبعة الجهوية قسنطينة- ص102.

سنة التداول –يجب أن لا نغفل عنه– وهو أنها تفتح أمام المصلحين الدعاة آفاقا رحبة واسعة وتبدد اليأس والقنوط من نفوس المسلمين، وذلك حين يفقهون هذه السنة ويدركون أن موازين القوى قد تميل في ظرف ما نحو أهل الشر والإفساد، فإنها لن تدوم بل يمكن تغييرها و تسخيرها في خدمة الخير والحق... وإذن فلا حزن ولا ضعف ولا وهن وهذا المعنى يمكن أن نلمحه في قول الله تعالى وهو ينهي المؤمنين عن الوهن والحزن بعد ما أصابهم في المعركة قال تعالى ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (139) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾ سورة آل عمران الآيتان 139-140.

فقد ذكرهم سبحانه وتعالى بسنة التداول في سياق نهيه عن الوهن والحزن على أن المؤمن لا يغيب عنه أن في سنة التداول ابتلاء و تمحيصا، وقد بين رب العالمين أن سننه في الكون وقوانينه ومنها سنة التداول التي تحكم مسيرته ستظل وسائل تذكير وتحذير تنبيها للغافل وإرشادا للضال حتى يتعرف على الحق فيؤمن ويهتدي أو يصر على غفلته وجهالته فيظل على ضلالته وانحرافه.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحمد لله سَيُرِيكُم آياتِه فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ سورة النمل الآية 93 (آخر آية). كما يقول سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ سورة فصلت الآية 53.

وعندما يتحدث عن سنة التداول في الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الغربية ينبه إلى أن سلطان الحضارة على البشر لا يمكن ربطه بأسواق أي بالناحية المادية فقط، بل الناحية الدينية التي هي أساس الحضارة، وهو في هذا يوجه الدعاة ألا ينخدعوا بالحضارة المنبعثة من شرق آسيا، لأن هناك آراء تقول بظهور تحول حضاري سيجعل الحضارة تشرق من جنوبي آسيا وشرقيها اليابان والبلاد التي تقرب منها، ولكنه «يخيل إلي أن الذين يرون هذا يؤمنون بالحضارة المادية فقط، لأن التقدم المادي في اليابان وتايوان وكوريا وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا يكاد يضارع أوروبا وأمريكا وينافسها في أسواقها الداخلية... لكن أعتقد أن العالم قد تكون له عند الله مكانة تجعله سبحانه وتعالى لا يربط كرامة البشر بأسواق السلع البراقة التي جاءت بها الحضارة الحديثة»([1]).

الفرع الثالث: أمة العقيدة لا تجري عليها ذات السنن التي تجري على الجاهليات

[1]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 124.

وعندما يتحدث عن الحضارات التي أشرقت في هذا العالم على مر الحقب التاريخية يعدد أهم هذه الحضارات ويقول: «عندما أنظر إلى تواريخ العالم في الشرق والغرب أجد أن الإمبراطوريات والدول كأنها تشبه البشر لأن لها أعمار تنتهي إليها...

لكن الذي ظهر لي هو أن الحضارة أشرقت من مصر ثم انطفأت وأشرقت من اليونان ثم انطفأت وأشرقت من الرومان ثم انطفأت وأشرقت من بلاد العرب والإسلام ثم خبت»([1]).

ويعضد محمد قطب ما قاله الغزالي فيقول: «إن هناك أمما "تاريخية" وصلت بمقياس الأرض إلى أمجاد ضخمة، وتمكنت في الأرض قرونا عدة وسيطرت على مساحات شاسعة من الأرض وملكت من وسائل القوة الأرضية ما يفوق الحصر ثم اندثرت تماما كما حدث للإمبراطورية الرومانية العتيدة أكبر إمبراطوريات التاريخ والإمبراطورية الفارسية التي كانت تنازعها السيادة في الأرض سواء في التمكين والقوة أو الدمار والاندثار حسب سنن ربانية لا تتبدل، وحسب مشيئة ربانية هي التي أجرت هذه السنن في الحياة البشرية».

و يضيف محمد قطب قائلا: «لكن أمة العقيدة هل تجري عليها ذات السنن التي تجري على الجاهليات؟»

يجيب عن هذا التساؤل بقوله: «"الجاهليات تقوم على شعوب" بعينها فإذا كان من سنة الله أن تهرم الشعوب كما يهرم الأفراد فمن الممكن أن تدول الدول التي تنشئها تلك الشعوب بداء الشيخوخة بعد فترة معينة من عمرها مهما يكن لها في فترة شبابها و فتوتها من عوامل القوة التي تبدو لعين الناظر غير قابلة للفناء، و لكن أمة العقيدة لا تقوم على "شعب" بعينه إنما تقوم على "العقيدة" وهي عنصر له صفة الدوام...»([2]).

وعندما ذكر الإمام الغزالي انطفاء حضارات الأمم السابقة للأمة الإسلامية استثنى أمة الإسلام وعبر بلفظة "خبت" التي تدل على ضرورة وحتمية عودة الحضارة الإسلامية لأن روح هذه الحضارة هي العقيدة التي تبقى جذوتها مشتعلة وهي تنتظر من ينفخ في روحها لتدب فيها الحياة من

[1])نفس المصدر سابق – ص 124.

[2]) محمد قطب– واقعنا المعاصر – مكتبة رحاب – الجزائر – ط1 – 1989م – ص113- 114.

جديد لأن «الإسلام يحمل في كيانه بذرة الخلود ويستمد من قرآنه أمدادا منعشة، كلما دخل في جو نكد، ولذلك بقينا وسوف نبقى حتى يرث الله الأرض و من عليها...

وأسباب البقاء تكمن في الرباط الوثيق بالقرآن الكريم والعودة إليه كلما أبعدتنا عنه موجة عاتية»([1]).

فلفظة "خبت" إشارة إلى أن حضارة الإسلام لم تنطفئ شأن الحضارات الأخرى لأنها حضارة باقية بقاء كتابها، ولكن تشرق أحيانا وتكون لها الريادة على الناس أجمعين وتضعف حينا فتستلم السيادة حضارة أخرى مؤهلة بما لها من شروط القوة والتمكين والتسخير ولو كانت مادية كما هو شأن الحضارة الحديثة.

والأمة الإسلامية عندما تخلت عن دورها ووظيفتها ومسؤوليتها جرت عليها سنة التداول فهي ليست استثناء عن نفاذ هذه السنة التي أصابت الأمم السابقة.

يقول الغزالي: «نظرت في أحوال المسلمين أواخر مقامهم ببلاد الأندلس، فحكمت بأن طردهم من هذه البلاد كان قضاء عادلا وسنة حضارية لا محيص عنها...!!

وماذا بعد أن تشيع بينهم موبقات تأتي على الأخضر واليابس ولا تقيم لهم عند الله حجة؟»([2]). ويسوق الغزالي نماذج من المعاصي التي وقعت فيها حضارة الأندلس كانت سببا في هلاك وسقوط دولة الأندلس يقول: «قرأت هذه العناوين في أحد كتب الأدب: غرناطة والخمرة!، غرناطة ومجالس الطرب!، الشذوذ الجنسي!، الربط والشعوذة!».

و يسترسل في ذكر هذه النماذج و يقول: «إن السلاطين اهتموا بالأحفال الماجنة، وخصصوا لها دارات في منتزهاتهم وقصورهم وكانت الطبقة النبيلة الموالية لهم من الوزراء و القادة والقضاة قد سلكت نهجهم وبنت لهم مساكن قبالة الحمراء نظرا لحسن الموقع وطيب الهواء!».

وتحدث المؤلف في فصل كالح عن الشذوذ واللوطية والغزل بالمذكر... إلى غير ذلك من الوساخات! أفتظن ذلك يمر دون عقوبة؟ و أين نذهب بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ سورة يونس الآيات 81-82.

---

[1]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 147.

[2]) محمد الغزالي –نفس المصدر – ص 132.

لقد ضاع الأندلس وطرد العرب شر طردة وما كان ينتظر من قدر الله غير ذلك([1]).

إن لفظة "خبت" إشارة تحذير وتنبيه واضحة لاستدراك تقصير الأمة في حق دينها وحضارتها. إن الهزائم المنكرة التي أصابت الأمة عبر أزمنة طويلة لم تستطع أن تفت في عضدها وتكسر شوكتها ففي عز هذه الهزائم ينبثق شعاع يعيد للأمة عنفوانها وقوتها، يقول الغزالي: «استطاع الصليبيون أن يقيموا دولة دامت قرنا من الزمان في فلسطين، لكن هذا القرن انتهى وانتهت معه الدولة الصليبية([*]) فليتفق المسلمون المعاصرون وليتفق غيرهم معهم على عدم قبول الكيان اليهودي، لأن مستقبل الإسلام لا يصنعه جيل من الأجيال، إن الذين صنعوا سقوط بغداد مسؤولون عن سقوط بغداد أما الأمة الإسلامية على امتداد الزمن واتساع التاريخ مسؤولة عن استرداد بغداد وقد استردوها»([2]).

الفرع الرابع: الأمل في عودة الأمة إلى مكانتها في ظل سنة التداول

إن هذه المنبهات الحضارية تفعل فعلها متى تداركت الأمة تقصيرها وراجعت نفسها وصوبت أخطاءها.

لأن الأمة بلغ الفساد فيها درجة تستعصي معالجته على أطباء جميع التخصصات خاصة أطباء الاجتماع، ولكنها إذ تنبهت قبل انتشار الفساد الذي توطن في معظم مفاصلها، و أمكن لها أن تغير ما بأنفسها وبظهور الدعاة والمصلحين فيها يغير الله ما بها و يستبدل ضعفها وذلها بقوة وعزة، ويصف الغزالي حال الأمة وما لحقها من إصابات يحدوه أمل في عودة الأمة إلى مجدها ورفعتها فيقول: «لست بيائس فإن أمتنا تمرض ولا تموت، وقد تسقط على الطريق فتطول كبوتها ولا تقصر وتتحامل على نفسها مرات ومرات، ثم تتابع المسيرة مرة أخرى والمستقبل إن شاء الله للإسلام وكثيرا ما كنت أقول للناس: يوم الإسلام قادم فارتقبوه»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 133.

[*]) والإشارة هنا الصحوة التي شهدتها الأمة أيام صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين، إضافة إلى محطات تاريخية مشرقة كأيام "قطز" قاهر التتار وحركة المد الضخمة التي قادها محمد الفاتح داخل أوروبا.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 152.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 133.

ويؤكد الغزالي على هذه الحقيقة وهي أن الحضارة الإسلامية لا تسقط عند ظهور الحضارات الأخرى الغالبة والمهيمنة، بل تضعف وتخبو جذوتها دون أن تموت أو تنقرض وهذا الذي تختلف فيه الحضارة الإسلامية عن بقية الحضارات المادية، ولذلك لا يفتأ يدعو المسلمين إلى التجدد والنهوض من الكبوة والتي يعتبرها ظرفية وليست حتمية دائما، وهذا استثمار منه لهذه الفكرة في بث الوعي الصحيح بالسنن، وتبصير الدعاة بحقيقة الدورات الحضارية وأثرها في التاريخ ليكون لهم الزاد الفكري والوعي البصير بحقيقة الحضارة الإسلامية وهو ما يخدم الأمل و يشحذ الهمم ويشد العزائم خدمة للدين.

إذا كانت الحضارات المادية استطاعت أن تحقق إنجازا و تفوقا ماديا، فهذا يعود إلى انسحاب الأمة الإسلامية من ساحة التنافس و التسابق و التدافع، فهي أقرب إلى العجز منها إلى روح الحركة و المبادرة «و العاجز في ميدان الحياة لا يستطيع مساندة عقيدة، بل لا يظفر بكرامته الشخصية، و لا يشيع بنظرة احترام»([1]).

صحيح أن الأمة تعصف بها مخاطر كبيرة، تهدد كيانها، إلا أن أسباب النجاة متوفرة و يمكن استدعاؤها متى كانت الإرادة والعزائم الصادقة "فإذا دعت هذه الأمة تاريخها في ظل سنة التداول و إذا أدركت أرصدتها الحضارية والمادية في ظل هذه السنة، فإن الهزيمة النفسية التي هي أخطر تحديات واقعنا المعاصر لن تجد لها طريقا مفتوحا إلى عقول هذه الأمة وقلوبها".

ويضيف محمد عمارة قائلا: «صحيح أن سفينة هذه الأمة الإسلامية ناوشتها الأمواج العاصفة في محيط عال، أعلنت الفرعونية و القارونية الغربية فيه الحرب الصليبية على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه... وأن التحديات المعاصرة تريد تحويل "نعمة التعددية" إلى نقمة التشرذم المذهبي لكن الوعي بعمل سنة التداول في التغيير والنهوض عبر التاريخ تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى يقول لنا لقد كانت الفتوحات الإسلامية في ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون والتي هزم فيها المسلمون قوى الهيمنة العظمى الروم والفرس التي قهرت الشرق عشرة قرون على التوالي تجديدا لسنة التداول بين الأمم والحضارات.

[1]) محمد الغزالي– المحاور الخمسة للقرآن الكريم – مصدر سابق – ص 132.

وكذلك كان التحرير الإسلامي الذي قادته دول الفروسية الإسلامية الأيوبية المملوكية ضد التتار و الحملات الصليبية التي دامت قرنين من الزمن وكذلك كانت حركات التحرر الوطني في تاريخنا الحديث تلك التي دفعت الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والسوفيتية في نصف القرن الأخير»([1]).

إن الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها هي أن الأمة في زمانها هذا ساءت فيها أحوال المسلمين وضعف شأنهم وخبا نجمهم، وصاروا أتباعا لغيرهم بعد أن كانوا متبوعين وأصبح أمرهم بيد أعدائهم يتحكمون فيهم و يملون عليهم ما يريدون وبعبارة أوجز وأدق يعيشون حالة هبوط من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق في كل مجالات الحياة.

رب سائل يسأل ويقول أن الأمة ما زالت تحيا وتعيش وفي الحد الأدنى تسمع صوتها في المنابر والمحافل الدولية.

نعم إنها لم تفن كما فنيت أمم أخرى ودول ونظم وإمبراطوريات كانت ذات عز وسلطان ولكن يبقى السؤال المطروح هل ستبقى الأمة على هذه الحال من الاستضعاف والوهن أم بإمكانها أن تنبعث من جديد وتعود إلى سابق عهدها مجدا وحضارة وقيادة و ريادة —خاصة وأن الحاجة ملحة والضرورة داعية لتغيير هذا الواقع المرير و لن يحصل التغيير —بإذن الله– إلا بالتفقه في سنن الله وفي سنة التداول تحديدا.

و الأمر ليس بمستحيل إذا أخذت الأمة في اعتبار هذه السنة ومكنتها في حياتها علما وعملا وسلوكا.

الفرع الخامس: شواهد من القرآن والسنة ببعث الحضارة الإسلامية

ولهذا نجد محمد الغزالي يأمل ويتنبأ بعودة الحضارة الإسلامية وبعثها من جديد ذات يوم مستدلا بشاهدين من القرآن الكريم و حديث شريف:

الشاهد الأول قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُوفَكُونَ(55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَىَ يَوْمِ الْبَعْثِ...﴾ سورة الروم

[1]) محمد عمارة – بحث عبر الإنترنيت بعنوان سنة التداول – ت 2010/04/29.

الآيتان 55-56. فكأن هذا الكتاب سيبقى إلى يوم البعث ومعنى بقاء الكتاب بقاء رسالته وحضارته...

الشاهد الثاني في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿...وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة...﴾ الآية 55.

لأن الذين يتبعون عيسى عليه السلام هم المسلمون وأما المسيحيون ليسوا من أتباعه لقوله تعالى: ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ سورة آل عمران الآية 52.

الشاهد الثالث: كما يدل على ذلك من السنة بحديث شريف: {والله ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولن يبقى أهل بدر ولا وبر إلا دخلوا في الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل} رواه أحمد([1]).

يمكن الاستفادة من سنة التداول في الدعوة عند محمد الغزالي من خلال استشرافه لمستقبل الحضارات فيتساءل هل عودة الحضارة الإسلامية ستكون من خلال حضارة الأوروبيين لأنهم سيسلمون وتسلم بذلك حضارتهم، وأن تكون بعودة المسلمين إلى مصاف الريادة على العالمين ثم نجده يحرض الدعاة خصوصا والمسلمين عموما للعمل من أجل إحياء حضارتهم وفي ذلك حث لهممهم واستبشارهم بمكانتهم في التاريخ، لكن هذا الاستبشار مرهون بقيام الأمة بما يجب عليها من مسؤوليات ومهام تؤهلها لتنطلق من جديد وتنافس هذه الحضارات.

فالأمة الإسلامية ينبغي عليها أن تحدد عوامل قوتها وأسباب عافيتها وأن تحذر من التبدل السيئ الذي يحيق بها، لأن سنة التداول شأن السنن الاجتماعية الأخرى لا تحابي أحدا مع التأكد على أن هذه السنة كغيرها من السنن- ليست حتمية ولكنها تعمل وفق الأسباب والمسببات.

إن سنة التداول الحضاري التي نسميها التنقل الحضاري من السنن الكبرى ما فتئ الغزالي يؤكدها ويبث بها الإيمان في القلوب ويحرض بها الأمم الخائرة والعزائم الفاترة ويصحح المفاهيم ويرسي الاعتقاد السليم لكي يحيى في المسلمين وبخاصة الدعاة بعودة الحياة الإسلامية مجتمعا وحضارة، كأنهم يرون رأي العين بالبصر والبصائر.

[1]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 125.

المبحث الثاني
سنة الأجل

مقدمة

إن مما يستفاد من قصص القرآن الكريم هو أن لكل مجتمع أو أمة نهاية معلومة وأجل محددا، ونجد هذا في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلِكُل أُمة أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أجلُهُم لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُوَنَ﴾ الأعراف الآية 34.

وفي سورة يونس: ﴿...لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ الآية 49. وفي سورة الحجر: ﴿ما تسبق من أُمّةٍ أجلها وما يستاخِرُون﴾ الآية 5.

وفي سورة المؤمنون: ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستاخِرُون﴾ الآية 43.

هذه الآيات المذكورة أفادت بظاهرها أن لكل أمة أو مجتمع أجلا لا يعدوه، لا يتقدم ولا يتأخر، غير أن هذا الأجل اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون مرتبطا بأسباب ظاهرية موضوعية، فإذا توفرت الأسباب واستوفت شروطها تحقق حلول الأجل، دليل القرآن على سنة الأجل.

المطلب الأول: سنة الأجل والدعوة

الفرع الأول: سنة الأجل لغة و اصطلاحا

1- سنة الأجل لغة

الأجل هو مدة الشيء أي مدة لأمر ما، ففي القاموس المحيط: الأجل غاية الوقت في الموت، و حلول الدين، و مدة الشيء و جمعه آجال ويقال استأجلته فأجّلني إلى مدة.

و ورد من هذا المعنى في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿...و لا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله...﴾ سورة البقرة الآية 235.

فقد وردت كلمة "الأجل" في كتاب الله العزيز في آيات كثيرة و في صيغ مختلفة بألفاظ متقاربة تؤدي معنى المدة و الزمن في ست وخمسين آية.

و في لسان العرب: الأجل غاية الوقت في الموت، وحلول الدين ونحوه، و أجل الشيء يأجل وأجيل: تأخر و هو نقيض العاجل، و الأجيل: المؤجل إلى وقت.

و في المصباح المنير "أجل شيء" مدته ووقته الذي يحل فيه و هو مصدر أجل الشيء أجلا من باب تعب، وأجّلته تأجيلا جعلت له أجلا.

و الآجل على وزن فاعل خلاف العاجل «فإنها استخدمت في المجالات اللغوية واستعملت في أكثر الأبواب الفقهية حيث أنتها جاءت في صور عديدة منها "أجل الموت" كمدة عمر الإنسان، و لتحديد زمن حركة الكواكب وضبطها كالشمس والقمر.

و كذلك جاءت بمعنى المدة المعلومة للعمل كما في الإجازة التي وقعت بين نبي الله شعيب و موسى عليهما السلام كشرط لتنجيز وقوع المشروط و هو تزوج موسى السلام إحدى بنات شعيب عليه السلام لقوله تعالى: ﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت...﴾ سورة القصص الآية 28»([1]).

و من المعلوم أن هناك جملة من الآيات توضح مفهوم الأجل و توضح و تفسر وفق سياقاتها.

2- سنة الأجل اصطلاحا

يقول محمد حسين نصار: «على الرغم من مراجعة المصادر الفقهية لدى علماء المسلمين للاطلاع على تعريف جامع مانع للأجل إلا أنني لم أجد تعريفا يعنى بالمفهوم الفقهي ليعد أساسا لبناء منهجي بل وجدت في مراجعة فقهية أن موضوع الأجل قد دُرس و حُلل تحليلا كاملا من قبل فقهاء المسلمين بكل جوانبه في أحكام العبادات و المعاملات و أحكام الأسرة والإجراءات القضائية.

فقد وجدتهم من خلال استعمالهم مصطلح "الأجل" لا يخرجون عن بعض الاستعمالات اللغوية، فإنه -أي الأجل- يدور في اصطلاحاتهم بمعنى المدة و بمعنى بداية الوقت ونهايته، و بمعنى الحلول، واستعملوا كلمة التأجيل أيضا بالمعنى اللغوي و من أهم هذه المعاني:

أن الأجل مدة و أنه مدة مستقبلية مضافا إليها أمر من الأمور. فالأجل و المدة والوقت والحلول كلها مصطلحات زمنية وردت في القرآن الكريم و في السنة الشريفة، و في أقوال الفقهاء، لأن

[1]).محمد حسين نصار – الأجل في الفقه الإسلامي – ط 1 – المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية – مطبعة نكار – إيران – 1428هـ، 2007م – ص 17.

الزمن من حيث إنه جُعل ظرفا لأمر أو حكم ويسمى "وقتا" و لنهاية المدة الزمنية يسمى "أجلا"»([1]).

فقد ورد بمعنى الوقت، أي هو الزمان الذي جعله الشارع ظرفاً لأمرٍ من الأُمور الشرعية، كالزمن المخصّص لأداء الصلوات الخمس المفروضة على الإنسان، والزمان المخصّص لأداء الحجّ والصيام، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...﴾ البقرة الآية 189. فقد ورد في تفسيرها في كتاب التبيان بأنّ: "الميقات: هو مقدار من الزمان جعل علماً لما يُقدّر من العمل، ومنه قوله تعالى: ﴿إلى يَومِ الوَقْتِ المعْلُومِ﴾ الحجر الآية 38، والتوقيت تقدير الوقت، وقوله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ النساء الآية 103.

ومنها الفترة الزمنية المحدّدة بين بداية الشيء ونهايته، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...﴾ البقرة الآية 184، فقد أوضح الطبرسي بشأن الأجل في هذه الآية منا نصّه: ﴿...أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾ أي معلومات محصورات مضبوطات، كما يقال أعطيت مالاً معدوداً أي محصوراً متعيّناً، ويجوز أن يريد بقوله معدودات أنّها قلائل، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ الأنعام الآية 2، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فالأجل الأوّل يعني المدّة الزمنية المحدّدة عند الله، والثاني هو الأجل بمعنى الغاية والنهاية لتلك المدّة الزمنية المعلومة عند الله.

الفرع الثاني: لكل أمة أجل

يقول محمد التومي: "يمكن فهم هذا الأمد المضروب على وجهين أي نوعين من الأجل: أجل مقدر للإهلاك وأجل مقدر لسلب العز".

1- أجل مقدر للإهلاك

[1]).محمد حسين نصار – الأجل في الفقه الإسلامي – المرجع السابق – ص 19.

أجل للأمم التي بعثت فيهم رسل لهدايتهم وإرشادهم إلى ما يصلح وضعيتهم الاجتماعية بما تحوي الرسالة الموجهة من مضامين ومبادئ ومناهج، فيردون دعوتهم كبرا ويرفضونها عنادا ويكذبونها جحودا بغير حق، فمآل هؤلاء الأقوام الهلاك كما وقع لقوم نوح و عاد وفرعون وإخوان لوط... وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة لأقوامهم، وقد انتهى هذا ببعث صاحب الدعوة الخاتمة العامة المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسلنَاكَ إِلاَّ رحمةً لِلْعَالمينَ﴾ سورة الأنبياء الآية 107.

ولما اقتضت الرحمة ألا تصاب هذه الأمة بهلاك الاستئصال لم يعط الله رسوله شيئا مما كانوا يقترحونه عليه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لوْ لاَ أُنْزِلَ عليْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ سورة الأنعام الآية 8.

2- أجل مقدر لسلب العز

أجل مقدر لحياة الأمم، بمعنى أن حياة المجتمعات مرتبطة بسنن الله في الاجتماع وعوامل الرقى والعمران، فالأمة تكون عزيزة مستقلة مهيبة لها اعتبارها بين الأمم بما تملك من وازع اجتماعي يجعل ما لديها من علاقات وارتباطات ومصالح مادية ومعنوية لخدمة تماسكها وتضامنها، أما إذا تردت في ارتكاب الفواحش واقتراف الظلم والبغي والطغيان والإسراف في الفسق والترف فإنها تعرض وجودها إلى الهلاك... فما من أمة من الأمم العزيزة ارتكبت هذه الضلالات والمفاسد المبيدة إلا سلبها الله سعادتها وعزها وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها([1]). «و أمامنا تاريخ اليهود والرومان والفرس والعرب والترك وغيرهم منهم من سلب ملكه كله ومنهم من سلب بعضه أو أكثره ومنهم من لم يرجع إلى رشده فإنه سلب ما بقي له منه»(*)..

الفرع الثالث: التكامل بين سنة الأجل و سنة التدرج

و محمد الغزالي عندما يتحدث عن هذه السنة —سنة الأجل- ينظر إليها على أنها: «سنة قد تكون قريبة من سنة التدرج فلكل شيء أجل معلوم ولا يمكن استعجال الأمور واختصارها قبل

[1]).محمد التومي — المجتمع الإنساني في القرآن الكريم - مرجع سابق - ص 99-100.

الأوان»([1]). والأمور مرهونة بأوقاتها وعلماء الاجتماع اليوم يقدرون الجيل الذي يكون محل التغيير بسنوات محددة ولعلها من 25 إلى 35 سنة([2]).

ويعتقد يوسف القرضاوي أنها سنة متممة لسنة التدرج مستشهدا بمثال على ذلك قائلا: «قد يبدأ جيل عملا تأسيسيا ذا شأن فلا يستفيد منه إلا الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك، ولا ضير في هذا ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم»([3]).

فسنتا الأجل والتدرج متلازمتان وتسخير مردودهما يتوقف على ما تحققه من خدمة الأهداف المقصودة، فالأعمال الكبيرة تأخذ مسارها الطبيعي لكي تحقق أهدافها المرجوة ينبغي عليها أن تراعي سنة التدرج، حتى يكتمل هذا العمل الكبير وفي ذات الوقت هذه الأعمال تتحدد بآجال معينة لكي تحقق الهدف المطلوب، وأي استعجال في هذه السنة أو تلك تكون نتائجه غير متوقعة (أي لا تتوافق مع المقدمات) و تحصل اختلالات تعرض المجتمع أو الأمة إلى انقسامات تكون سببا في إحداث صراعات مذهبية وطائفية وفئوية، تكون مقدمة لانفراط عقد المجتمع الإسلامي، وهذا ما يتجلى بوضوح في الحالة العراقية التي أخذت طريقها إلى التمزق و التشرذم.

الفرع الرابع: الدعوة بين الاستعجال و سنة الأجل

1- التنبيه من ظاهرة الاستعجال

ولهذا ينبه الغزالي من ظاهرة الاستعجال قائلا: «فلكل شيء أجل معلوم ولا يمكن استعجال الأمور واختصارها قبل الأوان» مستشهدا بقوله تعالى: ﴿و يستعجلونك بالعذاب ولو لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُم العَذَابُ...﴾ سورة العنكبوت الآية 53([4]).

ويسوق لنا مثالا واضحا عن سنة الأجل وهي الدعوة الإسلامية في صدرها الأول حيث يقول: «لقد نظرت في الزمن الذي استغرقه نزول الإسلام من قوله تعالى: ﴿إقرأ باسم ربك الذي

---

1) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 121-122.

2) يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف – ط 3 –كتاب الأمة – رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية قطر – الشهاب للطباعة والنشر – باتنة، الجزائر– شوال 1402هـ – ص 106.

3) يوسف القرضاوي – مرجع سابق – ص ؟؟.

(*) العبارة لمحمد عبده نقلا عن محمد التومي – مرجع سابق – ص 100.

4) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 122.

خلق﴾ سورة العلق الآية 1، إلى قوله تعالى: ﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممتم عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا...﴾ سورة المائدة الآية 3، و قوله تعالى: ﴿...واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله...﴾ سورة البقرة الآية 281. فوجدتها 23 سنة هي عمر الدعوة التي أحدثت التغيير ووضعت أساسا للإنسانية، ومع ذلك يغفل بعض الدعاة اليوم عن سنة الأجل ويغلب عليهم استعجال النتائج دون وضع المقدمات وكأنهم يتعاملون مع سنة خارقة»([1]).

2- الداعية و فقه الواقع

فالاستعجال غير المدروس وغير المخطط له أي الذي لم يكن ناشئا عن تقدير دقيق للآثار والعواقب وعن إدراك تام للظروف والملابسات وعن حسن إعداد وجودة ترتيب من شأنه أن يعيق و يحول دون انتشار تلك الفكرة أو الدعوة. قد يستغرب البعض كيف نخطط لأمر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، عندما نستحضر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، و مسيرته الدعوية والجهادية نجدها كلها مبنية على التخطيط المحكم في القضايا الكبيرة وحتى الصغيرة، وخير مثال على ذلك هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فالنبي صلى الله عليه وسلم، عندما هاجر أصحابه ثم انطلق مع أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ترك مكانه عليا ابن أبي طالب في فراشه لكي يؤدي عنه الودائع ولكي يوهم القوم الذين كانوا يحيطون بداره أنه لا زال صلى الله عليه وسلم في الدار، هذه الهجرة أخذ بكل الأسباب الدنيوية لإنجاح هذه المهمة الدعوية كتكليف أسماء بنت أبي بكر بأن تأتيهم بالطعام، وتكليف الراعي أن يمر بالأغنام على آثار عبد الله وأسماء حتى يخفيها عن القوم، وتجهيز الرواحل وينطلقون عليها من طريق غير مسلوك، أليست هذه أدلة واضحة على وجود التخطيط في أمر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى جعل أمر هذه الحياة لا تقوم إلى على التخطيط والمسلمون يريدون أن يعيدوا هذه الحياة لدين الله سبحانه وتعالى، فليسلكوا الطريق الذي سنه الله سبحانه وتعالى في الحياة لكي ينجحوا في الوصول إلى هذه الغاية.

[1]) محمد الغزالي– كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 122.

يجب على المشتغلين بالدعوة إلى الله أن يخططوا لأمر هذه الأمة الإسلامية وأن يبذلوا الجهد اللازم لذلك، لأن آجال الأشياء مضروبة وهي محكومة بتلك الأسباب مربوطة بتلك العوامل فمن يريد بلوغ الأهداف المقصودة عليه احترام سنة الأجل المحتوم لكل أمر قدره الله تعالى في هذه الحياة.

كثير من حملة الدعوة الإسلامية –مع الأسف الشديد- يُعلّمون كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، أو يعلمون شيئا من ذلك ولكنهم يعيشون في غير عصرهم، ولا يستوعبون الواقع الذي يعيشون فيه فتضطر الحياة أن تجري بعيدا عنهم وتضطر البشرية أن تبحث عن غيرهم.

فالداعية إضافة إلى تفقهه في علوم الدين عليه الإطلاع على الثقافات العامة حيث يقول الغزالي "فهذا الأمر لابد منه ولكن الداعية يجب أن يأخذ من كل بستان زهرة، ومن كل واد ثمرة و من الخير أن يكون عندنا دعاة لديهم مجموعة من الثقافات العامة التي تضمن لهم منطقا سليما، ويضمن للدعوة أدوات صالحة.

إن الداعية ليس من الضروري أن يكون راسخ القدم في علوم السنة وليس من الضروري أن يكون فقيها كابي حنيفة ومالك وابن حنبل، إنما المهم أن يكون عنده قدر من الصحة العقلية، وعلم بأولويات الفقه والسنة وسور القرآن الكريم وأوليات اللغة بحيث يجعله كل هذا يحسن خدمة الإسلام والدعوة فإذا اقتضى الأمر الدخول في أمور تخصصه أرجع الأمر إلى أهل الذكر» (1).

وكثيرا ما ينبه الغزالي على استيعاب الواقع ويؤكد عليه مستعينا بنماذج و أمثلة من الواقع. وقد تجلى هذا الجانب من خلال موقفه من فتوى ناصر الدين الألباني فقد أفتى الرجل بوجوب هجرة أهل فلسطين المقيمين في الأراضي المحتلة وترك ديارهم ووطنهم لليهود! و حجته في ذلك أن أهل فلسطين يتعرضون للأذى في دينهم وأعراضهم وأموالهم على يد إسرائيل وأن الرسول، صلى الله عليه وسلم، هاجر من مكة وتركها للكفار.

يوضح الغزالي موقفه من هذه الفتوى قائلا: «أن الرجل أقحم نفسه في ميدان الفقه السياسي، وعندما سئلت عن هذا الموضوع قلت: "إن دعوة أهل فلسطين إلى الهجرة من ديارهم هي قرة عين إسرائيل، وأن تشبيه أهل فلسطين بأهل مكة هو تشبيه في غير مكانه، أؤكد أن فتوى الشيخ

[1]) محمد الغزالي– لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 187.

الألباني خطيرة وغير مقبولة لا عقلا ولا نقلا والجهل في هذا الكلام واسع ومن هنا فإنني أريد التنبيه إلى أخطاء المتخصصين في ناحية العلوم وليست لهم قدرات على النبوغ في فروع أخرى من علوم الدين وهؤلاء يجب أن نحتاط من فتاويهم...

قد يكون هناك رجل متخصص في السنة ولكن علمه بالرجال شيء وعلمه بواقع الأمة الإسلامية والمرض الذي يحتاج إلى علاج شيء آخر...

إن فهم نص واحد أو تأويل موقف واحد من غير استحضار النصوص الشرعية ومعرفة السياسة الشرعية وفقه الواقع لا يعطي الحق لأي أحد للقول في دين الله، والفتوى بغير علم»([1])، هي دعوة واقعية من الغزالي أن يعرف الداعية عصره وأن يستوعب واقعه وأن يدرك ما هي القوى والأفكار والنظريات والعلوم التي تؤثر في هذه الحياة، من أجل أن يستغل ما كان صالحا فيها لخدمة دين الله ومن أجل أن يقف عن علم وبصيرة أمام ما كان ضالا فيها.

3- التخطيط و فقه الواقع من شروط الاستفادة من سنة الأجل

فالغزالي عندما يتحدث عن سوء التخطيط -وأحيانا غيابه- يعتصره حزن كبير عندما يشاهد الآخر وهو يخطط وينظم ويرسم الأهداف والسبل الكفيلة بتحقيقها، فاليهود عندما قامت دولتهم على أرض فلسطين لم تقم مصادفة وإنما قامت على التخطيط واستغلال الفرص وأن اليهود يتحركون من منطلق واقع الأمة الإسلامية التي تعيش حالة استضعاف فضلا عن التشرذم والتشظي، فهم عندما يخططون يباشرون مشاريعهم بالمتابعة ويستفيدون من كل صراع يخدم قضيتهم ويحقق أهدافهم يقول الغزالي: «نرى اليهود في المجامع الدولية يملئون أفواههم بالانتماء إلى إسرائيل، الواقع أن أقدام إسرائيل في ميادين العلم والمال والفن والإعلام أخرست خصومهم وخططهم المحكمة في سراديب هيئة الأمم المتحدة»([2]).

إن من بيده زمام الأمر في مجالات الحياة، خاصة العلم والمال والفن والإعلام ومن يملك قدرة التخطيط والتنظيم المحكم هو الذي يستطيع أن يستمر في سنة الأجل ويمدد في أجل أمته، فهو

[1]) محمد الغزالي - لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق - ص 188.

[2]) محمد الغزالي - لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق - ص 150.

مؤهل وجدير بقيادة العالم وفرض سيطرته عليه، وهذا ما تحقق للغرب في نهضته الحديثة بعدما تراجعت الحضارة الإسلامية في ميادين الحياة، فكانت سنة الله التي لا تتخلف، وورث الغرب القيادة العالمية، وها هو الغرب يظلم ويجور ويطغى ويتخبط... وكأنه يبحث عن أجله المحتوم لأنه بدأ يفقد مبررات وجوده وعناصر حياته الطبيعية لأن من يتصادم مع سنة من سنن الله الكونية وهي التنوع والاختلاف يكون مصيره الهلاك.

الفرع الخامس: التنوع والاختلاف و احترام المراحل

1- التنوع والاختلاف من شروط التمكين

والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون وهو يتصف بالتنوع والتعدد والاختلاف مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاء ربُّك لجَعل الناس أمة واحدةً ولا يزالون مُخْتَلِفِينَ﴾ هود الآية 118.

«فالواحدية و الأُحدية هي فقط للذات الإلهية، وما عدا ومن عدا الذات الإلهية يقوم على سنة وقانون التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف.. فكل سعي عولمي يريد صب العالم في قالب واحد وهو محادة ومعاندة لسنن الله في تنوع عوالم الثقافات والقيم والملل والفلسفات والعقائد...»([1]). ومن يصادم سنن الله فإنها تثأر لنفسها، يقول الغزالي : «هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم لا بد أن تنطبق على العدو و الصديق، و محاولة الإفلات من هذه القوانين فاشلة بل ميؤوس من نتائجها..» ([2]).

2- احترام المراحل الطبيعية شرط السير السنني

إن الاستفادة من سنة الأجل تتضح كأحد أهم الوسائل لإبراز حقائق الدين الإسلامي، يقول الغزالي: «الإسلام يريد أن يقاوم الخطأ ولكنه يصنع خططا بعيدة المدى، ويجعل الإنسان على اختلاف الزمان و المكان، وعلى مراحل ممتدة من الزمن يبلغ غايته على مكث، ولله سنن كونية في

[1]) محمد عمارة – في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام – ط 1 - مكتبة الشروق الدولية – القاهرة –1423 هـ، 2003م – ص 176.

[2]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 50.

نضج الحقيقة واستوائها في المجتمع مهما كانت عقائدنا ومهما كانت حرارة الإيمان في قلوبنا ومهما كانت ضراعتنا له أن ينصرنا»([1]).

و نضج هذه الحقيقة واستواؤها في المجتمع لا ينمو و لا يكتمل إذا لم يراع فيه المراحل الطبيعية (سنة التدرج) التي تؤهلها حتى تستوي على سوقها فتتمكن وتمكن لنفسها، فالاستعجال المذموم عندما لا تكون عناصره ناضجة يصبح مجرد فورة نفسية خالية من تقدير العاقبة ومن الإحاطة بالظروف والملابسات، وأخذ الأهبة والاستعداد لأي طارئ، والغزالي عندما يتحدث عن الذين يشتغلون في العمل الدعوي يقول: «يجب أن يتعلموا من أخطاء الفريقين(*) في الماضي وأن يكونوا أصحاب إيمان وأصحاب غيرة على حرمات الله وأصحاب رغبة في التغيير حتى يصل إلى مداه لا يتم وفق مشيئتنا، ولكن وفق سنن الله الكونية».

الفرع السادس: الصبر تدرج في سنن الأجل

يقول الغزالي: «هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم هي بمثابة قوانين لا بد من أن تنطبق على العدو وعلى الصديق، ومحاولة الإفلات من هذه القوانين فاشلة بل ميئوس من نتائجها...»([2]).

ويستشهد بمثال على ذلك: «لقد خضع النبي، صلى الله عليه وسلم، لهذه السنن وعندما استعجله أصحابه وقالوا له أدع الله لنا، لأن الآلام التي برحت بهم جعلتهم يجأرون بالشكوى، كانت الإجابة النبوية (والله لينصرن الله دينه، ولكنكم تستعجلون)، كانت الإجابة النبوية، أن الرجل قديما كان يؤتى به فيشق نصفين ما يفتنه هذا هم دينه، فلابد للإيمان من ضحايا و لابد من حركاته التي تغير العالم، و تكتب فيه صفحة جديدة من وقود، يقوم المؤمنون بإمداد سنن الله الكونية بمتطلباتها في هذا المجال و ليس لهم أن يستغربوا، و لا أن يتعجلوا»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي– مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 117.

*) الفريقان هما الخوارج والمتصوفون، فالخوارج يفزعون إلى سيوفهم ويطمئنون إلى عقائدهم ويرون أن حبهم للتضحية ووعد الله لهم بالنصر يتيح لهم أن يخرجوا وأن يقاتلوا وأن يحدثوا فتوقا في الدولة لا آخر لها. والنوع الثاني هم المتصوفون الذين اعتزلوا المجتمع وأخطاءه والحكم ومآربه وشهواته ورأوا في العزلة سعادة وأنه خير لهم أن يتركوا المجتمع بما فيه –أنظر محمد الغزالي– مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – ص 117.

[2]) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 50.

[3]) محمد الغزالي– مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 118.

إن التأكيد على عدم الاستعجال يفضي إلى فهم حقائق هذا الدين، و من حقائقه تتضح معالم هذه السنن و فهمها. «و أعتقد أن الاستعجال هنا أو الاستغراب جهل بسنن الله الكونية، فلم يكن أحد أعظم خلقا و لا أكثر دماثة من النبي – صلى الله عليه و سلم – في عرضه لحقائق الإسلام، و في تلطفه لبلوغه غاياته»([1]).

و كما سبقت الإشارة أن الرسول صلى الله عليه و سلم راع هذه السنة في نشره للدعوة الإسلامية و التي استغرقت و بلغت عمرا زمنيا معينا.

إن عدم الخضوع لسنة الأجل يدمر كل ما تحقق من انجازات- و لو جزئيا- ثم إن هذه الإشارات التي أرسلها الغزالي للعلماء و الدعاة، هي بمثابة ناقوس خطر يشكل تهديدا حقيقيا للدعوة الإسلامية المعاصرة، و رسالة قوية للذين يشتغلون في الحقل الإسلامي دعاة وعلماء ومفكرون وجماعات وتجمعات.

وفي هذا المقام أستحضر بعض الحركات الإنسانية الإصلاحية كالثورة الفرنسية والثورات الاشتراكية...الخ. أجدها بذلت من الجهد وقدمت من التضحيات منذ سبعين سنة إلى يومنا هذا ما لم تبذل مثله الحركات الأخرى ومع ذلك نجحت هذه الحركات ولو نسبيا في الوصول إلى تحقيق بعض أهدافها، كما هو الشأن بالنسبة للإتحاد السوفيتي، وإقامة مشروعها ولا أدل على ذلك المشروع الصهيوني الذي صنع كيانا مغتصبا في قلب الأمة العربية لا زالت تداعياته تنذر بعواقب وخيمة، فقد خطط لمشروعه تخطيطا محكما و وفر له عوامل النجاح خاصة عامل الزمن في لأجل محدود لبلوغ أهدافه. و ما الحروب التي خاضها العالم العربي كحرب 1967 وحرب 1973 وما تلاها من حروب وآخرها الحرب العدوانية المدمرة على قطاع غزة سنة 2008، كل هذه الحروب مصدرها الكيان الصهيوني الغاصب، إنهم يفكرون ويتدبرون و يستفيدون من الفرص السانحة والصراعات العربية.

بينما لم تستطع الدعوة الإسلامية أن تحافظ على موروثها الحضاري فضلا عن ارتباطها واتصالها بالعصر وما يزخر به من اكتشافات وابتكارات يمكن الاستفادة منها وتسخيرها في مجال

[1]) المصدر نفسه- نفس الصفحة.

الدعوة «لقد جهلنا أسرار الحياة وعمينا عن قوى الكون... و لدينا كتاب لا نظير له في لفت الأبصار إلى هذه وتلك؟!»([1]).

الفرع السابع: أسباب داخلية و أسباب خارجية أذنت بسنن الفشل

1- تقصير الدعاة واجتهاد غيرهم

ويحزنه أن الدعوة الإسلامية مجروحة من ناحيتين:

الناحية الأولى: تقصير القائمين على أمر هذه الدعوة.

الناحية الثانية: أن الذين جهلوا الإسلام وهم كثيرون تحركوا وقدموا للناس مناهج يسيرون عليها في غياب المنهج الصحيح الذي هو منهجنا الإسلامي، ولعل هذا ما يعنيه جبران خليل جبران عندما قال: «الناس رجلان رجل نام في النور ورجل استيقظ في الظلام، عن الذين استيقظوا في الظلام لهم حركة لكنها في الظلام فأهدافها غير واضحة ونحن الذين نمنا في النور عندنا نور ولكن لم يجد من يحمله إلى أعين الآخرين حتى يضيء لهم الطريق»([2]).

وفي سياق آخر يقول: «و مصاب الإسلام في أعصار كثيرة و في هذا العصر خاصة يجيء من الدعاة الذين يعجزون عن الموازنة بشتى تعاليمه إما لشلل في مداركهم يمنعهم من الاتزان وإحسان الفهم والاقتباس والتوجيه، أو لنقص في ثروتهم العلمية»([3]).

2- الضعف العلمي من أسباب الفشل

وما يزيده غصة وامتعاضا فئة من الدعاة مصادر معرفتها بالقرآن الكريم والسنة هزيلة فقيرة وهي تتعرض لإمامة الناس ووعظهم يقول الغزالي: «لست أدري كيف يتعرض لإمامة الناس و وعضهم رجل قصير الباع في الدراسات الإسلامية كل ما يستظهره من كتاب الله بضع آيات و سور وكل ما يعيه من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم جملة من الأحاديث لا تسد جوع المجتمع إلى فنون التوجيه وألوان النصح وكثير من المشتغلين بالدعوة الإسلامية مصابون بهذا العوز الفظيع ظاهرهم أنهم

[1]) محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية – دار المعرفة بولوغين – الجزائر – 2004م – ص 31.

[2]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 185.

[3]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – مصدر سابق – ص 193.

يحملون الإسلام في حناياهم والواقع أن الإسلام هو الذي يحمل عبئهم ويتحامل على نفسه وهو يسير بهم في متاهات الحياة ودروبها»([1]).

الحقيقة الجلية أن الدعوة الإسلامية تعيش أسوأ حالها نظرا للتحديات التي تواجهها سواء في الداخل أم في الخارج يقول الغزالي: «أما اليوم فالدعوة مثقلة بما يضيرها أو يزهد فيها، هناك من يدعو إلى الشكل قبل الموضوع وإلى النافلة قبل الفريضة وإلى الحكم النوعي قبل القاعدة الكلية وإلى ما فيه خلاف قبل ما لا خلاف فيه»([2]). ويضيف في مقام آخر: «من السخف انتظار نهضة للدين على أيدي رجال يحبون حبوا في أوائل طريق المعرفة»([3]) وهذا عائق يحول دون انتشار الدعوة.

أما التحدي الخارجي فيلقى مأزقا حقيقيا في التعامل مع الغرب عموما، هذا الغرب الذي استطاع أن يملك القوة المادية التي جعلته يفرض نفسه على العالم يقول الغزالي: «بينما سبق خصومهم –أي الغرب– سبقا بعيدا في دراسات الكون والحضارة والتاريخ حتى كأنهم أحاطوا بكل شيء خبرا»([4]).

فالدعوة الإسلامية اليوم تحصد الأشواك أكثر مما تحصد الثمار اليانعة والسبب دائما نقص الفهم وفقه الواقع وعدم الاستفادة من تجارب الماضي فالدعوة الإسلامية تتوزع بين أخطاء داخلية وأخطاء خارجية.

3– أخطاء داخلية و أخطاء خارجية

الأخطاء الداخلية: كالموروثات التي لا صلة لها بالإسلام والتي أرهقت قوانا وجعلت مستوى بلادنا في مستوى هابط استطاع الاستعمار أن يجعل منها مستنقعات للبدع والخرافات.

[1]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المرجع السابق – ص 195.

[2]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 17.

[3]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المرجع السابق – ص 240.

[4]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المصدر السابق – ص 240.

أخطاء خارجية: تتمثل في الغزو الثقافي وهو فن معروف وهو محو الشخصية الإسلامية فالفرق بينه وبين الغزو العسكري فهذا الأخير يحتل الأراضي ويخرج منها، لكن الغزو الثقافي يحتل العقول ويمحو معالم الشخصية ولذلك فإن الخلاص منه صعب([1]).

هذا التقصير في مجال الدعوة ليعد من الأسباب الرئيسية التي تعجل بأجل هذه الأمة، لأن مجال الدعوة هو المدخل الأساسي لفقه السنن الإلهية، والأمة حين تأخذ حظها من فقه الدعوة تبلغ درجة عالية من التقدم والرقي في سلوك البشر، وفي مسيرة البشرية أما حين تنحرف عن القيام برسالتها فيسود الظلم ويغيب العدل، وتدخل البشرية في مرحلة من تكبر القوة الغاشمة وبطشها بالضعفاء وهنا تتدخل السنن الإلهية فتعيد الأمور لنصابها حتى تستقيم مسيرة الحياة.

المطلب الثاني: الشروط السننية للنجاح

الفرع الأول: تفعيل الدعوة لبعث الأمة

1- الاهتمام بنشر الدعوة

يؤمن الغزالي إيمانا تاما بأن المرتكز الأساسي لانتشار هذا الدين وتفعيله في الواقع مرتبط بمدى اهتمام الدعاة بالعمل الدعوي، لهذا نجد الغزالي في معظم مؤلفاته يتحدث عن الدعوة وفقهها و قد خصص في فقه الدعوة ما يربو عن ستة كتب تمحورت أساسا حول نشر الدعوة، أساليبها، وسائلها، خصائصها، أهدافها.

والدعوة بمفهومها الشامل بيان لأصول هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده وتبليغ تعاليمه لهداية البشر لما فيه مصلحتهم وصلاحهم: «و العالم محتاج إلى أن يدرك جملة الحقائق التي جاء بها الإسلام من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات، فإن هذه الحقائق هداية نافعة له والعمل بها – مجتمعة- يحصل خيرا جزيلا وينفي شرا كثيرا»([2]).

إذا كان الخلل الذي أصاب الأمة والهزائم التي لحقت بها جراء: «معاصينا السياسية والاقتصادية والاجتماعية»([3])، فإن تقصير و قصور الدعاة الذين يشتغلون في الحقل الإسلامي

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 108.

[2]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المرجع السابق – ص 27.

[3]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 133.

يحملهم الغزالي مسؤولية الدعوة و ضعفها و فيهم يقول الغزالي: «وقد تأملت في أحوال الناس يعملون في الحقل الإسلامي ولكنهم يحملون في دمائهم جراثيم الفوضى القديمة والجهالة المدمرة، فأدركت أن هؤلاء يتحركون في مواضعهم وأنهم يوم يستطيعون نقل أقدامهم فسيتجهون إلى الوراء لا إلى الأمام، وسيضيفون إلى هزائمنا الشائنة هزائم قد تكون أنكى وأخزى»([1]).

إن هذا القصور والتقصير لم يكن مصادفة وإنما كان نتيجة تراكمات من الأخطاء الموروثة والتي دفع المسلمون فيها ثمنا فادحا يقول الغزالي: «ماذا علينا نحن المسلمين –ونحن نرث أخطاء لها عدة قرون– أن نضع خطة بعيدة الأمد لكي نتخلص من هذه الأخطاء ولكي يشعر أبناؤنا أنهم يحملون عبئا مع الذين وضعوا الخطة...»([2]).

وكأن الغزالي بهذا التحذير والتنبيه يستشعر خطورة الموقف فهو من جانب يحمل الأجيال السابقة مسؤولية هذا الإخفاق الذي تعانيه الأمة، حيث أخذ الضعف يظهر في جميع نواحي الحياة الإسلامية من أخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفي ذات الوقت يحث كل أطراف المجتمع الإسلامي –خاصة الدعاة– بأن تقوم بوظيفتها وتؤدي دورها كي تتمكن من العودة إلى ريادتها وتحمل مسؤولياتها. وأن هذا الضعف في الأمة لا يدوم لأنه ضعف عارض، فالأمة تملك من عوامل البقاء ما يؤهلها لتجدد نفسها وتواصل مسيرتها.

2– التحذير من الدعاة المحترفين و تأهيل الداعية الكفء

يقول الغزالي: «وضعنا العارض لن يظل خالدا... وسيثأر الأخلاف للأسلاف و تتجدد حروب كان يمكن أن تضع أوزارها»([3]).

وهذا إشارة إل أنه من حق المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا ما أوذوا وظلموا ، و أن: «الجهاد الإسلامي لا يكون إلا قمعا للفتنة وتقليما لأظافر الطغاة وحماية للحقوق المستباحة...»([4]). وتأمينا للدعوة الإسلامية والخطة التي يقصدها الغزالي تتضح من خلال اختيار الأهداف والمهام

[1]) محمد الغزالي– هموم داعية – مصدر سابق – ص 137.

[2]) محمد الغزالي– مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 120.

[3]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 74.

[4]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 8.

وأساليب تحقيقها، وهو وسيلة العبور من وضعنا الحالي المتهالك والمتردي إلى الوضع الذي نريد أن نصل إليه من خلال استشرافنا للمستقبل ويغيب في حس الدعاة المعاصرين هذا العنصر الهام الذي كان سببا واضحا في ركود الدعوة وتعطيل شريعتها.

و يأسف الغزالي لما ذكر سالفا فيقول: «يؤسفني أن أقول إن كثيرا من هزائم الحق تعود إلى أتباعه لأنهم هم الذين عجزوا عن حسن عرضه و قد قلت يوما إن القضية السليمة إذا رزقت محاميا ضعيفا حكم ضدها فنحن لا نحب أن نكون محامين فاشلين عن قضية الإسلام بل يجب أن نكون محامين قادرين، وأساليب القدرة لا تجيء من الوهم وإنما تجيء من طول الدراسة والمعاناة، ومن معرفة ما تسير عليه الحياة من أساليب ومن أفكار، وبذلك نخدم ديننا الخدمة الصحيحة»([1]).

إن الدراسة والمعاناة والأساليب والأفكار لا تمثل جزءا أساسيا وامتدادا طبيعيا لدعوتهم، بل أصبح همهم كيف يحافظون على مكانتهم ويتملكون من يغدق عليهم، «فهم دعاة محترفون يقومون بواجباتهم وليس يسيطر عليهم إلا تهيب مخالفة الرئيس أو تملق عواطفه... هؤلاء الأدعياء في ميدان الدين مصيبة تُنكب بها تعاليم الدين وتضطرب حالته وتنكس رايته»([2]).

هذا الصنف من الدعاة صار وبالا على الدين وكان الأولى بهؤلاء الدعاة أن يستشعروا ثقل الأمانة والمسؤولية الكبرى إزاء هذا الدين وفيهم يقول الغزالي: «أما ما حقه على الدعاة المنتصبين لحماية المضطلعين برسالته فهو أثقل وأجل على أولئك الدعاة أن يضاعفوا يقظاتهم وتضحياتهم وأن يكرسوا أوقاتهم وأفكارهم لتعرف حاجات الحق وإجاباتها وتفقد مواطن الضعف في أسواره وحمايتها، وتحسس مظان الهجوم عليه لإحباط كل كيد وإرهاب كل خصم. الدعاة الموظفون لحراسة الإسلام هم جيش للدفاع يشبه الجيش الموكل بحراسة الأمن والعجب العاجب أن الجند المكلفين بحراسة الأمن قد يفقد بعضهم روحه، و هو يطارد لصا أو يصاب بعاهة مؤلمة و هو يؤدي واجبه، ذاك فضلا عن السهر المستديم والجهد الموصول، أما جند الدعاة من أئمة و وعاظ ومرشدين فكأنما أخذوا عهدا على الدهر ألا يمسهم سوء فهم يسمنون والدين ينحف و يراحون والدين مكدود ويعيشون متخاذلين على حين يتساند جيش الشيطان لبلوغ هدفه و إدراك أمله.

[1]) محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 334.

[2]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المرجع السابق – ص 199.

إذا لم يكن الداعية المسلم شجاعا مطيقا لأعباء رسالته سريعا إلى تلبية ندائها جريئا على المبطلين مغوارا في ساحتهم فخير له أن ينسحب من هذا المجال، وألا يفضح الإسلام بتكلف ما لا يحسن من شؤونه»([1]).

الفرع الثاني: ارتباط الدعوة إلى الله بالتمكين

وموطن الخلل في ذلك هو تلك العلاقة التي تربط الدعوة بالتمكين والتي تكون قطيعة بينهما ولهذا يدعوا الغزالي إلى تحديد هذه العلاقة والارتباط بينهما، يقول الغزالي: «وارتباط الدعوة إلى الله تعالى بالتمكين واضح ووثيق فالتمكين المنشود الذي يتمثل في بناء مجتمع إسلامي وقيام حكم إسلامي راشد واستئناف حياة إسلامية صحيحة لا بد أن تسبقه "حركة إسلامية" حركة واعية شاملة، حركة تمهد له وتدعو إليه وتعد له رجاله وأنصاره»([2]).

ولا شك أن تحقيق المناط في ذلك في نظر الغزالي: «أن العمل الإسلامي لإيجاد الشخصية الإسلامية التي تتمثله عقيدة وأخلاقا، ولإيجاد المجتمع الذي يلتزمه فكرا وسلوكا ولإيجاد الدولة التي تطبقه شريعة ومنهاجا ودستورا وتحمل دعوته للناس لإقامة الحق والعدل في العالمين، إن هذا العمل وما يحتاجه وما يتصل به ويتطلبه واجب إسلامي لا يسقط حتى تقوم السلطة التي تتولى القيام بهذه المسؤولية وترعى شؤون المسلمين... وما دامت هذه السلطة غير موجودة فإن كل تقصير أو قعود من المسلمين هو في شرع الله إثم لا يرفعه إلا المبادرة السريعة للنهوض بتكاليف العمل للإسلام»([3]). وإذا أرادت الأمة أن تحقق هذا النهوض وتؤدي رسالتها وتنقذ نفسها من الانهيار الذي يتهددها عليها أن تشعر بقيمة المسؤولية المنوطة بها وأن تجدَّ وتجتهد وتكافح وتوفر من الإمكانيات ما يؤهلها، وهذا "يتطلب بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار وتقف في وجه المؤامرات وتجاهد في كل المجالات والجبهات وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض»([4]). إن الكد والجد

[1]) محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – المرجع السابق – ص 205.

[2]) محمد الغزالي– ركائز الإيمان بين العمل والقلب – المرجع السابق – ص 55.

[3]) محمد الغزالي– ركائز الإيمان بين العمل والقلب – المرجع السابق – ص 57.

[4]) محمد الغزالي– ركائز الإيمان بين العمل والقلب – المرجع السابق – ص 75.

والكدح في سبيل المقاصد العالية من لبنات البناء الذي يكتمل بالأجل في آخر مراحله التي يؤتى فيها ثماره.

و الغزالي عندما يتحدث عن الهزائم والمصائب التي حاقت بالأمة غالبا ما يستحضر نماذج وشواهد من التاريخ الإسلامي قصد: «استثارة الهمم وبدء نهضة واعية هادية تعتصم بالوحي الأعلى وتتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه وتنتفع بتجارب القرون الأربعة عشر التي مرت بنا»([1]).

الفرع الثالث: الشورى مبدأ سنني

ومن النماذج العملية موضوع الشورى –الذي يتضح جليا– في عصر النبوة في المدينة المنورة وكان من أكثر الميادين تطبيقا هو ميدان الغزوات، فلذلك لما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بعير قريش بقيادة أبي سفيان استشار أصحابه في الخروج لملاقاتها و الغنيمة بها لاسترداد بعض أموالهم التي خلفوها بمكة الكرمة، وكان هناك خياران إما الخروج أو عدمه، ولم تكن المفاضلة صعبة حيث المغنم مغري والدوافع إليه قوية جدا والمجهود الذي سيبذلونه ليس بكبير، ولذلك اختاروا الخروج لملاقاة العير، ولما نجت العير و علم الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج قريش في استعراض من القوى جمع أصحابه واستشارهم في مواصلة السير لملاقاة الكفار أو العودة إلى المدينة المنورة، فقد تغير الهدف الأول من الخروج وتكلم المهاجرون وكان رأيهم مواصلة السير لملاقاة كفار قريش ومنازلتهم وكرر الرسول صلى الله عليه وسلم "أشيروا علي أيها الناس" قاصدا الأنصار فتكلم عنهم زعيمهم سعد بن معاذ رضي الله عنه وكان رأيهم بمواصلة السير لملاقاة كفار قريش.

لا بد من إبراز علاقة المشورة بسنة الأجل، كأن تقول الشورى وسيلة من وسائل التحكم في مصائر الأمور وهو عينه من تلمس مواقع الآجال من خلال الأسباب والشروط والله أعلم. مما تقدم نتبين كيف تم التواصل لصنع القرار بعد المشاورة في الحالتين وكيف تمت عملية المشورة في ذلك الزمن.

[1]) محمد الغزالي– هموم داعية – المرجع السابق – ص 137.

وما تم في موقعة بدر من تخطيط سابق للمعركة، لقد اختير الموقع نتيجة شورى وإبداء رأي فالدين النصيحة، وقد بني العريش للرسول صلى الله عليه وسلم نتيجة شورى ورأي.

في غزوة أحد لما علم المسلمون بخروج قريش لغزو المدينة المنورة جمع صلى الله عليه وسلم أصحابه طالبا رأيهم في كيفية الدفاع عن المدينة هل يكون بالخروج وملاقاة العدو خارج المدينة أو بالانتظار بالمدينة ومحاربته داخلها، وكان الرأي الغالب والأخير هو بالخروج وملاقاة العدو خارج المدينة وكان ما كان...

وفي غزوة الأحزاب عندما صالح الرسول صلى الله عليه وسلم ممثل اليهود وزعيمهم عيينة بن حصن على ثلث ثمار المدينة مقابل تحييدهم في المعركة ثم استشار زعيمي الأوس والخزرج لأن الشأن شأنهم أكثر من غيرهم، فلم يوافقاه في ذلك وعليه فلم تتم مهمة الصلاح، ولذلك حفر الخندق وقد تم ذلك بعد مشورة سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق...([1])

إذا كان هذا هو الحال في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين أفلا يكون من الأجدى أن نأخذ نحن بهذا المبدأ الآن بعد أن توسعت المعارف وتنوعت سبل الوصول إلى القرار السديد، وآن اشتراك معظمها –وإن لم يكن كلها في إيجاد البدائل وتقليب وجهات النظر للقرار الأصوب، أو ليست هذه هي الشورى بعينها؟

المطلب الثالث: البذور النبوية للحضارة الإسلامية

الفرع الأول: الأفكار و التغيير و شروط النهضة

إن من يمعن النظر في هذه المفردات التي وظفها الغزالي من تخطيط وعدم استعجال النتائج ووضع المقدمات تمثل المناخ الطبيعي لنمو أية فكرة وإنضاجها –والمقصودون بالدرجة الأولى الدعاة– ولهذا يقصد بالأجل: «العمر الذي يقتضي شروطا معينة لنمو الفكرة التي تمهد للتغيير، والوصول إلى النتائج المطلوبة»([2]).

[1]) أنظر محمد الغزالي– فقه السيرة – مصدر سابق – ص.

[2]) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 122.

وإذا استعرضنا أحوال النشأة الإسلامية ونظرنا إلى المراحل التطورية التي قطعتها لاحظنا أنها تحولت من ضعف وذلة في مكة المكرمة إلى قوة وعزة في المدينة المنورة وأنها انتقلت فيما بعد إلى قوة تقتحم الأرض وتفتح البلدان وتنشر الحق والأمن والسلام ولم تستطع أبراج المجوس ولا خنادقهم إيقافها ولم تتمكن قلاع الرومان و حصونهم من صدها.

وقد تحقق هذا كله عندما توفرت شروط معينة لنمو الفكرة فنمت في أحضان مناخ طبيعي الذي مهد لهذا التغيير هذا التغيير الذي نوه به القرآن الكريم واعتبره تحولا عظيما من السلب إلى الإيجاب ومن الذلة إلى العزة وعده حقيقا بأن يكون مدعاة للشكر والاعتراف، قال تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ سورة الأنفال الآية 26.

إن عملية التغيير هذه لم تكن دون مقدمات ولم تأت بنتائج غير متوقعة لأن الدورة الزمنية أخذت حقها من النضج والاكتمال والعمر الذي حدد لها أخذ الحيز الزمني والمساحة التي تنمو فيها الفكرة القابلة للتغيير.

إذن كما أن للفكرة الصالحة عُمرا مقدرا فكذلك للضلال عمر مقدر يفنى عند بلوغه وهذا جزء من سنن الاختبار الإلهي يجب أن يخضع له المؤمنون فإن استعجال الحصاد قبل أوانه لا ينضج زرعا ولا يقرب ثمرا([1]).

إذن فالمسلمون الأولون عندما راعوا هذه السنة والتزموا بها حققت النتائج المرجوة والمقصودة.

فما تحقق للأمة الإسلامية في عهدها الأول كان دون شك بسبب التغيير الذي حصل في المجتمع وكانت الفكرة قد أخذت مساحتها الزمنية لتنضج وتكتمل ويستوي عودها.

لا يتحقق نمو الفكرة الممهدة للتغيير والوصول إلى النتائج المطلوبة إلا بتحقيق شروط معينة لنفس البشر، قال سبحانه وتعالى، مع أنه يملك كل شيء، قال: ﴿وَإِن من شيء إلا عِنْدنا خَزَائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُوم﴾ سورة الحجر الآية 21.

[1]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 48.

لماذا القدر المعلوم؟ لمصلحة الناس تمشيا مع حكمة أن العطاء يكون على قدر ما يحتاج إليه الإنسان... ودائما لا بد من التقدير فالماء إذا كثر في الزراعة أماتها وإذا كثر حول الناس أغرقهم...، لكن لا بد من الماء ولا بد أن آخذ منه بالقدر الذي أحتاج([1]).

وفي سياق ذي صلة بهذا المعنى وهو يتحدث عن نمو الفكرة الممهدة للتغيير والوصول إلى النتائج المطلوبة يقول: «ليس الفكرة فقط وإنما شروط معينة لنفس البشر ونفس النبات لأن الله تعالى قادر على أن يخلق الجنين بدل تسعة أشهر في تسعة أيام، في يوم واحد في لحظة، كان من الممكن أن يقع هذا فجأة ودفعة واحدة... لكنه سبحانه وتعالى كما خلق الكون على عدة أيام جعل التدرج في أزمنة..»([2]).

هناك تلازم بين التدرج والأجل لأن أية فكرة أو مشروع يخضعان لهاتين السنتين والدعوة الإسلامية خضعت لهما.

فكما تدرج تنزيل أحكام الشريعة تدرجت الدعوة الإسلامية فمن دعوة سرية إلى دعوة جهرية إلى الهجرة إلى الحبشة إلى البحث عن سند اجتماعي وطلب النصرة من القبائل إلى الهجرة وبناء الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ثم إلى السرايا والبعوث والغزوات لحماية تلك الدولة من كيد الكائدين ودسائس الماكرين، إذا فهذه القاعدة الكلية والسنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة واستئناف حياة إسلامية متكاملة إنما يتحقق ذلك بطريقة التدرج أي بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية.

وهو نفس المنهاج الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم لتغيير حياة الجاهلية إلى حياة إسلامية فقد ظل ثلاثة عشر عاما في مكة كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة و تكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق.

الفرع الثاني: التدرج التربوي في نشأة النهضة

التدرج في التربية النبوية للصحابة لازم لتربية النفوس إذ هو سنة من سنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها فكما بدأت الدعوة النبوية بالتدرج عبر مراحل فكذلك التربية والدعوة جزء

[1]) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 122.

[2]) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 122.

منها وهذا في غاية الأهمية إذ لا يمكن أن نتصور تغييرا بين عشية وضحاها، فلو كان الأمر كذلك لكان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أولى به وقد أخذ بسنة التدرج في كل أنواع الجهاد من تربية ودعوة وقتال في سبيل الله وبناء المجتمع الإسلامي، لأن التربية عليها مدار كل شيء إذ لا يمكن أن نتصور جهادا بدون تربية.

هذا فضلا على أن التربية تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماض منحرف وبيئة اجتماعية مضطربة واستعدادات غير سوية.

وهذه المعالجة تريد من المربي أن يتدرج في التربية وتريد منه حلما وافرا وتؤدة وصبرا طويلا وتنويعا في الوسائل حتى تنضج الفكرة ويشتد عود الغرس وهذا ما دأب عليه محمد صلى الله عليه وسلم في تكوين جيل تربى على منهاج الرسالة الخاتمة التي جاءت لتغيير العالم أجمع، والعدة أولئك الأصحاب الذين نفخ فيهم محمد صلى الله عليه وسلم من روحه وفقههم في كتابه وجعل منهم أساتذة في فن الحكم ورعاية الجماهير وحماية الحقوق وتزكية السرائر وبناء الأخلاق الحسنة ودعم التقاليد الجميلة... هذا الجيل الوفي الزكي لا يدري أحد ماذا سكب في أفئدتهم من تقوى وفداء وشهود لعظمة الله وإقبال على الدار الآخرة لا يدري أحد قوة الدفع وراء هذا الجيل الذي هزم فتن الحياة وكيد الجبابرة واستطاع بعظمة رائعة أن يسلم القرآن الكريم للأجيال التابعة دينا ودولة، وأن يجنبه ما عرا الكتب الأولى من تحريف وتصحيف، أولئك هم سلفنا الصالح، الصالح لقيادة الحياة وإرث الآخرة عن جدارة لا عن دعوى([1]).

هذا التكوين والتربية يتطلبان أجلا معلوما، «والآجال قد تكون أقرب إلى الشروط والعمر الزمني المطلوب لإنضاج الفكرة بعد مراحل تربوية متتابعة»([2]).

هناك قصور في فقه سنة الأجل والتدرج حيث يحذر الغزالي وينبه من الخطأ الذي يقع فيه نفر من الدعاة في تبليغ الدعوة دون الأخذ بأسباب سنتي الأجل والتدرج، وكانت حملة الغزالي على هؤلاء ضاربة، وجعلها من قضايا الأولويات بالنسبة للدعاة منبها إلى أن المسلمين لا يصلح لهم دين

[1]) محمد الغزالي– هموم داعية – مصدر سابق – ص 7.

[2]) محمد الغزالي–كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 123.

ولا تقوم لهم دنيا ولا تتقدم لهم دعوة إذا غفلوا عن السنن الكونية وانشغلوا بقضايا ثانوية لا جدوى منها، قال الغزالي: «فقد غفل المسلمون عن السنن الكونية والاجتماعية في كتاب الله، وانشغلوا بالمناظرات والجدل فيما لا طائل وراءه من مباحث العقيدة والفقه واللغة انقسموا فرقا وطوائف للاختلاف على مسألة واحدة لا فائدة عملية ترجى منها...»([1]).

هؤلاء الدعاة أقحموا أنفسهم في حقلها دون مراعاة شروطها وضوابطها منبها –أي الغزالي– إلى أن الدعوة فن بما تحمله الكلمة من معنى يقول : «إن فن الدعوة يحتاج إلى ألوف من الأذكياء والأتقياء يأخذون طريقهم إلى الأفئدة والعقول بلباقة وبرفق فإذا اعترض السيف هؤلاء برز من جانبنا سيف يناوشه ويعيده إلى غمده ويترك الحكم للمنطق والأدب لا لغرائز السباع»([2]). وفي سياق ذي صلة بالدعوة يقول الغزالي: «فلنعلم أن الدعوة لها أعباؤها ولها تكاليفها ولها جهادها...»([3]).

الفرع الثالث: تضييع فن الكلام من أسباب الفشل

وفي مقام آخر يتحدث الغزالي عن صنف من الدعاة دأبوا على مخاطبة الناس ساعات طوالا دون الاستفادة من استثمار الوقت ودون جدوى تذكر، فيقول فيهم: «وقد درج كثير من الدعاة على أن يخطبوا الناس ساعة أو ساعتين بل يخطب بعضهم ثلاث ساعات!! وثلاث ساعات مدة يقرأ فيها المرء ربع القرآن الكريم الذي أنزله الله مجزئا على ثلاث وعشرين سنة!!».

وقد استمعت إلى نفر من أولئك المطيلين فوجدت عماد كلامهم اللغو والمعاني المستبعدة والتكرار والغلو وفقدان الموضوع المحدد والمؤسف أن العوام أصبحوا كالمدمنين المتعودين والكلام الكثير لا يؤثر فيهم لطول ما قرع آذانهم...»([4]).

وكان الأجدى بالداعية أن يكون على بصيرة و يعي منهاج الله إيمانا وعلما كما يعي الواقع الذي يدعو فيه ويدرس الناس ويفهمهم ويعرف أهم المداخل إلى أنفسهم، وهكذا تكون الدعوة على

[1]) محمد الغزالي– كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 144.

[2]) محمد الغزالي– جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – مصدر سابق – ص 20.

[3]) محمد الغزالي– لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 185.

[4]) محمد الغزالي– ليس من الإسلام – مصدر سابق – ص 288.

بصيرة حين تمضي على خطة مدروسة وعلى نهج بين يقوم على أساس منهاج الله عز وجل ومن حقيقة الواقع الذي يعمل فيه، فالدعوة لا تقف عند حدود الوعظ الديني وتنتهي ولا هي خطبة منمقة ولا هي كتاب مزخرف، إن الدعوة عمل متكامل متعدد الميادين واسع الآفاق.

إنه جهد وبذل وعطاء ومعاناة، إنه إقامة وترحال وإنفاق وسخاء و دراسة و علم، إنه خطة متكاملة تقوم على المنهاج الرباني و الواقع البشري([1]).

و مما يأسف له الغزالي واقع الدعوة الإسلامية وما آلت إليه حيث ينظر إلى رجالها على أنهم أصحاب عمل تافه**!!**

و بديهي أن تعتمد الدعاية الإسلامية على الارتجال والحماسة المنقطعة وعلى أوقات الفراغ عند لفيف المتطوعين وعلى الروح الميت عند المحترفين المهملين، ومستقبل هذه الدعاية مقلق، كذلك مستقبل الإسلام معها، ما بقي قادة الأزهر من الصنف الذي عرفناه طول السنين السابقة وهم صنف يصلح لأي عمل إلا خدمة الإسلام والتصدي لقضاياه الكبرى([2]).

الفرع الرابع: شروط الأهلية السننية

فالدعوة تنمو وفق سنة الأجل فتمر بمراحل مختلفة من المحن والمنح، وذلك حسب شروط الأهلية الدعوية و الأهلية الأخلاقية و الأهلية الحضارية أي شروط الأهلية السنية ولهذا نجد الغزالي يؤكد على عاملي الزمان والمكان لأنهما المحضن الذي تنمو فيه الفكرة أو الدعوة القابلة والقادرة على التغيير والوصول إلى النتائج المطلوبة، ولكن مع هذا كله يبقى عاملا الزمان والمكان رهنا بمدى قدرة الإنسان في فهمها واستيعابها والتكيف معها، لأن قدرة الإنسان وطاقته محدودة في هذا المجال، فهو يقر بصعوبة إدراك معرفة الزمان والمكان فيقول: «الزمان والمكان كلاهما موضع دراسة لعلماء الطبيعة... و هم حائرون في تحديد المكان والزمان وهذا ما يجعلني سلفيا في أمر العقائد لأننا إذا كنا حائرين في معرفة المادة فكيف بما وراء المادة»([3]).

---

[1]) عدنان رضا النحوي – لقاء المؤمنين – جـ 2 – ط 2 – دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة، الجزائر – 1978م.– ص 68.

[2]) محمد الغزالي– ليس من الإسلام – مصدر سابق – ص 228.

[3]) محمد الغزالي– كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 123.

وقد ضرب الغزالي مثالا لطاقة العقل المحدودة في موضوع إدراك كنه الزمن وحقائق الآجال وكيف ترتبط بها المقادير وسلم الأمر لله، فإن قدرة العقل محدودة ولها إطار أو مجال لا يمكن تخطيه مثله مثل قدرة البصر على الرؤية يقول الغزالي: «عيوننا خلقت لترى على مسافة معينة وعلى حجم معين فإذا نقص الحجم كثيرا انعدمت الرؤية وإذا ازدادت المسافة عزت الرؤية، فيبدو أيضا أن بصيرتنا العقلية على هذا النحو لها طاقة معينة تستطيع أن تدرك بها الأمور وبعد هذا تتلاشى ولا تستطيع أن تدرك شيئا»([1]).

وكأن الغزالي بهذا المعنى يريد أن يقول أن الأجل لا يخضع للقدرة البشرية وإنما هو اجتهاد بشري ينطلق من معرفة أسبابه وسننه، ولا يمكن لأحد أن يحدده بالسنين والأيام وهو محدد في علم الله بالساعات، ولذلك قال تعالى: «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» سورة يونس الآية 49.

و المهم أنه في بيان القرآن: ﴿... إن لكل أمة أجل ...﴾ (الأعراف 34 أو يونس 49) بعدٌ اجتماعيٌ يدفعها إلى أن تعمل جاهدة على أن تطيل عمرها باعتمادها على سنن الله في الاجتماع والبقاء والاستمرار إذ أن بقاء الأمة واستمرار حضارتها حتى تكون مما يمكث في الأرض واعتدالها وتكافلها وتعاونها وعدم إسرافها في المتع إلى حد تفقد بموجبه لذاتها وعدم تبديد ثرواتها فيما لا يعود على الصالح العام بالنفع والفائدة، وفي منعها الظلم الذي كانت حكمة الشريعة من تحريمه حسب عبارة ابن خلدون: «ما ينشأ عنه من فساد العمران»([2]).

[1]) محمد التومي– المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – مرجع سابق – ص 105.

[2]) محمد التومي– المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – مرجع سابق – ص 105.

المبحث الثالث
قانون السببية

مقدمة

هذه القضية من كبرى قضايا الفكر الإسلامي التي أرقت ومازالت تؤرق العقل الإسلامي الذي أصبح عقلا غيبيا أي أنه ألغى قانون السببية من قاموسه الفكري، و من هنا يأتي تفسير لكثير من القضايا نابعا من هذه العقلية التي من نتاجها تعطيل فكر المراجعة والنقد ما دام أن كل شيء حدث بقضاء وقدر، ولهذا رأينا في تاريخنا الإسلامي تكرار كثير من الكوارث التي كادت أن تقتل الأمة وتجعلها في مصاف الأمم البائدة، وهذا بسبب إلغاء قانون السببية، فلو أن التجربة درّست من خلالها لا يجرؤ أحد على تكرار تجربة معلومة نتائجها مسبوقة، فالله سبحانه وتعالى وضع سننا وعللا وأسبابا ومقومات وجعل لكل ذلك نتائج فهل يأتي بعد ذلك من ينكر هذا؟

يقول طه جابر العلواني في هذه القضية: «هذه قضية من قضايا العقل المسلم الكبيرة، فالله سبحانه وتعالى ربط المسببات بالأسباب، هكذا اقتضت سننه أنه لا شيء يحدث في هذا الكون بدون سبب وهو سبحانه وتعالى قد سخر من ذلك الإنسان الذي يريد أن يصل إلى نتيجة دون مقدمات أو إلى سبب دون أسباب، قال تعالى: ﴿...إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه و ما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ سورة الرعد الآية 14»، أي تريد الماء اذهب إلى الماء واغرف واشرب أما لو مسكت السبحة وظللت تذكر الله كما تشاء من اجل أن يأتي الماء إليك ليدخل فاك فلن يفعل، سنة الله اقتضت أنك أنت الذي تباشر عملية الشرب وأنك أنت الذي تطلب الماء، قال تعالى: ﴿و النجم و الشجر يسجدان﴾ سورة الرحمان الآية 6.

فالنجم خاضع للسنة والخضوع للسنة الإلهية هو قانون الله تعالى الذي لا يمكن خرقه إلا بإرادته، لا يخرقه إلا واضعه على سبيل المعجزة أو الكرامة وإلا فالسنن لابد من ملاحظتها هذه هي عقيدة الفرد المسلم([1]).

[1]) طه جابر العلواني – إصلاح الفكر الإسلامي – المعهد العالي للفكر الإسلامي– دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة، الجزائر– 1991 – ص 133.

المطلب الأول: تعريف السببية وأهميتها في الإسلام

الفرع الأول: تعريف السببية لغة واصطلاحا

1- تعريف السببية لغة

السببية هي شيء يتوصل به إلى غيره([1]) و الجمع أسباب، و بهذا المعنى اللغوي ورد في قوله تعالى عن ذي القرنين: ﴿إنّا مَكّنا لهُ في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا* فاتّبع سببا﴾ الكهف 84-85، فالمعنى آتاه الله من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بها فأتبع واحدا من تلك الأسباب([2]).

و قال الزمخشري: السبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة([3]).

و قال القرطبي: "أصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شيء"([4]).

و الحاصل أن المنظور إليه في كون الشيء سببا هو كونه موصلا إلى غيره سواء كان هذا الشيء ماديا كآلة من الآلات المادية، أو كان معنويا كالعلم والقدرة([5]).

2-تعريف السبب اصطلاحا

يختلف تعريف السبب في الاصطلاح تبعا لتباين آراء علماء أصول الدين في تأثير السبب في المسبب.

فهو عند جمهور الأشاعرة: عبارة غما يكون طريقا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه([6]).

و قالوا إنه وسيلة إلى الحكم فيحصل عنده لا به، كالحبل يتوصل به إلى إخراج الماء من البئر و ليس المؤثر في الإخراج، و إنما المؤثر هو حركة المستقي.

و عند الغزالي و أبي إسحاق الإسفراييني، وابن تيمية، و ابن القيم، و الألوسي أنه الموجب لا لذاته ولكن بجعل الشارع إياه موجبا.

---

[1]) ابن منظور – لسان العرب – مادة "سبب" – ج 1 – ص 43.

[2]) الفيروز أبادي – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – 169/3.

[3]) الزمخشري – تفسير الكشاف – 497/2.

[4]) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي – الجامع لأحكام القرآن – 33/16 – أو جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي – تفسير الجلالين– مطبعة مصطفى الباي الحلبي- القاهرة – 43/3.

[5]) مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في الأمم والأفراد – مرجع سابق – ص 138.

[6]) أبي الحسن على بن محمد الجرجاني – التعريفات – مرجع سابق – مادة "سبب".

و عند المعتزلة هو الموجب لذاته([1]).

و يتفق جمهور السلف على أن السبب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: السبب التام: و هو الذي يوجد المسبب بوجوده فقط، لتحقق شروطه وانتفاء موانعه.

القسم الثاني: السبب غير التام و هو الذي يتوقف على وجود المسبب عليه ولكن لا يوجد المسبب بوجوده فقط، و إنما يتوقف على تحقق شروط إنتاجه وانتفاء موانعه([2]).

فالسبب في اصطلاح الشرع: ما يوصل إلى الشيء ولا يؤثر فيه كالوقت للصلاة([3]).

و استعير السبب لكل ما يتوصل به إلى أمر من الأمور([4]).

الفرع الثاني: حديث الغزالي عن قانون السببية

1- احترام الأسباب والمسببات

الغزالي عندما تحدث عن سنة السببية أو قانون السببية ولا مشاحة في الإصلاح قال: «قد اتفق علماء المسلمين على احترام قانون السببية وربوا عليها تلامذتهم وأشاعوه بين العامة والخاصة وبينوا للناس أن الله عز وجل رتب شؤون الحياة وأقامها على سنن لا تنخرم وقواعد لا تعوج و أنه جل شأنه لم يدع الحياة تمضي سدى بغير حكمة ولا على رسلها دون ضابط يسدد طريقها ويوضح هدفها وعلى هذه القاعدة من احترام الأسباب و المسببات، يقول الله جل جلاله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عند القتال: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهمُ الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون على أسلحتكم وأمتعتكم فيميلوا عليكم ميلة واحدة...﴾ سورة النساء الآية .102».

---

[1]) الزركشي – البحر المحيط بأصول الفقه - مرجع سابق – 306/1.

[2]) أبي الحسن على بن محمد الجرجاني – التعريفات – مرجع سابق– مادة "سبب".

[3]) الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسن بن علي الرازي – مفاتيح الغيب، التفسير الكبير – جـ 2 – ط 1 – دار الغد العربي – القاهرة، مصر – ص 626.

[4]) الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن كتاب السنن – تحقيق محمد السيد كيلاني – ط 5 – دار المعرفة – 1403هـ، 1983م – ص 220.

واحتراما لقانون السببية يقول الله تعالى للمسلمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتا أو انفروا جميعا﴾ سورة النساء الآية 71. أي قاتلوا جماعات أو أفرادا وفق ما تملي به تعاليم الحرب ونظم القتال...»([1]).

ويسترسل الغزالي بالاستشهاد بنماذج تتحدث عن قانون السببية مستعرضا أمثلة من القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة كما لم يفته استحضار نماذج معاصرة ترجمت بحق سنة السببية، خاصة حرب العاشر من رمضان سنة 1393هـ المطابق للسادس من أكتوبر 1973م([*]).

2- غزوة بدر نموذج لاحترام قانون السببية

ومن أهم هذه النماذج التي أبرزت قانون السببية "غزوة بدر" ففي هذه الغزوة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بجميع الأسباب المؤدية للنصر حيث جمع كل ما يملك من عدة وعتاد وجنود واختبر إيمان أصحابه المهاجرين والأنصار بالمعركة ومدى اقتناعهم بها ثم استشارهم في كل شيء وغير مكان الجيش بعد مشورة حازمة من الحباب بن المنذر، وجمع كل ما يمكن جمعه من أخبار عن جيش قريش، ثم صف الصفوف بنفسه ورتبها ترتيبا عسكريا محكما لم يعرف مثله من قبل.

و بعد هذا كله رفع يده إلى السماء وقال: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، اللهم أنجز ما وعدت"([2]).

3- تلازم قانون السببية مع التوكل على الله

وفي سياق حديثه عن سنة السببية يؤكد على ضرورة تلازم قانون السببية مع التوكل على الله، فيقول الغزالي: «ومع احترام قانون السببية فإن الله جل شأنه يقول لنبيه محمد صلى الله عليه

[1]) خطب الشيخ محمد الغزالي - جـ 2 - مصدر سابق - ص 165-166.

*) أنظر خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة - إعداد قطب عبد الحميد قطب - جـ 2 – مكتبة رحاب – الجزائر – 1988م –ص 166-169.

[2]) محمد الغزالي – فقه السيرة – مصدر سابق - ص 169-172 - بتصرف.

وسلم (ولكل مؤمن معه): ﴿...واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا* رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ سورة المزمل الآيتان 8-9.

فالتوكل لا يخدش قانون الأسباب والمسببات، ولا يمس القوى التي وهبها الحق مختلف العناصر منذ قال عز وجل: ﴿قال ربُّنا الذي أعْطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ طه الآية 50.

ثم يوضح هذا المعنى من خلال سوق أمثلة: «من خواص النار أنها تحرق وتجاهل ذلك حمق لا يقول به دين ومقتضى الإيمان الاعتراف بهذه الخاصة على أنها الطبيعة التي أودعها الله في المادة، فإنه ما من ذرة في السموات والأرض تستمد وجودها وحركتها من طبيعتها، وإنما تستمدها من الحي جل شأنه.

إن المؤمنين الذين يريدون —باسم التوكل– تجاهل هذه القوى لأسباب يرتكبون هذه الجهالة من عند أنفسهم، أما الإسلام فهو منها بريء.

إن هذا عمل يدل على نقص في العلم ولا يدل على زيادة في اليقين»([1]).

4– توفير الأسباب مطلوب

ومن هنا يؤكد الغزالي على ضرورة توفير الأسباب ويعتقد أن توفير الأسباب مطلوب بل الغفلة عنها جريمة!. وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفلُوا عَن أَسْلِحَتِكُم وَأَمْتِعَتِكُم فَيَمِيلُوا عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ سورة النساء الآية 102، والغريب أن المسلمين طالما غفلوا وطالما ذهبوا بددا إثر ميلة واحدة من أعدائهم المتربصين!، ومع تنويهنا بقانون السببية وقيمة العوامل المادية نريد إيضاح حقيقة مقررة في الأرض والسماء هي أن الأمور لا تبلغ تمامها إلا بإذنه تعالى، فما ينقطع مقطوع ولا يتصل موصول ولا ينبت نبات ولا يحيا حي إلا وفق المشيئة العليا، والإنسان قد يملك أسبابا ولكنه لا يملك الأسباب كلها، ولو ملكها كلها فهو لا يملك الأسباب المضادة لها... من أجل ذلك يجب التوكل على الله والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقبة لكل سعي مرهونة بمشيئته وحده...»([2]).

---

[1]) محمد الغزالي – ليس من الإسلام – مصدر سابق – ص 178.

[2]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب و المسلمين – مصدر سابق – ص 67.

ومجمل القول في هذه القضية –العلاقة بين الأسباب والتوكل– يدعو الغزالي المسلم إلى الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله فيرى أن: «التوكل ركن الإيمان في حالتي القوة والضعف فلا القوة —مع التوكل– تغري ولا الضعف يقهر، بل يبقى المسلم متزن الأعصاب، معتدل الأحكام عارف بحدود قوته مع من لا تخذله قدرة ولا يغلب على أمره أبدا في خلقه وملكه سبحانه وتعالى »([1]).

الفرع الثالث: الأخذ بالأسباب عبادة ومخالفتها غفلة وجهل

وبين الأسباب التي جعل الأخذ بها عبادة رتب على مخالفتها أنواعا مختلفة من العقوبات الشرعية والكونية، يقول الغزالي: «إن المدرس اللبق هو الذي يبذر في النفوس الحرص على احترام الأسباب والأخذ بها في كل حركة وسكون لأن ذلك حق يعاب جهله وهو في الوقت نفسه يبصر المؤمنين بأن الله تعالى من وراء كل سبب، وأن إرادته العاملة في الأسباب هي التي تصوغ النتائج أو أن هذه الأسباب المنتجة هي معنى إرادة الله المهم هو التذكير بأطراف الحقيقة كلها»([2]).

و يضرب مثالا بالفلاح فيقول: «فيعرف الفلاح مثلا أن الله هو الزارع الحقيقي ويعرف إلى جانب ذلك أنه هو والتربة التي يكدح فوقها أسباب لا بد منها وأنه لن يستطيع الحصول على ثمرة دون هذه الأسباب»([3]).

عاش الغزالي يجند المسلمين والدعاة في فقه السنن خاصة السببية منها لما انتشر من مظاهر السلبية والتواكل والفهم الغريب من مثل الجبرية التي يرى المبتلون بها أنهم لا فعل لهم ولا قدرة ولا مسؤولية في هذه الحياة، يقول الغزالي: «تحولت هذه العقيدة —عقيدة القدر– إلى عقيدة غريبة مسخت الكتاب والسنة وأصبح الناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ريش في مهب الريح أو جيف مرمية في البحر تتقاذفها الأمواج كما تشاء»([4]).

---

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب و المسلمين – المصدر سابق – ص 68.

[2]) محمد الغزالي – دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين – دار السلام للنشر والتوزيع – الجزائر – ص 116.

[3]) نفس المصدر – نفس الصفحة–.

[4]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن– مصدر سابق – ص 51.

بينما يبصرنا الغزالي بما فعلت هذه العقيدة لما استقرت سليمة في العقول والنفوس زمان الفهم السليم للأسباب والمسببات فكانت: «يوما ما سبب انطلاق الأمة الإسلامية دون تهيب للإمبراطوريات الضخمة وقرعت أبوابها بآيات الله تعالى وهي لا تبالي واستسلمت هذه الأمم أمام العطاء الروحي والثقافي والحضاري للقادمين»([1]).

إذن فشتان بين عقيدة تحيي النفوس والعقول وعقيدة فاسدة مدمرة تعطل قانون السببية وتجرد الإنسان من كل إرادة وفعل حر.

الفرع الرابع: أثر النظر إلى الأسباب في الفكر الإسلامي

وقد أورد محمد الغزالي أثر النظر إلى الأسباب في الفكر الإسلامي فقسمه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الذي ينظر أصحابه إلى الأسباب على أنها هي الفاعل الحقيقي وهي المنتجة لمسبباتها، وذلك ما يثبته عندهم الحس والمشاهدة في الوقائع الاعتيادية المعروفة كحرق النار وغرق الماء وإنبات النبات بالمطر وهذا القسم ينكر فعل الله عز وجل في الكون ويلحد في حق إرادة الله تعالى، يقول الغزالي: «... فإذا كان في الدنيا من ينكر وجود الله ومن ينسب شؤون الحياة والموت والحركة والسكون إلى طبيعة العناصر وحدها، فإن حق المتدينين قاطبة أن يتدخلوا في هذا التفكير ليعترضوا مسيره»([2]).

القسم الثاني: يرى أصحابه أن الأسباب لا دخل لها في المسببات وإنما هو مجرد ربط ظاهري بينهما، وأما الفاعل في الحقيقة والمنتج هو خالق الأسباب وموجدها، وهذا الصنف ينكر أثر الأسباب ودورها، وفي هذا الصنف يقول الغزالي: «و منهم من ألغى قانون السببية وظن أن الإيمان لا يصح أو لا يتم إلا إذا قلت في كل شيء الفاعل هو الله!»([3]). وقد ترتب عن هذا الصنف تداعيات وآثار سلبية انعكست على الفرد والمجتمع والأمة.

1) نفس المصدر – نفس الصفحة.

2) محمد الغزالي – دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين – مصدر سابق – ص 112.

3) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل – مصدر سابق – ص 77.

القسم الثالث: وهو صنف يرى الأسباب فاعلة بجعل الله تعالى لها كذلك، وإذا شاء أن يعطلها لحكمة فعل ذلك، كما هو في معجزات الأنبياء والرسل، فالخلق الحقيقي للمسببات إنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته، لأنه هو من خلق الأسباب ومن جعل فيها صفاتها وأعراضها وخواصها التي بها رتب النتائج والمسببات وفق إرادته ومشيئته وحكمته وتدبيره في خلقه عز وجل.

وهذا الرأي هو الوسط المرضي الذي يجمع بين إرادة الله في خلقه وملكه سبحانه وتعالى وبين الأسباب التي جعل الأخذ بها عبادة رتب على مخالفتها أنواعا مختلفة من العقوبات الشرعية أو الكونية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

المطلب الثاني: المسلمون و قانون السببية

الفرع الأول: من أسباب تخلف العالم الإسلامي

1- ضعف الصلة بين الأسباب والمسببات

من أسباب تخلف العالم الإسلامي حضاريا ضعف الصلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات أي أن المقدمات والنتائج غير مرتبطة تماما ولا متتابعة حتما، بل قد تتصلان ببعضهما البعض بصورة جزئية –وأحيانا مفككة- و قد تنفصلان تماما بالرغم من المنهج الإسلامي -كما هو مستخلص من التأمل في القرآن الكريم- يقيم البناء الفكري والعقلي والاستدلالي للإنسان المسلم على أسس علمية منطقية تجعل النتائج في أي فضاء أو مجال هي حصيلة أسبابها الذاتية الطبيعية.

2- الجهل بفقه وحقيقة قانون الأسباب

بيد أن قطاعا عريضا من المسلمين -كما لاحظ محمد الغزالي- جراء عوامل كثيرة كالغزو الثقافي والخلط الموروث أحيانا في بعض المسائل العقدية، والجهل بفقه وحقيقة السنن الإلهية والكونية نتج عنه تفكير متناقض بوضوح مع سنن الله الثابتة، وقوانين الكون الصارمة، وكان الحاصل أن "هذا التصور المخبول لا يصح معه علم ولا يصح فيه بحث، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحا علميا في هذه الحياة، والمقرر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم، وأن رفضه جنون. وكأن لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا واختلال ثقافتنا...([1]).

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر- مصدر سابق – ص 71.

وظل هذا الاعتقاد سائدا، يكون فيه الوصول إلى نتائج معينة في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني والإبداع العلمي وليس بالضرورة وليد مقدمات وأسباب مهدت لها وأذنت وفق سنن الله عز وجل ونواميسه في الحياة والأحياء. «إن هذا الفكر المعتل المنحرف –الذي تسبب في تراجع المسلمين الحضاري– ليس نتاجا لمنهج التفكير والنظر الإسلامي، بل هو حصيلة اهتزاز وخلل في المفاهيم والتصورات واضطراب في إدراك ومقومات ومقتضيات البناء العقلي السليم»([1]).

ومحاولة معرفة أسباب نشأة هذا التصور المخبول وانتشاره بين المسلمين، يذهب الغزالي في سعيه لتشخيص هذه المعضلة الفكرية إلى كون الجهود التربوية والعلمية غير المستندة إلى أسس وضوابط المنهج الإسلامي، أن عدد المربيين والموجهين كانوا مسؤولين عن ذلك لأنهم وبسبب فهمهم وقلة باعهم في معرفة أسس المنهج الإسلامي والنظام القرآني الدقيق خلال توجيههم التربوي للأمة الإسلامية يشعرونها بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع وأن الواجبات العادية قد تتخلف وأن قانون السببية على الإجمال غير ملزم ولا مطرد»([2]).

3– تعطيل قانون السببية تفكير مناقض لحقائق الكون

ربما اعتمد عليه هؤلاء المروجون والموجهون –سيما علماء الكلام– خوارق العادات ونسبتها للأحياء والأموات على حد سواء مما جعل قانون السببية معطلا، إن هذا الخلل في التفكير تفكير مناقض لحقائق الكون مصادم للسنن الربانية: «لقد أصاب المسلمين في –أُحُد– ما أصابهم لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التي تنتج النصر ولم يكن المشركون أولى بالله منهم، ولكن هذه سنة الله، فالله تعالى قد وضع للنصر أسبابا كثيرة وأوجب على عباده رعاية فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه»([3]).

وإن طرد المسلمين اليوم من أماكن القيادة العالمية، فلم يكن ظلما نزل بهم بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم، وحطوا مكانتها وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجال

[1]) إبراهيم نويري – الشيخ محمد الغزالي مفكر وداعية – بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام الإسلامي – 1998-1999 - ص 84.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر– مصدر سابق – ص 70.

[3]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 147.

العلم والعمل على حد سواء، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام ولكن هيهات ﴿ذلك بما قدمتَ أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ سورة آل عمران الآية 182([1]).

ينبه الغزالي إلى خطورة هذا الفكر الذي أخذ في الانتشار ومس شرائح كبيرة من المجتمع خصوصا القرون الأخيرة، حيث يعتبر هذه التوجه —في نظر الغزالي– داء فادح فهو يفتك بقيمة الوقت اعتمادا على بسط روح التواكل والخضوع والانسياق وراء حتمية الخوارق بعد أن هجروا قانون السببية، و ضرورة تقديم المقدمات بالتفكير والعمل والاجتهاد ليدفعوا بأنفسهم إلى دائرة التخلف الحضاري الرهيب.

الفرع الثاني: تصحيح الفهم الخاطئ لقانون السببية

فالغزالي يصحح ما وقع فيه الكثير من العوام وشريحة من النخبة المتدينة خاصة الصوفية من فهم خاطئ لقانون السببية، بأن جعلوها مدخلا للإرجاء والتوكل و وقوع الخوارق وهذا كله تعطيل لقانون السببية يقول محمود عبده : «من المباحث التي تدرس في كتب العقيدة مسألة الإيمان بوقوع الخوارق للصالحين وربط ذلك بعلو المنزلة في الدين وكأن تكريم الله تعالى لهؤلاء الصالحين لا يتم إلا بخرق السنن الكونية وتعطيلها من أجلهم، وقد تصدى الغزالي لهده الفكرة التي رآها سخافات "تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا" فقد سن الله تعالى لكونه سننا منضبطة مطردة لا تختل ولا تتخلف ولا تحابي أحدا من الخلق وامتحن عباده بالتعامل مع هذه السنن والأخذ بالأسباب، ولو جاز لتلك السنن أن تنخرق لأحد لمكانته عند الله لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته أولى بذلك، و هم خير الأمة بلا نزاع، ولكن المتابع لسيرته صلى الله عليه وسلم وسير أصحابه يجدها سارت وفق تلك السنن في مسيرة كفاح وجهاد متصلة و يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على الأخذ بالأسباب، وتربية صحبه على ذلك وأن العثرات والكبوات التي أصابت أمة النبي

[1]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 182.

صلى الله عليه وسلم وصحبه إنما جاءت لتفريط المسلمين أو تقصيرهم في اعتبار تلك السنن والتعامل معها»([1]).

فالمسلمون أساءوا فهم قانون السببية، و غمطوا حقها، عندما أقحموها في مسائل غيبية، تتعلق بالكرامات و الخوارق و المعجزات، مع أن هذه القضايا « كانت وقتية و محدودة الأثر بوقتها و مكانها، و هي اليوم أخبار تاريخية تخضع لقواعد الإثبات، و ليست وقائع عينية، و هي لم تخل بسير حياة النبي صلى الله عليه و سلم وفق سنن الكون، بل جاءت استثناءات مؤكدة للقاعدة جريا على سنة الله بتأييد أنبيائه بالمعجزات، أما القرآن فهو المعجزة الخالدة الباقية و قد جاء ليؤكد السنن الكونية، و وجوب الأخذ بالأسباب و العمل بمقتضياتها»([2]).

الفرع الثالث: لا تناقض بين القضاء والقدر و قانون السببية

إذن فالقاعدة المطردة الثابتة: لا يجوز إسقاط الأسباب و عدم مباشرتها بحجة الإيمان بالقضاء و القدر، كأن يترك الإنسان العمل و غيره من أسباب الرزق بحجة أنه إذا كان الله قد قدر له رزقا فلابد أن يأتيه، و يحصل عليه عمل أو لم يعمل.

حتى الرسول —صلى الله عليه و سلم–كما ذكرت سابقا– أخذ بالأسباب في كل قضية و أمر، و لم يتواكل رغم عصمته، و قد أكد الغزالي على هذه القضية في أكثر من موضع، «فالرسول صلى الله عليه و سلم كان بشرا، و صارت حياته في جملتها كما تسير حياة البشر من حيث الأخذ بالأسباب و التعامل مع السنن الكونية المعتادة...»([3]).

«فالتوكل على الله تعالى لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله تعالى و طاعته فيما يأمر به من اتخاذها، و لكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها، إن الذي ينشئ النتائج —كما ينشئ الأسباب— هو قدر الله، و لا علاقة بين السبب و النتيجة في شعور المؤمن ... و اتخاذ الأسباب عبادة بالطاعة، و تحقق النتيجة قدر من الله مستقل

[1]) محمود عبده _ الإمام محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 143-144

[2]) محمد الغزالي – فقه السيرة – مصدر سابق – ص 39.

[3]) محمود عبده – الإمام محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 165.

عن السبب، لا يقدر عليه إلا الله، و بذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب و التعلق بها وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها»([1]).

و هكذا يريد محمد الغزالي أن يغلق بابا من أبواب تأخر الأمة الإسلامية و تخلفها، إنه محاربة عقيدة الجبر، و التي اعتبرها الغزالي من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية.

الفرع الرابع: شيوع مبدأ الجبرية مناف لقانون السببية

إن شيوع مبدأ الجبرية بين المسلمين، و الذي يقضي بأن الإنسان مسير لا مخير، و أنه لا يملك قوة، و لا إرادة في تنفيذ رغباته أو صياغة شكل و نمط حياته و سلوكه إنما هو في حقيقة الأمر يحيا بتوجيه خفي أو جلي من مشيئة الله التي تدفع به ذات اليمين و ذات الشمال، و التي تهيئ له حياة العسر أو حياة اليسر برغمه»([2]) وكأنه منزوع الإرادة فاقد لحريته واختياره.

« إن الاعتذار بالأقدار من الأكاذيب التي ضاعت بين الدهماء و الرعاع و هي التي أخرت المسلمين على هذا النحو الشائن الذي نراه الآن، و لذلك أحب أن أقول للناس: هيهات هيهات أن يسمع منكم هذا اللغو لا اعتذار بقدر... أدّ ما عليك أيها المسلم، و لا تقل كتب عليَ أن أسكر، أو كتب عليَ أن أطيع هذا كله مكذوب على رب العالمين، و على الدين المتين الذي شرفنا الله به»([3]).

و إذا أرادت الأمة أن تتجاوز هذا المفهوم الخاطئ –عقيدة الجبرية– الذي وقعت فيه «لابد من تخليص العقل الإسلامي، من هذا القصور و التخبط بحيث يقبل المسلم على الحياة و هو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة، و أن له قدرة و إرادة يملكان قدرا من الاستقلال يسأل به عما يفعل، و إنه لا جبر و لا أفتيات، و لا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها....»([4]).

---

[1]) سيد قطب – في ظلال القرآن – جـ 3 – دار الشروق – القاهرة – 1400هـ، 1980م – ص 1476.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 69.

[3]) حديث الاثنين – الشيخ محمد الغزالي – إعداد الأستاذ عبد القادر نور – مصدر سابق – ص 181.

[4]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 70.

بهذا البيان، يريد الغزالي دحض فكرة شيوع مبدأ الجبرية و التصدي لمن حولوا عقيدة القدر إلى سم يفتك بالأمة و يعيقها عن العمل، و الأخذ بالأسباب فكم من عاص تعلل بالقدر في إصراره على معصيته، و كم من جاهل ترك دون تغيير لأنها إرادة الله، و لو صح عذر هؤلاء لقبله الله من السابقين قال تعالى: ﴿و قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا ءاباؤنا، و لا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ سورة النحل الآية 35.

و قال محمود عبده: «و كم من معوز نام على الأخذ بأسباب الرزق متعللا بالقدر، وكم من مظلوم تخاذل عن طلب حقه و الاستماتة عليه بدعوى القدر، و كم من أمم استكانت للظالمين و الطغاة بدعوى أنهم قضاء الله، بل إن انهيار الدولة الإسلامية راجع إلى فشو هذه الضلالة بين الناس، فشوا جعل المنكر ينتشر بلا منكر، و أساس الإصلاح يعتمد أول ما يعتمد على تصحيح الفهم في عقيدة القضاء و القدر، حتى تعود كما كانت: الدافع الأعظم في التضحية و الفداء والوازع الأول على ترك الشر و فعل الخير، قياما بواجب الإنسان نحو نفسه و تنفيذ لأوامر الله جل شأنه»([1]).

ولا يتحقق ذلك إلا بالتربية الصحيحة التي تقوم على حقائق واضحة وعلى تقرير حاسم للمسؤولية الإنسانية...([2]).

الفرع الخامس: الاستفادة من تجارب الآخرين في علوم الكون

وإذا أرادت الأمة أن تتفادى هذا التصور الخاطئ وتتدارك ما فاتها من تقصير وتعالج هذه المعضلة العويصة عليها بالتعاطي مع أسباب الدنيا وامتلاكها لها، ينبه الغزالي الأمة ويحرضها على الاستفادة من تجارب الآخرين في علوم الكون وبناء نهضة حديثة تواكب هذا التقدم العلمي الغربي والتكنولوجيا المتطورة، يقول الغزالي: « لقد كان جديرا بالمسلمين أن يفكروا وينتهزوا فرصة حياتهم

[1]) محمود عبده – الإمام محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 137.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 69.

على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر... و يستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان ويستوي على الطريق... إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها و التمكن منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة بل الدهشة أن ينقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها.

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق والسلاح التافه يجر الهزيمة...

وقد استطاع أناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء» ([1]).

هؤلاء أخذوا بالأسباب وفتحوا مغاليق الاستكشاف وأثاروا الأرض وبذلوا الجهد والوسع والطاقة، فكان لهم الأمر والنهي لأنهم امتلكوا أسباب القوة المادية وحتى المعنوية بحيث استفادوا من كثير من النظم الإسلامية وسخروها في حياتهم، يقول الغزالي: «إن العقل الأوروبي من أقرب العقول إلى الإسلام وقد فقد ثقته فيما لديه من مواريث روحية أو مدنية، بيد أنه ليس مغفلا حتى يفتح أقطار نفسه لأناس يعرضون عليه باسم الإسلام قضايا اجتماعية أو سياسية منكرة...»([2]).

الفرع السادس: الدعوة إلى الاقتداء بالمسلمين الأوائل في الأخذ بالأسباب

إذا كان الرعيل الأول من الصحابة ساروا على منهج الإيمان بالسنة الكونية فأخذوا بأسباب القوة كما أمر الله تعالى بقوله ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم...﴾ سورة الأنفال الآية 60.

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 65.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 74.

كما أخذوا بأسباب الجد والعمل والسعي فحاول أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– عند ما بويع بالخلافة أن يستمر في تجارته لكن منعه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لينشغل بأمور المسلمين وجعلوا له عطاء من بيت المال.

كما مهر المسلمون في التجارة وبرزوا في ميادينها بصدقهم وأمانتهم كما برزوا في أعمال أخرى قاموا بها طلبا للرزق وتنفيذا لأمر الله تعالى: ﴿...فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور...﴾ سورة الملك الآية 15.

و كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق و هو يقول "اللهم ارزقني"، وقد علم الناس أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة».

ثم أخذ المسلمون بأسباب العلم والمعرفة ودونوا علوما تضبط لسانهم العربي كما تحوي معارفهم الإسلامية، واستفادوا من الثقافات الأخرى النافعة، وبرزوا في علوم الكون والرياضيات والكيمياء والفيزياء وقطعوا شوطا بعيد المدى في الطب والهندسة والفلك، فآل إليهم زمان العلم وقصدهم طلابه من المشارق والمغارب ولا تزال أوروبا تذكر جامعات المسلمين في الأندلس التي تتلمذ كثير من الأوروبيين فيها، وأخرجتهم من الظلمات إلى النور وفتحت لهم الطريق إلى الحضارة الحديثة.

كل هذا حدث على امتداد التاريخ الإسلامي المشرق، وإذا سألت عن السبب فستجد إجابة واحدة لن تختلف، إنهم آمنوا بالله فقوي الإيمان بيقينهم واستنارت بصيرتهم وصدق تصورهم وآمنوا بسنن الله في الكون والحياة واحترموها فأخذوا بالأسباب، فانكشف لهم الخفي من قوانين رب العالمين ودانت لهم الحياة.

ثم سلموا الزمان لغيرهم وناموا ولدعة الغفلة استناموا وبمثل قول هذا الأحمق من شعور من نتائج عصور الضعف والتخلف:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

و لو وجد في عهد عمر وقال مقالته الآثمة هذه لأوجعه بدرته، وهكذا ينكشف آخر معلم من معالم الدين الحق، وهو أن دين الإيمان بالسنن و القوانين الإلهية التي تكسب العزة والقوة والكرامة.

«و الأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها وكي تنجح في المحافظة عليه و كي تستطيع إفهامه للآخرين لا بد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة في شتى الميادين مسموعة الكلمة في آفاق العلم برا و بحرا و جوا.

ومن حق الأمم الكبرى —وهي أمم تحتقر الأمية العلمية والصناعية- أن تنظر إلى دعاوي المسلمين وأفكارهم وقيمهم بريبة وسخرية ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنساني»([1]).

هلا أحيت الأمة الإسلامية هذه السنة وراعتها في شؤون حياتها و تعاملت معها بوعي وبصيرة؟

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 76.

الفصل الثالث

سننا التدرج و التغيير

المبحث الأول:سنة التدرج

المبحث الثاني:سنة التغيير

المبحث الأول
سنة التدرج

مقدمة

قبل التعرض إلى (معنى) سنة التدرج عند الغزالي لابد من الإشارة إلى أن هذه السنة عامة شاملة جامعة لكل مجالات الحياة والأحياء و قد وجه الله تعالى أنظارنا إلى خطورة هذه السنة وأهميتها في أكثر من موطن.

و التدرج سنة ربانية من سنن الله تعالى وقانون من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة مراعاتها وتجسيدها في حياتها قصد تمكينها.

المطلب الأول: التدرج سنة إلهية في الكون والاجتماع

الفرع الأول: تعريف سنة التدرج لغة و اصطلاحا

1- سنة التدرج لغة

تشير مادة "درج" فى معاجم اللغة إلى الترقي شيئاً فشيئا وصولاً إلى غاية محددة.

ومنه يقال كما فى لسان العرب: أدرجت العليل تدريجاً أي: أطعمته قليلاً، وذلك إذا نقه، حتى يتدرج إلى غاية أكله كما كان قبله العلة، درجة درجة، ولأجل ذلك يقال للأرجل: دوارج، حيث أنها بها يتم التدرج والتنقل([1]).

والتدرج لغة يقال تدرج فلان أي تصعد درجة درجة.

و استدرجته أخذته قليلا، قليلا و درج الصبي و أخذ في الحركة و مشى قليلا أول ما يمشى و درجت الريح مرت مرّا هيّنا"([2]).

والتدرج سنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه قال تعالى: ﴿إن ربكمُ اللهُ الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام...﴾ الأعراف الآية 54.

---

[1]) ابن المنظور – لسان العرب –.

[2]) محمد السيد محمد يوسف – التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم – ط 3 – دار السلام – القاهرة – 1422هـ، 2003م – ص226.

فتدرج خلق الله لها في ستة أيام –من أيامه سبحانه وتعالى وهو القادر على أن يقول في جزء من اللحظة كن فتكون.

2- سنة التدرج اصطلاحا

و هذا المعنى المذكور هو استعمال القرآن الكريم للكلمة؛ قال تعالى: ﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ...﴾ القلم الآية 44، قيل: معناه سنأخذهم قليلاً، قليلاً ولا نباغتهم.

فالتدرج هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أعلى منها وأرفع فى الحس أو فى المعنى أو فى كليهما وفى ضوء هذا المعنى قيل لمنازل الجنة درجات من جهة أن بعضها يرتفع فوق بعض أخذاً من الدرجة التي تعنى الرفعة والمنزلة.

وأما التشريع، فيعنى به المناهج والقوانين التي سنها الله تعالى لعباده ليعرفوا بها الأحكام المنظمة لحياة الأفراد فى علاقتهم مع ربهم وعلاقتهم مع بعضهم البعض، وما يتبع ذلك من مبادئ تنظم قانون الثواب والعقاب. و يشمل لفظ التشريع ما كان أصله ثابتا بالقرآن والسنة، وما كان أصله إجماعا أو قياسا.

الفرع الثاني: التدرج سنة إلهية مطردة في خلق الله

1- التدرج في نزول القرآن الكريم

«و التدرج سنة من سنن الله في خلقه للإنسان الأول آدم عليه السلام وبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء – فالطين – فا لحما المسنون – فالصلصال)كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله" فكان أن استوى هذا المخلوق "إنسانا" هو آدم عليه السلام فكانالتدرج سنة كونية مطردة في خلق الله –العالم- و الإنسان الأول وللكل إنسان كذالك شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في ميسرة الشرائع السماوية التي جعلها الله "لطفا "لهداية الإنسان فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات و الرسالات كان تدرج وتطور الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات»([1]).

[1]) محمد عمارة – سنة التدرج في الإصلاح – دراسات إسلامية – مقالة بمجلة حراء – العدد 10 يناير–مارس 2008. نشرت بموقع حراء http://www.hiramagazine.com/archives/title/214. – 2013/07/20.

إذن فالتدرج سنة جارية على جميع المخلوقات في هذا الكون كما أن التدرج هو الميزة البارزة في مسار الرسالة القرآنية الخالدة فالقرآن الكريم المنزل من الله رب العالمين نزل منجما قال الحق تعالى: ﴿و قُرآنا فرقناهُ لتقرأه على الناس على مُكُث ونزلناه تنزيلا﴾ سورة الإسراء 106.

ثم إن التربية القرآنية للصحابة كانت متدرجة فبد أن تصحيح العقيدة ونبذ الشرك والأوثان و إفراد الله تعالى بالعبودية ثم بعد بضع سنين من تصحيح العقيدة وتثبيتها في قلوب المؤمنين فرضت الصلاة ثم الصوم وباقي الأركان وكذالك التدرج في تحريم المنكرات مثل الخمر كان على مراحل بدأ بتذكير المؤمنين بماله من مضار ومفاسد ثم بعد ذالك كان التحريم النهائي على وجه القطع قال يوسف القرضاوي: «وأما من الناحية الشرعية فقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة السلمية ثم كان التشريع شيئا فشيا فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة وتحريم الخمر وغيرها ولهذا افترق القرآن المكي عن القرآن المدني»([1]).

2- التدرج في الشريعة الإسلامية

وفي نفس السياق يقول محمد عمارة «وحتى الشريعة الإسلامية كان التدرج سنة مطردة ومرعية فهذه الشريعة الخاتمة والخالدة قد بدأت في المرحلة التي استغرقت ثلاثة عشر عاما بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة والجيل الجديد وفق معالمها ومنظومة قيمها أي بدأت بالدرجة الأولى في سلم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق تغيير النفس الإنسانية كيف تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمة الإيمانية ﴿...إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد الآية 11 وكذالك كان الحال "التدرج في المرحلة المدنية ألتي استغرقت عشر سنوات فامتلاك الجماعة المؤمنة (الأمة) للحضارة وأركانها لم تجعل الطفرة"تحل محل التدرج "ولا الثورة تحل محل "الإصلاح في استكمال التشريع واكتمال التطبيق لشريعة الإسلام فمع تدرج الوحي "المنجم" واكب التشريع و التطبيق للتشريع تطور التغيير المندرج للإنسان الذي يستقيم كامل الشريعة وللواقع الذي لابد من تهيئته لتقبل كامل الشريعة»([2]).

الفرع الثالث: مفهوم سنة التدرج عند الغزالي

[1]) يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف –مرجع سابق – ص 105.

[2]) محمد عمارة – سنة التدرج في الإصلاح، دراسات إسلامية – مرجع سابق.

يتفق محمد الغزالي في فهمه أو تفسيره لسنة التدرج مع العلماء الذين سبقوه فهي سنة قرآنية لها أبعاد تربوية لا بد من إدراكها حتى يمكن تبليغ دعوة و إقامة حضارة و الغزالي عندما يتناول سنة التدرج يستحضر أمثلة ونماذج من التاريخ الإسلامي ليؤكد على هذه السنة وأوضح مثال على ذالك هو التدرج في تحريم الخمر يقول الغزالي: «إن تحريم الخمر جاء بعد غزوة أحد بسنتين تقريبا أي أن ناسا ممن قتلوا في أحد ماتوا وفي بطونهم خمور وهم شهداء ما نقص هذا من إيمانهم ولا أضاع ثوابهم عند الله المهم أن الإسلام عندما عرض أخذوا بحملة ما عرض منه ما بقي لهم لم يكلفوا به لأنهم لم يطلب منهم»([1]).

كما يستشهد الغزالي بحديث شريف يؤكد فيه سنة التدرج عند مخاطبة الناس ومراعاة قدراتهم وطاقاتهم الاستيعابية "إنك ما حدثت قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". وهذا يقتضى أن ننظر إلى حقائق الإسلام كلها بعد جمعها في صعيد واحد وهي شبكة من التعليمات تتصل بالفرد والجماعة والدولة ثم من الذين نخاطبهم وما ظروفهم وما أحوالهم التاريخية و الاقتصادية و الاجتماعية و الحضارية...الخ، فيكون المتحدث لبقا بحيث ينزل تعاليم الإسلام وفق حاجات الناس وما يمكن أن تصلحه هذه التعاليم من أوضاعهم"([2]).

الفرع الرابع: مراعاة العلماء و الدعاة لسنة التدرج

ينبغي للدعاة العاملين اليوم في الحقل الإسلامي أن يراعوا سنة التدرج وأن يكون لهذا العالم أو الداعية منهج واضح مع المدعوين حتى يتحقق المقصود كما ينبغي مراعاة فقه الأولويات كي تؤدى الدعوة إلى الله على وجهها الصحيح وتنسجم مع فطر الناس التي فطرهم الله عليها.

و نجاح الدعوة الإسلامية في حسن عرض حقائق الإسلام الأهم فالأهم وجعلها جرعات لعلاج الناس وحل مشاكلهم و لا يتحقق ذالك إلا بمراعاة أحوال الناس والبيئة التي يعرض فيها الإسلام، «واعتقد أن العرض في الجبهة الشرقية غير العرض في الجبهة الغربية وأن الكلام عن الإسلام بين الهنود غير الكلام عن الإسلام بين الزنوج غير الكلام عن الإسلام بين عرب يتبعون إحدى

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 119.

[2]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 118.

الجبهتين وهكذا فلا بد أن أعطي الإسلام على مراحل بحيث أني سأصل إلى الإسلام كله حتما ولكن بالطريقة التي أَقرّ بها الإسلام في القلوب والمجتمعات وهكذا يمكن أن أسميه سنة التدرج»([1]).

إن من الأمور المسلم بها في التربية القرآنية أن الأفراد يتفاوتون في مواهبهم و مؤهلاتهم كما يتفاوتون في الظروف التي ينشأون فيها ولذالك لا يجوز أن نتوقع نتائج واحدة لجميع الأفراد المدعوين لدعوة الإسلام، هذا وأن القرآن الكريم قد حلل طبيعة الإنسان تحليلا نفسيا وواقعيا فشخص مواطن الضعف في الأفراد والجماعات وذكر هذه المواطن وهذا ما ينبغي على الدعاة معرفته.

ومن ثم ينبغي على الدعاة العاملين في الحقل الإسلامي أن «يراعوا في علمهم سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف آخذين في الاعتبار سموا لهدف و مبلغ الإمكانات وكثرة المعوقات فلا ينبغي أن يستعجل قبل أن يبلغ الآجل المقدور لمثله فإن الزرع إذا حصد قبل إبانه والثمر إذا قطف قبل أوانه لا ينتفع به النفع المرجو بل قد يضر و لا ينفع فإذا كان النبات لا يؤتي أكله إلا بعد أشهر أو سنة وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة فإن بعض الأعمال الكبيرة لا تقطع ثمارها إلا بعد عقود من السينين و كلما كان العمل عظيما وقاعدته متسعة كانت ثمرته أبطأ و قد يبدأ جيل عملا تأسيسيا ذا شأن فلا يستفيد منه الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذالك ولا ضير في ذالك ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم و طريقه المرسوم»([2]).

و إذا أردنا أن نبني و نقيم "مجتمعا إسلاميا" فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس أو هيئة مخولة إنما يتحقق ذلك عن طريق التدرج، و ذلك توفير الأجواء المناسبة لتجسيد هذا المجتمع بدءا بالإعداد و التهيئة الفكرية و النفسية و الأخلاقية و الاجتماعية وإيجاد و إبداع بدائل شرعية للأوضاع المنافية لمقومات المجتمع التي قامت عليها مؤسسات عدة لأزمنة طويلة.

والتدرج في مثل هذه القضايا الكبرى نعى به تعيين الهدف و وضع الخطة وتحديد المراحل بوعي وصدق بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط و التنظيم و التصميم حتى تصل العملية إلى مقاصدها المنشودة وهذا يقتضي جهدا أكبر و وقتا أكثر لأن الأعمال الكبيرة كما ذكر

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 119.

[2]) د يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف – مرجع سابق – ص 106-107.

القرضاوي: «لا تقطع ثمارها إلا بعد عقود من السنين وكلما كان العمل عظيما وقاعدته متسعة كانت ثمرته أبطأ»([1]).

وقد حرص محمد الغزالي على تأكيد هذه القاعدة السننية: «أن سنن الله الكونية تحتاج إلى زمن طويل وأن نتيجة التقوى و الصبر لا تظهر خلال أيام قلائل ولا شهور معدودة بل قد تستغرق سنين طويلة وإن على الأمم و الأفراد أن يعلموا أن مع مر الزمن تتحقق الآمال و تنجز الوعود و لكن لا بد من معاناة طويلة خلال هذه المعانات يتحقق القانون الإلهي أو السنة الإلهية»([2]).

الفرع الخامس: غياب فقه سنة التدرج

يعتقد الغزالي أن فقه سنة التدرج غائب عن كثير عن عقول الدعاة فضلا عن عامة المسلمين فهناك من الدعاة من يقحم نفسه في قضايا و مسائل هامشية دون مراعاة سنة التدرج وتشير قضايا لا تعتبر من الأولويات و لا تصلح أن تكون مدخلا لميدان الدعوة و الإصلاح خاصة عندما تثار مسائل عقائدية تتحول إلى مماحكات لغوية و كلامية وجدليات فقهية عقيمة تشتت الجهود وتجهض أي مشروع إصلاحي تغيري وعوض أن تحول هذه الجهود إلى شرح مفاهيم الدين الإسلامي و توضيح تعاليمه وتحقيق الشخصية الإسلامية المتوازنة لتحقيق مجتمع إسلامي ثابت الأركان.

هذا الصنف من الدعاة يتعامل مع الإسلام بهذه النظرة الجزئية والرؤية القاصرة يعتقد أنه يخدم الإسلام ويبرز حقائقه ولكنه لا يدرك أنه يهدم أركان الإسلام و ينفر من تعاليمه وفي هذا الصنف يقول الغزالي: «قد لاحظت أن عدد كبيرا من المسلمين يدخلون ميدان الدعوة و الإصلاح بأمور عقائدية من النوع الذي ثار الجدل حوله قديما و أذكر أني لقيت شخصا ذاهبا إلى مسجد قلت له إلى أين؟ قال لأحدث الناس في المسجد وأهاجم الزائغين من الأشاعرة() فقلت له أدلك على أفضل من هذا —قال وما أفضل من هذا قلت له تستمسك بالمحكم الذي هو لب الكتاب وأساسه و

[1]) د يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف – مرجع سابق – ص 106.

[2]) محمد الغزالي – حديث الاثنين للشيخ – جمع وإعداد الأستاذ عبد القادر نور – مصدر سابق – ص 150.

تبعد عن هذا المتشابه وعن الخوض فيه سلبا أو إيجابا هجوما أو رد عدوان لأن الله وصف آياته المحكمة ﴿...هنَّ أُمُّ الكتاب...﴾ آل عمران الآية 7» ([1]).

فالغزالي اعتبر هذا الصنف من الدعاة خطر على الدعوة لأنه غير مؤهل علميا ولا نفسيا ولا اجتماعيا لا يجيد ولا يحسن التعامل مع غيره و لا يدرك الأولويات و الاهتمامات بل هاجس الخوف ينتابه ولسان حاله يقول لا تخشى على الإسلام من أعدائه إنما تخشى عليه من أدعيائه.

فالصراعات الداخلية استفحل خطرها و تعمقت عللها في كيان الأمة وللمرء أن يتساءل ما الذي أدى إلى تأخر المجتمع العربي الإسلامي و جموده.

إن أكثر الإصابات ألتي لحقت بجسم الأمة المترامي الأطراف مرده هؤلاء الذين اقحموا أنفسهم في قضايا و مسائل هم في غنى عنها كما المجتمع الإسلامي وليس أوانها المناقشة والجدل يقول الغزالي: «فإذا كانت الأمة في أحوالها العامة مضطربة سقيمة فما الذي يجعلك تذهب إلى أمر يحار العقل البشري في إدراك كنهه لتبدأ الإصلاح من هناك و ألا يبدو أنك ستزيد الأمة سقاما وخير لك أن تعلم الناس ما يحتاجون إليه من الكتاب»([2]).

المطلب الثاني: إحياء سنة التدرج و تفعيلها في حياة المجتمع

الفرع الأول: إحياء سنة التدرج

وفي هذا إشارة واضحة إلى إحياء سنة التدرج وتفعيلها في حياة المجتمع المسلم و مخاطبة الناس قدر عقولهم و مداركهم و أفهامهم «لأن تغير الأعراف والعادات التي تجذّرت في النفوس واستغرقت في العقول و تواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجه ولذلك لا بد للدعاة من مراعاة الطبائع و الأفهام و المقاصد و السنيات والأحوال الخاصة و الأعراف و العوائد العامة والأولويات و المصالح والمفاسد والأوقات عندما يتصدرون لدعوة الناس و تعريفهم بالإسلام»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق ص 118.

[2]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – المصدر نفسه ص 118.

[3]) على محمد الصلابي – فقه النصر والتمكين في القرآن – ط 1 – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة القاهرة – 1428هـ، 2006م – ص370.

لأن «الناس تحكمهم تقاليد شديدة ويتوارثون أفكار يحتاج نقدها ووزنها إلى زمان غير قصير بل إنا الأهواء التي تصرف البشر لها سلطان محيط و الخلاص منها لا يتم بين عشية وضحاها و قد تأملت في ماضي خالد بن الوليد عبقري الحروب الملهم و ماضي عمر بن العاص السياسي الداهية فوجدت كلا الرجلين لم ينشرح صدرهما للإسلام إلا بعد ما يقارب العشرين سنة و من رحمة الله و حكمته أن منحهما هذه الفرصة و هما مثل لغيرهما من سائر الخلق»([1]).

و قد تصدى الغزالي لهذا النفر من الدعاة غير المؤهلين لحمل الرسالة «الذين فصلوا الأمة بين التلاوة و التدبر فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد التبرك به و كأن ترديد الألفاظ دون شعور بمعانيها و وعي لمغازيها يفيد أو هو المقصود فتجد العامّي و لربما المثقف أيضا يسمع آيات الوعيد و العذاب التي تحرك الجبال فيهتف في نشوة طربا بجمال صوت القارئ و تغنيه للآيات»([2]).

إننا لم نجن من هذه القطيعة بين التلاوة و التدبر أن أصبحت أركان الإسلام مجرد أشكال تتحرك فارغة الروح فاقدة لعناصر القوة و الحركة الإيجابية ولم يقتصر هذا الضعف الروحي والأخلاقي في مجالات الحياة بل تعدى إلى جوهر هذه العقيدة في عمودها الفقري ألا وهو الصلاة قال الغزالي: «وقد رأيت فعلا أن الخشوع في الصلاة وهو ركن وهو روح الصلاة ما يلفت الكثيرون إلى تعليمه أو التنبيه إليه وتوفير أسباب وجوده في الصلاة بقدر ما نرى الكلم عن قضايا نواقض الوضوء و كيفيات الوقوف في الصلاة لقد تحولت أركان الإسلام بهذا إلى مجرد أشكال تتحرك وأصبحت شؤونه الكبرى تائهة مع هذا الغثاء الطافي فوق أفكار المتحدثين عنه نحن نريد أن نعلم الناس الإسلام كله فإذا كان الإسلام سبعين شعبة أو يزيد فلنبدأ بالأهم فالمهم و نأخذ الناس بطريق التدرج كما فعل القرآن وهو يعرض تعاليمه على الناس»([3]).

الفرع الثاني: التدرج في التطبيق

[1]) محمد الغزالي – علل وأدوية –شركة الشهاب – الجزائر – 1983م – ص 34-35.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – ط 1 – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت – 2009م – ص 87.

[3]) محمد الغزالي –كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق ص 118.

هناك من يعتقد أن سنة التدرج أصبحت غير قابلة للتطبيق و تجاوزتها الأحداث والظروف و يغيب عن ذهنه أن الأمة مع كل عصر تتجدد فيها الأحداث و القضايا كما تجددت أيام الخلفاء الراشدين و كما تجددت أيام الأئمة و العلماء و كما تجدد اليوم وغدا و ستظل هكذا أحداث وقضايا تتوالى على سنن الله وحكمته خاصة سنة التدرج و مهمة الدعاة في هذا المجال استيعاب سنة التدرج على التعامل الصحيح مع هذه الأحداث و القضايا و لقد رأينا كيف فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم و كيف فعل الخلفاء الراشدون وكيف فعل الأئمة بعد ذالك يردون جميع القضايا إلى دين الله وذالك بفهم و استيعاب سنة التدرج فلابد للدعاة الذين يُعرّفون الناس بالإسلام أن تكون لهم قدرة على التخطيط و التنظيم وحسن الإدارة و لا يتحقق هذا الجانب إلا بدراسة الواقع وفهمه وبدون هذه الدراسة الواعية للواقع فإننا نعيش في أجواء مضطربة من التناقض الاجتماعي و النفسي و الفكري و في أجواء من التشتت والضياع و الحيرة و الإرباك و المفاجآت والذهول.

وهذا إلا يعني أن كل قضايا الإسلام تحتاج إلى سنة التدرج «فكان التشريع هنا و كذالك في تشريعات الخمر وما إليها لكن لا نستطيع أن نقول إن الذين يعملون للإسلام الآن يتدرجون في شرح الحقائق الإسلامية العلمية لان هذه الحقائق قد اكتملت و منذ نزل قوله تعالى ﴿...اليوم أكملت لكم دينكم...﴾ (المائدة، 3) أصبحنا مكلفين بعرض الإسلام آية آية وسنة سنة»([1]).

إن فهم الواقع ضرورة كما سبقت الإشارة في البناء والتكوين و ذالك حتى يستطيع الداعية أن يطبق سنة التدرج على الواقع و تستطيع الدعوة أيضا أن تتلاءم مع هذا الوضع على واقعها ومن ناحية أخرى فإن الواقع نفسه يفرض في هذه المرحلة من مراحل البناء أو تلك التركيز على عنصر لسبب ظاهر في الواقع الذي تتحرك فيه الدعوة لمعالجة مرض أو تقويم خطأ أو مجابهة عدو أو الرد على كيد...

فالبناء و التكوين ليس أمر نظريا ولكن العمل على إعطاء القدرة على مجابهة واقع بشري مع كل ظروفه و أحواله ومعالجة أمراضه والاستفادة من إمكاناته وميزاته على أساس سنة التدرج.

[1]) فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة في حوار مع الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 14.

وفي هذا الشأن يقول محمد الغزالي: «لكن بناء الدولة بعد نشر الدعوة هذا لابد فيه من التدرج لأن البناء الذي أنهدم على عدة قرون لا يمكن أن يتم إعادة صرحه في خلال أسابيع أو أعوام قليلة ولذلك كان كبار المصلحين يقولون الزمن جزء من العلاج بمعنى أني لابد أن أقول الحدود تقام وما أقبل مماراة في حد لكن عند التطبيق فلا بأس أن أشرع فورا بحد الافتراء أو حد قطع يد السارق لان ذالك سهل ويمكن إرجاء بعض الحدود إلى أن تواتيني فرص التنفيذ فعلميا أنا مكلف ببيان الإسلام كله و عمليا لا بد أن أتدرج في التطبيق العملي وهذا إما تفرضه أحوالنا ألتي لا بد منها فالدواء الذي لا بد أن يتجرعه المريض ليصحو أعطيه له جرعة، جرعة»([1]).

الفرع الثالث: احترام سنة التدرج في التطبيق

فاستعمال الأسلوب الطبيعي في التغيير المؤسس على سنة التدرج بدل الأسلوب الجراحي القيصري هذا الأخير سيجهض لأنه لم ينم نموا طبيعيا و يحتوى على عدد من الثغرات و جوانب الضعف فهو لم يتعامل مع السنن و الأسباب أما الأسلوب الطبيعي الذي يتعامل مع سنة التدرج يأتي بطيئا لا يقدر عليه المستعجلون لكنه وحده الطريق الموصل وعلينا أن نتربى على العمل الدؤوب المتواصل ولا نعول على ساعات الفورة وغليان الدم فإنه من السهل بناء عمارة أو مصنع في ظرف قياسي و لكنه من الصعب بناء مجتمع تتحقق فيه شروط المجتمع الإيجابي المتماسك في ظرف قياسي متميز لان الداعية في هذه الحالة يتعامل مع الإنسان بكل أبعاده الروحية و الأخلاقية و الاجتماعية والسياسية و الثقافية و الصعوبة ألتي تعتري الداعية تلك التصورات و التعاملات من الملابسات ما يجعلها في حاجة إلى التعديل و التقويم و التهذيب.

وإن عشرات من المواضيع المهمة و المشاريع النافعة لم تشبع بحثا ولم تعمر طويلا بسبب الضجر الذي يصيب كثيرا من أبناء الحركة أو العاملين في الحقل الإسلامي من الانكباب على العمل مدة طويلة مما جعل هذه الأعمال تقف عند السطح فتخرج جيلا ممن يعملون ظاهر من الإسلام ومن الواقع لا يعملون فإذا عملوا لا يواصلون إننا لو ذقنا حلاوة العمل المداوم و المتعمد لحال بيننا وبين طفرات مؤسفة تجني الأجيال ثمارها المرة.

[1]) فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة في حوار مع الشيخ محمد الغزالي – مصدر سابق – ص 14.

و من ثم لا بد أن نفهم جيدا أن الإسلام بناء منفصل يقتضي سنة التدرج وهدم مجمل باعتباره لا يعمد إلى الهدم إلا بالقدر الضروري الذي تتطلبه عملية البناء الشامل المتكامل و الحقيقة أن ممن ينتمون إلى الدعوة الإسلامية عكسوا الأمر فركزوا على هدم ما هو موجود من مفاهيم ومؤسسات وممارسات لاستبدالها بكلام عام مثالي مفاده أن الإسلام هو الحل بدون تفصيل ولا استيفاء للصالح الموجود.

تلك هي سنة التدرج عند الغزالي الذي يعتقد أن حركة الإسلام بالرغم من أنها تعتصم بالأنموذج الكلي و تصر على أن الدين توحيد إلا أنها تعلم أنه لبلوغ الكل لابد من البدء بالجزء فهي لا تؤمن ببعض و تكفر ببعض بل تؤمن بالإسلام كله ولكنها تحاول أن تطبق منه ما تيسر ولا تقدر أنه لابد من انتظار مرحلة الدولة حتى يتمكن الدين بكل جوانبه ولكن يمكن دون ذالك مع مجتمع لا تزال فيه بقية إيمان أن تطبق فنشأت مؤسسات اقتصادية للإسلام و مؤسسات اجتماعية ومؤسسات ثقافية جرب فيها تطبيق الإسلام عمليا.

و إن أعمال هذه السنة أي سنة التدرج الإلهية في ميدان الإصلاح و التغير للواقع الإسلامي الراهن الذي أفسد التغريب الوافد الكثير من نواحي فكره و ثقافته و إعلامه ومنظومة قيمه لا بد وأن يعني سلوك طريق التدرج في هذا التغير المنشود.

تلك هي سنة التدرج وهذا هو قانونها الحاكم في كل عوامل الخلق و الإصلاح والتغيير وذلك هو منهاجها في الخروج بأمتنا من واقعا الفكري والثقافي و الإعلامي الراهن إلى حيث الإصلاح والتغير ولا يتحقق هذا إلا بالعمل الدعوي الذي هو أول الطريق إلى التغيير لأن الدعوة إلى الله وتزكية النفوس هما الركيزة الأساسية في دعوة الرسل و هما مفتاح التغيير في كل تجمع بشري يراد إخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام.

ولا مخرج من واقع هذه الأمة الفكري والثقافي والإعلامي الراهن إلا بأعمال سنة الإصلاح والتغيير وسنة التغيير تنبثق من إرادة المجتمع نفسه لقوله تعالى: ﴿...إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد، 11، وتحاول أن تغير من أوضاعه الراهنة و تجدد من سلوكاته الحاضرة بتعديلها أو تهذبها أو توجهها أو استبدالها.

و قد بين الواقع التاريخي أن المجتمعات الإنسانية لم تدم على حال من الأحوال ولم تستقر على وضع من الأوضاع بل هي في تغير مستمر وتحول دائم. و لقد كان القرآن ظاهرة وحي اتخذت واقع الناس موضوعا وغاية وأحدثت فيه بنقدها و توجهها و إلزامها تغيرا هائلا لم يعرف التاريخ سبقا له من حيث شموله لكافة ما يحتاج إليه المجتمع من قواعد عامة نافعة لأفراده و ظواهره و نظمه.

المبحث الثاني
سنة التغيير

مقدمة

من السنن الهامة على طريق تمكين دعوة الله تعالى إلى الناس من سنة التغير وارتباطها بالدعوة الإسلامية و أضح غاية الوضوح ذالك أن الدعوة لا يمكن أن تجد طريقا إلى قلوب وعقول الناس ولن يتحقق لهذه الأمة الريادة و القيادة على المجتمع البشري إلا من خلال سنة التغير ولهذا نجد القرآن الكريم ينوه بهذه السنة ألتي يقدرها قوله تعالى ﴿...إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفُسِهِمْ...﴾ الرعد الآية 11، وقوله أيضا ﴿ذلك بأن اللهَ لم يكُ مغيرًا نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ الأنفال الآية 53.

إن الآيتين تضمنتا تقرير السنة ثابتة في الاجتماع إذا أنهما أبانتا أن ما يعتري حياة الناس الخاصة والعامة وما يصيبها من ظروف ملائمة وغير ملائمة لا يطرأ عشوائيا و بدون أسباب موضوعية و إنما هو مرتبط بما يحدث للناس داخل أنفسهم من عزم إرادي و منوط بما يملكون من أعمال هي في مقدورهم و متعلق بإلزامات هي في متناولهم فإذا كان في حالة من القوة و التفوق كان ذلك بسبب ما يكون عليه من استقامة في السلوك و العلاقات والمعاملات فلا تتبدل حالهم ولا تتغير من الملائم إلى غير الملائم إلا إذا حادوا عن الطريق الذي يسيرون فيه وعدلوا بصفة نظرية وعملية عن أسباب عزتهم وإذا كانوا ضعافا يعانون الويل والذل والهوان والفقر كما يعانون الفوضى و الانحلال والتشرد كل ذلك بسبب ما أحدثوا من انحراف و إهمال فلا تتبدل حالهم من السلب إلى الإيجاب ومن الضراء إلى السراء إلا إذا عدلوا عما هم فيه وانتهجوا طريق الاستقامة والإصلاح و عزموا بكل جد على أن يستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدني فالله سبحانه وتعالى لا يغير مصر أمة من الأمم ما لم يغير أبناء هذه الأمة أنفسهم وبعد أن يحدث هذا التغير في داخل أنفسهم التغير في أخلاقهم وفي تعاملهم وفي توجيهاتهم وفي أهدافهم و حرصهم – يبدأ التحرك ونتيجة لهذا التحرك يتغير المجتمع و يتبدل النظام وعندما نقرأ قوله تعالى ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه...﴾ العنكبوت الآية 6، يتبين أنه الجانب ومن يجاهد و يسعى فإن نتيجة هذه الجهود تعود عليه شخصيا ومن هذا الجانب لا بد من بناء أنفسنا لكي تتحقق المحاربة و المجاهدة وبذل الجهود ويتحقق التغير الاجتماعي فإن بناء أنفسنا يحصل في معترك التغيير الاجتماعي.

المطلب الأول: مفهوم التغيير عند الغزالي

الفرع الأول: تعريف سنة التغيير لغة

تدور مادَّة (غَيَّرَ) في اللُّغة على أصليْن، هما:

- إحْداث شيء لم يكن قبلَه.
- انتِقال الشيء من حالةٍ إلى حالة أخرى([1]).

فمن الأصل الأول: (غَيَّرَه): جَعَلَه غَيْرَ ما كَانَ، و (غَيَّرَه): حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ.

و من الأصل الثاني: (الغِيَر)؛ أَي: تَغَيُّر الحال وانتقالها من الصلاح إِلى الفساد([2]).

وجاء في "النهاية" في حديث الاستِسْقاء: ((مَن يَكْفُرِ اللَّهَ يَلْقَ الغِيَر))، والغِيَر: الاسْم من قولك: غَيَّرت الشيء فَتَغيَّر([3]).

وفي حديث جرير بن عبدالله: أنَّه سمع النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: {ما مِن قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقْدرون أن يغيِّروا فلا يغيرون، إلاَّ أصابَهم الله بعقاب}؛ سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنَّهي.

قال الزجَّاج: معنى "يغيِّرون"؛ أي: يدفعون ذلك المنكر بغيره من الحقِّ([4]).

يقال (في تاج العروس): تَغَيَّرَ الشيْءُ عن حاله: تَحَوَّلَ. وغَيَّرَهُ: جَعَلَه غَيْرَ ما كَانَ. وغَيَّرَهُ حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ وفي التنزيل العزيز: ذلكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ قال ثعلب: معناه حَتَّى يُبدِّلُوا ما أَمَرَهُم الله. والاسْمُ من التَّغْيير الغَيْرُ عن اللَّحْيَانيّ وأَنشد: إِذْ أَنَا مَغْلُوبٌ قَلِيلُ الغَيْرِ. قال: ولا يُقَالُ: إِلاّ غَيَّرْت. وذَهَب اللّحْيَانيّ إِلى أَنّ الغَيْرَ لَيْسَ بمَصْدَر إِذ لَيْسَ له فِعْلٌ ثُلاثِيٌّ غَيْرُ مَزِيدٍ.

و يقال أيضا: فلانٌ لا يَتَغَيَّر على أَهْلِه أَي لا يَغَارُ([5]).

---

[1]) الجرجاني – التعريفات – باب التاء – مادة (التغيير – التغير).

[2]) لسان العرب – ابن منظور – حرف الراء مادَّة (غير). – تاج العروس من جواهر القاموس – مرتضى الزبيدي – باب الرَّاء – مادة "غير".

[3]) أبو السعادات الجزري – النهاية في غريب الحديث والأثر – حرف العين المعجمة – (باب الغين مع الراء).

[4]) للتوسع أكثر أنظر – تهذيب اللغة للأزهري – مادة (غير) – جـ 98/3.

[5]) مرتضى الزبيدي – تاج العروس من جواهر القاموس – باب الرَّاء – مادة "غير".

و في لسان العرب: تغيَّر الشيءُ عن حاله تحوّل وغَيَّرَه حَوَّله وبدّله كأَنه جعله غير ما كان وفي التنزيل العزيز ذلك بأَن الله لم يَكُ مُغَيِّراً نِعْمةً أَنعمها على قوم حتى يُغَيِّروا ما بأَنفسهم قال ثعلب معناه حتى يبدِّلوا ما أَمرهم الله([1]).

الفرع الثاني: لفظ التغيير في القرآن الكريم

وقد ورد مفهوم "التغْيير" في القرآن الكريم في أربعة مواضع، موزَّعة على أربع سور مدنيَّة النزول، بالاشتقاقات التالية:

- (يُغَيِّرُنَّ) في سورة النساء الآية 119.
- (يُغَيِّرُ) في سورة الرعد الآية 11.
- (يُغَيِّرُوا) تكرَّرت في سورتَين: الأولى في الأنفال الآية 53، والثَّانية في الرَّعد الآية 11.
- (يَتَغَيَّرْ) في سورة محمَّد الآية 15.

و يقود التدبُّر العميق لكلِّ موارد لفْظ التَّغْيير في القُرآن الكريم، إلى مجموعة من المعاني يُمكن ترْصيفُها في الوحدات الدلاليَّة التَّالية:

1- تغْيير خلْق الله:

قال تعالى: ﴿...وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ...﴾ النساء الآية 119. فهذه الآية جاءت في معرض حديثه تعالى عن غَواية إبليس لعنه الله لعباد الله ودعائِه إيَّاهم إلى طاعته، وتزْيينه لهم الضلالَ والكفرَ حتَّى يزيلهم عن منهج الطَّريق، و من مُعاريضِه لعنه الله أمْره للعباد بتغيير خلق الله.

وقد اختلف العلماء في هذا التَّغْيير إلى أقوال، أبرزها:

أ- تغْيير دين الله:

وذلك أنَّ آية النِّساء تتناصُّ مع قوله تعالى: ﴿...فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾ الروم الآية 30.

و تغْيير دين الله له وجهان:

- الوجه الأوَّل: أنَّ الله تعالى فطر الخلق على الإسلام يوم أخرجَهم من ظهر آدم كالذَّرّ، وأشهدَهم على أنفسهم أنَّه ربُّهم وآمنوا به، فمَن كفر فقد غيَّر فطرة الله التي فطر النَّاس عليْها،

[1]) ابن منظور – لسان العرب – حرف الراء – مادّة "غير".

وهذا معنى قولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: {ما مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أو يُنَصِّرَانِه أو يُمَجِّسَانِه}([1]).

• الوجه الثاني: أنَّ المراد من تغْيير دين الله هو تبْديل الحلال حرامًا و الحرام حلالاً([2]).

ب- تغْيير الصفات الحسِّيَّة للخلق:

فقوله تعالى: ﴿...وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ...﴾ (النساء 119) هو التَّغيير المتعلِّق بالظَّواهر الحسِّيَّة للخلْق، وذكر العلماء من ذلك:

• التخنُّث والترجُّل،

• الإخْصاء و بتْر العيون وشقّ الآذان،

• الوصْل و النمص و الوشم،([3]).

2- تغْيير نعمة الله:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال الآية 53.

وظاهر النِّعمة: أنَّه يرادُ بها ما يكون فيه العِباد من سَعة الحال والرَّفاهية والعزَّة والتَّمكين والخصب.

فتتغيَّر هذه الأحوال بإزالة الذَّات، وقد يكون بإزالة الصفات، فقد تكون النعمة أذهبتْ رأسًا وقد تكون قلِّلت وأضْعِفت.

و سبب ذهاب هذه النعم وتغيُّرها راجع إلى:

• "إنَّهم قابلوا النِّعم بالكفر والفسوق والعصيان، فلا جرَم استحقُّوا تبْديل النعم بالنِّقَم، والمِنَح بالمِحَن"([1]).

---

[1]) متفق عليه، و اللفظ لمسلم.

[2]) جامع البيان في تأويل القرآن - للإمام الطبري (183/5) - دار المعرفة – بيروت - ط 3 - 1398هـ/1978م. - تفسير الفخر الرَّازي المشتهر بـ "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب" - للإمام محمد الرَّازي فخر الدين - (49/11-50) - دار الفكر – بيروت - 1404هـ/1994م. - تفسير البحر المحيط - لأبي حيَّان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي - (354/3) - دار الكتاب الإسلامي – القاهرة - ط 1 - 1413هـ/1992م. - معالم التنزيل - لأبي محمد الحسين بن مسعود الفرَّاء البغوي - (482/1) - تحقيق خالد العك ومروان سوار - دار المعرفة – بيروت - ط 2 - 1407هـ/1987م.

[3]) محمد الرَّازي فخر الدين: الفخر الرَّازي - التفسير الكبير ومفاتيح الغيب – مرجع سابق - (49/11-50).

• وذهب الفخر الرازي (ت 606) إلى أنَّ الله تعالى أنعم عليْهم بالعقل والقدرة، وإزالة الموانع وتسهيل السبل، فإذا صرفوا هذه الأحْوال إلى الفسق والكفْر، فقد غيَّروا نعمة الله تعالى على أنفُسِهم([2]).

• وذهب الطاهر بن عاشور (ت 1393) إلى مثله فقال: "فتغْيير النعمة إبدالُها بضدِّها وهو النقمة وسوء الحال؛ أي: تبديل حالة حسنة بحالة سيئة... والمراد بهذا التَّغْيير: تغيير سببه، وهو الشُّكْر بأن يبدلوه بالكفْران"([3]).

3- تغيير ما بأنفس القوم:

قال تعالى: ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الرعد الآية 11.

وهذه الآية جاءت بعد أن ذَكَر سبحانه و تعالى إحاطة علْمِه بالعباد وأنَّ لهم معقِّبات -ملائِكة- يحفظونهم؛ فقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الرعد الآية 11.

يقول يوسف القرضاوي: «في هاتين الآيتين يقرر الله سبحانه وتعالى سنة من سننه، و هي أن يغير ما بالقوم نتيجة تغييرهم لما في نفوسهم و قد وضح ذلك في صيغة قانون ثابت لا يتخلف و لا يحابي ولا يظلم»([4]).

فكلام جَميع المفسِّرين يدلُّ أنَّ المراد: لا يغيِّر ما هم فيه من النِّعم بإنزال الانتقام.

فتغْيِير ما بالأنفُس – القوم – يراد به تغْيير ما بها من الأعمال والأحْوال والأخلاق، التي كان عليْها العباد وقت ملابستِهم بالنعمة، واتَّصفوا بعد ذلك بما ينافيها بكفْران نعم الله تعالى و غمط إحسانِه وإهمال أوامره ونواهيه.

قال الإمام ابن تيمية (ت 728): "هذا التَّغيير نوعان:

أحدهما: أن يُبْدوا ذلك فيبقى قولاً وعملاً يترتَّب عليه الذَّمُّ والعقاب.

---

[1]) غرائب القرآن ورغائب القرآن، بهامش "جامع البيان" للطبري أعلاه، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمِّي النيسابوري (ت 406) (14/10).

[2]) محمد الرَّازي فخر الدين: الفخر الرَّازي – التفسير الكبير ومفاتيح الغيب – مرجع سابق – (187/13).

[3]) التحرير والتنوير (45/10).

[4]) يوسف القرضاوي – الحل الإسلامي فريضة و ضرورة – ط 3 – مكتبة وهبة – القاهرة – 1397هـ، 1977م.

والثَّاني: أن يغيِّروا الإيمان الذي في قلوبهم بضدِّه من الرَّيب والشَّكّ والبغض، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله، فيستحقُّون العذاب هنا على ترك المأمور، وهناك على فعل المحظور، وكذلك ما في النفس ممَّا يناقض محبَّة الله، والتوكُّل عليه، والإخلاص له، والشُّكر له، يعاقب عليه؛ لأنَّ هذه الأمور كلها واجبة، فإذا خلا القلب عنها، واتَّصف بأضدادها، استحقَّ العذاب على ترك هذه الواجبات، وبهذا التَّفصيل تزول شُبَه كثيرة، ويحصل الجمع بين النصوص، فإنَّها كلَّها متَّفقة على ذلك"([1]).

و قال صاحب الظلال (ت 1387): "لا يغير نعمةً أو بؤسًا، ولا يغيِّر عزًّا أو ذلَّة، ولا يغير مكانةً أو مهانة... إلاَّ أن يغيِّر الناس... وبعْد تقرير المبدأ يبرز السِّياق حالة تغْيير الله ما بقومٍ إلى السوء... لأنه في معرض الذين يستعْجِلون بالسيِّئة قبل الحسنة"([2]).

الفرع الثالث: التغيير اصطلاحا

التغيير هو عملية حركية اطرادية مستمرة و متتابعة، إنه الاختلافات و التعديلات و التحويلات التي تطرأ على أنماط الحياة في مجتمع معين أو في شعب من الشعوب و على ظاهرة من الظواهر الاجتماعية و على آفاق العلاقات الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن والتي يمكن ملاحظتها و تقديرها([3]).

الفرع الرابع: عملية التغيير تبدأ بالنفس

"و الإسلام يوم جاء أول مرة وقف في وجهه واقع ضخم –واقع الجزيرة العربية وواقع الكرة الأرضية– ووقفت في وجهه عقائد و تصورات و وقعت في وجهه قيم وموازين ووقفت في وجهه أنظمة وأضاع ووقفت في وجهه مصالح و عصبيات كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع الناس في الجزيرة العربية وفي الأرض كافة مسافة هائلة وكانت النقلة ألتي يريدهم عليها بعيدة وكانت تسند الواقع أحقاب من التاريخ و أشتات من المصالح و ألوان من القوى وقفت كلها سدا في وجه هذا الدين الجديد الذي لا يكتفي بتغير العقائد و التصورات والقيم والموازين والعادات و التقاليد

[1]) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (109/14) – جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – مجلدات التفسير – طبعه خادم الحرمَين الشريفين بإشراف المكتب العلمي السعودي بالمغرب.

[2]) في ظلال القرآن، لسيد قطب (78/5)، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط 7، 1391هـ / 1971م.

[3]) حسن عبد الحميد أحمد رشوان – التغيير الاجتماعي و المجتمع – درا الهناء للتجليد الفني – القاهرة – 2008م – ص 23.

والأخلاق و المشاعر إنما يريد كذلك أن تغير الأنظمة و الأوضاع و الشرائع والقوانين كما يريد انتزاع قيادة البشرية من يد الطاغوت و الجاهلية ليردها إلى الله و الإسلام"([1]).

لا يختلف اثنان أن هذا الواقع كان مثقلا بالأمراض والعلل النفسية و الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الممتدة الجذور عبر حقب تاريخية طويلة.

أمام هذا الواقع المثقل بهذه التراكمات و بكل تداعياته واجه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحمل بكل مسؤولية، فبدأ بعملية التغيير جاعلا نصب عينيه سنة التدرج من أولوياته لأن إحداث أي التغيير في مجتمع لابد أن نراعى فيه هذه السنة، وأول ما قام به صلى الله عليه وسلم وشرع فيه عملية بناء وتكوين ذات الإنسان و هذا البناء ليس أمرا نظريا و لا هو بالقاعدة الفلسفية و لكنه العمل على إعطاء القدرة على مجابهة واقع بشري مع كل ظروفه وأحواله و معالجة أمراضه وعلله فكان اهتمامه الأكبر تغيير ما بداخل النفس و ذلك بإفراغها من العقائد الباطلة والأفكار الفاسدة و ملئه بعقائد صحيحة و قيم ومبادئ سامية. وفي هذا يقول الغزالي "فاتجهت جهوده كلها قبل أي شي إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه و تطمئن إلى قراره و مساره وهو يعرف أن هذا الإنسان يفرض نفسه على بيئته يوم تنزاح العوائق من أمامه"([2]).

ويواصل الغزالي في هذا المعني قائلا "لم يحاول قط أي الرسول صلى الله عليه وسلم الاصطدام بالأسرار الخارجية قبل استكمال هذا الداخل المهم ومن ثم ترك الأصنام منصوبة حول الكعبة عشرين سنة لم يهشم منها في معركة طائشة بل الثابت في سيرته أنه طاف في عمرة القضاء في السنة السابعة حول الكعبة و الأصنام جاثمة حولها وفي الأوضاع ألتي كانت عليها من بدء الدعوة"([3]).

و الرسول عليه الصلاة وسلم ترك القوم على ما هم عليه حتى يستقرئ إيمانهم فيخاطبوا بالحكم الصحيح فيها حينئذ وفي هذا السياق يقول العز عبد السلام "قد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل المسجد الحرام وفيه الأنصاب والأوثان ولم ينكر دلك كلما رآه وكذلك لم يكن كلما

---

[1]) سيد قطب – هذا الدين – ط 14 – القاهرة – 1412هـ، 1992م – ص51-52.

[2]) محمد الغزالي – مائة سؤال عن الإسلام – ج 2 – ط1 – دار ثابت للنشر والتوزيع – القاهرة – 1404هـ 1984م – ص 376.

[3]) نفس المصدر – نفس الصفحة.

رأى المشركين ينكر عليهم وكذالك كان السلف لا ينكرون على الفسقة والظلمة فسوقهم و ظلمهم و فجورهم كلما رآهم مع علمهم أن لا يجدي إنكارهم".

ثم يطرح الغزالي سؤالا ليجيب عليه قائلا "أكان ذلك بقيا عليها أو توفيرا لها كلا لقد كان يعلم أن لها أجلا لا ريب فيه و أنها عن قريب أو بعيد ستتحول جذاذا وقطعا متناثرة... ومن الذي يقوم بهذا التحويل الحاسم؟ الرجال الذين استناروا من الداخل وتربوا على الحق"([1]).

ومن ثم كانت أولوية الرسول صلى الله عليه وسلم إثارة الدفائن الخيرة في أعماق القلوب و فتح المنابع و المصادر المنسية في بواطن النفوس و إن من خواص الأنبياء و الرسل إزالة الغبار المتراكم على المنابع الداخلية المنسية والعمل على رفعة وسمو الإنسان المكبل الأسير المتدني "إن عمل محمد صلى الله عليه وسلم ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمة من فكر الإنسان وضميره فإذا أدى رسالته ومضى فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منه"([2]).

والتغير في نظر الغزالي يستلهم دلالاته من الآيات القرآنية الكريمة السابقة الذكر ولم يكن نشازا عن من سيقوه من العلماء والمفكرين والباحثين في هذا المجال".

الفرع الخامس: خضوع سنة التغير للسنن الإلهية والكونية

فالغزالي عندما يتحدث عن سنة التغير ينطلق من فكرة (أو قناعة) أن لا تغير بعيد عن الخضوع للقوانين والسنن الإلهية والكونية والمعايير المنطقية ومن ثم مجال للخوارق والمعجزات لان "هذه الخوارق والمعجزات التي وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت وقتية محدودة الأثر بوقتها ومكانها وهى اليوم أخبار تاريخية تخضع لقواعد الإثبات وليست وقائع عينية أو هي لم تخل يسير حياة التي وفق سنن الكون بل جاءت استثناءات مؤكدة للقاعدة على سنة الله بتأييد أنبيائه بالمعجزات أما القرآن فهو المعجزة الخالدة الباقية وقد جاء ليؤكد السنن الكونية وجرب الأخذ بالأسباب والعمل بمقتضياتها"([3]).

---

[1]) نفس المصدر – نفس الصفحة.

[2]) محمد الغزالي – فقه السيرة – مصدر سابق – ص 204.

[3]) محمد الغزالي – فقه السيرة – المصدر السابق – ص40-41 بتصرف.

وقد أكد الغزالي في أكثر من موضع على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان بشرا وسارت حياته في حملتها كما تسير حياة سائر البشر من حيث الأخذ بالأسباب والتعامل مع السنن الإلهية المعتادة فكان صلى الله عليه وسلم "يجوع ويشبع ويصح ويمرض ويتعب ويستريح ويحزن ويسر"([1]).

وقد كان نموذجا للصلابة والقوة والصبر على الشدائد والذكي في الأخذ بالأسباب وعلى هذا ربي أصحابه فعملوا وجاهدوا وصبروا وانتصروا وعملوا وخاصموا وسالموا وانتصروا وانهزموا وفق الأسباب، "إن محمدا وصحبه تعلموا وعملوا وخاصموا وسالموا وانتصروا وانهزموا. ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق وهم على كل شبر من الأرض يكافحون لم ينحزم لهم قانون من قوانين الأرض ولم تكن لهم سنة من سنن الحياة بل أنهم تعبوا أكثر من مما تعب أعداؤهم وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم فكانوا في ميدان تنازع البقاء أو بالشرح والتمكين"([2]).

لقد رباهم من خبر النفوس وغاص في أعماقها وأدرك جنباتها فهو كما وصفه الغزالي كان خبيرا بالنفوس ومعادنها والدنيا وأطوارها والزمان وتقبله والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة وعقول الأنبياء من ورائها قطرة محلوة والهام لماح فكيف بشيخ الأنباء الذي يعيده القدر من نشأته ليحمل رسالة معجزاته في أسلوبها و أسلوبها يقوم على ترقية الفطر و تنسيق الألباب"([3]).

فالنبي صلى الله عليه وسلم في منهجه التغييري اعتمد على تصحيح الأفكار والعقائد وتهذيب ما بالنفس من الدوافع والغرائز بالقيم العليا وبمعنى آخر تحويل مجتمع الجاهلية إلى مجتمع إسلامي يقوم على أساس مفاهيمه العقائدية عن الله عز وجل وعن الكون والإنسان والحياة وعلى إذكاء العقيدة بعمق وأصالة.

وكانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته القدوة الحسنة هي النموذج العملي للسعي الجاد والعمل المستمر من أجل التغيير والأسوة في الأخلاق ومساعدة الناس وحثهم على البذل والعطاء فقد كان صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي على الأرض أو كما وصفته عائشة رضي الله عنها

[1]) محمد الغزالي – فقه السيرة – المصدر السابق – ص40-41 بتصرف.

[2]) محمد الغزالي – فقه السيرة – المصدر السابق – ص40.

[3]) محمد الغزالي – فقه السيرة – المصدر السابق – ص44.

كان خلفه القرآن وقد وصفه رب العزة في قوله تعالى في سورة القلم "وإنك لعلى خلق عظيم" الآية 4.

الفرع السادس: سنة التغيير و آثارها على جيل الصحابة

إن ما تحقق للأمة الإسلامية في عهدها الأول كان دون شك سبب التغير الذي حصل في الخلاء من حياة اجتماعية ضيقة أفاقها وأهمية روابطها إلى حياة اجتماعية رحبة واسعة الأفق جعلتهم عباد الله إخوانا متحابين متضامنين صفا واحد أو جسما واحد ليس بعضهم أربابا لبعض يجير أدناهم على أعلاهم حتى كانوا بحق خير الناس وقد تجلت هذه المعاني وأبعادها في التغير في سلوكات الرعيل الأول الذي استطاع أن يتفاعل مع هذا التغير وكنموذج على ذالك العبارة الجميلة التي لخص بها ربيعي بن عامر رضي الله عنه أهداف الفتح الإسلامي. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذالك قبلنا منه و رجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نقضى إلى موعود الله قالوا وما موعود الله قال "الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى"ثم سأله رستم أسيدهم أنت قال لا ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم"([1]).

أن يضطلعوا بأعياد الدعوة ويسعوا جاهدين إلى تغيير ما بأنفسهم وتغيير واقعهم من واقع جاهلي شركي إلى واقع إيماني فترى تغيير الأنفس في النماذج الكثيرة من الجيل الأول ممن يشهد أن "لا إله إلا الله" فيعود من فوره إلى بيته ليحطم الأصنام ألتي طالما عبدها وتقطع العلائق والوشائج التي طالما وثقها حتى مع أقرب الناس إليه وما نموذج مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان يرفل في النية والإسراف الفاحش والتفاخر والتباهي بغريب عن هذا التغيير الذي فتق مواهب وعبقريات.

إذن هذه الحالة الشعورية النفسية التي تمت نتيجة المجاهدة للنفس والشيطان قد أثمرت بالفعل تغييرا جذريا,و انفصالا كليا عن الحياة السابقة,حيث انخلع المسلم من البيئة الجاهلية، وعرقها و تصورها و عاداتها و روابطها و انظم إلى عقيدة التوحيد و الجماعة المؤمنة، و قيادتها الجديدة ما نحا أياها ولاءه وحبه وطاعة.

[1]) عدنان رضا النحوي – لقاء المؤمنين – ج 2– مرجع سابق – ص 34.

إن تغير ما بالنفس الذي بدأ بمكة و انتهى بالمدينة غير وحول العربي من وحل الوثنية إلى صفاء التوحيد ومن السيف إلى المسالمة ومن القوة والبطش بدون ضابط إلى النظام ومن الخوف إلى الأمن ومن الثأر إلى القصاص ومن العصيبة للقبيلة إلى الأمة ومن التحليل الأخلاقي إلى فضائل الأخلاق ومن امتهان المرأة إلى تكريمها ومن ثمار هذا التغير الجذري الكلمة التي ذكرها جعفر ابن أبي طالب في حضرة النجاشي ملك الحبشة فقال "أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام نسئ ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته قد عاش لتوحيد الله و ألا نشرك به شيئا ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام و أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام"([1]). ما أعظم هذه الأهداف والحقائق ما أكثر ما تعلموا من رسولهم محمد صلى الله عليه و سلم وما أعظم ما أمنوا به وما أعظم ما حققوه في واقع الحياة البشرية حقائق ويقينا وإيمانا وعلما وممارسة الخالدة، لأنهم كانوا على مستوى من القوة واليقين ودرجة من الإيمان والوضوح فكان مصدرهم مدرسة النبوة فعرفوا منها وشربوا من معينها وعندما نسوق مثل هذه النماذج الخالدة –وما أكثرها– التي تربت في كنف أعظم رجل على هذه البسيطة وهو محمد صلى الله عليه وسلم ليس تسجيلا لحياة أفراد ولا هو تدوين لمناقب أشخاص ولا هو تخليد لما قاموا به من مآثر وبطولات إن كانت في ميزان رصيدهم التاريخي مشرقة مضيئة في سجلهم إنما الغرض هو الاتعاظ والاعتبار والاقتداء أو بتعبير أخر خدمة ما يراد من أهداف إسلامية.

الفرع السابع: إصلاح النفوس تغيير ما بداخلها

إن الهدف الأسمى والهدف الأكبر للرسول صلى الله عليه وسلم في سعيه المستمر والدائم التغير البطيء والموجة إلى ما بداخل النفس ألتي عليها تراكمات من العادات والتقاليد السيئة وبدع ومعتقدات فاسدة و ظلم و استبداد وانحرافات اجتماعية وسياسية رانت على الفطرة السليمة فتحجر

[1]) محمد الغزالي – فقه السيرة – مصدر سابق – ص 89-90.

العقل وعمى القلب وتقوقعت النفوس في قوالب ميتة من التقاليد لقد حكموا على أنفسهم بالسجن و رفضوا حرية الإيمان و انطلاق العقل من عقال التقاليد والموروثات المتحجرة هذا التعطل في الفكر والتبلد في الروح بسبب الوهم الذي تراكم على قلوبهم من تعظيم هذه الموروثات البالية مرده إلى العناد والجحود الذي أنكرته قلوبهم وعقولهم. ويُنسب محمد الغزالي هذا كله إلى أوهام داخل النفس فيقول "عند التأمل نجد أن الفكر ظلمة نفسية تشبع من داخل النفس وقلما يكون شخص قادرا على أن يفهم حقيقة رائعة لان عجزه الداخلي يجعله لا يحسن الفهم الفكر أحيانا يكون كرجل خائف من الظلام يمشي فيظن أن في هذا المنعطف شيطان وفي هذه الحارة عفريت إنها أوهام داخل النفس سببها الخوف فالكفر غالبا ما يكون من هذا القبيل ولا إصلاح لهؤلاء إلا أن تصلح نفوسهم وتغير داخلهم فإن الخوارق مهما كانت عظيمة فإن الفكر المؤسس داخل هذه القلوب لا تزول"([1]).

ويضرب بذالك نموذجا حيا من سيرة إبراهيم عليه السلام ليؤكد هذه الحقيقة قائلا "وقد حدث أن إبراهيم هدم الأصنام ورأى الذين يتبعون الوثنية كيف تحولت آلهتهم جذاذا وقطعا متناثرة ومع ذالك أبوا أن يكفروا بها" وقالوا لإبراهيم ﴿...لقد علمت ما هؤلاء ينطقون...﴾([2]) إذن لماذا تعبدونها؟

الإيمان الحقيقي ينشأ من تغير داخل النفس والتغير داخل النفس البشرية يقوم به نبي أوتي القدرة على إيقاظ العقول الميتة وعلى إحياء الضمائر الهامدة، أما عابد الوثن فإن وثنه إذا انكسر اشتري صنما آخر أو نحت من الحجارة صنما آخر وعابد البقر إذا وجد بقرته ذبحت اشتري بقرة أخري وعبدها لان الظلام موجود داخل النفس".

والمعجزة ألتي جاء بها الرسول الكريم معجزة إنسانية عملها الأول والأخير كيف تغير النفس البشرية (الإنسانية) من داخلها —كيف تضاء المصابيح ألتي زودت بها— كيف تدار أزرار من داخلها فيتألق الشعاع فورا هذه هي المعجزة المحمدية وهؤلاء الجاهلون من المجتمع العربي القديم رفضوا هذه المعجزة وقالوا "فليأتنا بآية كما أرسل الأولون...".

[1]) محمد الغزالي — شريط صزتي — دار الفرحة للصوتيات والمرئيات — سيدس محمد، الجزائر.

[2]) سورة - الآية 37س9.

والواقع أن العرب أيام البعثة تعهدتهم بالصقل والتهذيب يد صناع ومضت به في طريق المجد نبوة ملهمة نبوة حولت الماء والطين إلى أزهار ورياحين.

نعم أن الإسلام حول العرب إلى ربانين بعدما كانوا شياطين وجعلهم نماذج تحتذي في ميادين العبادات والمعاملات فكانت قيادتهم خيرا وبركة وكانت فتوحهم الفكرية والروحية أندى وأجدى من فتوحاتهم العسكرية الخارقة([1]).

إن هذا التحول والتغير في عصر النبوة لم يكن وليد طفرة دون مقدمات بل كانت مساع حثيثة وجهود ضخمة ومعناه كبيرة لتحقيق هذا التغير الجذري في حياة المجتمع العربي وكان مصدر هذا التغير المعجزة الباقية وهي القرآن الكريم الذي ترجم إلى واقع وسلوك من خلال حركة الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله وخلقه سلوكا وعملا.

المطلب الثاني: الدعوة و الداعية و سنة التغيير

والغزالي عندما يتحدث عن سنة التغير في الأمة لا يحيد قيد أنملة عن نهج التغير الذي سلكه الرسول الكريم فهو يؤكد على التغير ما بداخل النفس لتغير الواقع لان ظروفنا وأوضاعنا ومعيشتنا هي انعكاس لداخلنا وما تضمره في نفوسنا من دوافع ونوايا وما نمارسه من سلوكيات مرتبطة بهذه النوايا بالتالي فإن هذه السنة الإلهية تقضي بأمر في غاية الأهمية وهو أن ظروف المؤمن مرتبطة برغبته هو فإما أن يتغير وبالتالي يتغير وضعه وتتغير ظروفه وإما فإن الحال يبقي على ما هو عليه هنا تمكن قوة هذه السنة الإلهية كونها مرتبطة بقرار كل فرد وبيد كل فرد فلا يستطيع أبدا أن هذا الإنسان أن يقول لقد كان ظرفي كذا لذالك فعلت كذا ولا يستطيع أن يعتذر وبالتالي يصبح هو المسؤول الأول والأخير عما يحيط به من ظروف.

و إذا تقرر أن المسؤولية تلقى على عاتق الفرد في تغيير ما بنفسه لابد من تحقيق شرط أساسي وهو توفير المناخ الذي يساعد على هذا التغيير في ظل المتغيرات المعاصرة لأن العمل الدعوى والتربوي تقف دونه حواجز وعوائق و ألغام.

الفرع الأول: مراعاة الداعية لسنة التغيير

[1]) محمد الغزالي – مائة سؤال عن الإسلام – ج 2 – مصدر سابق – ص 379.

والداعية في حقل الدعوة ينبغي أن يراعي في دعوته العمل الدعوى والتربوي لأنهما أول الطريق إلى التغير فالدعوة إلى الله وتزكية النفوس ركيزتان أساسيتان في دعوة الرسل والأنبياء بل هما مفتاح التغير في كل تجمع بشري يراد إخراجه من عبادة العباد إلى عباده لله وحده ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام قال تعالى: ﴿يأيها النبي إنا أرسلناك شاهد ومبشرا ونذيرا(45) وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ الأحزاب 45-46.

الفرع الثاني: العوائق التي تحول دون سنة التغير

يقول فتحي يكن إن "من أهم خصائص المنهج الإسلامي أنه تغيري لا يقبل التعايش مع واقع يسئ ولا يرضى بالترفع و الترميم وإنصاف الحلول"([1]).

فالدعوة إلى الله ومن ثم التغير يجب أن يكون شاملا و البلاغ يجب أن يكون عاما ومبنيا ولا يقوم بهذا الدين إلا من يحوطه من جميع جوانبه".

والتغيير الذي لا يتضمن هذا القدر من الشمولية لا يكفل بقاء المسيرة على الجادة ولا يحقق التغير المنشود والمقصود ويبتعد عن تحقيق أهدافه وعلى الرغم من أن الأصل في منهاج التغير أنها اجتهادات بشرية في إقامة الدين وتثبيت أركانه إلا أنها تنطلق من الثوابت و الأصول المحكمة والخضوع للقوانين الطبيعية والمعايير المنطقية التي تربط النتائج بمقدماتها والأسباب بمسبباتها التي يجب التأكيد المتجدد عليها حتى لا تضيع في زحام الموازنات بين المصالح والمفاسد أو تختلط بغيرها من المتشابهات ومجاري الاجتهاد والغزالي عندما يتحدث عن التغير في أي معظم كتباته يربطه بالواقع الصحي النقي فيشبه حالة التغير في أي بيئة بالبذرة التي ينبغي أن توفر لها المناخ لها شرطانا أساسيان حتى تثمر وتؤتي أكلها" 1- الأول متعلق بحالة البذرة ذاتها والثاني موضوعي متعلق بنوعية الري والمناخ الذي تطلبه هذه البذرة أووفق هذا التصور الواضح فإن غاية ما يصبو إليه الدين كما يعتقد الغزالي "أن تجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل فإذا ضمنا هذا الجو الرحب فقد

[1]) فتحي يكن - الشباب والتغير - شركة الشهاب للنشر والتوزيع - باب الواد، الجزائر – 1989م - ص 17.

أمكن الدين أن يحقق رسالته وإلا فالدين لا يعدو أن يكون بضاعة تباع للناس في بطون الكتب أو كلام تنقله طائفة من الرجال في حلقات الوعظ وخطب المنابر لا يثمر غير التوجيه النظري([1]).

في كنف هذه الحجب المعتمة غابت الكثير من الحقائق الدينية عن عامة رجال الدعوة المعاصرة وما زال أكثرهم يظن أنه بالإمكان العيش في مثل الزمان الذي عاشه الصحابة والسلف الصالح مع صحة الإيمان واستقامة الأديان دون الحاجة إلى حكم أو سلطان أو أن هذا الواقع الذي نعيشه لم يبلغ في انحرافه حد اعتقاد جاهلية وأنه بالإمكان إصلاح الخلل وتدارك العطل بالدعوة والدعاء والموعظة الحسنة دون إدراك ما آلت إليه أمور العالم الإسلامي والعربي على خاصة منذ دخول الاستعمار الغربي الذي مازال المؤثر الرئيسي في مجريات شؤونه إلى يومنا هذا.

الفرع الثالث: دعوة الغزالي إلى فقه الواقع

ويعيب الغزالي على هذا الصنف من الدعاة الذي لا يريد أن يتواصل مع الواقع لأن فهم الواقع الذي تعيشه الدعوة والمرحلة ألتي تمر بها و الظروف ألتي تحيط بها ضروري لتحقيق أهداف الدعوة من خلال التغير ومن الأسباب التي تعيق الدعوة عن تحقيق هدفها فهم الواقع لأن الشيخ الغزالي في دعوته للإصلاح والتغير والنهوض ارتكز على فهمه للواقع المصري والعربي والإسلامي والنظرة لذلك الواقع في مجمل الواقع البشري المعاصر وقد تجلى ذلك في باكورة كتبه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية" الذي بين فيه معالم الواقع الاقتصادي والاجتماعي المصري وحاجته إلى الإصلاح العميق الشامل.

كان الغزالي ينطلق من الواقع إلى المصادر الشرعية ليحكم عليه ويضبطه بضوابط الشرع ثم يعود إلى الواقع ثابتا بالحلول الشرعية الملائمة حسب اجتهاده"([2]).

وعندما يدعو إلى دراسة الواقع وفهمه فإنما يدعو إلى ضرورة شرعية و إلى حاجة أخذت تبرز أهميتها يوما بعد يوم فقد ظهرت في حياة المسلمين أخطاء وانحرافات يعود بعضها إلى عدم فهم الواقع

[1]) محمد الغزالي – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 61.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص61.

الذي يعيشه المسلمون وإلى عدم تقدير الظروف المحيطة بهم أو عدم تقدير نشاط أعدائهم وأساليبهم.

ودعوته إلى دراسة الواقع وفهمه لان هذا الدين نزل به الوحي الأمين ليطبق في واقع البشر وحياتهم ونزل ليكون منهاجا للإنسان الفرد ومنهاجا للأمة بل منهاجا للبشر كلهم في حياتهم فلا بد من فهم هذا الواقع البشري بكل آفاقه ومبادئه حتى يصدق التطبيق ويصح العمل كما نزل لينظم حياتهم ويعالج مشاكلهم وقضاياهم فلا بد من فهم هذه المشكلات والقضايا حتى تصح المعالجة وتصدق الحلول ويستمر العمل.

وبدون هذه الدراسة الواعية للواقع تعيش الأمة حالة اضطراب و فوضى فكرية وسياسية واقتصادية و اجتماعية... ويمكن لنا أن نقدر أن الغزالي اتسم بالواقعية في مشروعه التغيري والإصلاحي وأنه رغم البدن الواسع بين أفكاره الإصلاحية وبين واقع المسلمين ورغم نقده المستمر لذلك الواقع لبعده عن حقيقة الإسلام فإنه كان دائم التأمل في احتياجات واقعه يمضى مع الدعوة في جميع مراحلها ومختلف أوجه نشاطها.

الفرع الرابع: التغيير يبدأ بأوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية

ففي مساره الدعوى وجهاده الفكري اهتم الغزالي بأوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية وخاض معارك في هذا المجال فاضحا لأدواء المسلمين الاجتماعية والشيخ يعلن ذالك بوضوح كامل حيث يقول "وقد رأيت بعد تجارب عدة أنني لا أستطيع أن أجد من الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة – إنه من العسير جدا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريا إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان ثم ينتظر بعدئذ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان كثيرا ما وجدتني أعالج بعض الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل فكنت أحار ماذا أقول لهم؟

هل أقبح لهم الدنيا كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟

إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه في أعين هؤلاء التعساء وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمس من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام وجمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة

للزراعة والصناعة والتجارة فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه وحكامهم أعرف بالله عز وجل؟ إن معرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة النفس فإن من عرف نفسه عرف ربه وهؤلاء التعساء مذهلون عن أنفسهم تائهون عن حاضرهم إن الشعور بالهوان والحرمان قد شل تفكيرهم فأن يعرفون ربهم ؟ أو يشعرون بما قدموا له"([1]).

"ثم يمضى ليكشف زيف الفكر الذي يتوهم أصحابه إمكانية أصلاح أحوال الناس بالمواعظ و الأفكار دون تغير الواقع المادي والاجتماعي الذي يلعب دوره البارز في فتح العقول والقلوب كي تتقبل المواعظ والأفكار"([2]).

ويواصل محمد عمارة يوضح هذا الجانب فيقول "أن العلاقة بين الإصلاح المادي وبين الإصلاح الأدبي والروحي لحياة الناس محددا نهجه في معالجة الأدواء الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها مجتمعات المسلمين "فشعوب الشرق الإسلامي برأي الشيخ محمد الغزالي تحتاج إلى جهود جبارة لرفع مشوارها المادي والأدبي أي إلى تصحيح إنسانيتها أولا أما جهود المصلحين قبل اتخاذ هذه الخطوة فهي أمواج من الماء تتدفق على صحراء من الرمال و هيهات أن يكون لها ثمر..."([3]).

فالمسلم أينما توجه إلى أقطار العالم الإسلامي تجدهم متخلفين عن غيرهم من الأمم الأخرى في كل ناحية من نواحي الحياة شبع فيهم الفساد والركود والجهل وطغيان بعض الناس على بعض حتى طمع فيهم غيرهم من الأمم القوية فثور نفسه لهذه الحالة المأساوية الكئيبة و يتألم لهذا المرض الذي حل بالمسلمين ويتلفت حوله يطلب المخرج والدواء فيجد كثيرا ممن بيدهم أمور المسلمين أو توجيههم هم الذين يتزعمون ركب الفساد أو يعملون على تمكينه في المجتمع.

إنه حجم الانحراف الذي وقعت فيه هذه الأمة خلال القرون، وهذا القدر الهائل من التخلف العلمي والحضاري والاقتصادي والحربي والثقافي والفكري، جعل الشيخ الغزالي يدرك عمق هذه الأزمة والعطب الذي أصابها، وأن المجتمع موبوء بأوضاع شاذة صارت به إلى الوهن والضعف

[1]) محمد الغزالي – الإسلام و الأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 62.

[2]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الواقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 109.

[3]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الواقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 109.

وجعلت الأكثرية الساحقة في ربوعه ضعيفة الارتباط به واهية القوى فيه لا تشعر فيه شعورا صحيحا بواجب حمايته والدفاع عنه والذود عن حياضه.

الفرع الخامس: الاضطراب الاقتصادي يمهد لاضطراب أخلاقي

ويعتقد الغزالي أن أسباب الانحراف والوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية يعود إلى الاضطراب الاقتصادي الذي يمهد إلى اضطراب أخلاقي فيقول: "قد ينشأ الاضطراب الخلقي عن الاضطراب الاقتصادي، ثم تبقى النفس صريعة له أمدا طويلا، حتى يتغلغل فيها وتغور جذوره في طبيعتها، فإذا انزاحت الأسباب الاقتصادية المحرجة بقيت النفس على الحال الأثيمة التي اكتسبتها فلا تتخلى عنها إلا بعد جهاد طويل**!!**

إن الاضطراب الاقتصادي يورث الأخلاق اضطرابا شنيعا بل يجعل الأجيال المتعاقبة تورث أنواعا شتى من أخبث الأمراض النفسية والآفات العقلية الوخيمة النتائج والبعيدة الأخطار.

وكم تظن عمق الفجوة بين بيوت العبادة ونواحي المجتمع إذا كانت هذه توحي إلى الخير بأقولها و تلك توحي إلى الشر بأحوالها([1])، إن العلاقة بين الاثنين هي علاقة بين بالخيال.

فبينما القول البليغ يهتف بالناس في المساجد؛ أن فروا إلى الله،**!** إذ الناس مثقلون في المجتمع بقيود من الحاجة الملحة، تحسبهم في سجون الضرورات المذهلة والعذاب اللحم فلا يستطيعون عنه فرارا و ودوا لو يستطيعون **!!**

الفرع السادس: النظام العادل ضمانة لكرامة الإنسان

والحديث الذي يلمح فيه نبي الإسلام: "إلى أن المعاصي قد توقع فيها الضوائق المالية" حديث يضع أيدينا على طرف الحقيقة التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة([2]).

فالفقير الذي أصارته هذه المجتمعات الفاسدة الملتوية هدف المتاعب وغرض المصائب وجعلت عرضة للضياع وكرامته للمهانة وعزته للاستذلال يبحث عن وقاية الوقايات والدواء الناجع لهذا الداء هو النظام العادل الذي يوفر للفرد أصول الحياة وضرورياتها ووسائل العيش الكريم وعندما

[1]) محمد الغزالي – الإسلام و الأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 92-93.

[2]) محمد الغزالي – الإسلام و الأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 92-93.

يتحقق هذا النظام العادل الذي تنهض به دولة أو حكومة لتحقيق المجتمع الصالح المنشود وإيجاده بما يحفظ التوازن بين أفراد المجتمع وتوزيع الثروة توزيعا عادلا بحيث لا يفسح المجال لهم أن يتضخم حتى التخمة ولا لفقير أن يرهق حتى الموت ولا لعامل أن يتعطل ولا لعاجز ولا ليتيم أن يتشرد تحقق هذه المعاني من تساو في الحقوق وتكافؤ في فرص العيش الكريم ضمانة لتحقيق الفضائل وفي هذا بقول الغزالي "ولا يحاد هذه البيئة يجب توفر عناصر ثلاثة هامة:

1- الكرامة الفردية وتقوم على حفظ حقوق الإنسان وتحريم دمه وماله وعرضه والارتفاع به إلى مرتبة القداسة،

2- الكرامة الاجتماعية وتقوم على المساواة بين الطبقات وإقامة الموازين القسط بينها وجعل التكافل المادي والأدبي هو الرباط الذي يجمع شتاتها ويركز قواها فلا تكون النعمة احتكار الطائفة و يكون الحرمان نصيب طائفة أخرى،

3- الكرامة السياسية وتقوم على إيجاد الحكومة المعقولة التي يشعر أفرادها بأنهم أجراء الشعب وخدمه لا سادته ولا جلادوه.

فإن الحاكم المستبد التي تنتهي تصرفاته بإذلال الشعب واحتقار رأيه وكبت رغباته هو الحاكم الذي يمهد تمهيدا واسع النطاق للاستعمار ويفتح أبواب البلاد على مصراعيها للعدوان الأجنبي ومتى انحنت القامات مرة لمن يريد ذلك من الحكام المجرمين انحنت مرة ومرة لمن يشتهي ذلك من طغاة المستعمرين"([1]).

عندما تتحقق هذه الضمانات عندها نطالب أفراد المجتمع بتحقيق هذه الفضائل هذه أما إذا دمر المعنى الحقيقي لوجود الإنسان " فلا تنتظر عدالة ولا شهادة نقية من شخص خرب القلب والواقع إن الذين ينتفضون الإسلام ويعبثون بشعائره يهزون الأخلاق هزا وينشئون أجيالا لا تصلح في حرب الإسلام"([2]).

ولا جل ضمان صلاح الفرد وتغير حياته إلى الأفضل ينبغي توفير الجانب المادي وذلك بالاستجابة لاحتياجات الفرد وتطلعاته المشروعة حتى يصبح قادرا ومتمكنا من مسايرة الحياة فتنمية الإنسان ماديا تؤهله إلى تنمية إيمانية وان البلاد الناهضة مطالبة بالعمل على تحديد بنائها الاجتماعي

[1]) محمد الغزالي – الإسلام و الأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص108.

[2]) محمد الغزالي – مائة سؤال عن الإسلام – ج 2 – مصدر سابق – ص 372.

والاقتصادي وفقا لمقدراتها ومواهبها وهذه فرصة سانحة لوضع الأسس الراسخة لمجتمع يتطور نحو الفضيلة والازدهار بصورة متصاعدة والأمر يتطلب من المسؤولين وحكام الأمة أمور لابد من العمل على انجازها لتحقيق بناء المجتمع الجديد:

- فلسفة اجتماعية شاملة تحملنا من واقعنا المختلف إلى المستقبل الأفضل،
- التخطيط العلمي للسير على ضوء هذه الفلسفة،
- التنفيذ والعمل الجاد في تحقيق هذا المخطط.

بهذا التصور يريد الغزالي من المجتمع أن يعترف بإنسانية الإنسان الفرد ويحترم حقه في الحياة الحرة الكريمة كما يعترف له بحقه في أن تكون له شخصية اجتماعية لها مزاياها الخاصة بها ولها حقوق أساسية معترف بها وعليها واجبات اجتماعية تتناسب مع المواهب و القابليات بدون تفريق بين افراد المجتمع والمواطنين على أساس اللون والعقيدة والجنس.

المطلب الثالث: صلاح أمر الدين مؤسس على صلاح أمور الدنيا

الفرع الأول: الدعوة إلى تأمين الجانب الاقتصادي

و لكن ما العمل والأوضاع السائدة بين المسلمين ما تزال بعيدة روح الإسلام فهناك التبذير وهناك الفساد وهناك التخمة لدى القلة يقابلها فقر وجهل ومرض لدى الأكثر به أجل إن المسلمين لابد أن يرجعوا إلى الإسلام إذا شاءوا والعزة والقوة وإلا فالثورات الاجتماعية وأساليب الهدم والتدمير في سبيل تضيع البلاد الإسلامية وعلى ضرورة رفع مستوي معيشة الفرد والعناية بصحته الجسدية والخلقية والروحية إذا كل ذلك من ضرورات الاستعداد المطلوب في قوله تعالى: "واعدوا لهم ما استطعتم" إذا ما استطيع أن يفعل المسلم الجاهل الجائع المريض إزاء خصم متعلم قوي البنية متقن التدريب إذن لابد من إعادة النظر في حياة المسلمين الاقتصادية الحاضرة وتوجيه باب الإنفاق في النواحي التي تعود على المسلمين جميعا بالخير و الرفاهة والقوة.

هذا العجز الاقتصادي في العالم الإسلامي حرمه من التقدم وجعله في وضع تام من التبعية للدول الكبرى وقد تحدث الغزالي عن ذلك في كثير من كتبه ولم يقتصر هذا العجز في مجال واحد بل انتشر في كل المجالات لدرجة العجز عن تأمين غذائه ولباسه فضلا عن المجالات الأخرى التي

استفحلت فيها عوامل الضعف وركنت إلى زاوية الجمود والركود وقد حز في نفس الغزالي هذا التردي والعجز فقال "وظهر عجزها عن تبليغ رسالتها بعد عجزها عن العمل بها بداهة وتبع ذلك عجزا آخر اتكى وأخرى عجزها عن صنع رغيفها الذي تأكله"([1]).

ويعتقد أن هذا العجز وصل إلى كل مرافق الحياة وشمل جميع المجالات والمؤلم حقا والمؤثر أن الغزالي وهو ينقد هذا الواقع العاجز المرير يصور بدقة وتأثير الحال ألتي آلت إليها الأمة العربية والإسلامية فيقول "إنه لو قيل لكل شيء في البلاد الإسلامية عد من حيث جئت لخشيت أن يمشي الناس حفاة وعراة"([2]).

الفرع الثاني: الجانب المادي مكمل للجانب الروحي

قد يتوهم البعض أن الغزالي في تركيزه على الجانب الاقتصادي يتماهى مع المنهج المادي للشيوعية و الشيوعيين فيقول "يتوهم ذوو الآفاق المغلقة أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل والفضائل جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المخصصة للحياة. و استهانة بالقوى الروحية السامية وهذا التوهم خاطئ فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحي بيد أن ذلك لا يعني إغفال المشاهد المحسوس من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات المصابة بالعور والاحتياج بل إن الاضطراب الاقتصادي في أحوال كثيرة جدا قد يكون السبب الأوحد في تسوء الرذيلة وشيوعيها والحديث النبوي الذي يلمح فيه نبي الإسلام إلى أن المعاصي قد توقع فيها الضوائق المادية "إن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب " يضع أيدينا على طرق الحقيقة ألتي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة"([3]).

والذي يظهر من تحليل وتشخيص الغزالي لهذه المسألة أنه لا يقبل مطلقا الانفصال بين الجانب المادي والروحي لأنهما يمثلان صورة متكاملة متماسكة والكثيرون من أهل الإسلام جانفوا – للأسف– التصور الإسلامي الصحيح ومن ثم الحقيقة وفهموا خطأ أن الجانب الروحي والمادي لا

[1]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 148.

[2]) محمد الغزالي – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 43.

[3]) محمد الغزالي – الإسلام و الأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 91 – 93.

يتفقان ولا يتوافقان وأن أحد من الخلق لا يبلغ حقيقة التقوى ودرجة القبول و الرضا إلا إذا عاش وهو يعاني الإملاق والفاقة.

بل كما ذكر محمد عمارة أن الشيخ الغزالي تبنى و أبرز هذا المنهج الإسلامي الأصيل الذي يرى أن صلاح أمر الدين مؤسس على صلاح أمور الدنيا وليس العكس و إذا كان القرآن الكريم قد نبه على أن الاستبداد والانفراد بالسلطة والسلطان إن في المال أو السياسة هو المقدمة المفضية إلى الطغيان ﴿كلا إن الإنسان ليطغى(6) أن راءه استغنى﴾ العلق الآيتان 6 و7"([1]).

ويسترسل محمد عمارة في هذا السياق مستشهدا بالإمام أبو حامد الغزالي الذي يؤكد على هذه الحقيقة قائلا: "إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا فنظام الدين بالمعرفة و العبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن و الأقوات والأمن ولعمري من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المسهمات الضرورية و إلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة ؟فإذن بان أن نظام الدنيا أعني مقادير الحاجة –شرط النظام الدين"([2]).

فالغزالي يؤمن بحقيقة طالما ذكرها المتخصصون وهى أن الإسلام لا يعرف الفصل بين ماهو مادي وماهو روحي ولا يفرق بين ما هو دنيوي و ما هو أخروي فكل نشاط مادي أو دنيوي يباشر الإنسان هو في نظر الإسلام "عبادة" طالما كان مشروعا وكان يتجه به إلى الله تعالى فالمسلم مطالب أن يجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية و بتغير آخر في ظل الشرع والنظام الإسلامي فإنه إلى جانب ايمانه بالعمل المادي وأن النشاط البشري لا يمكن إلا أن يكون ماديا غير أنه لا يغفل الجانب الروحي في الكيان البشري وكل ما يفعله الإسلام بهذا الخصوص هو أن يتجه المرء بنشاطه إلى الله تعالى ابتغاء مرضاته وخشيته إذا يقول الله تعالى "ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم" سورة

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 111.

[2]) محمد عمارة الشيخ – محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 111 -112.

الحشر الآية رقم 19، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم {إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتُغِيَ به وَجْهُه}([1]). وهو ما عبر عنه الأصوليون بقولهم "الأمور بمقاصدها".

ويعتقد الغزالي أن السبب الرئيسي لهذا الاختلال مردة الإنسان نفسه سواء بظلمه من حيث سؤ توزيع الثروة أو بكفرانه من حيث إهمال استثمار الطبيعة و موقفه السلبي منها أو عدم استغلاله جميع المصادر ألتي تفضل الله بها عليه استغلالا سليما فهي في المحلصة ترجع إلى سلوك الإنسان نفسه وتقصيره سواء إزاء الموارد الطبيعية أو إزاء أخيه الإنسان.

الفرع الثالث: الولاء للإسلام عقيدة و شريعة

يقر الغزالي بوجود قصور في الواقع الإسلامي وتصورات رجاله وهو ما يبرر تناوله بالنقد والتحميص والتوجيه وقد يتجلى ذلك الهدف في مجموع مؤلفات الغزالي بل يكاد هذا الغرض أن يكون مركزيا في مجموع أعماله المسموعة أو المكتوبة...، حيث عمل الشيخ الغزالي على ترشيد الواقع الإسلامي من جميع الجوانب فتناول أفكار رجاله و نفسياتهم بالنقد حينا والتوجيه حينا آخر ليخلص إلى تحديد ما يجب عمله لتلاقي قصورهم ولتحقيق هذه الغاية شخص الأمراض التي أصابت الأمة بعد تحليل أحوالها".

وقد لخصها عمار جيدل في نقاط ثلاث:

1. ضعف الولاء لله تعالى في بيئة و انعدامه في أخرى،
2. فقد روح الالتزام في عقائدنا وعبادتنا وأفعالنا العادية،
3. وقوع زمام التوجيه في أيد شيوخ غير مأموني الجانب إما بفعل جهلهم بالدين أو بفعل جهلهم بالدنيا وكل ما من شأنه أن يحقق لهم مطالبها([2]).

"ولتجاوز هذه العلل الفتاكة عمل الغزالي على رسم خطة تجعل من الولاء للإسلام أسمى أهداف الصحوة الإسلامية ولا يتأتى تحقيق ذلك الهدف الكبير إلا إذا بعثنا الروح في التزامنا بعقائد الإسلام و شرائعه وهو ما يبرر جعله هدفا رئيسا في مشروعه التوجيهي وتحقيق هذين الهدفين حسب

[1]) أخرجه داوود والنسائ.

[2]) منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والاصلاح عمار جيدل –دور الشيخ محمد الغزالي في ترشيد الواقع الإسلامي دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام –2001 ص 41.

رأى الغزالي "لا يتم إلا إذا أبعد من ميدان التدين والتوجيه الديني العلماء الذين يحرقون البخور بين أيدي ساسة منحرفين يزينون لهم مجونهم و نكوصهم"([1]).

ولتحقيق هذه الأهداف الكبرى يرى عمار جيدل و هو يستقرأ نتاج الغزالي المسموعة أو المكتوبة كلها تدعوا إلى:

أولا: إعادة الولاء للإسلام وفيه يقول: "الولاء لله تعالى ليس كلمات جوانية فارغة بل هو قوة فاعلة مؤثرة مؤنسة لتصرفات المتلبس بها بحيث تسري في جميع أفعاله وميادين حياته لهذا تعددت مناحي الحديث عن هذا الهدف في أدبيات الغزالي فيتناوله منه جهة العمل الفردي كما يتناوله من جهة التوجيه الحضاري كما يظهر في العمل الحزبي وهكذا في سائر مناحي الحياة".

ولا يتحقق هذا الولاء للإسلام إلا من خلال:

- الولاء على مستوى العمل الحضاري بحيث يجب أن يعاد الولاء للإسلام كتوجه حضاري عام شامل لكل مناحي الحياة([2]).
- الولاء على مستوى العمل الفردي من أهم سمات الولاء الفردي القيام بالواجبات الشرعية دون خوف أو وجل أو خضوع لضغوط الواقع الفكري أو السياسي ولهذا يستغرب الغزالي من المسلم الذي يستحى من الصلاة بينما ينادي غيره بعبادته دون وجل أو خجل رغم كونها باطلة عقلا ونقلا يقول الغزالي "والمسلم الذي يستحى من الصلاة بينما يستعلن اليهودي بصلاته في أرقى العواصم لا يمكنه عدة مسلما وإن نال ذره من عناية الله إذا اتخذنا الدين لهوا ولعبا"([3]).

ثانيا: إعادة الروح لعقائد الإسلام وشرائعه وفيه يقول جديل " تنسحب عملية إعادة الروح لتعاليم ديننا العقدية والتشريعية و الأخلاقية وفق النسق الإسلامي على الفعل الإنساني بجميع مكوناته سواء كان فرديا خالصا أو فرديا ذا بعد اجتماعي أو كان عملا من طبيعة اجتماعية ويسعى في

[1]) منهج الشيخ محمد الغزالي في التحديد والإصلاح عمار جيدل دور لشيخ محمد الغزالي في ترشيد الواقع – مرجع سابق – ص 41.

[2]) منهج الغزالي في التحديد والإصلاح عمار جيدل دور الشيخ الغزالي في ترشيد الواقع الإسلامي – مرجع سابق – ص 42.

[3]) محمد الغزالي هموم داعية – مصدر سابق – ص 108.

كل ذلك إلى بعث أبعادها الوظفية المعبر عنها بالمقاصد ألتي تتجلى في جميع آثار الفعل المنتظر من المسلم.

تتجلى هذه الروح في الجانب النفسي والمعرفي والثقافي كما تظهر في الفعل السياسي والاجتماعي والفكري بصفة عامة و عموم تلك الأهداف المتوخاة تبين مركزية الهم الحضاري في الخطاب الإسلامي الراشد الذي يجعل من بعث الروح في تعاليم ديننا هدفا رئيسيا ومركزيا"([1]).

ثالثا: إقصاء وعاظ السلاطين من التوجيه الديني وفيهم يقول "يراد بالإقصاء في هذا السياق طردهم من ضمير الأمة فلا يكون لهم سلطان على عقائدها و إرادة أفرادها لأنهم بهذا التصرف قد يعودون إلى جادة الصواب أو يتنازل عليهم السلطان لعدم ثقة أمتهم بهم و الأصل في علماء السلطان أن يتبحروا إلى جانب العلوم الدينية في الفلسفة في شتى العصور وعلم النفس والأخلاق مع القدرة على فهم المتناقضات والإحاطة بأبعادها فيفهم أحدهم الشيوعية بنفس القدرة التي تفهم بها الصوفية أو بنفس القدرة التي يفهم بها حقائق الدين لكن علماء هذا الزمان أصابهم القصور والتقصير إذا فيهم من لا يريد في بلده يتلامس فذهب إلى أوربا أو أمريكا فأخذ شهادة مزورة يخيل للشيخ الغزالي أنها كتبت لهم لا يدرون هم خباياها قال الغزالي "فأدركت أنه حمل الدكتوراه سفاحا"([2]).

الفرع الرابع: علماء اليوم بين القصور و التقصير

وقد رصد الاستناد عمار جيدل قصور العلماء في النقاط التالية:

- إهمال الواجب التوجيهي، وذلك بتنازلهم عن دورهم في صناعة المجتمع الصالح غيرهم من الطالحين،
- ممارستهم للتضليل وفيهم يقول الغزالي "إني أكره الشيوخ الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوي الجهلاء أنهم يدورون في القاهرة وفي كل عاصمة وفي الجامعات والكليات –بذممهم كما يدور سائقوا سيارات الأجرة بعرباتهم يتنقلون "هل من راكب– قبحهم الله وقبح من كلفهم وقبل منهم".

[1]) عمار جيدل – منهج الغزالي في التجديد والإصلاح – مرجع سابق – ص 50.

[2]) عمار جيدل – منهج الغزالي في التجديد والإصلاح – مرجع سابق – ص 73.

- جعلوا الدين معيبا بتصرفاتهم وفيهم يقول الغزالي إن "كثيرا من المنشغلين بالدعوة الإسلامية مصابون بهذا العوز الفظيع ظاهرهم أنهم يحملون الإسلام في حناياهم والواقع أن الإسلام هو الذي يحمل عبئهم ويتحامل على نفسه وهو يسير بهم في متاهات الحياة والدروب"([1]).

و في نفس السياق يعمل المشتغلون في حقل الدعوة سوء تعاملهم في تبليغ دعوتهم إلى الناس فيقول "ومصاب الإسلام في أزمان كثيرة وفي هذا العصر خاصة يجئ من الدعاة الذين يعجزون عن الموازنة بين نشئ تعالميه إما لشلل في مداركهم يمنعهم من الاتزان وإحسان الفهم والاقتباس والتوجيه أو النقص في ثروتهم العلمية فهم يحفظون شيئا وتغيب عنهم أشياء ومنذ بضع مئات من السنين سقط المجتمع الإسلامي كله فريسة لعصاب من المتصوفة هونت لديه العمل للدنيا باسم الإقبال على الآخرة فكان عقبى هذا التوجيه الضال دمار أصاب المسلمين في كيانهم العلمي والعسكري والسياسي"([2]).

وفي سياق آخر يحمل باللائمة تقصير هؤلاء الدعاة الذين يفتقرون إلى النظرة العميقة في معالجة القضايا الكبيرة الراهنة فضلا عن التحديات التي تجابههم فيقول "والدعاة لا يدرون كيف يستنقذون أمتهم المحرومة من هذه الأوضاع القاتلة لأنهم لا يتجهون إلى داخل الإنسان المسلم يحركون ما توقف من أجهزته وينيرون ما أظلم من مصابيحه إنهم يتحركون نحو الظاهر القريب أو تحته بقليل"([3]). وفي نفس السياق يعبر عن حشيته "يعجز المعلم عن إبصار الساحة ألتي يتعامل معها أن يعلن عن قضايا كبيرة فلا يستطيع من خلال إمكاناته أن يحققها فيدفع في شيء من الإحباط و يوقع الآخرين بشيء من الانكسار والذي أردته أن يكون عنده فقه للصورة التي يتعامل معها من خلال إمكاناته المتوفرة ومن خلال الفرص المتاحة له —وقد يكون بعضهم في الحقيقة صاحب نية سليمة وصحيحة ولكنه عاجز عن إدراك الصورة التي يتعامل معها فيدفع إلى بعض المواقف التي توقعه في الإحباط و الانكسار أو ضياع القضية أصلا"([4]).

---

[1]) محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة والداعية – الطبعة الرابعة – 1421 هـ، 2000م – دار القلم دمشق – ص 151.

[2]) محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة والداعية – مصدر سابق – ص 193.

[3]) محمد الغزالي – مئة سؤال عن الإسلام — ج 2 – مصدر سابق – ص 378.

[4]) محمد الغزالي رحمه الله – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – إعداد وتقديم الأستناذ أبو أسامة عمر خلفة – نومديا للطباعة والنشر والتوزيع — الجزائر – 1429هـ 2008م – ص 48-49.

وكان من المفترض أن يكون الداعية رائدا لهذه الأمة يقودها إلى مراشدها يحي فيها روح الوعي الباعث على الرغبة في تعبئة كل طاقة الأمة والمجتمع لقطع دابر الخلل الداب في جسمها بعد الصدمات المتلاحقة في شتى المجالات.

يؤمن الغزالي بأن إسناد أمور الدين إلى غير أهله صارت تدفع ثمن تفويض تلك الأمور إلى من لا خبرة له بفروعه وأصوله ولا هو يملك علما ولا رأيا ولا سياسة ولا تدبيرا وصارت المناصب الشرعية معظمها –إن لم نقل كلها– بالتوارث والحمية والمحسوبية وغاب معيار الاستحقاق والأهلية وكانت النتيجة أن ضاع الدين بيننا وعم الجهل والفساد فضلا عن انفراط عقد الجماعة وانثلام وحدتها بسبب اختلف كلمة أهل الإسلام و أما مظاهرها هذا الانفراط فتتجلى في تنازعهم وتنافرهم وتخاذلهم وإعراض بعضهم عن بعضهم وهذا ما حذر منه الشيخ محمد الغزالي في مواقف كثيرة ساهمت في تفريق الأمة عندما انحرفت عن جادة الشرع.

المطلب الرابع: التحذير من الخلافات وتداعياتها على الأمة

الفرع الأول: التعصب المذهبي و الخلافات القديمة

وقد كان تركيزه على هذا العنصر ألا وهو: المساهمة في تفريق الأمة وذلك من خلال التعصب المذهبي وبعث الخلافات القديمة ففي التعصب المذهبي يقول "وقد قرأت ورأيت من أمراض التعصب المذهبي ما يثير الاشمئزاز ويدعو إلى الدهشة وكأن الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصدا إلى تمزيق المسلمين و إهانة معارضيهم في الفكر بعلل مختلفة"([1]).

ويستدل لمجموعة من الأمثلة عن ظاهرة التعصب المذهبي([*]) وتداعياته ثم يطرح سؤالا لم هذا التعصب المذهبي، فيجب "لقيت متعصبين كثيرين ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية فوجدت آفتين تفتكان بهم الأولى: "العجز العلمي أو قلة المعرفة هؤلاء يحفظون نصا وينسون آخر أو يفهمون دلالة للكلام هنا ويجهلون أخري وهم يحسبون ما أدركوه الدين كله إن القصور العلمي عند أولئك وأمثالهم هو مثار الشغب والفوضى و الآفة الثانية في التعصب المذهبي سوء النية ووجود أمراض

[1]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية – دار السلام للنشر والتوزيع الوادي – الجزائر– 1401هـ – ص 93.

*) أنظر محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، التعصب المذهبي – مصدر سابق – ص 94 –95.

نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج ويغلب أن تكون آفة الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والتسلط" ويضرب مثالا على ذالك "رأيت في أحد مساجد القاهرة رجلا تأخرت به السن يوشك أن يضرب نفرا من الطلاب الذين صلوا و رؤوسهم عارية" أخذت على يديه وأفهمته بشق النفس أن الرأس ليس عورة و أن الصلاة صحيحة وأن مسلكه خطأ فما تركهم إلا مغلوبا على أمره غير مقتنع بما قلت"([1]).

و يعلق على هذا الصنف من الناس "بأنه لم يهذب نفسه غطاء لقلب غليظ و غرائز فجة وهو يجده متعته في قضايا الخلاف ليثور ويفور وظاهر أمره الغضب للدين وهو في الحقيقة بنفس عن طبيعة معتلة وتربية ناقصة أو مفقودة"([2]).

أما بعث الخلافات القديمة فقد تجلى من خلال إحياء آراء الفرق التي اندثرت و انتهت عمليا في واقع المسلمين فيعلنون الحرب على الجهمية و القدرية و المرجئة و ينشرون آراء قديمة صوتها بطون الكتب بدعوى محاربتها و القضاء على فكر أصحابها كأنهم يحاربون الأشباح وطواحين الهواء دون فائدة تذكر للإسلام و أهله بل إن ما يحدث العكس إذ تبعث للحياة آراء وأفكار طالما أطرت بالفكر الإسلامي و استنفدت جهود الراسخين من أبنائه في التصدي لها والأولى أن تبقى هذه الأفكار و المقولات في نطاق الدراسات التاريخية والعلمية المتخصصة بعيدة عن ساحة الدعوة"([3]).

الفرع الثاني: إقحام الدعاة في الخلافات الفقهية و في فقه الفروع

1- الاختلاف المحمود رحمة

يجب أن ندرك أن الاختلاف في المسائل الفقهية الفرعية في أمور الدين هو من رحمة الله بعباده و مظهر من مظاهر تسير ورفع الحرج عن المسلمين والذي هو أحد قسمات الرسالة الخاتمة فالاختلاف في مقدار ما يسمح من الرأس و مقدار المسافة المبيحة للقصر أو غيرها تسير في رسالة الإسلام نفسه لا يمس جوهر العقيدة وقد مارسه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لمن سألوه عند

[1]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين – مصدر سابق – ص 95 –96.

[2]) نفس المصدر ص 96.

[3]) محمد الغزالي – هموم داعية – – مصدر سابق – ص 130.

مباشر تهم التصرفات المختلفة في الحج فكان قوله لهم جميعا "افعل ولا حرج الحج عرفة" بمعنى أن هذه الاختلافات لا تفسد ولا تنفي سلامة الأصل و هو الإسلام فالاختلاف إذن في المصلحة إذا لم يؤد إلى التفرقة و الانشقاق فهو رحمة و نعمة أما الاختلاف المذموم فهو الذي ذمه الله تعالى بقوله ﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...﴾ سورة آل عمران الآية 19.

2- الاختلاف المذموم فرقة وانشقاق

فالاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة و الانشقاق هو الاختلاف المنبوذ والمحرم في الإسلام وإذا كان قصار النظر والضعفاء في الفقه الإسلامي الصحيح يكفرون بعض من يخالفهم في المذهب الفقهي فهؤلاء يظلمون أنفسهم و أمتهم ويبقى الإسلام هو العامل الأكبر و الأعظم من عوامل وحدة المسلمين ويرجع الغزالي أسباب الخلاف ومغذياته التي تبقيه إلى يومنا هذا في ضعف الخلق والإيمان.

"فبدلا من تناول الخلاف بشكل علمي في إطار من قيم الإسلام و أخلاقه للوصول لحكم سليم في تطبيق لقوله تعالى ﴿...ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى...﴾ المائدة الآية 8، فقد تدخل في القضية"([1]). "سوء الظن بالآخرين وشهوة التغلب عليهم وتضخم الهفوات التي تقع منهم وتوليد آراء رديئة لم يقولوا بها بها من الآراء التي يذهبون إليها مع تمني بقائهم على الخطأ والغفلة عما يعقبه الانقسام الطفيف من مضاعفات جسيمة يجب تلاقيها أو معرفة ذلك والذهاب مع العتاد إلى نهاية الشوط وهي رذائل تعود إلى ضعف الخلق وحب الدنيا وأن أدعى أصحابها الغيرة على الدين والبحث عن الحق"([2]).

3- الخلط بين الدين والتدين

[1]) محمد عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 283.

[2]) محمد الغزالي – كيف نفهم الإسلام – مصدر سابق – ص 95.

هذا الصنف من الناس في نظر الغزالي "دعاة مرضى ظلموا الدين فيهم يقول الغزالي "يوجد شباب وشيوخ يعلمون في ميدان الدعوة أبرز ما يمتازون به الجهل... بالنسب التي تكون معالم الدين وتضبط شعب الإيمان.

تصور تلميذا يقال له أرسم خريطة لجزيرة العرب و وضح مكان الحرمين بها فإذا هو يرسم الخريطة و ليس بها إلا الربع الخال فإذا سألته و أين مكان الحرمين؟ و وضع نقاط بين تبوك و الأردن أو تلميذا يقال له أرسم خريطة لنهر النيل فإذا هو يجعل فرعي الدلتا يبدءان من الخرطوم لا من القاهرة إن كلا التلميذين ساقط لا محالة في هذا الاختبار فما الرأي إذا اختيرا كلاهما مدرسا للجغرافيا؟

المداد غفيرة من المتحدثين في الدعوة يشبهون هذا المدرس الجهول أقصابا صغيرة تتضخم في رؤوسهم وقضايا تستخفي 'وحماس في موضع البرود وبرود في موضع الحماس و أحاديث ضعيفة أو منكرة تصحيح و صحيحة تضعف وترد"([1]).

لم يخف الغزالي حيرته أمام هذه المشكلة والتي يعتبرها من الأسباب التي تعيق الدعوة عن تحقيق هدفها ألا وهو فهم الدين ذاته ومعرفة أبعاده الوطيدة والاجتماعية فمازال أكثر العلماء الذين يشتغلون بالدعوة يخلطون بين مفهوم الدين ومفهوم التدين فهم يدعون في الواقع إلى التدين لا إلى الدين بشموليته ولهذا صار وكل اهتمامهم بتربية الأجيال (الناس) ويعلمهم أمور دينهم دون وجود هدف أبعد من ذلك يسعون إلى تحقيقه كما صار أكثرهم يدعو إلى العودة إلى الدين وتنفيذ أحكامه و إقامة شرائعه فلا يجد لدعوته صدى اجتماعيا كبيرا لغياب الأبعاد الوطنية الاجتماعية بعد أن أسقطوا الإنسان وحقوقه وحريته من خطابهم أو همشوا دوره إذا لم يعد الإنسان في خطابهم هو الهدف والغاية بل الهدف عندهم هو الدين ذاته.

الفرع الثالث: الدعوة على تجديد الخطاب الديني بما يتوافق ومتطلبات العصر

يؤمن الغزالي أن الدعوة الإسلامية في الوقت الراهن تواجه تحديات وصعوبات جمة تحتم علينا (الدعاة المخلصين) ضرورة التحدي لها و مواجهتها و أحد أوجه الخلل في الخطاب المعاصر إعادة النظر لتطويره حتى يتناسب مع المجتمع المعاصر بتجلياته وتعقيداته العملية و المعرفية فلا تخطي العين

[1]) محمد الغزالي – هموم داعية – مصدر سابق – ص 155.

أن الغالبية العظمي من العاملين في حقل الدعوة من خريجي كليات الدعوة وغيرها من الكليات في الأزهر وما يناظره من جماعات إسلامية عجزوا عن ملء الفراغ لدي الجماهير واستقطابها بعيدا عن الأفكار الخاطئة والغالبة.

والجدير بالملاحظة كأن من هؤلاء المستغلين بالدعوة يفتقدون إلى أبسط الشروط الداعية فنجدهم يقحمون أنفسهم في قضايا تتعلق بالفكر الإسلامي وبقضايا الفقه والعقيدة و نتيجة لعدم الفهم الحقيقي والمتكامل للإسلام تسارعت إل عقولهم فتاوى منفرة، وتصحيح عقائدهم و أحيانا مكفرة فكانوا عالة على الدين وتشويها لحقائقه.

و ستظل هذه المشكلة أحد أوجه الخلل في الخطاب الديني المعاصر ما لم يصوره جذرية عن طريق برنامج متكامل يرصد أوجه الخلل في المجتمع ويدعم مؤسسات الفكر الديني الحقيقية ويعيد الاعتبار والثقة لرجال الدعوة.

ومن ثم إن آفة الآفات وعلة العلل في الخلل الذي يعاينه حملة هذا الدين و يقدمونه للناس مبتسرا مبتورا وفيهم يقول الشيخ محمد الغزالي "في اعتقادي أن أهل الدين بحاجة لأفكار تكون فيهم رجات داخلية تجعلهم يتحركون من الداخل لإصلاح أنفسهم"([1]).

والحاصل من كل ما تقدم يعتقد الغزالي أن العمل الإسلامي لا يرقى إلى سنة التغير إلا إذا جمع بين الدراسة بالشرع والمعرفة بالواقع وبمعنى آخر "تصويب ما أعوج في ممارسة أمور الدين والدنيا عند المسلمين والعودة بها إلى الأصل الذي لم يلحقه فساد الزوائد و المحدثات إنه تحقيق مطابقة بين إسلام معيش و إسلام مرجعي عد أصلا للعبادات والمعاملات معيار كل تغير بالمعنى الإسلامي مدى التزام التجربة الإسلامية موضوع النظر – النموذج الأصل كما قدمته حقبة الدعوة والخلافة الراشدة وفي هذه الحالة ما يفيد أن انقساما وقع بين الإسلام المرجعي الأصل وبين الإسلام التاريخي المعيش أدى إلى تدهور هذه الأخير وزيغه عن جوهره العقدي.

والحق أن هذه هى نقطة انطلاق كل دعوة تغيرية من داخل من داخل الإسلام وهو ما يعني أن التغير لا يفترض تجديدا أو أحداثا على أصل فذلك مما يؤول به انحراف وفساد يحول دون تحقيق التغير الصحيح الذي يحقق المصلحة العامة للمجتمع"([1]).

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – مصدر سابق – ص 157– 158.

"فالتغير في منهج الشيخ الغزالي الدعوى ليس مجرد جهود و تراكمات في ميادين الوعظ والنضج والترشيد والإصلاح الثقافي والفكري والتربوي و إنما هو معادلة متماسكة العناصر والوسائل والغايات قائمة على سنن ثابتة لها نتائجها الصارمة على مستوى الفرد أو الجماعة أو الواقع المتعامل معه وهذه الميزة كما تعكس رسوخ الشيخ الغزالي في الدعوة فهي تشير إلى عمق استنباطه واستبصاره بحقائق القرآن الكريم ومنهجه في بناء الأنفس والمجتمعات والأمم.

و بإيجاز دقيق أن التغير عند الغزالي مجالان:

1– مجال داخلي يتعامل مع النفس والعقل والفكر

2– مجال خارجي يتعامل مع الواقع دراسة وفهما وتطبيقا ولا يتحقق هذا التغير إلا بتكامل هذين المجالين([2]).

[1]) عبد الإله بلقزيز – الخطاب الإصلاحي في المغرب –التكوين والمصادر ط 1 –دار المنتخب العربي – بيروت، لبنان – 1417هـ، 1997م – ص 15.

[2]) ابراهيم نويرى – الشيخ محمد الغزالي مفكرا وداعية – بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام الإسلامي – جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة – السنة الجامعية 1418هـ –1998 – 1999م – ص383.

الفصل الرابع

سنة الله في الاستبداد

المبحث الأول: الدول الإسلامية بين الحرية و الاستبداد

المبحث الثاني: الاستبداد في الدولة العربية القُطرية

مقدمة

إن أهم مظهر لتخلف العالم الإسلامي والذي أصبح سمة بارزة وعلامة مميزة للساحة السياسية في أغلب الأقطار الإسلامية ظاهرة الاستبداد السياسي، و ما تبعه من فساد سياسي أغرق الأمة في وحل العجز و الإخفاق و التبعية.

و لا نعدو الصواب حين القول بأن السبب الرئيسي في بوار الكثير من مشروعات التنمية و انهيار عالم السياسة الحضارية يرجع بالدرجة الأولى إلى غياب الحرية، و وخضوع الوجودات العربية و الإسلامية إلى حكم استبدادي قمعيي و تبعات متعاظمة في الاقتصاد والثقافة.

فالاستعباد و الخضوع الأعمى لقوى السيطرة هو الذي يحول دون الحيوية والفاعلية و الانطلاق في رحاب مشروعات التنمية الشاملة. ويعتقد الغزالي أن هذا الداء العضال الذي نَخَر كيان الأمة السياسي قديما هو الذي أفرز الانحرافات على طول التاريخ.

و أضحت المشكلة الأساسية التي تواجه الدولة الوطنية في العالم العربي و الإسلامي هي تضخم نزعة الاستبداد مع اتساع دائرة الانحراف للسُّلَطِ الحاكمة و استبداد استخدام العنف والقوة تجاه الآراء الحرة و الأفكار الجديدة.

و أن الكثير من المشاكل المتراكمة والمعقدة في العالم العربي الإسلامي ترجع إلى غياب الحرية لأن الحرية هي التي تسمح لجميع الأطراف و القوى قي المجتمع أن تمارس دورها في أغناء الوحدة الوطنية وتكريس قيم العدالة و التسامح في مسيرتها التصاعدية، ولقد أثبتت التجارب أن تأجيل مشروع الحرية لإنجاز الوحدة لا يؤدي إلى نتيجة إيجابية بل الاستبداد هو الذي يَئِد مشروع الوحدة لأن الدولة المستبدة تصنع بيئة اجتماعية تقمع الآراء و تنظر إلى الاختلافات و الاجتهادات الثقافية والفكرية نظرة شائنة.

فالقمع لا يصنع وحدة والقسر لا يؤدي إلى الاتحاد و إنما يؤديان إلى تغذية الصراعات والتوترات. و استمرار هدا الوضع الذي يعتمد التغييب القسري و الإقصاء المتعمد للقيادة الشرعية في الأمة.

و من ثمة كانت نداءات الغزالي و مواقفه بل معاركه الكبرى والذي انخرط فيها مبكرا معركته ضد الظلم و الاستبداد من خلال كتاباته الأولى و لم يسبقه إلى ذلك أحد، ويعد كتاب "الإسلام و الاستبداد السياسي" أول كتاب يحدث زلزالا في عرش الطغيان إذا استثنينا كتاب "طبائع الاستبداد" لعبد الرحمان الكواكبي لاختلاف الظروف والدوافع، إلا أن الشيخ صرخ وواجه وأعلن بصراحة أنه يعادي الاستبداد بشتى صوره وألوانه.

و قد اعتبره عدو الحرية و الدين والعقل و الحضارة، فهو طاعون يأكل الأخضر واليابس و يهلك الحرث والنسل فهو تهديم للدين وتخريب للدنيا، فهو بلاء يصيب الإيمان و العمران جميعا، و هو دخان مشؤوم الظل تختنق الأرواح و الأجسام في نطاقه حيث امتدّ، فلا سوق الفضائل والآداب و لا سوق الزراعة تروج محمد الغزالي.

و اشتدت حملته الضارية على الحكم الفردي و الوراثي، و لم يستسغ الآراء الفقهية التي ترى أن الشورى غير ملزمة للحاكم.

و كان الأولى أن تكون الشورى واجبة على الحاكم في أمور التشريع و السياسة العامة و هي ملزمة له، و بغير ذلك تقع على مصاريعها أبواب الظلم والاستبداد و تضيع على الجماعة فرص الرشد و تتعرض في المصالح العامة و الخاصة لأخطار لا يمكن حسابها، و إن شعار "المستبد العادل" الذي رفعه البعض قديما و لا يزال يرفعه البعض حديثا شعار فاسد مغلوط... و لا ندري كيف تجاهل العقلاء و العلماء مبلغ التناقض فيه، و هل يجتمع الاستبداد و العدل تحت لواء واحد و غريب أن يظل بعض المفكرين و الساسة والكتاب على استهانتهم بأمور الشورى، بعد أن بلغتهم تجارب الأمم و الشعوب عبر مئات السنين مع ألوان الظلم و الفساد التي ولدت ونمت في غياب الشورى وتحت ظلال الانفراد بالرأي و الاستبداد و من ثمة فالأمة مطالبة بتحرير نفسها من الاستبداد و القهر السياسي، و أن تسعى و تكافح و تجاهد حتى تشكل دولتها التي تحمل على عاتقها أهداف الأمة و مطامحها الكبرى.

المبحث الأول
الدول الإسلامية بين الحرية و الاستبداد

المطلب الأول: الحرية ضمان لتحقيق كرامة وإنسانية البشر

الفرع الأول: الاستبداد لغة

الاستبداد في القاموس العربي الإسلامي "يعني الحزم وعدم التردد في اتخاذ القرار وتنفيذه. ومن هنا جاءت عبارة "إنما العاجز من لا يستبد". هذا هو معنى الاستبداد عندما يقرن بـ"العدل" الذي يفقد فعاليته مع العجز عن تطبيقه. أما الاستبداد من دون عدل فهذا هو "الطغيان".

لسان العرب: استبد فلان بكذا، أي انفرد به، فيقال استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره([1]).

شرح نهج البلاغة: الاستبداد بالشيء، التفرّد به([2]).

الصحاح: والى ذلك ذهب الجوهري في الصحاح حيث قال: استأثر فلان بالشيء استبد به([3]).

القاموس المحيط: كما أشار الفيروز آبادي إلى المعنى ذاته عندما قال: استأثر بالشيء استبد به، وخص به نفسه([4]).

طبائع الاستبداد: ويعرف الكواكبي الاستبداد بأنه: اقتصار المرء على رأي نفسه يما تنبغي الاستشارة فيه([5]).

فالاستبداد لغة: هو الانفراد (بالشيء) فيكون الانفراد (بالحكم) استبداداً به.

المعجم الوسيط: الاستبداد لغة، هو اسم لفعل (استبدّ) يقوم به فاعل (مستبد) ليتحكم في موضوعه (المستبد)، فلا بد أن يتجسد الاستبداد في شخص أو فئة، يقال: استبد به: انفرد به، واستبدّ:

---

[1]) لسان العرب – جـ 3 – ص 81.

[2]) ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ 9 – ص 243.

[3]) مختار الصحاح – جـ 2 – مرجع سابق – ص 444 – مادة بدد.

[4]) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين – القاموس المحيط – مرجع سابق – ص 341 – مادة بدد.

[5]) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – كلمات عربية للترجمة و النشر – القاهرة، مصر – 2011م – ص 30.

ذهب. و استبد الأمر بفلان: غلبه فلم يقدر على ضبطه، واستبد بأميره: غلب على رأيه، فهو لا يسمع إلا منه([1]).

الاستبدادُ لغةً هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة. ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصّةً؛ لأنّها أعظم مظاهر أضراره التي جعلت الإنسان أشقى ذوي الحياة. و أما تحكّم النّفس على العقل، وتحكُّم الأب والأستاذ والزّوج، ورؤساء بعض الأديان، وبعض الشركات، وبعض الطّبقات؛ فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة([2]).

الفرع الثاني: سنة الاستبداد اصطلاحا

الاستبداد في اصطلاح السّياسيين هو: تَصَرُّف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة، وقد تَطرُق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة «استبداد» كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلُّط، وتحكُّم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحسّ مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة «مستبدّ» كلمات: جبّار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة «حكومة مستبدّة» كلمات: عادلة، ومسؤولة، ومقيّدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرّعية «المستَبَدّ عليهم» كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين، وفي مقابلتها: أحرار، و أباة، و أحياء، و أعزّاء([3]).

– أما محمد عبده فيعرّف المستبد بأنه الذي يفعل ما يشاء غير مسؤول، ويحكم بما يقضي هواه، وافق الشرع أو خالفه، ناسب السنة أو نابذها، ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به، وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار([4]).

---

[1]) المعجم الوسيط – جـ 1 – ص 42.

[2]) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – مرجع سابق – ص 15.

[3]) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – المرجع السابق – ص 15.

[4]) موسوعة السياسة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الثالثة – جـ 1 – بيروت لبنان – 1990م – ص 166.

وقد عرّفت موسوعة السياسة الاستبداد: بأنه حكم أو نظام يستقل بالسلطة فيه فرد أو مجموعة من الأفراد دون خضوع لقانون أو قاعدة ودون النظر إلى رأي المحكومين([1]).

فيما عرفت الموسوعة الفلسفية العربية الاستبداد: بأنه الانفراد بالأمر والأنفة عن طلب المشورة أو عن قبول النصيحة حيث ينبغي الطلب والقبول([2]).

إذن فالاستبداد: هو تصرف مطلق في شؤون الآخرين، وتعدي على حقوقهم الطبيعية والمدنية.

وأما ما ذهب إليه ابن خلدون عندما اعتبر استبداد الحاكم على قومه والانفراد دونهم بالملك هو أمر واقع بمقتضى طبيعة الحكم القائم على تغلب عصبية قبلية معينة، فهو تعسف يرفضه المنطق والعقل السليم ولا ترضاه أية شريعة قانونية أو مثل إنسانية.

الفرع الثالث: المجتمع الإنساني بين الحرية والاستبداد

لا شك أن العبقريات و المواهب الفردية إنما تزدهر في جو من الحرية و الانسجام مع الفطرة الإنسانية السوية، أما الجو الذي تسوده روح الاستبداد فالعالم والعامل فيه ينفذان إرادة من فوقهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوا. و هناك الكثرة الساحقة التي تُحْرم حق إبداء الرأي وممارسة الحريات فتخسر الأمة ثمار مواهبهم وعبقرياتهم.

إذن ففي كنف الحرية قوة و ثروة إنسانية عظمى لا يمكن أن تتحقق في مناخ استبدادي. فالمجتمع الذي يتنفس روح الحرية هو ذلك المجتمع الذي يسمح بازدهار مواهب الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع و نمو طاقاتهم الجسدية و العاطفية و بفكره و الاجتماعية و الخلقية و الروحية الى أقصى حد ممكن و يستثمر ذلك في سبيل الخير العام.

إن مجتمعا يعترف بإنسانية الإنسان الفرد و يحترم حقه في الحياة الحرة الكريمة مثل هذا المجتمع ينمو نموا طبيعيا و يرتقى إلى مصاف الأمم المتقدمة المتطورة فنجد الغزالي يشيد بهذا المجتمع الذي يتمتع بمقادير من الحرية فيقول: «إن البيئات التي تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية هي التي تنضج فيها الملكات وتنمو المواهب العظيمة وهي السناد الإنساني الممتد لكل رسالة جليلة وحضارة عظيمة...»([3]).

---

[1]) موسوعة السياسة – المصدر السابق – ص 166.

[2]) معن زيادة – الموسوعة الفلسفية العربية – جـ 1 – ط 1 – معهد الإنماء العربي – بيروت – 1988م – ص 53.

[3]) محمد الغزالي – قذائف الحق – طبعة دار القلم الأولى – دار القلم – دمشق – 1411هـ، 1991م – ص 191.

وعندما يتحدث عن أسباب اختيار محمد من العرب يقول: «عن ذلك يرجع إلى طبيعته الذاتية أو طبيعة الجنس الذي ينميه على السواء!!

فإن العرب أيام البعثة كانوا أسعد الأمم بحظوظ الحرية المتاحة لهم، بينما كان الروم والفرس جماهير من العبيد الذين تعودوا الانحناء للحكام والسجود للملوك وضياع الشخصية في ظل سلطات عمياء، وأوامر ليس عليها اعتراض أما العرب فكانوا على عكس ذلك حتى لكأن كل فرد منهم ملك وإن لم يكن على رأسه تاج!

ووسط هذا الجو شقت الرسالة طريقها صعدا لم تثنها المعوقات الطبيعية التي لا بد منها، ومن الفطر القوية لأولئك العرب الأحرار كانت الانطلاقة التي عصفت بالحكومات المستبدة وبدلت الأرض غير الأرض والناس غير الناس ذلك أنه يستحيل أن يتكون في ظل الاستبداد جيل محترم أو معدن صلب أو خلق مكافح»([1]).

المطلب الثاني: الحرية في عهد الخلافة الراشدة ثم في عهد الأمويين

الفرع الأول: الحرية في ظل الحكم الراشد

وعندما يقيم الغزالي حجم الحرية تحت ظل الحكم الراشدي يجد أن هذا الحكم قد تفرد في منح هامش رحب من حرية التعبير ومحاسبة الحاكم مما جعل بعض الرعاع من بعض الأمصار لا يفقهون حجم هذه الحرية، ولا مقدار الانعتاق بعد ما كانوا يرزحون تحت استبداد الممالك، وصلف رؤساء القبائل يقول الغزالي: «والواقع أن الأمة الإسلامية في ظل دولة الخلافة الراشدة تمتعت بحريات صابغة بل إن أشخاص الخلفاء الأربعة كانت دون نظائرها من حكام المشارق والمغارب في الأولين والآخرين كانت دونهم سطوة وجاها وقدرة على فرض الذات وإشباع نزعة التسلط والاستعلاء ما فكر أحد من الخلفاء الأربعة أن يجعل من حكمه مجدا دنيويا لنفسه، ولا فكر أحدهم في أن يقتات على الجماهير ماديا و أدبيا. الحكم في نظر هؤلاء كلهم كان عبادة كالصلاة و الصيام.

وأستطيع أن أقول أن الأمة الإسلامية –إبان دولة الخلافة– توسعت في استغلال هذه الحرية توسعا معيبا في بعض الأحيان، وقد تجرأ الرعاع على قتل الخليفة الثالث! ولكن الخليفة الثالث ما

[1]) محمد الغزالي – قذائف الحق – المصدر السابق – ص 191.

فكر قط أن يستغل سلطانه في ضرب الجماهير المحيطة بداره ولا استعان بقومه ولا بغيرهم في طرد وفود الدهماء المسوقين بشتى الدوافع لإهانته»([1]).

فالغزالي عندما يذكر هذه الفترة التاريخية المشرقة من حياة الأمة يريد أن يبرز حقيقة واضحة أن الحرية هي جذر الحكم والسلطة في الدائرة الإسلامية وأي إخلال بنظام الحرية هو إخلال بنظام السلطة والحكم، وانطلاقا من هذه العلاقة المتفاعلة بين الحرية والحكم تحققت مشروعات الإسلام الحضارية وتفتقت في ظلالها المواهب والعبقريات في زمن قصير إذا قورن بإمكانات أمم سابقة، يقول الغزالي: «وما أحسب الدنيا عرفت من قبل ولا من بعد أعدل ولا أنبل ولا أشرف من الرجال الأربعة الذين حكموا الأمة الإسلامية في هذه الدولة القصيرة الأمد –دولة الخلافة الراشدة–»([2]) التي استطاعت أن تؤثر في العقول والأفكار وأن تغير في النفوس وفي الأخلاق، وتقضي على الفساد و الانحلال وتؤسس على الجد والنزاهة والإخلاص في حياة الأفراد، كما استطاعت بحكمها الراشد المبني على الشورى أن ترتقي بكرامة الإنسان وترتفع به فوق مستوى العبيد والبهائم. هذا الميراث الضخم في المبادئ والقيم –خاصة الحكم– وهذا الغرس الذي أينع وتفتح في عهد الخلافة الراشدة أخذ في الذبول.

الفرع الثاني: الحرية في عصر الدولة الأموية

فجاءت دول سعت أن تكون القرابة هي محور الجماعة وأخرى على العنصر العربي وهكذا...، لذلك نجد أن في التاريخ كانت هناك صراعات وانقسامات على هذه المعايير، فحاول البعض التميز في العطاء وإعطاء الفرص والمناصب السياسية الهامة لشخصيات كان معيار اختيارها ليس الكفاءة والقدرة وإنما القرابة الدموية و الاعتبارات العصبية، وفي ظل هذه المعايير الجديدة حادت هذه الدول و انحرفت عن التجربة الإسلامية الراشدة و بدأت تقطع صلتها بحكم الخلافة الراشدة وبدأت ملامح الدولة المستبدة تنمو وتتشكل في عصر الدولة الأموية التي أخذت في التضييق على الحريات ومصادرتها، ففي عصر هذه الدولة أخذت مساحة الحريات تنكمش وفسحة الرأي العام للتعبير عن مواقفه تضيق، كما أخذ التسلط المبني على العصبيات تتسع دائرته، يقول الغزالي:

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 92-93.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 19.

«صحيح أن شكل الحكم أيام معاوية بن أبي سفيان تغير من خلافة راشدة إلى ملك عضود، وجمهور المسلمين متفق على تخطئة معاوية بن أبي سفيان فيما صنع، وجمهورهم يرى الخلافة بيعة حرة تختار لها أكفأ المسلمين لمنصب الرئاسة وخاصة المسلمين وعامتهم في هذا الرأي».

ويميل الغزالي إلى أن هذا الداء العضال الذي بدأ ينخر كيان الأمة السياسي هو الذي أفرز لانحرافات على طول التاريخ: «بل كان الكهف الذي آوى جراثيم المفاسد الأخرى وبدأ هذا بجذع الحكم وأصله الأول، أعني الخلافة فالمفروض عقلا ونقلا أن يختار المسلمون خليفتهم من بين أعظم الكفايات فيهم، إلا أن سطوة العصبيات وغلبة الشهوات هدمتا هذه القاعدة، فإذا الخلافة ميراث شخص يتركه والد لولده، ولو أن الخلافة نوع من السلطان يشبه الملك الزمني، لأمكن من الترخص و الإغماض أن يفهم هذا الوضع، وأن يحاط بالضمانات التي تسدده... لكن الخلافة نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصالح الدين والدنيا، أي أنها زعامة روحية وعقلية ومدنية وعسكرية، فكيف يمرق مخلوق من بطن أمه ليتلقفها وهو يبول في مهده، وكيف تكون الخلافة حكرا في بيت من البيوت يموت ربه فينالها من بعده ابنه؟... ولكن هذا الهزل هو الذي ساد بلاد الإسلام دهرا بعد أن طويت أعلام الخلافة الراشدة، وقضى عليها معاوية مقلدا المجوسية والصليبية والرومانية، كان بداية الشرر الذي تحول على مر الليالي حريقا مستعرة دمرت الأخضر واليابس في الحضارة الإسلامية المظلومة»([1]) وحتى لا نظلم تاريخنا الإسلامي –تحديدا الفترة الأموية– على أن هذا التغير في الشكل السياسي للدولة الإسلامية لا يعني تغيرا ما في الإسلام –عقائده، شرائعه، كتابه، وسنته– بل إن الخلفاء الجدد بالرغم من كونهم «ليسوا نماذج مبرأة ولا معجبة للرسالة الإسلامية حاشا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي لقب بالخليفة الخامس كأنه بقية الراشدين.. فإن شعار الدولة كان الإسلام وما رفعوا إلا رايته وما ارتضوا إلا كتابه وقد قاتلوا في الميادين نفسها التي قاتلت فيها الخلافة السابقة وعمل معهم جند كثيف من أهل التجرد والإخلاص الذين يبتغون الآخرة ولا تهمهم مناصبهم في الدنيا»([2]).

الفرع الثالث: الدعوة في ظل الدولة الأموية

[1]) محمد الغزالي –حقيقة القومية العربية – مكتبة العروبة – القاهرة (د.ت) - ص 207-208.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق - ص 22.

إن الخلافة في عهد بني أمية استحالت إلى ملك استبدادي يعتمد على نظام التوريث حيث خرج الأمويون في حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذي ساد حكم الخلفاء الراشدين.

مع هذا الانحراف في سياسة الحكم إلا أن الحاكم الأموي يقيم شعائر الدين وقد أقامها في أغلب الأحيان ويسير مع الإسلام ويحاسب نفسه بل إن الفتح الإسلامي ما اتسع مشرقا و مغربا إلا في أيام بني أمية، والعلوم الإسلامية ما نشأت وخطت مسارها إلا في مؤسساتهم العلمية التي أنشأوها ورعوها وقدموها للأمم الأخرى ناضجة مستوية مع تقديرهم واحتفائهم بالعلم وأهله وخدمة لغة القرآن وتعريب الدواوين.

و الخلفاء الأمويون كانوا هم قادة الجيش وأئمة الصلاة ورؤساء الوفود إلى الحج وكان من هؤلاء الخلفاء من هو أشد حرصا على تطبيق شرع الله فلا يجحد فرضا ولا يستهين بشعيرة، الإسلام هو دين الفرد و المجتمع والدولة([1]).

ويوضح الغزالي بشيء من التفصيل مبرزا الدور الريادي الذي قام به الخلفاء الأمويون والذي تمت على أيديهم فتوحات كبرى شملت مساحات واسعة من العالم فيقول: «أن انسياح الأمويين بالإسلام كان شيئا فريدا في التاريخ، شيئا غير التوسع الإمبراطوري الذي مارسته الجاهليات القديمة والحديثة وغير الطغيان المفسد الذي مارسته النصرانية المحرفة وهي تتوسع في الأرض...

و في ظل الأمويين أخذت الأجهزة الدوارة في الكيان الإسلامي تعمل عملها في تنشئة أجيال مسلمة لحما ودما، وهو عمل لا ينكره الأقاصرة فإن سقوط الروم والفرس أعقبه وجود كتل من الشباب والأولاد والأحفاد ثقفهم أحفاد محمد صلى الله عليه وسلم بالتعليم المنظم والتهذيب الذكي، فلم تمض خمسون سنة على انديا‌ح موجة الفتح حتى كانت المدن والقرى مليئة بالمساجد والمدارس، وحتى كانت شعائر الإسلام بارزة وتقاليده موطدة وأحكامه مطبقة في الشام والعراق ومصر واليمن وأقطار أخرى كثيرة»([2]).

إذا كانت هناك نقائص تزري من مكانة الحكام الأمويين وتسيء إلى خلافتهم القائمة على التوريث فإن من الإنصاف والعدل أن لا نغفل عن الجانب الحسن لهؤلاء القوم وهو ولاؤهم للإسلام

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 57-58.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 22.

وتأثيراته الواضحة في نفوس المسلمين في ذلك الوقت، فد استمر الناس على تديُّنهم ولكن خفت فيهم حرارة الإيمان ولم يكونوا كسلف هذه الأمة قوة دين وثبات ويقين.

إن الغزالي برؤيته الواضحة لمسار الدعوة الإسلامية ومنعطفاتها عبر العصور وبرؤية منصفة لفريق من المسلمين وهم الموالي يجل فيهم مساهمتهم القوية والفعالة في نشر الدعوة الإسلامية، وتبليغها في الأصقاع، وإعلاء راية الإسلام في ميادين الإدارة والثقافة والعلوم والفنون بل أصبحوا فيها أئمة و أعلاما، أليسوا هم من أوصلوا الإسلام إلى أصقاع المعمورة، وهم العلماء والمجاهدون الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية الدعوة والإرشاد، بل هم من أمد مشروعات الفتح الإسلامي الحضاري بالكفاءات المؤهلة والقادرة على ممارسة الدور المتميز في مجال الدعوة، وقد برز منهم مئات العلماء والفقهاء والمجاهدين والمصلحين الذين مارسوا أو قاموا بأدوار جوهرية وحاسمة في عمليات النهضة والبناء يقول الغزالي: «بل أن غير العرب سبق العرب أنفسهم في هذه الميادين فأصبح أئمة الأمصار ورواد الفقه واللغة والحديث من الموالي... وذلك نجاح للدعوة الإسلامية جدير بالتنويه فإن وصول أبناء المستعمرات المحررة إلى هذه المكانة الأدبية العالية شيء مثير حقا»([1]).

الفرع الرابع: أسباب انهيار الدولة الأموية

يلخصها الغزالي في العناصر التالية، ويعتقد أنها من الأسباب التي عجلت بسقوطها:

- ضعف شخصيات الخلفاء المتأخرين واستهتارهم والتنازع بين رجال الأسرة الأموية بسبب التوصية بالعرش لأكثر من ولد واحد،
- رفض الاعتراف بهذا النظام حزبان كبيران: أولهما الشيعة الذين يعتقدون أن الخلافة حق طبيعي لعلي وأولاده، وأن من عاداهم مغتصب ليس له حق الطاعة، والثاني الخوارج الذين يعتقدون أن الخلافة حق لكل مسلم كفء مهما كان جنسه... وقد عانت الدولة من الحزبين كليهما.
- وبمعنى آخر حقد المسلمين على بني أمية بسبب تحويلهم الخلافة الإسلامية إلى ملك وراثي ومطاردتهم لآل البيت.

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 22.

- تعصب الأمويين للعرب واستئثارهم بالمناصب إلى جانب احتقارهم للموالي مما أثار غضب وحقد هؤلاء على العنصر العربي وخاصة منهم الفرس،
- وضعت على الحريات العامة قيود لم تعرف على عهد الخلافة الراشدة

فضلا عن استفحال الثورات التي أدت إلى الانهيار، والتي انتهت بثورة بني العباس وأطاحت ببني أمية(*).

فقد صور المسعودي الأسباب التي ساعدت على انهيار الدولة الأموية و زوال ملكها فقال: «سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها عقب زوال الملك عنهم إلى بني العباس ما كان سبب زوال ملككم؟ قال شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا و تحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»([1]). و هي عوامل وأسباب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية.

المطلب الثالث: العباسيون والدعوة الإسلامية

الفرع الأول: بسط ونفوذ أركان الدولة العباسية

كانت الدولة العباسية ثاني دولة عربية عظمى ظهرت في العصور الوسطى، فورثت الدولة الأموية ثم ما لبثت أن فاقتها بإشعاعها الفكري الوهاج وحضارتها الخصبة المتلألئة حيث صارت عاصمتها بغداد خاصرة الدنيا وكعبة طلاب الشهرة، فقصدها العلماء والمفكرون والكتاب والشعراء والأطباء والفنانون وأصحاب الحرف والتجار من كل جنس.

ولكي يكسب العباسيون قلوب الرعية ورضاهم على حكمهم رفعوا شعارات ذات صبغة دينية كالعدل والمساواة والالتزام بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول الغزالي: «إن

*) أنظر محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 25-26.

[1]) حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي و الاجتماعي – ج 2 – ط 15 – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – 1422هـ، 2001 م – ص 15.

الذين ثاروا على بني أمية كانوا مسلمين يرون أن هناك تقصيرا في عمل الحاكم سوءا في سيرته فهم ينشدون حكما أرضى لله وأحنى على الأمة وأدنى إلى تعاليم الكتاب والسنة»([1]).

وقام بنو العباس بحمل أعباء الخلافة واستبحرت الحضارة على عهدهم وازدهرت الثقافة حتى أصبحت المدن العربية أنضر مدن الدنيا.

إلا أن العباسيين ما لبثوا أن أخذوا ينفلتون بشكل أو بآخر عن التزاماتهم تلك: «ولم يجيئوا بطبيعة الحال ليعيدوا عهد الخلفاء الراشدين وإنما جاءوا ليركبوا الخط المنحرف الذي بدأه الأمويون، ثم يزيدوا في الانحراف كما هي السنة الربانية حين تقعد الأمة في مجموعها عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأطر الحكام على الحق أطرا وأصرهم عليهم أصرا، لقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدودا على أي حال وإنما بدا مجسما غليظا حين يقاس بعهد الذروة التي يبدو بجانبه كل شيء قزما حين يقاس إليه»([2]).

و قد كان الحلفاء العباسون في بداية حياتهم و هم أسس دولتهم متفتحين على كل طوائف وشرائح المجتمع قصد كسبهم و في الوقت ذاته لتوطيد أركان الدولة و من ثم لم يناوئوا حتى من كانوا يكنون العداوة للدولة العباسية و فيهم يقول الغزالي: «كان العباسيون-صدور دولتهم- يحترمون العلماء، ولا عجب، فقد قاموا باسم الإصلاح الديني لعهد اتهموه بفساد كبير.

و يذكر التاريخ أن أبا جعفر المنصور اعتذر أشد الاعتذار لمالك أمام دار الهجرة لما اعتدى عليه الوالي بالضرب، وكاد يكسر ذراعه... وقبل مالك العذر واستأنف تدريسه كما كان وانظر إلى هارون الرشيد كيف يزكي أبا حنيفة وهو يعلم رأيه في دولة بني العباس ورفضه أن يتولى لهم القضاء فقد سأل الرشيد أبا يوسف قاضي القضاة في عهده صف لي أخلاق أبي حنيفة فقال: كان والله شديد الدفاع عن حرمات الله ذاكرا جملة من الصفات العالية... فقال الرشيد هذه أخلاق الصالحين.

وعندما يتحدث الغزالي عن هؤلاء الخلفاء العباسيين و موقفهم من الإسلام وحدوده يتجاوز ظلمهم ويحاول إنصافهم فيقول: «هؤلاء الرؤساء الذين سموا أنفسهم أمراء المؤمنين والذين أحبوا أن يشرفوها بصفة الخلافة عن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت جمهرتهم بين قوي في خدمة الإسلام

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق - ص 94.

[2]) محمد قطب – واقعنا المعاصر – المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – وحدة الرغاية، الجزائر – 1989م - ص 124.

أو مقتصد أو كليل الذهن واليد... لكن يستحيل أن يعطل أحدهم حدّا أو قصاصا أو يجحد فريضة أو يستهين بشعيرة الإسلام في أيامهم دين الفرد والمجتمع والدولة»([1]).

والحقيقة التي صاحبت الدولة العباسية في بداية أمرها استطاعت أن تحقق تماسكا في كيانها ووحدتها فقد حصنت وحدتها من التفكك والتمزق والانفلات، «وحافظت على ما ورثته من أقاليم الدولة الأموية فيما عدا الرقعة الأندلسية التي استأثر بها الأمويون فإن السيادة بقيت للعباسيين وواصل العباسيون حماية حدود الدولة من الخصم التاريخي الدولة البيزنطية.

الفرع الثاني: ملامح تفكك وحدة العالم الإسلامي في العصر العباسي

رغم هذه الوحدة والتماسك أخذت بعض الأعطاب والعلل تتسرب إلى جسد الأمة العباسية، وخاصة في طورها الثاني والذي ظهرت فيه ملامح تفكك وحدة العالم الإسلامي في العصر العباسي وما صاحبه من حركات انفصالية ساهمت في تفكيك نفوذ الخلافة العباسية على مساحاتها الشاسعة وهذا كله نتيجة انحرافات، فاقت انحرافات الدولة الأموية يقول محمد قصب: «فأما على عهد العباسيين فقد بقيت الانحرافات الأموية كلها وازدادت حدتها ثم أضيف إليها انحرافات من نوع جديد، فأما الملك الوراثي العضوض فقد بقي مع إضافة مزيد من الخروج على الخط السوي، فلئن كان الأمويون قد حرصوا –من أجل تثبيت دولتهم وتمكينها– أن يختاروا من بينهم أصلحهم وأقدرهم فإن العباسيين جعلوه وراثيا بحتا يتوله بالدور ولو جاء الدور على صبي في العاشرة أو الثانية عشرة، مما أثر على قوة الدولة ذاتها بصرف النظر عن المعاني الإسلامية في مجال السياسة فضلا عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل ولاية العهد أو من أجل تولي الملك، مما تقشعر له الأبدان وفضلا عن اضطرار الحكام بعد ضعف سلطانهم إلى الاعتماد على غيرهم والترك بصفة خاصة مما أدى إلى تسلط هؤلاء وإفساد كل القيم السياسية الإسلامية على الإطلاق!»

ويسترسل في استعراض الأسباب التي ساهمت في إسقاط الدولة العباسية فيقول: «وأما العنف في معاملة الخصوم السياسيين الذي بدأه الأمويون فقد تزايدت حدته وتحول إلى مذابح بشعة لا يتصور صدور ها عن مسلمين!»

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 58.

وأما البحبحة في بيت المال التي بدأها الأمويون كذلك فقد وصلت بعد زيادة الأموال في العهد العباسي من الزكاة والخراج والموارد الأخرى إلى صورة لا تخطر على البال، فلئن كان الأمويون قد أعطوا المعارضين ليُسكتوهم و يستميلونهم إليهم ويشترون وُدّ من يجدون في كسبه إلى صفهم تأييدا إلى سلطانهم، فقد كان الخليفة العباسي لا يجد حرجا في صدره أن يجيئه شاعر من المداحين الذين، قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب} أخرجه مسلم، فيأمر له لقاء أبيات في مدحه بمائة ألف من بيت مال المسلمين!

فإذا كانت هذه الانحرافات التي بدأت أيام الأمويين وبقيت وزادت حدتها على يد العباسيين فقد أضيفت إليها –بحكم عوامل جديدة– انحرافات أخرى خطيرة أودت بالحكم العباسي في النهاية وما زالت آثارها –أو آثار منها– سارية في جسم الأمة الإسلامية حتى هذه اللحظة تنتظر من يبرئها منها حتى تستطيع أن تنبعث من جديد»([1]).

هذه هي حال الدولة العباسية في شأن الحكم إذ أصابها التمزق والتفكك فانفرط عقدها وتوزعت إلى عدد من الإمارات والولاءات التي أضعفت كيانها وذلك بسبب اتساع رقعة الدولة وصعوبة المواصلات فكان الولاة يستقلون في الأماكن النائية دون أن يخشوا غضب الخليفة وبطشه، لعلمهم ببعد المسافة وصعوبة تسيير الجيوش لتأديبهم.

لكن هذه الإمارات إن ضعف أو بطل ولاؤها للخليفة فإن ولاءها للإسلام ظل ممتدا وأصبحت هذه الدويلات حصنا منيعا يرد العدوان الذي يتهدد مركز الخلافة بل يقوم بواجب نشر الإسلام فيما وراء الحدود.

ويخلص الغزالي إلى جملة من الأخطاء القاتلة التي ساهمت في زوال نفوذ العباسيين يقول (وما ننكره) على العهد العباسي ما يلي:

– بناء أصول الإسلام وإقامة شعائره يتطلب كفاءة ممتازة، وقد أهدرت هذه الحقيقة وغض عنها الطرف، إذ حصرت الخلافة وهي حكم مباشر في بيت بني هاشم بعد هلاك بني أمية وتوريث الحكم كما علمت ينكره الإسلام ولا يصح بطلانه إنه مقصور على قرابة رسول الله صلى الله

[1]) محمد قطب – واقعنا المعاصر – مرجع سابق – ص 125-126.

عليه وسلم، فإن هذه القرابة لا تزن في دين الله شيئا وهي لا تشفع لمسيء ولا تنقص قدر محسن عري عنها.

- ظهرت في تاريخ الإسلام خرافة الحق الإلهي للسلاطين فبعد أن كان الخليفة الراشد يقول للناس: "وُليت عليكم ولست بخيركم"، جاء أبو جعفر المنصور يزعم أن العناية العليا قد تخيرته وأجداده وأحفاده وأن من جحد حقهم يوشك أن يخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.
- شاع الملق وتمدح الخلفاء بالحق والباطل ابتغاء من لديهم من أعطيات وما لديهم هو مال المسلمين امتلكوه بالباطل وأنفقوه بالباطل ولفوا به حول أشخاصهم جيوشا من الأتباع أسرع إلى رضائهم من سياطهم التي في أيديهم...
- أغرق الخلفاء في الترف وامتلأت بيوتهم بالمعازف والقيان والمغنيات ومطارف الحرير وألوان الأطعمة وحكي الكثير عن تناولهم الأشربة المحرمة، وتوسعهم المريب في المال العام يقذفونه كيف يشاءون على خاصتهم وحواشيهم...
- قام الملك الأموي على نزعة عربية عنيفة و قام الملك العباسي من بعده على إثارة النزعة العصبية الفارسية و قد اعتز بها حينا و كاد لها حينا آخر ثم استبدل بها عصبية تركية ذاق منها الأمرين وهذه النزعات بقايا من الجاهلية التي محاها الإسلام وإحياؤها أمارة على رقة الدين وفساد الضمائر. ينتهي الغزالي إلى أن هذه الأخطاء التي ارتكبت في حق الإسلام بدأت هينة الخطر ثم استفحل بعد شرها وقد بقيت الدولة العباسية معها أول الأمر ثم أدركها ما أدرك سابقتها فبادت([1]).

وهكذا أدت هذه الأسباب إلى قيام دويلات في المشرق والمغرب انفصلت عن الدولة العباسية كان أشهرها دولة الأغالبة، دولة الفاطميين، الدولة الغزنوية والدولة الأموية في الأندلس فانفصلت عنها معظم المناطق حتى لم يبق لها في معظم الأحيان إلا بغداد.

المطلب الرابع: دولة الإسلام في الأندلس

[1]) محمد الغزالي – الإسلام و الاستبداد السياسي – تحقيق و تعليق مسعود فلوسي – الطبعة الجزائرية الأولى – دار ريحانة – الجزائر – 1420هـ، 1999م - ص 237-240.

الفرع الأول: نشأة الدولة الأندلسية

وإذا انتقلنا إلى دولة الأندلس وما أحدثته من تغيير في المجتمع الجديد (اسبانيا) فقد كان لها دور مركزي في الحياة الدينية والاقتصادية والعلمية والسياسية والحضارية يقول الغزالي: «إن الحديث عن دولة الإسلام في الأندلس له ذيول طوال وذو شجون قابضة كئيبة، لقد بدأ الأمير الغريب عبد الرحمان الداخل رجل دولة موفور الدهاء والمضاء وظل المسلمون غرب البحر الوسيط إعصارا وهم يرفعون لواء الإسلام وزهت هنالك حضارته وأضاء منارها بحر الشمال»([1]).

الفرع الثاني: انقسام الدولة الأندلسية إلى دويلات و طوائف

«لكن هذه الاشراقة الحضارية لم تدم لأن بذور الانقسام والصراع على التوسع والنفوذ والحظوظ النفسية ملكت النفوس على حساب وحدة الدولة الواحدة المتماسكة، فأصبحت الأندلس دولا متعددة هزتها الفتن والانقسامات الداخلية وأصيب الأندلس في عهد الطوائف بهزات عنيفة تركت أثرها بعيدا من إشاعة القلق والخوف والتوجس من المستقبل، وفعلا انقسم الناس أحزابا وشيعا وتحركت الأطماع وفي ظل هذا الانقسام اشتغلت قوى الشر والبغي المتمثلة في الهجمات الصليبية على هذه الدويلات التي أخذ ريحها يضعف ودب الخلاف في أنحائها فوجدت نفسها فريسة هذا الانقسام وكان مصيرها الدمار والهلاك...»

و يقول الإمام الغزالي: «ولكن الذين كانوا لله خلائف سرعان ما تحولوا إلى ملوك طوائف يبحثون عن اللذات ويتحركون بالعصبيات ويتنافسون في المباني والزخارف، وانتهى من حياتهم ذكر القيم الأولى وذكر الأجداد الكبار والأسلاف الدعاة الرعاة، فانفجرت أهواؤهم براكين قضت عليهم قبل أن يقضي عليهم زحف الكاثوليك المتربصين»([2]).

توصيف دقيق لحال الدولة الإسلامية في الأندلس التي بدأت بوثبة قوية غيرت حياة الأندلسيين فغمرتهم بقيم ومبادئ تعشقها الفطر السوية ثم انتقلت هذه الروح الجديدة إلى حالة من الذهول والاضطراب وبدأت تتسلل عوامل الانفصال والتجزؤ والنزوع نحو الفردية والروح الأنانية في المجتمع تعصف بكيان الدولة الأندلسية فتفرقت إلى كيانات مستقلة تعادي بعضها «وأصبحت الأندلس دولا متعددة لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة، وأصبحت

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 36.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – المصدر السابق – ص 36-37.

العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز والحذر وإنفاق الأموال في بناء الحصون والاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع، إذ غدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين أولئك الأمراء أو أصبحت قائمة على طلب التوسع والغلبة وانقضاض القوي منهم على الضعيف في حال الهجوم وفيما بين ذلك محالفات توجهها المآرب العابرة ثم لا تلبث من بعد ذلك أن تنفصم، وفي هذا فقد الأمراء القدرة حتى على التوحد المؤقت أمام الخطر المشترك ذلك لأنهم رضوا أول الأمر –متفرقين– أن يدفعوا الجزية للروم ثم عجزوا عن جمع الكلمة حين أصبحت الجزية مكسبا لا يكفي القوي الغالب وأصبح اقتصاص الحدود واقتناص الفرص المواتية للغزو، هذا المبدأ السائد بل لعلهم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك حين كانوا يحتكمون إلى صاحب الروم في خلافاتهم الداخلية، وحين يستعين به المضعوف منهم ليأخذ له بحقه، وبذلك تفتتت الصخرة الصلبة المخوفة إلى أجزاء صغيرة واهنة»([1]).

الفرع الثالث: أهم الأسباب التي عجلت بانهيار الدولة الأندلسية

هذا توصيف مركز ودقيق يبرز أهم الأسباب التي ساهمت في انهيار الدولة الأندلسية كما جاء ليعبر عن عمق الخلافات والانقسامات والصراعات التي رهنت الإرادة السياسية لملوك الطوائف، خاصة عندما يصل الأمر إلى درجة الاعتماد على عون الأجنبي ورضاهم بدفع الجزية. هل بعد هذا كله أن تدعى هذا الدويلات أن لها استقلالا حقيقا وصانعة لقرارها، إنه الاستبداد عندما يصنع حالة غير طبيعية في المجتمع، إنه المرض الفتاك الذي يقتل كل ما هو طبيعي ويقضي على كل الطاقات، وإن تطور المجتمع يحتاج إلى أناس أحرارا يعتزون بإنسانيتهم واستقلالهم وكرامتهم ويثقون بأنفسهم، أما الاستبداد والقمع فلن يصنعا سوى نفوسا مشوهةً غريبة عن طبيعتها السوية فاقدة لكل إرادة حرة خلاقة.

ومن الأسباب التي ساهمت في انهيار وتفكيك الدولة الإسلامية في الأندلس ظاهرة الإسراف والترف في حياة الملوك والأمراء فقد بلغت هذه الظاهرة مبلغا مغاليا فيه حيث أصبح «تنافس الأمراء فيما بينهم في بناء القصور واتخاذ الأبهة، وانتحال ضروب التفخيم يرتفع من حولهم —في العادة– فئتان، فئة الكبار من رجال الدولة لاتحاد المنفعة وللاشتراك في طرق الكسب والجمع وفئة تجار

[1]) إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين – ط 1 – دار الثقافة – بيروت – 1962 – ص 8.

الكماليات الذين تنفق سلعهم في مثل تلك الأحوال بما يقدمونه من فاخر الأثاث والملبوسات المزخرفة والعطور والجواري»([1]).

ولم يكن هذا الثراء خاصا بذوي القصور والأمراء بل كان يشمل طبقات أخرى من الناس من أبرزهم التجار، وبخاصة تجار الرقيق والمقربون من الحكام وطبقات الفقهاء والمنتفعون بالمغامرة...([2]).

في حين كانت طبقة محرومة مطحونة لا تجد رمق حياتها يقول إحسان عباس: «و من الطبيعي أن يكون إلى جانبه حرمان عسير شامل لطوائف كثيرة من الناس وأن تنتشر الكدية على نطاق واسع»([3]).

مما لا شك فيه أن الإسراف مفسد للأمم وأن الظلم والبغي بغير حق كل ذلك من أسباب هلاك الأمم ودمارها، والقرآن الكريم حافل بهذه النماذج، كقوله تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿...إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتًا...﴾ سورة الأعراف الآية 74. هؤلاء القوم كانوا متمكنين في الأرض وكانوا على جانب كبير من الرقي الحضاري والتقدم المادي، إلا أنهم عندما تفشى فيهم الإسراف والترف وتسابقوا في تبديد الثروة وإتلافها في بناء القصور الشامخة ليسكنها الأقلية، وتعبث فيها فسادا ولهوا وعبثا دون الاعتبار للأكثرية المحرومة كان مصيرهم وخاتمتهم الهلاك والدمار، إنه المصير الذي تحقق في دولة الإسلام في الأندلس، لأنهم تنكبوا طريق الحق وصادموا سنة الله تعالى في الاجتماع والبقاء فعاقبتهم سنته.

المطلب الخامس: الدولة العثمانية

الفرع الأول: نشأة و ظهور الدولة العثمانية كقوة عالمية

يقول الإمام الغزالي وهو يتحدث عن نشأة وظهور الدولة العثمانية: «في منتصف القرن السابع ماتت الدولة العباسية بعد حياة طويلة مليئة بالغفلة والتفريط، في نهاية هذا القرن ولدت

[1]) إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين – مرجع سابق – ص 17.

[2]) إحسان عباس – نفس المرجع – ص 42.

[3]) إحسان عباس – نفس المرجع – ص 43.

الخلافة التركية وكانت أول الأمر دويلة ضعيفة الشأن ثم ظلت تتقلب في مراتب القوة حتى أصبحت –باسم الإسلام– الدولة الأولى في العالم.

والمسلمون لا يكترثون لاختلاف الجنس فإن العقيدة الجامعة محت فروق الدم واللون وقد رأى المسلمون من قبل عناصر تركية تقود الخلافة العباسية كما رأوا أمراء من السلاجقة والأكراد والمغول يؤسسون دولا بين العراق ومصر ويبلون أحسن البلاء في الدفاع عن الإسلام ولم يشعر العرب بضيق من هذه القيادات البعيدة عن جنسهم بل عاونوها وقاسموها المغارم والمغانم»([1]).

وإذا كانت الخلافة العثمانية قد حققت بعض الانتصارات خاصة في عهد محمد الفاتح حيث «نهض المسلمون الأتراك بالعبء حولوا الدفاع الفاشل إلى هجوم ناجح وأعانتهم بداوتهم وفروسيتهم على تأديب الصليبيين وشغلهم بأنفسهم عدة قرون»([2]).

وتعتبر الفترة التي عاشتها الإمبراطورية العثمانية منذ فتح القسطنطينية إلى آخر أيام سليمان القانوني حقبة القوة والازدهار، و بعد أن توفى هذا السلطان عام 1566م بدأت عوامل الانهيار تظهر وتتكاثر شيئا فشيئا، حتى إذا أطل القرن السابع عشر الميلادي طويت صفحة القوة والمجد، وحلت محلها صفحة الضعف وأخذت الأمور تتعفن وتتدهور وتوالت على الجيش العثماني الانكسارات في شتى الجبهات، ورغم المحاولات الإصلاحية لأوضاع الإمبراطورية العثمانية إبان القرن الـ18 و الـ19م فإن هذا الاتجاه الإصلاحي لم تستفد منه الإمبراطورية العثمانية في معالجة أجهزتها بسبب استشراء الفساد والضعف في كيانها بصفة عامة، وأصبحت الأخطار تهددها من كل جانب في الداخل والخارج.

الفرع الثاني: الملامح الأولى لتفكك الدولة العثمانية

من الأسباب الداخلية التي ألبت و اسعدت الكثير من الجبهات بما فيها الجبهة الداخلية والأقاليم التي تقع تحت حكمها، خاصة عندما قرر بعض خلفائها أن تُخضع شعوبها المتنوعة، إذ كان يقطن في ولاياتها شعوب متباينة الأديان والأجناس والاتجاهات، مما ضاعف من مصاعب الدولة

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 41.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – المصدر السابق – ص 44.

العثمانية اتساع رقعتها، وقد تجلى هذا الاستعداد عندما رفعت شعار التتريك وتعصبت له «فقد تعصب الأتراك للغتهم ولجنسهم ولما كان الإسلام لا يمكن أن "يتتترك" والترك لا يريدون أن "يتعربوا" فقد وقعت فجوة بين الحكم والأمة وبين الحكم ومصادر العقيدة والشريعة، ظلت تعمق على مر الأيام فانتشر الجهل انتشارا مخزيا وأخذت الأمة الإسلامية تتقهقر دون مكانتها الحضارية خطوة خطوة ولم يزدها مر الأيام إلا عجزا إنسانيا مؤسفا»([1]).

لقد ظل الأتراك على لغتهم وتعصبهم لجنسهم ولم يدركوا المسافة التي تفصلهم عن الأمة وهو ما يعتبر من الأسباب التي أضعفت وعزلت حكام الأتراك عن الأمة الإسلامية وقد كان لهذا الاستبداد مردوده السلبي على الحكم العثماني، وفي هذا يقول محمد قطب: «وأحسب أن الاستبداد السياسي في الدولة العثمانية لم يكن مجرد امتداد لما كان من الأمويين والعباسيين (وإن كان هذا جائزا) ولكن كان سببه "المحلى" في الدولة العثمانية ذاتها من الحزم الزائد الذي يمارسه العسكريون في المعتاد حين يتولون شؤون السياسة...».

الفرع الثالث: أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية

وقد لخص الغزالي أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية فيما يأتي:

1. لم يظهر في العالم الإسلامي عالم مفكر ولا أديب نابه ولا شاعر عظيم ولا مؤلف ذكي إلا فلتات تعد على الأصابع، كان الجهل الغليظ يلف كل شيء وكانت عجمة الدولة سببا في تخلف المسلمين دينيا ومدنيا،
2. انتشار البدع والخرافات و الخيالات السقيمة وتحول الإسلام إلى رسوم ميتة وأحاديث واهية أو موضوعة وكثرت صور الشرك الجلي والخفي و الطلسمات والشعوذة وأعلن التصوف الجاهل على هذا كله، إذ أن طرقه دخلت كل مدينة وقرية،
3. من الناحية المدنية العامة توقف الركب الإسلامي في مكانه لا يدري وراء حدوده شيئا، بينما العالم يفور ويمور بحركات وفلسفات جديدة غيرت نظم الحكم وكشفت المجهول من القارات، وأخذت رويدا رويدا تعرف الكثير من قوى الكون وأسراره تستغله في تجديد حياتها وأسلحتها،

[1]) محمد الغزالي – نفس المصدر– ص 46.

4. ورث الحكم العثماني جميع سيئات الحكم الفردي في الدول الإسلامية السابقة وضم إليها جديدا من الجبروت والاستعلاء دون نظر إلى دين أو خلق وربما قتل السلطان جميع إخوته حتى لا ينازعوه السلطة،

5. منح السلطان امتيازات أجنبية للطوائف النصرانية المختلفة جعلها دولة داخل الدولة واستغل الأعداء ذلك أسوأ استغلال إذ تمكنوا بواسطة هذه الرعايا من التجسس وإلحاق أبلغ الأذى بالإسلام([1]).

هذه جملة العوامل والأسباب التي هيأت لانهيار الدولة العثمانية وأصبح «اعتلال الدولة العثمانية مكشوفا لأعدائها لأن نشاطها السياسي والعسكري تشعب في جبهات عديدة، شمل أغلب القارات فكيف يخفى ما أصابها من عجز؟ لذلك سميت بحكومة الرجل المريض، وقد ظل الرجل المريض يغالب قرنين طويلين ولم يسلم الروح إلا بمؤامرة ناجحة على قتله»([2]).

وحتى لا نظلم هذه الحقبة التاريخية في عهد الدولة العثمانية، ومن باب الموضوعية أن الحكم العثماني في بداية عهده استطاع أن يجسد طموح الأمة الإسلامية من خلال مشروعها الحضاري الذي توسعت دائرته كما استطاع أن يتحرك صوب الأهداف الكبرى للأمة، وما نموذج محمد الفاتح في فتح القسطنطينية لخير دليل على عمق وقوة العلاقة بين الأمة والدولة وتطابق إرادتهما، وعندما بدأت الدولة العثمانية تنحرف عن خطها الأصيل وتقطع صلتها بالأمة وقع لها ما وقع من انحطاط وضعف وسقوط، يقول محمد محفوظ: «ومع اتساع دائرة انحراف السلطة العثمانية وتفخم نزعة الاستبداد لديها، واشتداد استخدام العنف والقوة تجاه الآراء الحرة والأفكار الجديدة لدرجة أن المؤرخين أطلقوا على السلطان عبد الحميد اسم "السلطان الأحمر" كتعبير عن سياسة الشدة والغلظة والاستبداد التي ينتهجها، مع اتساع هذه الظاهرة التي أصبحت ككرة الثلج حيث بدأت السلطة تواجه أزماتها و إشكالياتها بالمزيد من استخدام العنف والقوة والقهر. بدأت النخب الثقافية والسياسية تطرح مشروعات بديلة عن السلطة العثمانية وأضحت الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للعالم الإسلامي آنذاك سجالا محموما بين ثلاث اتجاهات:

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 48-49.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 48.

1. السلطة العثمانية بما تشكل من رمزية تاريخية وثقل روحي وامتداد جغرافي وقوة عسكرية.

2. القوى الاستعمارية التي بدأت تنشط على ساحة العالم الإسلامي وذلك لتثبيت أقدامها ودحر عدوها التاريخي الذي أصابته في تلك الآونة أعراض الضعف والمرض.

3. النخب الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي لم تكن على رأي واحد وإنما هي عبارة عن قوة جديدة وذات مرجعيات مختلفة وثقافات متباينة، إلا أن القاسم المشترك بين هذه النخب هو إيمانها بضرورة تغيير الواقع المعيش والسعي نحو تحديث العالم العربي الإسلامي...

و من خلال هذه السجالات تمخضت مشروعات سياسية و فكرية كثيرة وبدأت تتوالد التحالفات والاستقطابات الجديدة وتبرز التناقضات في تشخيص الواقع وطرق معالجته، وبدأت القوة الاستعمارية تمارس مكرها وكيدها ودسائسها لتوجيه هذه السجالات ومن ورائها إرادة التغيير في اتجاه يخدم مصالح المستعمر، ويثبت حقائقه السياسية والعسكرية والثقافية على الأرض العربية والإسلامية وبفعل عوامل عديدة ذاتية وموضوعية طرح شعار الاستقلال الفطري»([1]).

الذي جلب معه الكثير من الأزمات والمآزق وانتهى إلى حكم استبدادي جديد ملك جبري على غير إرادة الأمة، حيث أصبحت المؤسسات العسكرية هي التي تتحكم في إرادات الشعوب ومصادرة توجهاتها وآرائها...

[1]) محمد محفوظ – في البدء كانت الأمة، جدلية الأمة والدولة في الفكر الإسلامي المعاصر – مجلة الكلمة – مجلة فكرية ثقافية تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث – العدد 22 – السنة السادسة – 1420هـ، 1999م – ص 32-33.

المبحث الثاني

الاستبداد في الدولة العربية القُطْرية

المطلب الأول: الاستبداد الحديث صنيعة استعمارية

الفرع الأول: الاستبداد الحديث أخطر من الاستبداد القديم

وإذا ما تحدثنا عن الاستبداد قديما و قارناه باستبداد الدول العربية القطرية حديثا نجد هناك فرقا شاسعا بينهما، فالحكم قديما رغم ما فيه من عوار ونقائص وأخطاء إلا أنه يسير في وفق المبادئ الإسلامية، ولم يكن انحراف الحكام القدامى يجرؤ على تعطيل أحكام النصوص الشرعية بل كانت غيرتهم على الدين قوية لدرجة: «تشبثهم بالإسلام تشبثا شديدا في حياتهم الخاصة والعامة فبنوا في عاصمتهم ومدائنهم أضخم المساجد وطبعوا الآلاف المؤلفة من المصاحف وجعلوا الدين هو الطاقة الروحية التي تدفع الجنود إلى ساحة الوغى وهم يرون أنهم بهذه الحروب يقلدون السلف الأول في الجهاد ومقاومة الكفر»([1]).

لكن الاستبداد السياسي الذي تمارسه الدولة في العصر الحديث أخذ طريقه للتوسع والانتشار على قاعدة تهميش الأمة وإقصائها عن الفعل السياسي والحضاري واخذ أشكالا وأساليب جديدة متطورة إذ يقول الغزالي: «الاستبداد بأساليبه الجديدة سبق الاستبداد القديم بمراحل فعندما أراد الملك فاروق قتل حسن البنّا دس عليه من اغتاله في جنح الليل بعيدا عن دائرة القانون، أما الرئيس الحر قائد الأحرار فعندما أراد قتل زعماء الإخوان المسلمين شكل محكمة علنية قتلت ستة منهم بجرة قلم، وباركت الصحافة "الحرة" هذا العمل وحيث القضاء العادل!!»([2]).

وفي مقام آخر يؤكد الغزالي على خطورة الاستبداد في هذا العصر حيث يقول: «لقد كان الاستبداد قديما أقل ضرر من الاستبداد الذي نظمته الدولة الحديثة في هذه الأعصار فإن الدولة في العصر الحديث تدخلت في أدق شؤون الفرد وبسطت نفوذها على كل شيء ومن هنا كان الدمار الأدبي والمعنوي الذي يصحب الاستبداد بعيد الأمد خبيث العواقب»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – مصدر سابق – ص 47.

[2]) محمد الغزالي – علل وأدوية – د ط – شركة الشهاب – الجزائر – 1986م – ص 181.

[3]) محمد الغزالي – قذائف الحق – مصدر سابق – ص 192.

ويعضد هذا المعنى أكثر عندما يقول: «الاستبداد اليوم أشد خطرا من قبل بمراحل ومراحل، مما أصبح في يد السلطة من إمكانات هائلة تستطيع بها أن تؤثر على أفكار الناس وأذواقهم وميولهم عن طريق المؤسسات التعليمية والإعلامية والتثقيفية والترفيهية والتشريعية، وجلها –إن لم يكن كلها– في يد الدولة ولكن الذي أؤكده أن الإسلام أول شيء يصيبه الأذى والضرر البالغ من جراء الاستبداد والطغيان»([1]).

الفرع الثاني: ظاهرة الاستبداد تنسحب على معظم أقطار العالم العربي

ولم تقتصر ظاهرة الاستبداد على قطر عربي دون آخر، بل عمت هذه الظاهرة معظم أقطار العالم العربي، يقول الغزالي: «و معظم أقطار الوطن العربي –والإسلامي– قد ابتليت بفئة من الحكام عناهم الشاعر بقوله:

أغاروا علي في ليلة ففر الصباح ولم يرجع!

القلوب تكرههم والألسنة تدعوا عليهم والشعوب تترقب يوم الخلاص منهم لتجعله عيدا أكبر»([2]).

وعندما يتحدث الغزالي عن الاستعمار يذكر نوعين من الاستعمار: الاستعمار الخارجي و الاستعمار الداخلي.

1– الاستعمار الخارجي

و هو الاستعمار الذي يعني احتلال الأرض عسكريا واستغلالها ومحاولة طبع البلاد المستعمرة بطابع البلاد المستعمرة الغاصبة وتوجيه جميع نشاطاتها لمصلحة المستعمر؛ المستعمر المستغل، هذا الشكل الأول من الاستعمار الخارجي. أما الشكل الثاني وهو الاستعمار الحديث ويعني إبقاء البلاد التي تحررت من الاستعمار تحت نفوذ الدول الكبرى الاقتصادي والسياسي والثقافي.

2– الاستعمار الداخلي

أما النوع الثاني وهو الاستعمار الداخلي: و «نعني بالاستعمار الداخلي فقدان الأمم القدرة على حكم نفسها بمن تختار من أبنائها وسقوط أزمة الحكم في أكثر الأحايين بين يدي أناس تمقتهم الجماهير وتتمنى زوالهم لأنهم يؤثرون شهواتهم على مصالحها، ولا يملكون كفاءة حقيقة تمكنهم من

[1]) محمد الغزالي – فتاوى في الدين والحياة – إعداد وتقديم الأستاذ أبو أسامة عمر خلفة – مصدر سابق – ص 169.

[2]) محمد الغزالي – فتاوى في الدين والحياة – إعداد وتقديم الأستاذ أبو أسامة عمر خلفة – مصدر سابق – ص 170.

البقاء في مناصبهم ومن ثم فهم يستديمون حكمهم بالإرهاب والاحتيال وغير ذلك ونجاح الاستعمار الغربي في أقطار الشرق مهدت له هذه الأحوال»([1]).

إن استبداد لا يمكن أن يسند إلا من قبل الاستعمار ولا يستند إلا إليه، فإن الاستعمار لما اشتبك مع المسلمين في أقطار كثيرة وشرع تحت ضغط المقاومة الدائمة ينسحب من هناك وهناك، رأى أن يغطي انسحابه بحكومات تحقق مآربه، وإن عنوانها قومي بحت، وتأكدت هذه الخطة بعدما ظهر أن النظام "الديمقراطي" منح الإسلام فرص الحياة وأتاح للشعوب أن تتمسك به وأن تعود إليه.

الفرع الثالث: الانقلابات العسكرية وتداعياتها على الأمة

عندئذ بدا أن: «الانقلابات العسكرية أفضل أداة لسحق التعلق بالإسلام وتدويخ المطالبين به، ولم تعدم القوى المعادية للإسلام بعض لشباب العائد لنفسه المحتبس في مطامعه المفتون بنزعات مستوردة من الشرق أو الغرب ليقوم بهذا الدور الخؤون، وانتشرت بدع الحكم العسكري في أغلب الأرجاء وأمكن تغطية أظافره وحوافره بقفازات من المظاهر الديمقراطية الكاذبة ودخلت الجماهير المؤمنة في صراع رهيب مع حكام يرنون بعيونهم إلى الشيوعية أو الصليبية ويطوون صدورهم على كره شديد للإسلام ولأهله.

وبهذا الاستبداد زاد التأخر الحضاري للمسلمين كما ازداد التفلت من قيود العقائد والأخلاق وتضاعفت العلل التي تعمل في كياننا»([2]).

ويوضح الغزالي رؤيته للتجربة السياسية للعرب والمسلمين في هذا العصر على «أن الدولة المستبدة عملت على إفراغ الداخل الإسلامي من كل مقومات النهوض الحقيقي وحاربت كل القوى الحية في الأمة وقتلت كل طموح يرقى إلى مستوى الحضارات المعاصرة، وذلك من أجل أن تسهل عملية قيادة الأمة والتحكم في مصيرها... إن الوهن الحقيقي الذي أصاب التجربة السياسية الإسلامية وأدخلها في أتون النزاعات والانقسامات الداخلية هو في انفصال مشروع الدولة عن مشروع الأمة وفي سعي السلطة المستبدة لإقصاء قوى الأمة ومنعها من التعبير عن أرائها ومواقفها ومشروعاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – مصدر سابق – ص 102.

[2]) محمد الغزالي – علل وأدوية – مصدر سابق – ص 182-183.

[3]) محمد محفوظ – في البدء كانت الأمة، جدلية الأمة والدولة في الفكر الإسلامي المعاصر – مرجع سابق- ص 34-35.

الفرع الرابع: إيجاد مشروع سياسي بديل يحرر الأمة من الاستبداد

وإذا أرادت الأمة أن تغير هذا الواقع السياسي البائس و إيجاد بديل سياسي يحرر الأمة من الاستبداد والقهر السياسي فهي مطالبة بتأسيس مشروع سياسي جديد ينبثق من ثقافة الأمة ومخزونها التراثي الأصيل و عمقها التاريخي و استفادتها من التجارب السياسية الإسلامية.

يقول محمد محفوظ: «وتاريخيا كان للأمة بمؤسساتها ومنابرها وإمكاناتها الأهلية الدور الرئيسي والجوهري في توسع رقعة الإسلام وتذليل الكثير من العقبات التي تحول دون استمرار حركة الفتح الروحي والحضاري واستخدمت في سبيل ذلك وسائل حضارية كالدعوة بالتي هي أحسن إلى الدين الجديد والتواصل الإنساني وصناعة القدوة الحسنة التي تمارس فعلا دعويا متواصلا من خلال سلوكها وحركتها العامة، وفي إطار مشروع الأمة الحضاري الذي يتجه إلى الأقوام والشعوب الأخرى لإشراكها في عملية العمران الحضاري وفق القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام. لم تمارس "الأمة" أي فعل عنفي ولم تستخدم وسائل القهر والبطش قي سبيل إخضاع الشعوب الأخرى وإنما قامت بنشر العلم والمعرفة بوسائل حضارية وتحولت بيوتات العلم ومراكز المعرفة في الأمة إلى مراكز إشعاع علمي حضاري، أخذت على عاتقها تعميم قيم الدين الجديد، وتعريف الآخرين بقيم الإسلام ومثله ومبادئه»([1]).

و رؤية الغزالي أن تستمد الأمة أفكارها من موروثها الثقافي وتاريخها السياسي خاصة فترة الخلفاء الراشدين التي تمثل مرحلة التطبيق العملي لمبادئ الحكم في الإسلام، والنموذج الأمثل للفقه الإسلامي أن يستعين به في تأصيل الفقه السياسي. و من ثم كان نزوعه الفكري والمعرفي في معالجة وإصلاح هذه المعضلة المعقدة يتجه نحو الاهتمام إلى:

1. حاجة الفقه السياسي للتجديد ولا يتحقق هذا التجديد إلا بالعودة إلى المنابع الأصلية للفقه، وذلك بأن يكون القرآن والسنة النبوية هما المصدر الوحيد للفقه السياسي، فلا يعتد بغيرهما من المواريث التاريخية والعادات والتقاليد وأن تؤطر القيم والمبادئ الإسلامية في الحكم في إطار عملي إجرائي يراعي المقاصد والأهداف الإسلامية العليا.

[1]) محمد محفوظ – في البدء كانت الأمة، جدلية الأمة والدولة في الفكر الإسلامي المعاصر – مرجع سابق- ص 41-42.

وفي ذلك يقول الغزال: «إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن ينحسر عنه ضلال الحجاج وعبيد الله بن زياد وملوك بني العباس وسلاطين آل عثمان...»([1]).

2. الاقتباس والاستفادة من الديمقراطيات الغربية وتجارب الآخرين وفي هذا الصدد يقول الغزالي: «إن الديمقراطيات الغربية إجمالا وضعت ضوابط محترمة للحياة السياسية الصحيحة، وينبغي أن ننقل الكثير عن هذه الأقطار لنسد النقص الناشئ عن جمودنا الفقهي قرونا طويلة فقد وصل القوم بفطرتهم واطلاعهم على ما عندنا من مبادئ إلى وسائل وتنظيمات تكفل منع الفساد السياسي وتضمن تحقيق الشورى والحريات، وإذا كنا بحاجة لتجديد فقهنا السياسي فلا مانع من النظر لتجربة القوم والانتفاع بالصالح فيها، ولا يعقل أن نبدأ من حيث توقفنا منذ قرون متجاهلين ما وصل إليه القوم، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها و الشرع لا يمنع المسلمين من الاستفادة من منجزات غير المسلمين بل يوجب ذلك إن كان فيه قوة المسلمين ومصلحتهم»([2]).

الفرع الخامس: مجابهة ظاهرة الاستبداد

ويعتقد الغزالي أن مجابهة ظاهرة الاستبداد والحكم الفردي تتحقق عبر مجالين هما:

المجال الأول: الوقاية خير من العلاج: «كان المنطلق في محاربة الإسلام للاستبداد أن الوقاية خير من العلاج، فوعي الأمة ويقظتها وحيلولتها دون هيمنة المستبدين الطغاة على الحكم أسلم وأضمن وأحفظ لدماء أبنائها، من مقاومة المستبد وهو في السلطة ولديه من القوة والجبروت ما يحميه ويطول في أمد سلطانه ولقد قص القرآن الكريم قصص المستبدين أمثالا ليعطي العبرة بأنه لا يجوز ترك حاكم "يتفرعن" و"يطغى"»([3]).

المجال الثاني: وسائل مقاومة المستبدين: فإذا وقع "المحذور" فإن الإسلام قد وضع مجموعة من القواعد التي توجب على كل مؤمن مقاومة الظلم والطغيان وفي مقدمة هذه القواعد:

- قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: مما لا شك فيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو الأساس الذي بعث الله به النبيين أجمعين بإقامته على وجهه

[1]) محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية – مصدر سابق – ص 8.

[2]) محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية –ص 114.

[3]) محمود عبده – الإمام محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 193.

كما أمر الله، فهو الجهاد الدائم المفروض على كل مسلم، لا قيام لشريعة الإسلام بدونه، ولا اعتصام بحبل الله إلى على هداه؛ «فهي قاعدة تجعل في الأمة حيوية و مناعة دائمة ضد غلبة الفساد والظلم وتجعل للفرد في إطار الجماعة دورا و مسؤولية لا تتوقف حقوقه وحده بل تمتد لتشمل حقوق الجماعة، وحقوق رب الجماعة عليها وبالنسبة لمقاومة الظلم والطغيان فقد غفل المسلمون عن أن الإسلام قد وضع بهذه القاعدة أسس التمرد والثورة على المظالم والفسوق وتجرئ العامة فردا فردا على أن يصدعوا بالحق وأن يصدعوا به رأس كل جبار»([1]).

- التناصر في وجه الظالم: من منا لا يحفظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" وقد احتاط الإسلام لضمان الحقوق الخاصة والعامة بتقرير ثلاثة مبادئ تكمل بعضها بعضا:
  - كفُّ يد الظالم: بتحريم الظلم وبيان عاقبته على آخرة المرء وعلى دنيا الناس مع وضع التشريعات والعقوبات التي تزجر عن الظلم وتردع الظالمين،
  - أسنهاض المظلوم ليدفع عن نفسه: فقبول التجسس والعدوان على الحقوق ينافي كرامة المسلم وإفراده لله بالخوف والرجاء والمسلم مطالب بالدفاع عن حقوقه ولو فقد حياته في ذلك السبيل، "فمن مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شهيد، ومن مات دون أهله فهو شهيد" (الحديث).
  - مطالبة الغير بالتدخل لصد العدوان و رفع الظلم: فحفظ الحقوق والحرمات في المجتمع مسؤولية جماعية، لا محل فيها لفردية ولا أثرة "والمسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ينصره مظلوما و ينصره ظالما يدفعه عن ظلمه"([2]).

المطلب الثاني: مفاهيم ينبغي أن تصحح

الفرع الأول: مفهوم السمع والطاعة

من المفاهيم التي نالها التشويه وسوء الفهم في فقهنا السياسي:

- مفهوم السمع والطاعة الذي ضاع بين الإفراط والتفريط وقد تعرض الغزالي للميزان الضابط لهذا المفهوم وإطاره الصحيح إسلاميا وكانت البداية المفترض في علاقة السمع والطاعة فهو علاقة

[1]) محمد الغزالي – الإسلام والاستبداد السياسي – مصدر سابق – ص 186.

[2]) محمد الغزالي – الإسلام والاستبداد السياسي – مصدر سابق – ص 192-193.

مفترضة بين قيادة حكيمة راشدة تحفظ حقوق الرعية وتؤدي أمانة الحكم في حدود الشرع وتعاليمه وبين جنود ملتزمين يطيعون على بصيرة، إذا اختل هذا التوازن في أحد مقوماته تحول إلى طاعة عمياء أو فوضى كبيرة وكلاهما شر يحذره الإسلام وينهي عن مسبباته قرر الإسلام في مبادئه»([1]).

يقول الغزالي: «فقوانين السمع والطاعة التي سنها الإسلام بل التي وضعتها نظم أخرى وطبقتها بصرامة لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة البقاء ولا مجال البتة يجعلها منتفس هوى جامح أو شهوة عارضة.

وعندما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض في الأطراف التي تمثله إلا قيادة راشدة، تنطق بالحكمة وتصدع بالحق وتأمر بالخير ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطة، وبذلك تنتظم دورة القانون في الأمة كما تنتظم دورة الدم في البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع أما الطاعة العمياء لا لشيء إلا لأن القائد أمر وأمره واجب الإنفاذ، فذلك منكر كبير وجهالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل»([2]).

وقد تجاوزت عدوى هذه الظاهرة غير الصحيحة استغلال سلطان الدين على الأنفس وثقة العوام في علمائهم لدرجة الانقياد والخضوع المطلق لهم.

وقد تصدى الغزالي لنفر من الدعاة وشباب الصحوة الإسلامية الذي قرأوا وفهموا أحاديث السمع والطاعة، ففسروها تفسيرا غير مناسب جعلهم يقدمون الولاء الكامل المطلق للحاكم رغم شرعية المطعون فيها مستندين في ذلك على مجموعة من الأحاديث التي يفهم ظاهرها أنها طاعة لأولي الأمر دون اعتراض حيث وصل الأمر ببعض الشباب أن يقول: «إنما الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة»([3]).

ويسوق الغزالي مثالا على ذلك فيقول: «وقد رأيت جمعا غفيرا من شباب المسلمين ينظرون إلى قائدهم نظرة يجب أن تدرس وأن تحذر.

---

[1]) محمود عبده – الإمام محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 195.

[2]) محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية – مصدر سابق – ص 59.

[3]) محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 70.

قال أحدهم: إن القائد لا يخطئ، و مع أن كلمة "القائد لا يخطئ" وجدت امتعاضا من السامعين إلا انه امتعاض المذنب عندما يواجه بجريرة لا يجد منها فكاكا... و يكره أن تلتصق به لظهور معرتها والقوم يخلطون بين توقير القائد وتوفير المهابة له وبين الخنوع لرأيه والمسارعة في هواه»([1]).

إن هذا الخلل في الفهم والتصور جعل هذا الشباب ينحرف وتضطرب أحكامه وفيهم قال الغزالي أن هؤلاء الشبان: «اضطربت أفكارهم وأحكامهم حتى خيل إلى بعضهم أن يزن الأمور بمدى رضاء القائد ومدى الولاء له!!»([2]).

الفرع الثاني: متى يكون الخروج عن الحاكم؟

منطلق الغزالي في قضية الخروج على الحاكم منظور فقهي وسياسي وواقعي فالفقه يوجب على الأمة أن تنصح الحاكم وأن تنبهه إذا قصر في مهام وظيفته أو أخطأ كما يوجب عليها أن تخلعه وتأتي بمن هو خير منه إذا فرط في ثوابت الدين وأقر المحرمات وجحد الفرائض ونهب الحقوق واتبع الشهوات...

واستند في هذا كله على مجموعة من النصوص المتواترة مثل قوله صلى الله عليه وسلم "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

وقول عبادة بن الصامت: "بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلى أن تروا الأمر كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم" متفق عليه([3]).

هذا هو الإطار لقضية خلع الحاكم والخروج عنه وقد احتاط الإسلام احتياطا شديدا في وضع الضوابط الواقعية والسياسية لتلك القضية فطلب من الأمة أن تتثبت وتتأنى قبل الحكم بكفر الحاكم وخروجه على مصلحة الأمة كيلا تتاح الفرصة للمناوئين ومثيري الفتن وطلاب المناصب ليثيروا الفتن ويهزوا استقرار المجتمع وكي لا تتحول حرية النقد والنصيحة إلى وسيلة للتطاول والنيل من هيبة

[1]) محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 69-70.

[2]) محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية – مصدر سابق – ص 71.

[3]) محمد الغزالي – الإسلام والاستبداد السياسي – مصدر سابق – ص 200.

الحاكم المسلم كما طلب الإسلام من المسلمين أن يحسنوا التقدير للعواقب وإن رأوا خلع الحاكم والخروج عليه سيؤدي إلى منكر أكبر أن يختاروا أخف الضررين عملا بالقاعدة الأصولية([1]).

و الغزالي في هذه القضية أميل إلى توسيع أسباب خلع الحاكم والخروج عليه بأن يتدرج تحت مفهوم الكفر البواح المذكور في الحديث: أن يتنكب الحاكم سبل الرشاد معطلا أحكام الشريعة في مجالات الحياة مثل الافتئات على حق الأمة في اختيار حاكمها وتضييع الحقوق السياسية والاقتصادية في المجتمع وتعطيل نشر الرسالة في العالم([2]).

الفرع الثالث: تصحيح مفهوم مبدأ الشورى

ومن المفاهيم التي أخذت حيزا ومساحة واسعة في كتابات محمد الغزالي مبدأ الشورى خاصة كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي" و "الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية" فقل أن نجد كتابا لا يتعرض لقضايا السياسة والحكم في العالم الإسلامي وتاريخه وألا تعرض لمبدأ الشورى نظرا لمكانتها وأهميتها في سياسة الحكم حيث يعتبرها من "صلب رسالة الإسلام"([3]) والشريعة الإسلامية قد قررت مبدأ الشورى كأصل من أصول الحكم إلا أنها لم تنظم تطبيقه وإنما تركت ذلك للظروف والمقتضيات.

فاهتمامه لهذه الفريضة نظرا لما أصابها من تشويه وتحريف لمعناها ولضوابطها فهو عندما يتحدث عن هذه الفريضة يريد أن يعيد لها مكانتها وموقعها الطبيعي ويصحح لوثات وقعت لكثيرين عندما يعلنون أن الشورى معلمة وليست ملزمة "وأن الحاكم في الإسلام يتصرف دون مجالس شورى تشير عليه وله أن ينفرد برأيه متخطيا كل رأي يعرض عليه، هذا كلام لا يمكن أن يقال وصاحب الرسالة المعصوم عليه الصلاة والسلام ما زعمه لنفسه فكيف يزعم للآخرين؟!.. القول بأن الشورى لا تلزم أحدا كلام باطل ولا أدري من أين جاء !؟([4]).

ولعل فكرة عدم إلزامية الشورى وفكرة المستبد العادل كلها كانت فلسفة لواقع معين لتبرير و تسويغ الاستبداد السياسي من فقهاء السلطة.

---

[1]) محمد الغزالي – الإسلام والاستبداد السياسي – مصدر سابق – ص 200.

[2]) محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 160-164.

[3]) محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 182.

[4]) محمد الغزالي –المصدر نفسه – ص 166-167.

وقد يشيع في المجتمع الإسلامي أن الشورى غير ملزمة كلون من التبرير أو التسويغ أو إعطاء الفتوى للاستبداد السياسي وهذا لا يجوز والذي رأيناه قي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه التزم بالشورى لأنها من مبادئ الإسلام...»([1]).

ويسوق الغزالي نماذج من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين أهمية الشورى كغزوة أحد والأحزاب وغيرها من القضايا والمواقف التي تتطلب الاستشارة([2]). ولم تقتصر الشورى على فترة محمد صلى الله عليه وسلم بل امتدت إلى الخلفاء الراشدين ومن جاء من بعدهم.

بهذا المعنى كانت الشورى إحدى الركائز الأساسية في نظام الحكم المبني على العلم والعدالة والكفاءة وقوة البصيرة.

عندما غيبت الشورى وحشرت في زاوية الإعلام لا الإلزام تراجع العلم العربي والإسلامي تاريخيا على مستوى مختلف مقومات النهوض العقائدية والعلمية والخلقية و العملية وجثم الاستبداد على الأمة فترك آثارا كبيرة من تخلف وفقر وعجز وتبعية يقول عبد الحليم عويس: «إن مصاب المسلمين من الاستبداد السياسي شديد والجراحات التي تركها في كيانهم غائرة والهوان المادي والأدبي الذي خلفه في النفوس والمجتمعات لا يمكن إنكاره، ومعروف أن البلاد إذا اختلت أمورها في الداخل و انتظمها الاستبداد الداخلي كان ذلك إيذانا بانهيارها واستسلامها للاستعمار الخارجي.

ثم يطرح هذا السؤال: فلماذا لا تكون الشورى في الإسلام واجبة وضرورة دينية وهي تقلم أظافر المستبدين وتمنع طغيانهم؟ إنها ضرورة دينية ومدنية على السواء والمماراة في وجوبها تجاهل لوقائع التاريخ ولأحكام الإسلام المرتبطة بالشورى»([3]).

المطلب الثالث: النتائج المستخلصة

إن سياسة الحكم في التجربة الإسلامية مرت بفترات حاسمة وتاريخنا الإسلامي في كثير من مراحله هو عبارة عن مد وجزر بين الأمة والحكم.

[1]) محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 127-128.

[2]) محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 128-129.

[3]) عبد الحليم عويس – الشيخ محمد الغزالي – تاريخه وجهوده وآراءه – مرجع سابق – ص 134-135.

حيثما تطابقت إرادة الأمة وإرادة الدولة بلغت الأمة الإسلامية ذروة العطاء في كل المجالات وتاريخيا كان للأمة بمؤسساتها ومنابرها وإمكاناتها المتاحة الدور الرئيسي والجوهري في توسع رقعة الإسلام وتذليل الكثير من العقبات التي تحول دون استمرار حركة الفتح الروحي والحضاري وقد استخدمت في سبيل ذلك وسائل حضارية كالدعوة بالتي هي أحسن إلى الدين الجديد والتواصل الإنساني وصناعة القدوة الحسنة التي تمارس فعلا دعويا متواصلا من خلال سلوكها وحركتها العامة وفي إطار مشروع الأمة الحضاري الذي يتجه إلى الأقوام والشعوب الأخرى لإشراكها في عملية العمران الحضاري وفق القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام ولم يمارس الحكم أي فعل عنفي أو لم يستخدم وسائل القهر والبطش في سبيل إخضاع الشعوب الأخرى.

وقد تجلت هذه المعاني في عصر النبوة والتجربة الراشدية في الحكم وكانت أشرق المحطات في حياة الأمة.

بانتهاء الفترة الراشدية انتقل الحكم إلى الملك العضوض فكان الحكم أداة بين أشخاص للحفاظ على مناصبهم ومصالحهم عن طريق الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ففي هذا العصر بدأت تظهر عصبيات طالما حاربها الإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة ومن ثم نشأت خلافة ذات طابع قائم على القوة السياسية والمقصود بالقوة السياسية قدرة أشخاص أو جماعات على فرض إرادتهم على الآخرين وقد ظهر هذا الطابع للقوة منذ اللحظة الأولى من الطريقة التي تمكن بها معاوية ابن سفيان من الوصول إلى الحكم فقد حصل عليه بالسيف والمكيدة والدعاية وبذل الأموال وظل هذا الطابع للأمويين يزيد ويضعف وفقا لطبيعة الخلفاء.

وفي ظل الدولة الأموية تأكد انقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب تتصارع حول الخلافة لمن تكون؟ ومما زاد في تأزيم وضع الدولة الأموية تعصبها للجنس العربي حيث كانوا يقدمونهم على غيرهم من الموالي في الوظائف العامة كالقيادة والقضاء والولاية وكانت سياستهم عربية أكثر منها إسلامية مما أدى إلى نقمة الوالي على العرب وعلى بني أمية خاصة.

ونتيجة لروح التذمر هذه والسخط على العرب خاصة الأمويين نجد الكثير من المناوئين – خاصة الموالي– للدولة الأموية يشاركون في كل الثورات التي تقوم ضد بني أمية وانتهت هذه الثورات والصراعات إلى تقويض دولة بني أمية، ورفع العباسيين إلى سدة الحكم، ففي عصر الدولة العباسية

ازدهرت الحضارة «وفتحت أبواب الترجمة من كل أقطار الدنيا واطلاع المسلمين على ثقافات الأجانب وعلى أنواع المعرفة التي تشيع بين الناس...»([1]).

إلا أن ما ميز هذه الفترة انفتاحها الكامل لكل الثقافات الأخرى خاصة الثقافة اليونانية والسريانية والرومانية دون تمييز وتمحيص مما فتح المجال إلى اختلاط الثقافة الإسلامية بهذه الثقافات الوافدة المليئة بأفكار وقيم غريبة عن المجتمع الإسلامي بل تنافى قيمه وأخلاقه ومبادئه وبتعبير الغزالي: «الذي حدث أن فلسفة اليونان والسريان والرومان ومن إليهم من أهل الأرض دخلت بلادنا واختلطت مع الثقافة الإسلامية اختلاطا أساء إليها ثم وقعت الحضارة الإسلامية فريسة بين نوعين من التصرفات نوع المنحلين الذين يبحثون عن الشهوات واللذات ونوع المتزمتين المعزولين مما تركوا الدنيا تسير وفق هواها وهم المتصوفون أخذوا جانبا في صوامعهم أو في بيوتهم وأخذوا بعبدون الله جانبا!!»([2]).

هي مقدمات لحالة من الاستبداد السياسي التي صحبها اضطهاد وقمع وتعسف من طرف الخلفاء العباسيين خاصة المتأخرين منهم كان سببا قويا في انهيار الدولة العباسية وهذا محمد قطب يقوم الفترة العباسية وما صاحبها من انحرافات وصلت من الضخامة لدرجة أن سببا واحدا كاف لانهيارها، فيوجز هذه الانحرافات في قوله: «كان طبيعيا أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، ومن بينها ما يكفي وحده لتقويض أركانها كالترف الذي غرقت فيه القصور ولعب الدخلاء بالسلطان والدسائس والمؤامرات وضعف القوة السياسية والعسكرية... فإذا اجتمع إلى ذلك ما سردناه من الانحرافات الأخرى فلم يكن انهيار الدولة عجبا، إنما كان العجب أن تستمر أكثر من ذلك بكل ما تحمله من أمراض وجاء الانهيار تحقيقا لسنن الله في الحياة البشرية السنن التي لا تحابي أحدا ولو قال بلسانه "لا إله إلا الله محمد رسول الله"»([3]).

أما الدولة العثمانية رغم ما زخرت به من مجد وازدهار خاصة مراحلها الأولى حيث وصلت في فتوحاتها إلى مشارف "فيينا" لكن هذا المجد سرعان ما تحطم في أوائل القرن السابع عشر الميلادي،

---

[1]) خطب الشيخ محمد الغزالي – في شؤون الدنيا والحياة – إعداد قطب عبد الحميد قطب – ج4 – مكتبة رحاب – الجزائر – د ت – ص 31.

[2]) خطب الشيخ الإمام محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 32.

[3]) محمد قطب – واقعنا المعاصر – مرجع سابق – ص 151.

حين بدأ نفوذها يتقلص وبدأت رقعتها تنكمش بسبب انتشار الفساد والضعف في كيانها وأجهزتها ورغم المحاولات الإصلاحية العديدة لأوضاع الإمبراطورية العثمانية في القرنين 18 و 19 م إلا أنها فشلت، ولم تنجح لأن الأخطار كانت تهددها من كل جهة وهناك أسباب داخلية وأخرى خارجية أدت إلى انحطاطها وإلى ضعفها.

أما الأسباب الداخلية تتمثل في ضعف شخصية السلاطين وتراجع نفوذهم،

- تعفن الجهاز الإداري بسبب انتشار الرشوة وقلة الكفاءة،
- اتساع رقعة الإمبراطورية وتباين شعوبها من حيث الجيش واللغة والحضارة،
- انحلال الجيش الإنكشاري وإهماله لمهمته العسكرية،
- إفلاس خزينة الدولة بسبب إسراف السلاطين ورجال الدين وكثرة الثورات لأسباب داخلية:

- تتمثل في تدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية الخاصة منذ أواخر القرن 18 م بقصد تقسيم أملاكها والحصول على أراضيها نتيجة لضعفها المتناهي حتى لقبها قيصر روسيا نيقولا الأول بـ"الرجل المريض".

- أما العصر الحديث لم يكن استثناء عن ظاهرة الاستبداد التي مرت بها الأمة الإسلامية في تجاربها التاريخية السياسية، إنما يضاف إليها وقوع الحكام العرب في حبائل الاستعمار، فالنظم التي تعيش في بلادنا هي نظم صنعها الغرب أو يحرسها الغرب فهي نظم تستمد شرعيتها من قوة الغرب ومن هناك لا تستمد شرعيتها من الأمة ولو كانت تستمد شرعيتها من الأمة لكانت هناك نظم سياسية تنحو نحو الحرية وحقوق الإنسان.

فالمستبدون في العصر الحديث ما زالوا يمارسون نفس السياسات التي مارسها الحكام السابقون فهم يعمدون إلى كل الوسائل غير الشرعية التي تضمن لهم البقاء في الحكم، فإلى جانب وسائل الحديد والدم والإرهاب وشراء الذمم هناك وسائل لا تقل خطورة عنها إن لم تكن أشد فتكا، وعلى رأس هذه الوسائل التعسفية والقمعية سياسة التخدير وصناعة التعسفية الانهزامية والاستسلامية المرجئة.

- إن إضعافَ روح المقاومة وروح التضحية وروح الاستشهاد هو ما تشيعه ثقافة المستبد.

جوهر الاستبداد في العصر الحديث هو هو إلا أن أساليبه أخذت أشكالا جديدة وتطورت فأسلوبه أخفى وأكثر قوة وأثرا فعمل على تحطيم أي إمكانية انبعاث لعقيدة الأمة بما لم تصنعه الحروب الصليبية وها نحن نعيش مرحلة الاستقلال الشكلي والحكم بالوسائط (أي الوكالة) التي صنعتها معاملهم في المناهج التي وضعوها في المدارس والجامعات والتي رسموا بدقة الغايات في صياغة عملائهم ووسائطهم في التسلط على الشعوب.

إذا كان الاستعمار السافر قد رحل فإن الاستعمار بالوساطة بقي يرفع شعارات الحرية والشورى كلاما و تطبيق نقيضهما عملا.

والحقيقة التي توصل إليها الغزالي أن الاستبداد لا يمكن أن يستند إلا إلا من قبل الاستعمار و إلا أن يسند إليه، ولقد أثبتت الأحداث أنه بغياب الوعي الإسلامي الشامل أن الشعوب تحررت من عبودية الاستعماريين لتقع في عبودية عملائهم.

يقول الغزالي: «إن الحكم الفردي فعل بنا الكثير وأصاب ديننا في مقاتله ولولا أن الله كتب البقاء لهذا الدين لأمسى رُفاتا تحت الثرى لشدة ما يلقاه من كيد الجبابرة والفراعنة الحديثين»([1]).

ويدعم هذا المعنى ما قاله محمد محمد حسين: «إن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول في انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلا بعد جيل حتى انتهى بهم الأمر إلى ما هم فيه من تخاذل وتواكل وفتور، و بأن هذا الاستبداد قد أفسد الدين وقتل كل فضيلة وقتل العلم وقتل الطموح وقتل الأخلاق وأفقد الفرد ثقته بنفسه فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرك...»([2]).

و إذا أردنا أن نتخلص من الاستبداد يجب أن يحطم ويُكفر به وهو شرط أساسي لتحقيق حرية الإنسان وكرامته.

[1]) محمد الغزالي – علل و أدوية – مصدر سابق – ص 186.

[2]) محمد محمد حسين – الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر – ط 3 – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت، لبنان – 1972 – ص .

و إذا أردنا أن نتحرر ينبغي أن نحرر أنفسنا، نتحرر من القابلية للاستعمار كما قال مالك بن نبي.

فعودة الأمة إلى مراشدها لا تتحقق إلا بمجابهة الاستعمار والقضاء على ركائزه الداخلية.

الفصل الخامس

فقه التسخير

المبحث الأول سنة التسخير في العمل الإسلامي

المبحث الثاني التكامل بين السنن التشريعية والكونية

المبحث الأول

سنة التسخير و موقعها في العمل الإسلامي

تمهيد

إن معرفة السنن الكونية تفيدنا من الناحية العملية في الكشف عن هذا الوجود، و ما فيه من مسخرات و ثروات و مجرات و أفلاك و عوالم...

و قد عرفنا القرآن الكريم بأن الله خلق هذا الكون و سخره لنا، فجعله متوافقا مع جلبتنا، و قدره تقديرا يصلح به حياة الإنسان، فهو عندما خلق هذه الأرض، خلقها على نحو يتوافق مع طبيعتنا، و تكويننا، و يحقق لنا الصلاح و المنفعة، و هذا ما سماه القرآن الكريم بالتسخير.

و هو لا يخبرنا بذلك مجرد الإخبار، و إنما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون، قال تعالى :﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ سورة لقمان الآية 20.

و اتصال الإنسان بالكون ومواجهته بالنظر قصد معرفة ما وراءه من أسرار و الكشف عما فيه من خامات وتسخيرها للصالح العام عمل صالح.

و الإدراك بأن سيطرة الإنسان على مسخرات الوجود لا تأتى إلا بالدخول "من خلال إدراكنا أو وقوفنا على العلامات بين العناصر والمركبات والأفلاك والقوانين الكونية نستطيع استثمار حركة الكون و سننه لصالح الإنسان والنهوض به وتقدمه...

فإن معرفة السنن الكونية واكتشافها يوقفنا على قوى الطبيعة وقوانينها وأسباب كوارثها وزلازلها...»([1]).

و مسألة التسخير نجدها تتردد في القرآن الكريم باعتبارها قاعدة عامة هامة، يوجه القرآن الكريم العقل الإنساني إليها، و قد أخبرنا القرآن الكريم والسنة الشريفة بكثير من الظواهر الكونية، وأنها سنن من سنن الله تعالى لها قوانين تحكمها، و أمرنا بالتدبر فيها قبل أن ترشد الدراسات الحديثة إليها، كما أخبر أن الإنسان يصل إلى هذه القوانين عن طريق العلم والبحث والاستكشاف إذ قال

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 125.

تعالى :﴿سَنُرِيهِمُ آيَاتِنضا فِي الآفَاقِ وَفِي أَضنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الحَقُّ...﴾ سورة فصلت الآية 53.

والذين ينتفعون بآيات الكون هم أولوا الألباب.

المطلب الأول: مفهوم التسخير و أقسامه و أنواعه

الفرع الأول: التسخير لغة و اصطلاحا

1- التسخير لغة

جاء في لسان العرب لابن منظور في لفظة "سخر" يقال سَخَرته بمعنى سَخَّرته أي قهرته وذللته قال تعالى: ﴿وَ سَخّر لكُمُ الشّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَ سخّر لكُمُ اللّيْل و النّهارَ﴾ سورة إبراهيم الآية 33، أي ذللهما والشمس والقمر مسخران يجريان مجاريهما، أي سُخرا جاريين عليهما، و سخره تسخيرا كلفه عملا بلا أجرة، و كذلك تسخّره وسخّره يسخّره و سخريا كلفه ما لا يريد و قهره مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك مسخر، و قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَوَاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ سورة لقمان الآية 20؛ قال الزجاج تسخير ما في السموات تسخير الشمس والقمر و النجوم للآدميين، و هو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم و الاقتداء بها في مسالكهم و تسخير ما في الأرض تسخير بحارها و أنهارها و دوابها و جميع منافعها([1]).

و قد ذهب إلى هذا المعنى في قاموسه "تاج العروس" مستشهدا بقوله تعالى: ﴿...ليتخذ بعضكم بعضا سخريا...﴾ سورة الزخرف الآية 32، و سخره كمنعه يسخّره سخريا بالكسر و يُضم و سخّره تسخيرا: كلفه ما لا يريد و قهره، و كل مقهور مدبّر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك مسخّر قال تعالى: ﴿... و سخر لكم الشمس والقمر...﴾ إبراهيم 33، أي ذللهما، و سخره تسخيرا، ذلّلَهُ وكلفه ما لا يريد وقهره عملا بلا أجرة و لا ثمن خادما أو دابة.

و في مختار الصحاح يقال سخّره تسخيرا كلفه عملا بلا أجرة، و كذا تسخره و التسخير أيضا التذليل.

و نفس المعنى ذكره قاموس "المعجم الوسيط" سخّره كلفه ما لا يريد و قهره و كلفه عملا بلا أجرة، ويقال "سخّر الله الإبِل ذلّلها وسهّلها.

[1]) ابن منظور – لسان العرب – مادة "سخر".

و في الصحاح: "سخّره تسخيرا كلفه عملا بلا أجرة، و كذلك سخره والتسخير التذليل، و سفن سواخر إذا أطاعت و طابت لها الريح".

و جماع هذا المعاني أن لفظة التسخير في اللغة هي التذليل والتسهيل وتكليف العمل بلا أجرة.

2- تعريف التسخير اصطلاحا

التسخير المقصود به هنا المعنيان، فكان من تكريم الله عز وجل أن جعل الكون كله في خدمته و سخره لمنفعته العوالم كلها.

التسخير هو القهر على الفعل و الإخضاع و السوق قهرا إلى غرض معين وذلك مثل حمل الفعل بلا إرادة منه، و هو أبلغ من الإكراه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...﴾ سورة لقمان الآية 20. و قال تعالى: ﴿و سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعا منه ...﴾ سورة الجاثية الآية 13([1]).

و في تسخير ذلك وجهان: أحدهما تسهيله والثاني الانتفاع به و الله سبحانه وتعالى سخّر ما في السموات و الأرض من موارد طبيعية كالمياه والأرض الصالحة للزراعة و المعادن الموجودة في الأرض كل هذه النعم سخّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان للانتفاع بها فكان من تكريم الله عز و جل أن جعل الكون كله في خدمته و سخّر لمنفعته العوالم كلها([2]).

الفرع الثاني: أقسام التسخير

و قد قسم العلماء سنة التسخير إلى أقسام هي:

- تسخير كوني، - تسخير معرفي، - تسخير شرعي.

1. التسخير الكوني: يراد به مجموع القوى و الطاقات والنعم والخيرات المبثوثة في الأرض والسماء، وهي كثيرة جدا أكثر من أن تعد أو تحصى، منها ما هو ظاهر يستطيع الإنسان إدراكه، ومنها ما هو مستتر لا يمكن إدراكه، ولكن تدرك آثاره ولذلك فقد أفاض القرآن الكريم في ذكر النعم التي

[1]) الماوردي - الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي - تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - الطبعة الأولى - 1419 هـ -1999 م عدد الأجزاء 19- 284/3.

[2]) الماوردي - الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي - المرجع السابق - 529/3.

حباها الله عباده، بدءا بذات الإنسان لقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾ سورة الملك الآية 23([1]).

ويقصد به التسخير في السنن الكونية و هو اكتشاف القوانين التي تتحكم في المادة والكون وحركة الأشياء عموما واكتشافها أدى إلى التطور التكنولوجي العلمي، وهذا النوع من التسخير ركز عليه الغزالي وحرض على الدفع به، فقل أن نجد كتابا لا يتعرض لقضايا تتعلق بسنة التسخير، ناهيك عن حضور هذه المسألة في جل مؤلفاته و محاضراته و أشرطته و مداخلاته... و اهتمامه بهذه القضية يعود إلى تقصير العالم الإسلامي في هذا الجانب وإغفالهم للفقه الحضاري و هو فقه الأسرار الكونية، و المسلمون اليوم عاجزون في فقه الأسرار الكونية.

2. التسخير المعرفي: فتسخير الكون في الجانب المعرفي فهو ما يبدوا من إنبناء مادة وحركة على قوانين وسنن ثابتة لا تتغير، فكل ما في الكون من ظواهر وقوى وطاقات كالشمس والقمر والليل والنهار والبحار تحكمه نواميس ثابتة مطردة، لا تحيد عنها قيدا نملة، فإذا أراد الإنسان أن يستغلها فما عليه إلا أن يهتدي إلى سر ذلك الناموس الذي يحكمها، والذي تسير وفقه وبغير الاهتداء إلى غير ذلك السر لا يستطيع الإنسان بقوته الهزيلة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة»([2]).

3. التسخير الشرعي: هو الخضوع لقدر الله وحده فالله تعالى قد بعث رسله وشرع شرائعه لتكون أفعال الناس الاختيارية خاضعة لأمر الله الشرعي حتى يتم انقياد الخلائق كلها لله قدرا وشرعا كما قال تعالى: ﴿و ما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ ليعبدوني﴾ سورة الذاريات الآية 56.

وهدف الشريعة الإسلامية أن ترد الناس عن التمرد الكفري إلى الله تعالى وحده بخضوع شؤون حياتهم كلها اعتقادا وتفكيرا و سلوكا لشرعه، وبهذا يتحقق معنى شهادة أن لا إله إلا الله في أفراده سبحانه بالربوبية و الألوهية و الحاكمية، وسبيل ذلك ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا معنى شهادة أن محمدا رسول الله»([3]).

الفرع الثالث: سنة التسخير وأنواعها

[1]) حسين شرفة – سنن الله في إحياء الامم في ضوء الكتاب والسنة – مرجع سابق – ص 582.

[2]) أنظر سيد قطب – في ضلال القرآن – 3226/5.

[3]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – مرجع سابق – ص 477.

يمكن أن نميز بين نوعين من التسخير:

1- التسخير في السنن الكونية: ...."فاليوم يشهد الإنسان أوسع التطورات العلمية لفهم ما أودع الله في هذا الوجود من سنن كونه فأصبح من السهولة لديه التحكم في الأنهار والسيول وتقليل خسائر الزلزال في أقل قدر وذلك بفضل هندسة المباني الجيدة.

والحقيقة أن الكشف العظيم و التقدم العلمي والتقني الذي نشهده اليوم في جميع جوانبه وأبرز معطياته يعتبر تتويجا لجهود العقل البشري في محاولة فهم الكون وما فيه من تسخير سننه وظواهره في عمارة الحياة على الأرض ولا شك أن هذا من أهم الثمرات العملية للسنن الكونية»([1]).

و أوروبا في هذا الكشف العظيم والتقدم العلمي متقدمة، بحيث حققت من الإنجازات ما يفوق التصور في حين أصيب العالم الإسلامي بجمود في ميادين العلوم التجريبية والتقنية، وعدم استثمار سنن الله الكونية والاستفادة منها في عمرانهم ومعاشهم، ولم يستجيبوا لنداء الله تعالى: ﴿قُلُ انظروا ماذا في السماوات و الأرض و ما تغني الآياتُ و النذر عن قوم لا يؤمنون﴾ سورة يونس الآية 101.

وفي هذا الصدد يقول فتحي يكن "الدعوة والداعية يجب أن يكونا ملمين بفقه التسخير ويعمدا إلى توظيف الأوقات والطاقات توظيفا سليما وشاملا وكاملا في خدمة الإنسان وأهدافه القريبة والبعيدة، فالله تعالى سخر للإنسان كل شيء و من ثمة مطلوب منه أن يسخر كل شيء في سبيل الله، بحيث يتحقق من ذلك كمال الشكر وتمام الأجر مناط التوفيق والنصر، وهناك أمور لا حصر لها ولا عد مما يمكن أن يسخر في الأرض بالإسلام وحكمها بتشريعه وصيانتها بمبادئه وتحصينها بأخلاقه وحل مشكلاتها بنظمه و مناهجه.

ويقسم التسخير إلى قسمين:

- المسخرات الخلقية: ومنها ما هو خلقي، ويقع في دائرته كل ما خلق الله في الإنسان و ما سخر الله في الكون للإنسان، إذ قال تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين(20) و في أنفسكم أفلا تبصرون﴾ سورة الذاريات الآيتان 20-21.

[1]) راشد سعيد شهوان – السنن الربانية في التصور الإسلامي – مرجع سابق – ص 178.

و قوله تعالى: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ سورة النحل الآية 12.

- المسخرات الاكتسابية: و هي المسخرات التي يمكن أن يبتكرها الإنسان ويصنعها ويطورها ويسخرها في الغرض الذي جاء به الإسلام، وهو الاستخلاف في الأرض وإقامة الحياة الإسلامية بكل أصولها وفروعها وتفصيلاتها».

والمسخرات الاكتسابية كثيرة ومتنوعة والاستفادة منها ممكنة متى توفرت العزائم والإرادات والأخذ بالأسباب.

ومن أمثلة المسخرات الاكتسابية وهي لا تعد ولا تحصى تسخير الفرص والمناسبات وتسخير العلوم والمبتكرات وتسخير الاختصاصات والمؤهلات وتسخير المواقع والمقامات وتسخير الأوقات([1])...

2- التسخير في السنن الاجتماعية: و هو يتم من خلال اكتشاف سنن العلاقات الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية، أي كل ما يتعلق بالنفس عموما، فباكتشاف قوانين النفس والأخلاق وقوانين العلاقات الاجتماعية يمكن لنا أن نتحكم في الأفراد والجماعات، و أن نُسخّر الناس من خلالها وفق ما نرسم من مشاريع وخطط.

والقرآن الكريم في استعراضه لشؤون الكون يتناول كليات الأشياء جملة تاركا التفاصيل لاجتهاد الإنسان وبحثه المستمر ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة في أشياء مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذي يتعلق بالحجم والكتلة، والزمان والمكان وبدرجات النمو والاندثار، وغيرها يتمثل في كثير من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿...وكل شيء عنده بمقدار﴾ سورة الرعد الآية 8، وقوله تعالى: ﴿...قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾ سورة الطلاق الآية 3، وقوله تعالى أيضا: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ سورة القمر الآية 49.

والنصوص في هذا النوع من التسخير كثيرة ومتنوعة في مجموع أعمال الغزالي المسموعة والمكتوبة، فالجهود التي بذلها تعددت وتنوعت عبر مساحة الفكر الإسلامي كله، من أجل تأصيل مفاهيم كثيرة داخَلها غبش و لبس وأفسدتها مفاهيم وافدة من الأمم الأخرى، و هو في مسعاه يريد

[1]) فتحي يكن - فقه التسخير – موقع: http://www.ikhwanwayonline.workpress.com يتاريخ 2013/03/20.

أن يقدم الطريقة المثلى و الصحيحة لفقه الإسلام، بتوازن وشمولية، وعقل ووجدان، ونموذج ذلك ما قدمه في كتابه "كيف نفهم الإسلام؟" «في هذا الكتاب إجلاء لمعارف إسلامية صحيحة طويت عن الأمة، أو عرفها القليل وكان ينبغي أن يعرفها العامة، ومحاولة دحض خرافات علمية وخلقية و عقدية فشت في كل البقاع، و توطّنت، وما كان ينبغي أن تظهر، ولا أن تبقى طويلا وإحياء لتقاليد إسلامية عريقة لو سمع بها الجمهور لفغر فمه في دهشة فهي غريبة عليه، بينما حلت مكانها تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا حاولت تغييرها سمعت صيحات الفزع كأنك تغير مآثر الدين لا مآثر الجاهلية»([1]).

الفرع الرابع: إسهامات الغزالي في سنة التسخير

و من المؤلفات التي أحدثت تأثيرا في الساحة الإسلامية، وتفاعلت مع ثقافة الفكر الإسلامي المعاصر كتابه "ليس من الإسلام"، و"كيف نتعامل مع القرآن" فكتابه "ليس من الإسلام" يقول فيه محمد عمارة: «في هذا الكتاب رغبة أصيلة لدى المؤلف في تمكين المسلم من أن يحيط علما بأصول لا بد منها، وفروع لا غنى عنها تتصل بالإسلام وتبتعد لغة المؤلف هنا عن المصطلحات الفنية، مجتهدا في التقريب والتوضيح، وقد اهتم المؤلف بإبعاد الزوائد الضارة التي أضافها المسلمون إلى دينهم كما اهتم بضبط المعارف الدينية في حدود أحجامها الصحيحة فلا نقص ولا ضيم ولا انكماش ولا تهور، مقتفيا آثار البدع والخرافات فيفضحها...»([2]).

ويريد المؤلف أن يوسع آفاق الثقافة الإسلامية وييسرها لمن شاء، ويرفع من أمامها العوائق ويقرب جماهير المسلمين ألوانا من العلم حرموا منها، وينبغي أن تكون بينهم شائعة متداولة، فإن التعليم الرحب المحدود أفضل في خدمة الإسلام و إعزاز أمته من التعليم الفني الذي يبقى حكرا على المتخصصين، ويرى أن هذا الكتاب سوف يغضب بعض الجامدين الذين لا قدم لهم في علوم الدين، وسوف يرون الكتاب امتدادا لجهاد أئمة طال كفاحهم في إيقاظ العقل الإسلامي»([3]).

أما كتابه "كيف نتعامل مع القرآن" هذا الكتاب عبارة عن «مدارسة حول مناهج فهم القرآن المجيد وقضاياه وتفسيره وتأويله وتطبيقه وتبويبه، وعلاقاته بعلوم المسلمين قديما وحديثا، و كيف

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 60.

[2]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 59.

[3]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 59.

كان المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر ومعرفته وعلمه، ويعيد المؤلف القرآن الكريم إلى مركز الدائرة في ثقافة المسلم المعاصر.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه محاولة لتصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن الكريم في الموضوعات الإسلامية كخطوة أولى يؤسس بموجبها الوعي المنهجي الإسلامي المعاصر»([1]).

و عندما نرصد نتاج الغزالي "خاصة مؤلفاته" و عطائه الفكري والدعوي «في مجموعه يمثل معالم مشروع الفكر المتكامل ينطلق فيه من موقف الوعي على واقع الأمة والتحديات التي تواجه محاولتها في النهوض»([2]).

ولا أدل على ذلك إسهاماته وجهوده ضد الغزوات الفكرية فيعد من أكبر الدعاة وقوفا ضد المنبهرين بالثقافة الغربية، وله في ذلك جهود هائلة، حيث وقف ضد القاديانيين والبهائيين والشيوعيين واليهود والصليبيين، فضلا عن أناس يحسبون على المجتمع الإسلامي فيعتبرهم الغزالي البلية الكبرى على الأمة لأنهم ينخرون كيانها من الداخل فهم بحاجة إلى علاج، فيقول: «بعض المرضى يحتاج إلى صدمات كهربائية لتصحيح وعيه وإيقاظ ما تخدر من حسه، والمسلمون يحتاجون إلى أمثال هذه الصدمات كي يحسنوا الخلاص مما حل بهم والسير على نهج يشبه أو يقارب نهج الراشدين من أسلافهم»([3]).

أما كتابه "الإسلام والطاقات المعطلة" فهو يستعرض فيه بحزن وأسى الإهدار الهائل للطاقات المذخورة في هذه الأمة، فكم من قدرات وطاقات وإمكانات واختصاصات، ومؤهلات تعطلت وتجمدت وكم من مواهب وملكات هُمشت و أضمرت وخسرها المشروع الإسلامي فمنها من أصابه الإحباط فانطوى على نفسه وافترسته الهموم اليومية فانصرف إليها ومنهم من وظف الطاقة التي لديه في جانب من جوانب العمل الإسلامي، وارتضاه لنفسه بعد أن كفر بالعمل الجماعي.

---

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 88.

[2]) فتحي حسن ملكاوي – العطاء الفكري الشيخ محمد الغزالي – حلقة دراسية – ط 1– المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن – 1996 – ص 17.

[3]) محمد الغزالي – هموم داعية – مصدر سابق – ص 136.

إن مشكلة الفشل في تسخير طاقات الأمة و في سد حاجات جوانب الحياة الإسلامية المختلفة جعل الثغور بلا حراس والمهمات بلا رجال أو أفكار والمخططات حبرا على ورق.

يقول محمد عمارة و هو يلخص محتويات هذا الكتاب: «في الكتاب مقارنة بين طبيعة دين و واقع أمة، اعتمد فيه المؤلف على المعروف من مبادئ الإسلام والمألوف من حياة المنتمين إليه، ويلمس القارئ بعد الشقة ويرى أسباب التفاوت ويؤكد المؤلف أن أمتنا تنتشر فوق سياط من الأرض الطيبة التقت فيها مقاليد الدنيا ومفاتيح العمران وفي قبضة يدها رخاء العالم لو أحسنت استغلال ما تملك لما احتاجت غل أحد؛ ولا احتاجت سائر الأمم إليها، فإن شرايين الحياة الاقتصادية للقارات تبدأ منها وتنتهي إليها، كل ذلك إضافة إلى الغنى الأدبي الذي تملكه هذه الأمة بما تحمله من رسالة الإسلام ثم يشرح المؤلف لماذا جمدت الأمة وكيف تنطلق وما قيمة مواريثها الروحية والفكرية»([1]).

وإذا تتبعنا هذه الجهود الدعوية والفكرية وتسخيرها في مجال الدعوة والثقافة الإسلامية لما وسعنا أن نوفيه حقه حيث كانت للرجل إسهامات في قضايا كثيرة يصعب حصرها نظرا لتنوع موضوعاتها من دعوة إلى اجتماع إلى سياسة إلى الوحدة إلى غير ذلك مما حفلت به حياة الغزالي الداعية الحركي الذي ينتقل من مكان إلى مكان لينشر هذا الفكر المتجدد الذي يختزنه في وعيه. وهذا من الإنصاف في حق من سخر كل ما يملك من أجل نشر دعوة الله وإبراز حقائق هذا الدين يقول محمد عمارة: «أدركت —وأنا الذي سبق ودرست الآثار الفكرية لأكثر من ثلاثين من أعلام الفكر الإسلامي، وكتبت عنها الكتب والدراسات– أدركت أنني حيال الشيخ الغزالي لست بإزاء مجرد داعية متميز أو عالم من جيل الأساتذة العظام أو مؤلف غزير الإنتاج أو مفكر متعدد الاهتمامات أو واحد من العاملين على تجديد فكر الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين، أدركت أنني بإزاء ذلك وأكثر منه وأهم، فالرجل صاحب الرسالة جعل من حياته ومن ثمراتها فكره وقلمه مشروعا فكريا متكاملا هو إعطاء مواهبه الفذة الذي قدمه في ميدان تجديد الإسلام وإنهاض المسلمين»([2]).

«فهو داعية عظيم التأثير في نفوس جماهير الأمة على اختلاف فئاتها الفكرية والاجتماعية... و هو مفكر إسلامي مجدد في ميادين الفكر الشرعي الذي تخصص فيه و ميادين

[1]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 65-66.

[2]) محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – مرجع سابق – ص 42.

العلوم الإنسانية المعاصرة التي ألم بها إلمامة المثقف العارف، وله من التآليف ما يزيد عن الستين كتابا في محاور متعددة منها محور الفكر والثقافة الإسلامية و محور التجديد و حوار الحضارات و محور الاهتمام بقضايا الأمة المعاصرة و محور علوم القرآن والتفسير و محور التصوف والروحانيات»([1]).

المطلب الثاني: وظيفة العمل الإسلامي المعاصر

على القائمين على أمر الدعوة إلى الله عز وجل أن يعوا ويدركوا أن للعمل الإسلامي المعاصر وظيفتين هما:

1-وظيفة تجديد وبعث البناء العقائدي في النفوس، وإحياء ما أماته الناس من شرائع الإسلام،

2-وظيفة الدفاع عن الإسلام في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية.

والغزالي أفنى عمره وهو يجاهد لتحقيق هاتين الوظيفتين اللتين تمثلان العمود الفقري لانتشار هذا الدين و إبراز حقائقه للمسلمين و غيرهم، ولكي تتحقق هاتان المهمتان يجب:

- إحياء مفهوم الأمة، وتبني المفهوم الصحيح لجماعة المسلمين ولا يتأتى هذا إلا بإشاعة العلم وأن العلم بالتعلم وان للتعلم منهجا لا غنى عنه وأصولا لا بد من الالتزام بها، وأنه ليس كل أحد يؤخذ كلامه مأخذ المسلمات و أنه لا يكفي في معرفة أحكام الإسلام و مبادئه وشرائعه التقاط نص من هنا و نص من هناك، فالشريعة لها مقاصدها الكلية ولها ترتيبها الخاص للمصالح الفردية والجماعية التي تحرص على رعايتها، ولها مصادرها التكميلية إلى جانب مصدريها الكبيرين في الكتاب والسنة وإن استخدام هذه المصادر له —هو الآخر- أصوله وضوابطه وإن الخوض في ذلك كله والتصدي له بغير علم ولا منهج أمر لا يقل خطره على الأمة عن خطر التفريط في الأخذ بالأحكام الثابتة عن الكتاب والسنة.

وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى ما ذكره الغزالي في قيمة العلم والتعلم: «إن التعليم الرحب الممدود أفضل طريق لخدمة الإسلام وإعزاز أمته، فلنرفع مستوى الفقه لندفع نهضتنا إلى الأمام»([2]).

[1]) فتحي حسن ملكاوي — العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي - مرجع سابق — ص 21.

[2]) محمد الغزالي — ليس من الإسلام - مصدر سابق — ص 6.

- أن يكون العمل الإسلامي جهاد أمة قبل أن يكون جهاد حزب أو جماعة أو تنظيم، وتربية الأفراد على الولاء للإسلام يجب أن تسبق الولاء للتنظيم أو الأطر مهما كان دورها وأن السعي لإيجاد جماعة المسلمين هدف مقدس، ويجب أن يحرص عليه المسلمون كافة وأن يسعى كل في تحقيقه حسب طاقته.

الإحياء العقدي التشريعي: أفرد لهذه المسألة الكبرى –العقيدة الإسلامية– كتابه "عقيدة المسلم" حيث أخذت حظا وافرا في مجموع أعماله المسموعة و المكتوبة، وقد قام منهجه في دراسة العقيدة وبعثها على ركيزة أساسية.

الفرع الأول: العودة إلى المنهج القرآني

يعتقد الغزالي أن «المناهج الوضعية كمنهج علم الكلام ومنهج الفلاسفة ومنهج التصوف هي مناهج لم تنجح في تقديم الأسلوب السليم لتعليم العقائد وتعريف الناس بربهم وغرس الإيمان في النفوس»([1]).

لأن مناهجهم تعاملت مع العقيدة الإسلامية من زوايا غامضة ومعقدة، فمثلا اتجه علماء الكلام إلى التعقيد والتكلف والغموض في طرح مسألة العقيدة، وأقحموا فيها مسائل أقرب إلى الطلاسم منها إلى الوضوح واليسر وأدخلوا عليها أمورا وقضايا معقدة تنافي السير المفترض في العقائد والملائمة للأفهام وطغى على شروحهم وحواشيهم ثقافات وفلسفات وافدة عن الثقافة اليونانية وغيرها من ثقافات الأمم الأخرى، «فكثرت في كتب العقيدة أفكار الفلاسفة ومصطلحاتهم و مناهج تفكيرهم التي اختلطت بهدي الوحي، فكادت عناصر العقيدة تضيع وسط هذا الركام من النقول والأقيسة والمصطلحات»([2]).

ويرى أن المنهج الذي ينسجم مع الفطرة ويحقق التوازن هو المنهج القرآني، منهج كتاب الله الذي غرس الإيمان في قلب النبي صلى الله عليه وسلم وربى الأجيال الأولى التي حملت رسالة الإسلام إلى العالم، المنهج الذي جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا، قبل أن يعرف المسلمون التصوف والكلام والفلسفة.

[1]) محمد الغزالي – هموم داعية – مصدر سابق – ص 11-12.

[2]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة – مرجع سابق – ص 124.

ومن خصائص هذا المنهج مخاطبته للعقل والعاطفة معا، وتقديم الإيمان في صورته العملية ويذم الخوض في الغيبيات مصداقا لقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ سورة الإسراء الآية 36.

وقلما نجد كتابا من كتبه لا يشير إلى مسألة العقيدة، و تنقيتها مما أُقحم فيها من عقائد فاسدة، وفوضى الآراء والمعتقدات كالفتنة الكبرى وشؤون الحكم(*).

ولم يأل –الغزالي– جهدا في محاربة عقيدة الجبر، فهو ينطلق من موقفه من قضية القدر من نقطة رئيسية هي أن الشرع والعقل يتفقان على حرية الإرادة البشرية، وأن الثواب والعقاب في الآخرة يكونان وفق أعمال المرء في الدنيا»(**).

إذا كان مفهوم إحياء الأمة و تبني المفهوم الصحيح لجماعة المسلمين والمتمثل في الدعوة إلى اجتماع الأمة بمختلف طوائفها حول العلماء وأهل الحل والعقد واجب ديني وضرورة حياتية واجتماعية، فإن العمل الإسلامي عليه أن يتجاوز أطر المذهبية بالمعنى الخاص إلى الكيان الجامع والإطار الأسنى للشرعية، وأن يتسع لمختلف الاجتهادات التي تدور في فلكه، ومن ثم كانت دعوة الغزالي الاستمساك بوحدة الأمة الإسلامية: «والعمل لهذه الوحدة الإسلامية شرف باذخ ومجد شامخ، ويجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التي تكون الأمة الإسلامية الكبرى أن يدركوا هذه الحقيقة، وأن يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسهم وأن يستضيئوا في نهضتهم بشرائع الإسلام وشعائره لا بالفضلات التي يلتقطونها من موائد الغرب والشرق»([1]).

الفرع الثاني: دعوته إلى نبذ التعصب المذهبي

ولاجتياز هذه المعضلة وتجاوز عقدة التشرذم و التشظي والتمحور حول ذات وكراهية الآخرين نبذ التعصب والمذهبية المقيتة التي تفرق ولا تجمع.

وكانت دعوة الغزالي واضحة في هذه القضية ويعتقد أن:

---

*) أنظر محمد الغزالي –كيف نفهم الإسلام – مصدر سابق – ص 193.
و عقيدة المسلم – مصدر سابق – ص 179–180.

**) أنظر محمد الغزالي – الإسلام المفترى بين الشيوعيين والرأسماليين – دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة، الجزائر – 1991م – ص 53–54. و السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث – مصدر سابق – ص 172.

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 125.

«التعصب المذهبي آفة الآفات وعلة العلل في واقعنا المعاصر لأن هذه الآفة تتمثل في ربط الولاء والبراء بما هو أخص من أخوة الدين من الآراء واجتهادات الفروعية لما يتضمنه ذلك من تشقيق الأمة والتغرير باجتماع كلمتها.

ولا يخفى أن هذه الباب –التعصب المذهبي– مزلّة أقدام و مَدْحضة أفهام، وكثيرا ما يقع فيه الاشتباه، وتختلط فيه النزعات الشخصية، والأهواء والآراء بالاجتهادات الفقهية، وينشأ عنه تعصب يفقد العقل بصيرته وتوازنه وقد تتحول هذه الأفكار والاجتهادات إلى خلاف عقَدي يتصل بالإيمان وحقائقه ويترتب عن هذا التشدد في أمور الدين تحول سلبي في السلوك، حيث تحول الفظاظة والغلظة والعنف في التعامل محل الرحمة والمودة التي هي السمة الأساسية للإسلام، وتتسرب من هذا المنفذ تهم الكفر والتحلل من الدين ضد من يعتقد أنهم متساهلون في أمور الدين، أو من لهم وجهة نظر مخالفة لهؤلاء المتعصبين مما يفقد المجتمع الإسلامي تسامحه و من ثم تماسكه ويرصد محمد الغزالي نماذج كثيرة من هذا التعصب المذهبي الذي يعتقد أصحابه أن التشدد في المسائل الفقهية والأخذ بالأعنت والأغلظ من الآراء بدعوى الاحتياط والورع»([1]) و هو منهج يخالف التيسير الذي تتسم به شريعة الإسلام والحكمة في الدعوة.

كما يلفت الغزالي النظر إلى خطورة هدا التعصب المذهبي وتداعياته على وحدة الأمة الإسلامية عندما يفسح المجال لمعارك جدلية تنفث روح التسمم بين أفراد المجتمع، يقول الغزالي: «قد قرأت ورأيت من أمراض التعصب المذهبي ما يثير الاشمئزاز ويدعو إلى الدهشة، وكأن الذين خاضوا هذه المعارك الجدلية يقصدون قصدا إلى تمزيق المسلمين و إهانة معارضيهم في الفكر بعلل مختلفة»([2]).

إن هذه العصبية المذهبية التي تمكنت في بعض العقول والنفوس لم ترْس على إيمان سليم وعميق فضلا عن آفتين خطيرتين –في نظر الغزالي– وهما العجز العلمي وسوء النية، فقد أسهمتا بقدر كبير في افتراس الأمة الإسلامية يقول الغزالي: «والواقع أن بين المتعصبين لبعض الآراء والمذاهب

[1]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية – مصدر سابق – ص 90.

[2]) محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 93.

ناسا حظهم من الإيمان بالغ التفاهة ولذا اجتمعت الآفتان معا على افتراس الأمة الإسلامية المغلوبة على أمرها بين المحيطين الأطلسي والهادي»([1]).

ولهذا عمل الغزالي على مواجهة هؤلاء الذين يفرقون بين أفراد الأمة باسم الفقه حينا وباسم الحديث حينا آخر، أولئك الذين ناصبوا المتقدمين العداء من غير هدف واضح سوى نصرة مذهب على حساب دين، فابتعدوا عن المقاصد الأصلية من الفقه و التفقه.

ورغم كراهية الغزالي للتعصب المذهبي الذي يراه ضيق عقل وقلة علم أو ضيق خلق وقلة مروءة، فقد كان يستحب التقليد المذهبي للعامة وأشباههم، والأخصائيين في علوم الكون والحياة وشؤون الدنيا حتى لا تشغلهم الفضول عن الأصول، ويعني الأصول ما توافروا عليه من مهارات فنية وحيوية مدنية وعسكرية لا بد منها لدعم أجهزة الجهاد ورفع كفايتها، إن مصاب المسلمين في هذه فادح فاضح، أما المشتغلون بعلوم الدين الإسلامي فلا بأس أن يوازنوا بين وجهات النظر المختلفة ويرجحوا دليلا على دليل، و مذهبا على مذهب، مع ضرورة القيام بذلك في كنف الاحترام للرجال الذين قادوا ثقافتنا القديمة»([2]).

«ويعتبر الغزالي خير نموذج –نظريا وعمليا– في تمثل وتجسيد هذه الرؤية، فقد حارب التعصب المذهبي والجمود على الرأي ودعا إلى تقديم الأصول على الفروع والمقاصد الكبرى على المعاني القريبة في الوقت الذي شدد فيه على وجوب احترام أئمة المذاهب والمجتهدين الذين يراهم صورة مشرقة في تاريخ الحرية العقلية والفكرية للحضارة الإسلامية، و قد تمركزت رؤيته إزاء هذه القضية حول ضرورة انتهاج سبيل الموازنة، وتقديم مصلحة الأمة على الانتصار لوجهة نظر فقيه ما أو التعصب لاجتهاد مذهب معين.

وقد كانت دعوة الغزالي في هذه المسألة الحوار الواعي من أجل التقارب والتلاحم بين أبناء الأمة بجميع مذاهبها ومدارسها ومشاربها وبحتمية ضرورات الواقع، وما تتعرض له الأمة من مخاطر تهددها.

[1]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية – مصدر سابق – ص 96.

[2]) عمار جيدل – دور الشيخ الغزالي في ترشيد الواقع الإسلامي – مرجع سابق – ص 58-59.

و من ثم كانت دعوته لرأب الصدع وتخفيف حدة الاحتقان المذهبي الذي يعد تحديا حقيقيا يهدد بنيان الوحدة الإسلامية، وقد كانت رؤيته واضحة إزاء هذه القضية يقول: «إنني أرفض أن يبقى تدريس الفروع الفقهية على النحو المذهبي الضيق الذي ينتشر في أكثر بلاد الإسلام، وأرفض أي شارة تقسم المسلمين جماعات، قد سجنت كل واحدة منها نفسها وراء رجل من كبار الفقهاء أو صغارهم...»

إن هجر الأصول علق الأمة بآراء الرجال الكبار، ثم تعلقت بعد ذلك بآراء الفقهاء الصغار ثم جاءت أيام أصبحت فيه السنن مستغربة، والنصوص مبهمة، ومنابع الإسلام مهجورة، ثم وقعت الأضحوكة الكبرى، إذ أصبح أتباع المذاهب الفقهية يتعصبون لأئمتهم تعصبا أعمى، ثم انحدرت الخلافات المذهبية من سنين طويلة إلى هاوية أعمق، إذ تحولت إلى عصبيات طائفية متحاقدة يصحبها قدر كبير من جمود الذهن وبلادة العاطفة وسوء العشرة»([1]).

إن طرح الغزالي في هذا المجال يذهب إلى أن خدمة الدعوة من جانبها العملي تجاوز الخلافات الفقهية والمذهبية، ونبذ التعصب المقيت، وشد آصرة الأخوة على أساس الكتاب والسنة، ولا تتحقق هذه الأخوة إلا على منهاج النبوة الذي هو مقعد الولاء و البراء لا غير، وكل آصرة يتداعى الناس بها دون ذلك فهو عصبية وحمية جاهلية، وهذه من البديهيات التي لا مشاحتة فيها ولا مماراة.

و أي اعتبار مهما سما لا يجوز عقده إلا على أساس الكتاب والسنة.

وإن معالجة هذا الخلل في مناهج الدعوة، وفي واقع الدعاة، وهو أحد معالم الرشد الأساسية في فقه هذه المرحلة وأحد الثوابت الأساسية في كل عمل دعوي وتربوي معاصر.

وليس من قبيل المبالغة في شيء القول بأن الجيل الجديد من العاملين في ميدان الدعوة الإسلامية ليس على المستوى المطلوب من حيث القدرة على القيام بواجب الدعوة كأشرف وأنبل مهمة، باعتبارها وراثة النبوة في تبليغ دين الله وهداية الناس إلى الحق والتصدي للفتيا وبيان ما غمض على الناس في أمور دينهم.

[1]) محمد الغزالي –كيف نفهم الإسلام – – مصدر سابق– ص 210-211.

وأكبر ما ابتليت به الدعوة الإسلامية في هذا العصر بدُعاة يفتقرون إلى الإلمام الجيد بالأصول والعلوم الإسلامية كما يعوزهم الاطلاع على علوم العصر والثقافة المعاصرة.

وقد سئل الغزالي عن الحال التي آلت إليها الدعوة الإسلامية من ضعف وترد: «الدعوة الإسلامية المعاصرة بحاجة إلى دعاة يفقهون حقائق الإسلام وينقلون مفاهيمه الصحيحة للناس لكننا نلاحظ أن كثيرا من الدعاة لا يشغله الواقع، ويتحدثون دائما عن قضايا تقليدية ويتركون مشكلات المسلمين المعاصرة... »

يجيب عن هذا التساؤل المطروح قائلا: "نعم هذا مرض من أمراض الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر، ولا نستطيع أن نحمل الدعاة وحدهم كل المسؤولية، فالمناخ العام داخل بعض المجتمعات الإسلامية قد يدفع الداعية من الحديث عن الواقع ورصده، لكن تعلمنا من دراستنا لتاريخ الدعوة، تجارب وخبرات الدعاة أن الداعية الواعي هو الذي يستطيع أن يربط جماهيره بقضايا العصر ومشكلاته دون أن يدخل في صدامات ومعارك"»([1]).

إن الخروج من هذه الفتن و تجاوز هذه الخلافات و الصراعات المذهبية لا يتحقق إلى ما هو أجمع وأشمل إلى الكيان الجامع الذي يتسع لمختلف الكيانات الفرعية والاجتهادات المختلفة والدعوة إلى اجتماع الأمة بمختلف طوائفها ولتحقيق هذه الخطوة إلى الأمام دعوة الغزالي في الطريق إلى التقارب والتكامل في دائرة المستطاع، و هو:

الفرع الثالث: التقريب بين المذاهب

و من الجهود التي بذلت في هذا المجال، وكانت من ثوابت الشيخ محمد الغزالي التقريب بين المذاهب الإسلامية، والقضاء على ما بين أبناء هذه المذاهب من ابتعاد وتعصب وفي نظره يجب أن تكون هذه المذاهب كلها مفتوحة للمسلمين عموما، بحيث يستفيد المسلم من كل اجتهاد يخدم المصلحة العامة في عصرنا هذا، و في ذات الوقت فتح باب الاجتهاد للقدرات والكفايات التي تزخر بها الأمة.

[1]) مجدي عبد المعطي البطل – الشيخ الغزالي وحصاد نصف قرن – دار النشر – القاهرة – 2007م – ص 99.

لقد شارك في جهود التقريب، والتقى في دار التقريب بعلماء من الشيعة صاروا له أصدقاء وترجمت أعمال له للفارسية ليطلع عليها أهل الشيعة و لتقريب هذا السبيل يقدم الغزالي بعض المبادئ المعينة على التصالح والتآخي مقترحا أن «يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أن:

- القرآن الكريم هو كتاب الإسلام المصون الخالد والمصدر الأول للتشريع وأن الله حفظه من الزيادة والنقص و كل أنواع التحريف، و أن ما يتلى الآن هو ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وأنه ليس هناك في تاريخ الإسلام كله غير هذا المصحف الشريف.
- السنة النبوية هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم والرسول أسوة حسنة لأتباعه إلى قيام الساعة، والخلاف في ثبوت سنة ما أو عدم ثبوتها مسألة فرعية.
- ما وقع من خلاف في القرن الأول يدرس في إطار البحث العلمي والعبرة التاريخية ولا يسمح بامتداده إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم بل يجمد من الناحية العملية تجميدا تاما ويترك حسابه إلى الله وفق الآية: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ سورة البقرة الآية 134.
- يواجه المسلمون جميعا مستقبلهم على أساس من دعم الأصول المشتركة وهي كثيرة جدا وعلى مرونة وتسامح في شتى الفروع الفقهية ووجهات النظر الأخرى».

وحقيقة الأمر أن البحث الموضوعي المجرد من قبل علماء وباحثي كل مذهب وطائفة لعقائد الطوائف الأخرى ومناهجها الفقهية سيكشف للجميع أن المساحات المشتركة واسعة جدا أما الخلافات فيمكن الوصول في كثير منها إلى نقاط وفاق وأما ما لا يمكن الوصول فيه إلى قواسم وفاق فيترك لكل مذهب بحيث يعد من خصوصياته ومميزاته ولا يُجعل ذريعة لاعتبارها أساسا للخلاف والنزاع وإفساد العلاقات الإسلامية.

و الحديث عن هذه النقطة في غاية الأهمية، رغم أنه لا يمثل أصلا من أصول الدين أو يتعلق بأصل من أصول الشريعة، إلا أنها تبقى قضية خلافية طائفية مذهبية، يمكن أن تتجاوز الخلافات

التاريخية إلى خلافات عقائدية خاصة عندما يتحدث أهل الشيعة بالعصمة للأئمة، وكذلك القول بالغيبة والرجعة.

لكن لو صح العزم و وجد الرجال الأكفاء الذين يسعون بإخلاص لتذويب وتضييق هذه الفجوة لاستطاعوا فعل ذلك، جاعلين شعارهم في علاقة بعضهم ببعض تلك المقولة المشهورة «نتعاون فيما اتفقنا عليه و يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» رغم هذا الواقع الصعب يظل موضوع الحوار البناء بين المسلمين سنة وشيعة أولى بالاهتمام من الحكماء والعقلاء من أبناء الأمة سنة وشيعة على السواء، وهذا ما يؤكده الغزالي من خلال كتاباته و مؤلفاته التي تصب في هذا المقصد، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر كتبه: "ظلام من الغرب"، "كيف نفهم الإسلام"، "دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين"، "حقيقة القومية العربية" و "أسطورة البعث العربي"...إلخ.

و ينبغي أن نشير إلى أن هذا التحدي يبقى يستنزف وحدة الأمة الإسلامية ومقدراتها المادية والمعنوية لأن أطرافا تغذيه «فالاستعمار لم يتوان يوما في سعيه للحفاظ على الفرقة بين أبناء الأمة، و حتى اللحظة يستخدم الخلافات الطائفية والمذهبية للوقيعة بين أبناء الأمة وليس العراق المحتل ولبنان المقسم طائفيا ببعيد »([1]).

الفرع الرابع: الداعية و سنة التسخير

الداعية اليقظ في نظر الغزالي هو الذي يحسن توظيف هذه المسخرات الكثيرة و المتنوعة وأن يكتشفها ويتعرف عليها وأن يرتب حياته كلها على أساسها.

إن عمرا طويلا من حياة الشعوب الإسلامية قد ضاع في مساجلات ومقابلات ومحاولات للتوفيق بين الدين و العلم كما يقولون في الغرب أو بين العقل والنقل كما يقول علماؤنا، كأنما يتصادمان أو يتصارعان ولا يكملان بعضهما البعض، وكان الأولى أن يتكاملا.

فالداعية هو الذي يستطيع أن يقرب هذه المسافات و بمقدوره أن يطوي إلى غير رجعة صفحة هذا الوهم الذي امتد أثره إلى أصول العقيدة الإسلامية.

[1]) محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – مرجع سابق – ص 289.

و الأمة اليوم –خاصة الدعاة– في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي الذي يقوم على التدبر والتعامل الواعي مع سنن الله في خلقه، ذلك أن الله تعالى إنما يمنح نصره وتأييده للذين يمنحون الحياة من حولهم خلاصة عقولهم ونفوسهم.

فأوروبا عندما تعاملت مع هذه السنن الكونية، وذلك باكتشاف قوانين الكون وخصائص مكوناته، وحولت هذه القوانين إلى تطبيقات علمية وتقنية انبثقت حضارة زاهرة قوية متدفقة مندفعة كالسيل تجرف في طريقها كل ما يعوق تفوقها وأطماعها، فحققت لهم نهضة حقيقية في جميع مجالات العلم والمعرفة، وخرجت تجوب الآفاق بالأساطيل عبر المحيطات، تكتشف المجهول وتستنزف خيرات الأمم ومواردها مستعينة في ذلك بجيوش جرارة لا يردعها عن تحقيق هدفها في التوسع والنفوذ...

و قد يتساءل كثير من الناس بعد ذلك كيف أصبح أعداء الله من كفار ومشركين ومنافقين يملكون ثروة العلم والقوة والبأس، وأصبحت الملايين ممن يحسبون على الإسلام في وهن وهوان وذلة وضعف وهزيمة وخذلان.

و هذا أمر يحسب على المسلمين لأنهم تخلوا عن دورهم الريادي ولم يستفيدوا من قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...﴾ سورة الأنفال الآية 60.

فالله سبحانه وتعالى سبقت مشيئته وقضت بأن يكون مجال السعي في الكون مفتوحا لكل إنسان، مهما كان إيمانه أو كانت عقيدته، ولقد بين الله سبحانه وتعالى هذه السنة الكونية التي أرادها في أكثر من آية في كتابه الكريم: ﴿كلاّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾ سورة الإسراء الآية 20.

فالأمة الإسلامية عندما قصرت في تسخير سنة التسخير ولم تفعلها في مجالات الحياة بلغت ما بلغت من الضعف والعجز فباب القوة والحضارة المادية مفتوح للأمم كلها مفتوح للسعي والبذل والجهد ولا يتحقق هذا إلا من خلال سنة التسخير والسنن الكونية الأخرى.

هناك اعتقاد سائد وفاسد في أوساط الأمة الإسلامية بما فيها نخبها أن اقتناء العلوم والمعارف التي تفوق الغرب فيها، تصنع لنا حضارة نضاهي بها حضارة الغرب، فالحضارة الغربية إذا باعتنا

منتجاتها فلا يمكن أن تبيعنا روحها وسر صناعتها وهي كلها قائمة على العلم والإبداع والابتكار، وكل عمل فيه إبداع وابتكار لا يلامس روح ذلك المجتمع وثقافته وبيئته وقيمه لا يعتبر إبداعا أو ابتكارا وعدم مشاركة المسلمين في صنع الحضارة يعني أنهم تخلوا عن مسؤوليتهم في عمارة الأرض وتركوها لغيرهم، و التخلي عن هذه المسؤولية والأمانة الثقيلة، وإنها لأمانة تنوء بمثلها السموات والأرض والجبال، في نظر الغزالي يعتبر أصحابها آثمين.

يقول الغزالي نقلا عن محمد حسين: يعجبني قوله: «لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقهم عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكا لهم وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرءوها بالعربية وكتبوها بالعربية ويظلون يحسون أنهم غرباء عليها، ومتطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرأونها ويكتبونها بغير لغتهم...»([1]).

و لم يأتي هذا التقصير من فراغ وغنما جاء نتيجة فهم خاطئ لحقائق الإسلام ومبادئه الذي بين لنا أن الله قد استخلف الإنسان في الأرض وكلفه بعمارتها، ولما كانت عمارتها لا تتم إلا بالعلم ومعرفة هذا الكون واكتشاف قوانينه، و من هنا تأتي سنة التسخير للاستفادة من الظروف والوقائع والمستجدات، بحيث تتنوع هذه المسخرات كتسخير الفرص والمناسبات وتسخير العلوم والمبتكرات وتسخير الاختصاصات والمؤهلات و تسخير المقامات والمواقع و الاوقات...

المطلب الثالث: الوقت في فكر محمد الغزالي

و من المسخرات الأكثر أهمية في حياة و حركة الأمة الإسلامية الاستفادة من عنصر الوقت واستثماره في الصالح العام.

الفرع الأول: قيمة الوقت وأهميته في الإسلام

يقول يوسف القرضاوي: «عُني القرآن والسنة بالوقت من نواح شتى، و بصور عديدة وفي مقدمة هذه العناية بيان أهمية وعظم نعمة الله فيه يقول القرآن في معرض الامتنان وبيان فضل الله تعالى على الإنسان: ﴿و سخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها...﴾ سورة إبراهيم الآيتان 33-34.

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 137.

ويقول تعالى أيضا: ﴿و هو الذي جعل لكم الليل و النهار خلفة لمن أراد أن يذكر و أراد شكورا﴾ سورة الفرقان الآية 62. أي جعل الله الليل يخلف النهار و النهار يخلف الليل فمن فاته عمل في أحدهما حاول أن يتدارك في الآخر.

و لبيان أهمية الوقت أقسم الله تعالى في مطالع سور عديدة من القرآن المكي بأجزاء معينة منه (أي الوقت) مثل الليل و النهار والفجر والضحى والعصر.

و من المعروف لدى المفسرين و في حس المسلمين أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه فذلك ليلفت أنظارهم إليه وينبههم على جليل منفعته و آثاره و لو تدبرنا سورة العصر لوجدناها قد احتوت توكيدا حاسما، بأن لا فلاح ولا نجاح ولا تقدم للإنسان إلا بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ سورة العصر.

إن هذه السورة قد استهلت بالقسم (بالعصر) على أن الإنسان لفي خسر واستثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويدل التعبير على أن "الإيمان" و "العمل" الصالح" هما السبب الوحيد القادر على إخراج من يريد الخروج من دائرة الخسران.

و جاءت السنة النبوية تؤكد قيمة الوقت وتقرر مسؤولية الإنسان عنه أمام الله يوم القيامة، حتى أن الأسئلة الأربعة الأساسية التي نوجه إلى المكلف يوم الحساب يخص الوقت منها سؤالان رئيسيان فعن معاذ بن جبا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح واللفظ له»([1]).

وتتجلى قيمة الوقت وأهميته في الإسلام من خلال شعائره وآدابه يقول القرضاوي: «جاءت الفرائض الإسلامية والآداب الإسلامية تثبت هذا المعنى الكبير قيمة الوقت والاهتمام بكل مرحلة منه وكل جزء فيه وتوقظ في الإنسان الوعي والانتباه إلى أهميته مع حركة الكون ودرة الفلك وسير الشمس والكواكب واختلاف الليل والنهار»([2])

[1]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة الجزائر – د ت – ص 5.

[2]) يوسف القرضاوي – المرجع نفسه – ص 6.

و هكذا تعد فرائض الإسلام برنامج حياة ولقد وقت الله الكثير من العبادات لمواقيت محددة، فلا يجوز التقدم عليه ولا التأخر عنها، ليعلمنا بذلك أن الشيء لا يقبل قبل أن يحين وانه ولا بعد أوانه، قال تعالى في سائر الصلاة: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ سورة النساء الآية 102.

و عندما تحدث عن الرعيل الأول من المسلمين كانوا يراعون للوقت حرمة ويقيمون له وزنا ويعرفون له وزنا، ولا يسرفون في إنفاقه في غير طائل ولا جدوى بل ينفقون كل بياضهم وسود ليلهم النافع المثمر من الأعمال والاتعاظ في قوله صلى الله عليه وسلم: {الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني} رواه المنذري.

يقول القرضاوي: «وما لمسته لدى المسلمين لدى قرونهم الأولى "وهي خير القرون" من حرص شديد على أوقاتهم فاق حرص من بعدهم على دراهمهم ودنانيرهم مما كان حصاده علما نافعا وعملا صالحا وجهادا مبرورا وفتحا مبينا وحضارة راسخة الجذور باسقة الفروع»([1]).

إن مسؤولية الوقت بالنسبة للجيل الأول أعظم مسؤولية بل كما يقول القرضاوي: «غن الوقت ليس من ذهل كما يقول المثل الشائع بل هو أغلى في حقيقة الأمر من الذهب واللؤلؤ والماس ومن كل جوهر نفيس وحجر كريم، إنه كما قال الشهيد حسن البنّا "هو الحياة! فما حياة الإنسان إلا الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة"»([2]).

الفرع الثاني: أهمية الوقت عند الغربيين

من الإشارات الإيجابية في حياة المجتمع الغربي أنهم يستفيدون من أوقاتهم وينتفعون بها ويستثمرونها في كل مجالات حياتهم، والحقيقة أن هذا الكشف العظيم والتقدم العلمي والتقني الذي يشهده الغرب اليوم في جميع جوانبه وأبرز معطياته يعتبر تتويجا لجهود العقل البشري الذي استغل واستثمر الوقت «فالغربيون لا يتركون دقيقة تفوتهم دون أن يشغلونها بشيء، سواء كان هذا الشيء ضارا أم نافعا والنخبة عندهم تسخر الوقت تسخيرا كليا وتحسبه بالدقائق والثواني. أما أعداء الإسلام و مواقع التخطيط عندهم فإنها في حالة شغل دائم تحضر وتسخر وتفكر وتقدر، ثم تتآمر وتقرر ونحن

[1]) يوسف القرضاوي – المرجع نفسه – ص 3.

[2]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – – مرجع سابق – ص 10.

دائما حيال مفاجآت ودونما تهيئة وتحضيرات، نستدرج بأفعالهم إلى ردات فعل طائشة وعفوية وغير مدروسة!»([1]).

الفرع الثالث: أهمية الوقت عند الغزالي

إذا كان القول المأثور والجاري على الألسن: «الوقت من ذهب إن لم تحافظ عليه ذهب» ويحضرني في هذا السياق بيت شعري "لا أذكر صاحبه" يقول:

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع و تحسب من عمري؟

هذا الشاعر عرف قيمة ما أضاعه من لياليه التي مرت بلا نفع، وحسبت عليه فبكاها بهذا البيت المؤثر الذي يندب فيه حضه ويحكم على نفسه بالخسران، وأي خسارة كخسارة الوقت التي لا تعوض لأن الوقت من ذهب لا يعود منه ما ذهب بل ربما عاد الذهب أم الوقت فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يعيدوا منه دقيقة واحدة لما استطاعوا فلا أنفس إذا من الوقت، ولا اخسر صفقة وأضل سعيا ممن أضاع وقته فيما لا يفيد ولا ينفع.

الفرع الرابع: اغتنام الفراغ

ولهذا يعتقد الغزالي أن من الآفات التي ابتلي بها المسلمون إسرافهم وتبذيرهم للوقت وإنفاقه في غير طائل ولا جدوى، فهو يحذر من الغفلة والجهل من استثمار هذه المساحة الصالحة للزراعة فيما ينفع، وغنما نزرعها شوكا و حَسكا و كل ما يضر، فأي غبن كهذا الغبن؟ لذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتحسر على هذه الإنسانية الغافلة إذ يقول: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ"، إن ضخامة وعظمة مسؤولية الوقت دفعت بالغزالي إلى القول بان أنفس و أثمن ما يملك الإنسان في هذه الحياة بل رأسماله الحقيق "الوقت" الذي ينبغي استثماره وذلك بالمحافظة عليه والحرص على الاستفادة منه فيما ينقعه في دينه ودنياه وما يعود على أمته بالخير والنفع والنماء المادي والروحي يقول الغزالي: «وأفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهاجا يستغرق أوقاته ولا تترك

[1]) فتحي يكن – مقالة بعنوان فقه التسخير منشورة في موقع دعوة نت – بتاريخ 13 يونيو 2009 – http://www.ikhwanwayonline.wordpress.com/2009/06/13 يوم 2013/03/20.

فرصة للشيطان إليه لوسوسة أو إضلال وتوزع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة ألا يترك للنفس فراغ يمتلئ بالباطل لأنه لم يمتلئ بالحق»([1]).

الفرع الخامس: الحذر من آفة الفراغ

ما أشد جهل الإنسان خلق لأمر عظيم فحسب أنه خلق ليملأ بطنه ويكسو جلده، وينام ملء جفنه ولا يفكر فيما قطع وراءه من مراحل عمره ولا فيما بقي له منها وإذا فكر فلا يكون ذلك إلا حينما تمر به جنازة أخيه محمولا إلى مرقده الأخير أو حينما يدفن بيديه عزيزا عليه ولكن دون أن يحمله الفكر على العمل بل سرعان ما يعود إلى غفلته الطويلة وآماله العريضة.

و إذا أراد الإنسان المسلم أن ينجو من آفة هذه الغفلة و يستفيق من هذا السبات العميق يحذر الغزالي المربين من آفات الفراغ و يوجههم ويدعوهم إلى وضع سياسات محكمة وبرامج حافلة بالنشاطات والأعمال المفيدة وذلك بـ: «أن يحذروا من آفات الفراغ و أن يحصنوا نفوسهم من شرورها، وامثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنشاء الدائم والبناء المستمر فإن شحن الأوقات بالواجبات ولانتقال من عمل إلى آخر ولو من عمل مرهق إلى مرفه هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل و لوثات الفراغ وأحسب أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو أنه تحكم في أوقات الفراغ لا بالإفادة منها بعد أن توجد بل يخلق الذي يستنفذ كل طاقة ويوجه هذا وذاك إلى ما ينفعه في معاشه و معاذه»([2]).

المطلب الرابع: القضايا الخلافية إهدار للوقت و تمزيق لوحدة الأمة

الفرع الأول: الخلافات الفرعية و آثارها

و عندما يرصد حال الأمة الإسلامية و ما آلت إليه من ضعف وعجز وتبعية، تقصيرها وتقاعسها في استغلال ما تملك، فهي عندما استهانت واستخفت بعنصر الوقت –الذي يعتبر أحد عناصر القوة– فقدت مكانتها كأمة رائدة و نازعتها تحديات كثيرة وانشغلت بهوامش الأمور واستدرجت في مراحل تاريخها إلى مسائل فقهية وقضايا فرعية تتعلق بالكماليات والمستحبات وتتجاوز أحيانا إلى توسيع الخلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية لدرجة التهارج في الصفوف

[1]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 64.

[2]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 65.

وتفتيت الطاقات وتناقض في القرارات وإشاعة للوهن والتخاذل و ما زال هذا الحال مستمرا إلى يومنا هذا.

و تعمق هذا الشرخ على مستوى دائرة المثقفين والنخبة ليتجاوز إلى شرائح من المجتمع فأقحم في مسائل لا جدوى منها لأن الإفراط يأتي من الغلو في مسألة من مسائل الفروع واعتبارها من الأصول، يقول الغزالي: «خلفت خلوف جعلت من تفسير المتشابه في كتاب الله مضيعة للوقت الواسع الرخيص!! فأساءت بذلك إلى آيات الكتاب كلها بمحكمها ومتشابهها»([1]).

وقد ساق الغزالي أمثلة على ذلك تتعلق بالمسائل الخلافية التي أدت –أحيانا– إلى اختراق هذه الجماعات أو الفصائل من قبل الخصوم ليضربوا بعضها ببعض، في ذلك غاية التشقق والتمزق، بل بداية الطريق إلى الانهيار.

إن مثل هذه المسائل والقضايا أرّقت محمد الغزالي وجعلته يقف مواقف حادة أحيانا باعتبارها مقدمات تتهارج فيها الصفوف ويتلاعن فيها الناس فهي وبال و نقمة يتحول بها الواقع إلى فتنة، وتصير الأمة بهذه المسائل الخلافية فرقا وشيعا.

ونجد هذه النماذج الخلافية في مؤلفات محمد الغزالي منبها إلى خطورتها وتداعياتها، ففي كتابه "ليس من الإسلام" يتحدث في بعض موضوعاته "من بدع العقائد و وحدة الوجود بدع العادات" وفي كتابه "جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج" من القضايا التي طرحها فيه "أوهام سيئة تأويلات الجاهليين" وكتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" وفيه أثار مجموعة من القضايا تعتبر من المسلمات في نظر بعض القاصرين وذوي العقول الكليلة...

معظم هذه المسائل والقضايا التي أثارها الغزالي متنازع عليها فهي تخدم الفرقة والاختلاف وتسع دائرة التشرذم والتعصب المذموم الذي مازال يجر من الفتن والتهارج كما يرى فيها هدر للوقت وتبديد له.

الغزالي يسلم بهذه الاختلافات لأنها سنة إلهية كما هي ظاهرة صحية متى التزمت بضوابط الاختلاف، فعندما يكون الاختلاف اختلاف تنوع من الأقوال والأعمال المشروعة ولا يكون اختلاف تفريق بين الأمة و وحدتها فهذا النوع من الاختلاف محمود ومطلوب لأن دائرة الاجتهاد

[1]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 66.

تتسع للكل، ولهذا نجد الغزالي في أكثر من موقف يدعو إلى حصر الاختلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية دون المساس بأصل من أصول الدين أي الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع.

يقول الغزالي: «المسلمون متفقون في كثير من الفروع مختلفون في غيرها والخلاف في الفروع ما هو إلا كاختلاف الشراح في القوانين مع اتفاقهم على الأصول الرئيسية لها.

و لو أن المسلمين دُعوا إلى دين كلهم فيه على كلمة سواء في الأصول والفروع لما كانوا بذلك مصورين للإسلام تصويرا صحيحا ولما وجدوا مستجيبا لدعوتهم.

فإن الإسلام قسمان: – أصول ثابتة لا يجوز الخروج عنها

– و فروع جعلها الله –رحمة منه بعباده– موضع الاجتهاد والنظر.

فكما أنه لا يسوغ المسلمون أن يجتهدوا في الأولى، لا يسوغ لهم كذلك أن يحجروا ما وسعه الله في الأخرى»([1]).

لكن الذي يحذر منه الغزالي ويعتبره مهددا لكيان الأمة و خطرا محدقا بحياتها و وجودها ذلك الخلاف الذي يعمق الهوة بين أفراد المجتمع عند ما تتسرب إليه الأهواء و الحظوظ النفسية يقول: «إنما يستفحل الخلاف وتتسع هوته إذا علق الهوى بأحد أطرافه و ترتب على رجحان إحدى الكفتين نفع أو ضرر.

هنا يحتدم الصراع و يغتلي الشقاق ويكون ظاهره الخصومة بين رأيين، والحقيقة أنها الخصومة بين أثرة وأثرة، وغالبا ما يضيع الحق أو يلوث في حمأة هذا الشقاق»([2]).

و إذا أرادت الأمة أن تتجاوز هذه الصراعات والخلافات التي عمقت الهوة بين المسلمين ينبغي أن «يتجرد كل ذي رأي من الإضافات النفسية والدنيوية التي تنضم إلى الخلاف العلمي لأصبح الخلاف مسلاة لا مأساة، و مطرحا لتفاوت الأفهام لا مسرحا لتهارش الأهواء»([1]).

[1]) محمد الغزالي – ظلام من الغرب – دار الشهاب – باتنة – 1986م – ص 255.

[2]) محمد الغزالي – ظلام من الغرب – المصدر السابق – ص 249.

و في ذات السياق يقول «إنني أعيد النظر أحيانا في خلافاتنا القديمة فيخيل إلي أن شهوة الانقسام قد تسبق رغبة البحث والدراسة وأن رذائل الفراغ والترف العقلي هي التي تخلق موضوع الحديث وتشعب اتجاهه، مثل ما يفعل في بعض قعدة المجالس العاطلين وبعض الأندية السامرة»([2]).

الفرع الثاني: حصر الخلافات مسؤولية الدعاة (الخلافات الفرعية تعمق الهوة بين أفراد المجتمع)

و من هنا يدعو الغزالي إلى الاهتمام بالقضايا الأساسية التي تحقق إجماع الأمة و وحدتها وتماسكها، فنجده يحث العاملين في حقل الدعوة أن يبتعدوا ويبعدوا كل ما من شأنه أن يحرك الفتنة ويحولها إلى خلافات وصراعات غالبا ما تقوض أركان الأمة وتضعف تماسكها وتذهب ريحها يقول: «أن ميدان الدعوة يجب إبعاده عن هذه المخلفات البالية، ويجب شحنه برجال لهم عقول ناضرة تعرف ما يقدم للإسلام، وما يفتقر إليه الناس»([3]).

لا يخفى أن التمسك بحقائق الإسلام ومبادئه الواضحة، والاضطلاع بأمانة فريضة الوقت كلها تحقق المقاصد الكبرى لهذا الدين وإن كثيرا من الأمراض والعلل التي مني بها العمل الإسلامي في معظمها ترجع إلى: «رذائل الفراغ والترف العقلي»([*]) و معظم الإسلاميين –وهم يخوضون في مجالهم الدعوي– يضيعون معظم أوقاتهم في قضايا خلافية واجتهادات فرعية غير محسوبة التقدير تبديدا لطاقات العمل الإسلامي، وشغلا له بهذه المناوشات الجانبية والتي قد لا تكون في مصلحة العمل الإسلامي، أو على أقل تقدير تعطيل الجهود الرامية إلى إبراز وإظهار حقائق الدين و من ثم تعطيل تحكيم الشريعة الإسلامية.

ولهذا فقد تكون مصلحة العمل الإسلامي في حصر هذه الدائرة –كما سبق الذكر– وترتيب سلم الأولويات حتى تتحقق الغايات والمقاصد: «و ينبغي للإنسان المسلم أن ينظم وقته بين الواجبات والأعمال المختلفة دينية كانت أو دنيوية حتى لا يطغى بعضها على بعض ولا يطغى غير

[1]) محمد الغزالي – المصدر نفسه – ص 260.

[2]) محمد الغزالي – ظلام من الغرب – مصدر سابق – ص 254.

[3]) محمد الغزالي – ظلام من الغرب – المصدر نفسه – ص ؟؟؟.

[*]) سبق وأن أشرنا إلى هذه العبارة.

المهم على المهم ولا المهم على الأهم ولا غير الموقوت عل الموقوت، فما كان مطلوبا بصفة عاجلة يجب أن يبادر به مؤخرا ما ليس له صفة العجلة وما كان له وقت محدد يجب أن يعمل في وقته»([1]).

الفرع الثالث: إذا كان المال عصب الحياة فالوقت هو الحياة

إن حسن ترتيب الأولويات انطلاقا من هذه الرؤية والتصور الذي ذكره يوسف القرضاوي من شأنه أن يحقق توازنا موفقا في استثمار الوقت، كأن يكون البدء بالأعمال التي تحوز قبولا عاما من الأمة، لأن التفريط في الحض على الاستفادة من الوقت وعدم ملئه بالخير وخدمة المجتمع ومساعدة أفراده على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم خطيئة كبرى وجريمة منكرة في حق الأمة واستهتار بمقدراتها.

إذا كان المال عصب الحياة و وقود الأعمال والحركات ومسؤولية عند الله وعند الأمة عظيمة ومنزلته من الابتلاء والامتحان كبيرة، فإن الوقت هو الحياة و هو وعاء العمل وساحته فإما أن يُملأ بالخير وإما أن يُملأ بالمعصية و الوزر و القرضاوي عند ما وازن بين السفه في إنفاق الأوقات والسفه في إنفاق المال أدرك خطورة السفه في الأول فيقول: «و الحق أن السفه في إنفاق الأوقات أشد خطرا من السفه في إنفاق الأموال، و إن هؤلاء المبذرين المبددين لأوقاتهم لأحق بالحجر عليهم من المبذرين لأموالهم لأن المال إذا ضاع قد يعوض والوقت إذا ضاع لا عِوض له»([2]).

فالأمة التي تبذر أوقاتها و لا تحسن ترتيب أولوياتها تستنزف مقدراتها المادية والمعنوية، وإذا كان شأن من لا يحسن تدبير حياته هل يستطيع أن يقيم دولة مرهوبة الجانب قوية البنيان الجواب طبعا بالنفي لن تستطيع أن تقيم دولة ولا تحقق أغلبية ولا تنتصف من عدو، بل هي بيضتها مستباحة ودعوتها مجرمة، وتابعوها مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فهذه الدولة غير مالكة لنفسها ولأنها غيبت عنصر الحياة الذي يحركها ويسددها إلى مقاصدها وهو الوقت.

وهذا ما وقع للأمة الإسلامية عندما ضيعت أوقاتها فأصابتها الغفلة وقد تجلت هذه الحقيقة المرة في واقع الأمة الإسلامية التي يوضحها القرضاوي: «ما عايشته و أعايشه اليوم في دنيا المسلمين

[1]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – مرجع سابق – ص 18-19.

[2]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – مرجع سابق – ص 14.

من إضاعة للأوقات وتبذير للإعمار جاوز حد السفه إلى العثة، حتى غدوا في ذيل القافلة، وقد كانوا منها في مأخذ الزمام فلا عملوا لعمارة دنياهم، شأن أهل الدنيا، ولا لعمارة آخرتهم شأن أهل الدين، بل خرّبوا الدارين و حرموا الحسنيين!!...»([1]).

وقد شغلت هذه القضية جانبا كبيرا من حياة الغزالي الدعوية والفكرية وتضايق منها مدركا خطورتها وتبعاتها الثقيلة على الأمة يقول: «إن الفراغ في الشرق يدمر ألوف الكفايات والمواهب ويخفيها وراء ركام هائل من الاستهانة والاستكانة كما تختفي معادن الذهب والحديد في المناجم المجهولة!!».

و يضيف قائلا: «و عندي أن العلة الأولى لتخلف الأمة العربية والشعوب الإسلامية، ما غلب على أحوالها النفسية والاجتماعية من قعود واستكانة وتقاعس ويستحيل أن تحرز هذه الأجيال الغفيرة من البشر سهما من نجاح في الدنيا أو فلاح في الأخرى إلا إذا تغير أسلوبها في الحياة و أمّحت من ربوعها أثام البطالة والفراغ»([2]).

و الغزالي عندما يتحدث عن هذه الفريضة المهدورة في حياة المسلمين –إن جاز التعبير– يريد أن يحييها في واقع المسلمين ويعيد إليها حركيتها الإيجابية واستغلالها في العمل الجاد والمثمر فهو ينطلق من الحديث الشريف المعروف ويستوحي معانيه الجليلة.

هذا الحديث الذي وعض فيه النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له: «اغتنم خمسا قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك و فراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك و غناك قبل فقرك»([3]).

الفرع الرابع: نماذج من عهد النبوة

فقد كان السلف رضي الله عنهم أحرص ما يكون على أوقاتهم لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الغزالي: «شغل الوقت كله بالجهاد بعد ذلك

[1]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – مرجع سابق – ص 3.

[2]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 68.

[3]) رواه أحمد في الزهد بإسناد حسن وكذلك رواه عنه النسائي وأبو نعيم في الحلية و البيهقي في الشعب.

فأمر معروف في سيرته فما استراح من مناهضة الكفر في فج من فجاج الجزيرة إلا ليتحول إلى فج آخر يعمره بالإيمان والتقوى.

و قد جاء صاحباه من بعده أبو بكر و عمر فلم يدعا للمسلمين مجالا لقعود فرموا بجيوشهم على معاقل الطغيان في الأرض فما هي إلا سنوات معدودات حتى امتلأت بقاع العالم بأضواء الإيمان»([1]).

و اقتدى الجيل الذي جاء بعد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بهذا النموذج الراقي في الاستفادة من الوقت والمحافظة عليه فهم "كانوا يحرصون كل الحرص على ألأ يمر يوم أو بعض يوم أو برهة من الزمان وإن قصرت دون أن يتزودوا منها بعلم نافع أو عمل صالح أو مجاهدة للنفس أو إسداء نفع إلى الغير، حتى لا تتسرب الأعمار سدى وتضيع هباء وتذهب جفاء وهم لا يشعرون، ويستشعرون مقولة عمر بن عبد العزيز: «إن الليل و النهار يعملان فيك فاعمل فيهما»([2]).

هذا هو حال السلف و حرصه على الوقت وتقدير قيمته وخطره، يطرح الغزالي هذا السؤال الاستفهامي التعجبي و الإنكاري فيقول: «ماذا حدث بعد أن ترك المسلمون هذه الواجبات المهيمنة على أوقاتهم كلها؟ فرغ بعضهم لبعض وعاثت بينهم الفتن!! ثم خلفت خلوف جعلت من تفسير المتشابه في كتاب الله مضيعة للوقت الواسع الرخيص!!

فأساءت بذلك إلى آيات الكتاب كلها محكمها ومتشابهها»([3]).

و إذا كان ولا بد من خروج من هذا المأزق العميق يعتقد الغزالي أن: «أفضل ما تصون به حياة إنسان أن ترسم له منهاجا يستغرق أوقاته ولا تترك فرصة للشيطان أن يتطرق إليه بوسوسة أو إضلال.

و توزيع التكاليف الشرعية في الإسلام منظور فيه إلى هذه الحقيقة، ألا يترك للنفس فراغ يمتلئ بالباطل لأنه لم يمتلئ من قبل بالحق...

---

[1]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 66.

[2]) يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – مرجع سابق – ص 13.

[3]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 66.

و أمثل الوسائل في هذه الحالات وضع سياسات محكمة للإنشاء الدائم و البناء المستمر فإن شحن الأوقات بالواجبات ولانتقال من عمل إلى عمل آخر و لو من عمل مرهق إلى عمل مرفه هو وحده الذي يحمينا من علل التبطل و لوثات الفراغ.

و أحسب أن المجتمع يستطيع الخلاص من مفاسد كثيرة لو أنه تحكم في أوقات الفراغ لا بالإفادة منها بعد أن توجد بل بخلق الجهد الذي يستنفذ كل طاقة و يوجه هذا وذاك إلى ما ينفعه في معاشه ومعاده»([1]).

و من النماذج التي تتفاعل مع الواقع و تستفيد من الوقت و تستثمره في صالح المجتمع، خصوصا الشباب: «هو ضرورة استثمار أوقات الفراغ عند الناس، و بخاصة الشباب، لأن الفراغ خطير يخلق أو يشجع على الجريمة فهذا لابد منه، لابد من وضع برامج لشغل أوقات الشباب، والحدث الشريف يؤكد لنا أن الصحة و الفراغ مغبون فيهما كثير من الناس، إن الانفتاح الذي ابتليت به مجتمعاتنا الإسلامية في السنوات الماضية ترتب عليه وصول المال إلى من لا يحسنون تقديره، و كانت النتيجة أن يُنفق في الملذات، و تعاطي المخدرات... و من الممكن جدا اقتصاديا و اجتماعيا عمل التجمعات و المشروعات التي يؤخذ فيها هذا المال بدلا من إضاعته في الحرام تنفقه في الإنتاج، و من الفشل أن ننتظر حتى تقع الجريمة ثم نعالجها قبل أن تقع لابد من أن تمنع أسباب وقوعها»([2]).

فالإنسان العاقل هو الذي يستطيع أن ينتهز دوراته الحياتية، و يقف وقفة تأمل و تفكير لمحاسبة نفسه، ليستدرك الثغرات و النقائص و يراجع محطات حياته، و ما حدث فيها من خلل.

[1]) محمد الغزالي – جدد حياتك – مصدر سابق – ص 64-65.

[2]).محمد الغزالي – لقاءات و حوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – مصدر سابق – ص 266.

المبحث الثاني
التكامل بين السنن التشريعية والكونية

المطلب الأول: الجهل بأسرار الدنيا جهل بسنن الكون

الفرع الأول: الجهاد العلمي والفكري طريق لتسخير السنن

و إذا أراد هذا الخلف —في هذه الأمة— أن يستفيد، و يستثمر ما في هذا الكون، و يسخر سننه و ظواهره و قوانينه في عمارة الأرض، فليتدارك الأمر، و ليكسب الوقت، و ليحاسب نفسه على كل دقيقة ماذا فعل فيها، ليعرف قيمة الوقت.

و لئن كانت القوانين الفلكية و الطبيعية و الحياتية، ليست من وضع الإنسان، فهو مطالب منه أن يتعامل معها، بحيث لا يصادم نواميس الكون، و في هذا المعنى يقول يدعوا حسن البنا أن: «لا تصادموا نواميس الكون، فإنها غلاّبة، و لكن غالبوها، و استخدموها، وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض و ترقبوا ساعة النصر، و ما هي عنكم ببعيد»(*).

فالله سبحانه و تعالى قد وهب الإنسان العقل و الإرادة، و حرية الاختيار ليتولى إدارة شؤونه و تطويرها بنفسه، و مع غيره، لأجل ضمان صلاح المجتمع و ترقيته.

إن فهم هذه المعاني التي أوردها حسن النبا في العبارة، و ترتيبها بهذا التوازن يحقق في النهاية النصر و التوفيق و التمكين، لأن مقتضيات النصر لا تتحقق إلا بتلازم هذه المعاني وتسخيرها و الاستفادة منها.

و الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي، الذي يقوم على التدبر في سنن التسخير و فقه التعامل معها، فإن كثيرا من أمراض أمتنا نشأت و ترعرعت في ظل غياب هذا الفهم الكامل لسنة التسخير و الغيبوبة التي طالت عن مراد الله تعالى، و نحن بتقصيرنا في هذا الجانب جانب فهم سنن التسخير، نشارك في رسم صورة سيئة عن الإسلام عند أعدائنا، فإنهم يربطون بين تخلفنا العلمي و الحضاري و الثقافي و المعيشي، و بين ديننا فيُظلمُ هذا الدين.

(*) رمضان خميس زكي – مفهوم السنن الربانية — مرجع سابق – ص 113.

و يُحمّل الغزالي مسؤولية هذا التخلف و العجز للأخلاف يقول إن: «الأخلاف الذين جاءوا بعد ألف سنة من بدء الإسلام، أخذوا ينكمشون قليلا قليلا في فهم الحياة و تسيير دفتها، ومازالوا يتقهقرون حتى أصبح الإنسان يتلفت في مطلع هذا القرن فيجد جماهير المسلمين لا تعرف شيئا عن فنون الهندسة و أنواع الصناعة، و بلغ تخلفها في شؤون الدنيا حد الوصول في بعض الأرجاء –كاليمن– إلى مستوى العصر الحجري، بينما العالم يظفر بخطوات جبارة إلى الأمام وإلى الأعلى... إن هذا الانهزام الذي حاق بالمسلمين في كل شيء كان يقابله في الجانب الآخر من الحياة –الذي يسكنه خصومهم الأقدمون– انطلاق رائع و تفوق في العلم و الإنتاج و تربص ليوم تغزى فيه بلاد الإسلام غزوا شاملا، و أهلها غافلون»([1]).

و إذا أرادت الأمة أن تتدارك الأمر، و تستعيد نموذجها الصالح للبشرية و مثلا أعلى للإنسانية –و باستطاعتها أن تفعل– «يجب أن تدمن البحث في خصائص الأشياء، و أسرار الأرض و السماء، و أن تكرس لذلك العقول و أعظم الطاقات...»([2]).

أي أن تأخذ بأسباب التقدم في ميادين العلوم التجريبية و التقنية و التكنولوجية، و ذلك باستثمار سنن الله الكونية في التسخير و تستفيد منها في عمرانها و معاشها و تستجيب لنداء الله تعالى: ﴿قل أنظروا ما في السموات و الأرض و ما تغني الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون﴾ سورة يونس الآية 101.

و دينهم يحثهم على ذلك، بل يدفعهم دفعا «نعم إنه من الضروريات الدينية الماسة، أن يبرع المسلمون في الدراسات الكونية ما ظهر منها و ما بطن و أن يسابقوا غيرهم إلى الإحاطة بالمادة، خصائصها و قوانينها، و ألا يكون حظهم في ذلك الوقوف عل ما بلغته البشرية فحسب، بل يجب أن يتحسسوا أبواب المجهول، و يعالجوا أغلاقه حتى تنفتح لهم و يستأنفوا سنة آبائهم في خدمة المعرفة و كشف الحقائق و نفع الكافة على أن جعل هذه السيادة العلمية في خدمة المثل السماوية الرفيعة، و تسخيرها لنفع العالمين بوحي الله»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 105.

[2]) المصدر نفسه – ص 181.

[3]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 138.

إلا أن المشهد الواقعي لحال الأمة الإسلامية الآن و تخلفها في مجالات الحياة هو نتيجة لما وقع للمسلمين في الأعصر الأخيرة، حين أساءوا فهم الإسلام و تطبيقه و من ثم أساءوا فهم سنن الله الكونية فأخذوا جانبا ونسوا جوانب، فقد اهتموا ببعض الجوانب العبادية و أهملوا جوانب تعتبر من صميم الحياة، كالجوانب العلمية و الاجتماعية والاقتصادية.

و أن التقصير في هذه الجوانب يعد تقصيرا في حق الإسلام، وبالموازاة مع هذا التقصير والإهمال في هذه الجوانب ظهرت تيارات فكرية ودينية حاولت أن تشد المجتمعات الإسلامية إلى معارك تاريخية هامشية —انتهى أًصحابها- متجاهلة مستجدات العصر و ما طرأ على العالم من تطورات جوهرية في حياة الناس، «و الإسلام أنبأنا بأننا أعلم بشؤون دنيانا وشؤون الدنيا العلمية والعملية، تتنافس في تجويدها الآن خمسون ومائة دولة، كل دولة تبذل وسعها لتتقدم وتسبق وتدعم وجودها المادي و الأدبي والسباق اليوم رهيب بين كل القوى المسيطرة على زمام الحياة الأرضية و السؤال الآن: هل للمسلمين وجود في ميادين هذا السباق؟ الواقع أن هناك أخطاء أساسية في أسلوب تفكيرنا وعبادتنا لأننا لم نعط القدرة المدنية والعسكرية وضعها الصحيح.

و أغلب العابدين يرجحون نافلة في مجال العبادات المحضة على درس علمي أو ابتكار صناعي وربما ظن أن تلاوة ورد أرضى لله تعالى من اختراع آلة، أو صون جهاز أو إحكام إدارة أو تدبير سياسة»([1]).

الفرع الثاني: ترك الإسلام سبب في تأخر المسلمين

لا شك أن هذا التراجع الحضاري في العالم الإسلامي و المسلمون يفقدون فيه تمكينهم في الأرض كما يفقدون أمنهم و طمأنينتهم ويفقدون ديارهم وأموالهم و كل هذا جعلهم يخرجون من حلبة السباق و أصبحوا في مؤخرة الركب، وهذا ما دفع محمد الغزالي إلى أن يعيب على هذا الضعف والتردي الذي آلت إليه أحوال الأمة الإسلامية، لأنها تخلت عن القيام برسالتها و من ثم سقطت من عليائها يوم أن كانت تدير زمام القيادة و الريادة في العالم فيقول: «إن طرد المسلمين من أماكن القيادة العالمية لم يكن ظلما نزل بهم بل كان العدل الإلهي مع قوم نسوا رسالتهم وحطوا مكانتها وشابوا معدنها بركام هائل من الأهواء والأوهام في مجالي العلم والعمل سواء كقوله تعالى: ﴿ذلك بما

[1]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 60.

قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد كدأب آل فرعون والذين من قبلهم...﴾ سورة الأنفال الآيتان 51-52»([1]).

و في نفس السياق يحذر من مغبة هذا الانحراف وينبه إلى أن هذا التخلف الحضاري مرده إلى عزل الإسلام عن الحياة فيقول: «إن التخلف الذي يعاني منه العالم الإسلامي لا دخل لنا فيه ولا يتحمل وزره، بل هو عقوبة أوقعها الإسلام بأتباعه جزاء تخليهم عنه، إن المسلمين تأخروا لأنهم تركوا الإسلام لا لأنهم تمسكوا بالإسلام فحق علهم قوله سبحانه و تعالى: ﴿و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا...﴾ سورة طه الآية 124»([2]).

ويدعم هذا المعنى ما ذكره محمد سعيد رمضان البوطي قائلا: «إن عمارة هذه الدنيا أمانة يشرف الله بها عباده المسلمين طالما كانوا مسلمين فعلا، فإذا انحرفوا استلت الأمانة منهم واستودعها عند غيرهم، وربما كانوا شرا منهم لا ضير... فإن الله لا يوقف عمارة الأرض وحركة الحياة من أجل عيون الذين ارتدوا على أعقابهم و انحرفوا عن المنهج التشريف والتكريم لا بد أن تظل الحياة مستمرة، وقانونها نافذا؛ إن لم يكن زمامها بيد هؤلاء و كان بيد آخرين إلى أن يرث الله الأرض و من عليها...

و مع ذلك فإن انتقال أزمة القيادة من المسلمين إلى غيرهم ليس في حقيقته نصرا لأولئك الآخرين ولكنه تسليط يسلطهم الله تعالى على هؤلاء الذين خانوا الأمانة ونبذوا العهد عسى ذلك أن ينبههم ويعيدهم إلى الاستقامة والرشد»([3]).

يستفاد من النصين السابقين أن الأمة الإسلامية عندما حادت عن الطريق المستقيم وانحرفت عن الفهم الصحيح للإسلام وانصرفت عن الدين عقائد وأعمالا عوقبت العقاب العادل. فبخروجها عن الإسلام في نظام الحياة تصدع بنيانها وفقدت زمام أمرها في تسيير و إدارة شؤون حياتها فكان التخلف والضعف والعجز والتبعية وحاق هذا التسلط "الذي لا شأن له في الحقيقة بالإعزاز أو النصر الذاتي في قوله عز وجل عن بني إسرائيل تنبيها لنا إلى هذا القانون الإلهي الخطير: ﴿وقضينا إلى بني

[1]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 181.

[2]) المصدر نفسه – ص 114.

[3]) محمد سعيد رمضان البوطي – من المسؤول عن تخلف المسلمين – دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر – باتنة – ص 80-81.

إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلون علوا كبيرا* فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾ سورة الإسراء الآيتان 3-4([1]).

و إذا أراد العالم الإسلامي أن يضطلع برسالة الإسلام و أن يملك قيادة العالم مرة أخرى فعليه بالمقدرة الفائقة والاستعداد التام في جميع المسارات وعلى جميع المستويات وعلى رأس هذه المسارات: «أن تعرف من هي؟ وما رسالتها وكيف تؤديها؟ فكمال الأمة و صلاحها هو أن تجمع في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية والسنن التشريعية التي على أساسها يكون التقدم والازدهار في ظل رسالتها، لأن الفصل بين السنن الكونية والسنن التشريعية لا يحقق تقدما و لا ازدهارا ولا يضبط حركة المجتمع ولا يبني مشروعا نهضويا كفيلا بوضع حدا لمشاكل الأمة الإسلامية ويأتي تنبيهه للعرب و المسلمين فيقول: «ما هذه الجهالة الفاحشة بشؤون الكون والحياة؟ وكيف تخدمون دينكم وأنتم صرعى تخلف علمي مذهل؟؟».

إن حالة الفصام والخروج من دائرة الركود والترهل يمكن تصحيحها وذلك بإعادة التوازن بين السنن التشريعية والسنن الكونية وفي نظر الغزالي أن: «الأمة الإسلامية كي تكون على مستوى دينها، وكي تنجح في المحافظة عليه وكي تستطيع إفهامه للآخرين لا بد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة في شتى الميادين مسموعة الكلمة في آفاق العلم برا وبحرا وجوا»([2]).

وعودة الأمة الإسلامية إلى موقعها الطبيعي في نظر الغزالي أن: "تدرك أن الحياة في سبيل الله كالموت في سبيل الله جهاد مبرور، و أن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين"([3]).

"كما أن عليها أن تكدح في الميادين الداخلية لتعيد البناء الذي يوشك أن يتحول إلى أنقاض، و ما أكثر هذه الميادين، و ما أشد فقرها إلى العاملين المخلصين... ولو انتصرت الأمة فيها لربحت تسعة أعشار المعركة"([4]).

---

[1]) محمد سعيد رمضان البوطي – من المسؤول عن تخلف المسلمين – مرجع سابق – ص 81.

[2]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب والمسلمين – مصدر سابق – ص 76.

[3]) محمد الغزالي – علل و أدوية – مصدر سابق – ص219.

[4]) محمد الغزالي – الطريق من هنا – دار الكتب – الجزائر – 1986م – ص 140.

الفرع الثالث: التوازن بين مطالب الإنسان المادية والمعنوية

و إذا أرادت الأمة الإسلامية أن تتجاوز دائرة التخلف و الضعف و العجز و تعيد بناءها الحضاري، فهي اليوم بحاجة إلى الاستفادة من كل الطاقات الفكرية في كل مجالات الحياة و سنة التسخير أحد أهم الآليات لتحقيق التكامل بين السنن التشريعية و السنن الكونية، ولا بديل من هذا التكامل في نظر الغزالي.

إن الأمة تملك كنوزا من المواهب و القابليات البشرية إلى جانب ما تملكه من كنوز تاريخية و طبيعية –لم تستثمر بعد– و الذي ينقص هذه الأمة تقصيرها، وعدم استجابتها لهذه الاستحقاقات الحضارية، وهي تعلم أن التحديات التي تجابهها كثيرة و متعددة وحصرها لا يعد ولا يحصى، وإذا كان التقدم و الرقي و الازدهار لا يمنح مجانا ولا يعطى للكسالى و المتخاذلين، ولكنه يأتي نتيجة بذل جهود مضنية في سبيل الحصول على العلم من شأنه أن يقود قاطرة التقدم ولا يليق بالأمة الإسلامية أن تكتفي بدفاع الحناجر و رفع الأصوات عن الإسلام و تنسى أن الوحي القرآني في آياته التي نزلت على محمد صلى الله عليه و سلم حيث على القراءة و أشادت بالعلم و بقدر ما يفقه الإنسان القراءة –بسم الله الذي خلق– وما زود به من استعدادات وقدرات و مهارات، وما هدى إليه من مسالك ليحسن التعامل مع الكون، ويكتشف سنن الله في الأنفس و الآفاق و يدرك قوانين التسخير.

تستطيع الأمة أن تجدد نشاطها و حركتها، و تستفيد من هذه الثورات الصناعية و العلمية المتعاقبة التي مكنت الإنسان من تحقيق المزيد من السيطرة على البيئة و تسخير الطبيعة، و توفير العديد من اليسر المادي، وفي ذات الوقت ينبغي أن يصاحب هذا التقدم المادي تقدم في نوع العلاقات الإنسانية السائدة بين الأفراد و الشعوب. و لما كان الإسلام –في جوهره– نظاما للقيم يحفظ التوازن بين الإنسان الفرد و الناس من حوله، كما يحفظ التوازن بين مطالب الإنسان المادية و أشواقه المعنوية، فان الإحساس بأزمة الإنسان المسلم المعاصر بدأ يأخذ صورة التطلع إلى إحياء القيم الأساسية التي أوحت بها السماء إلى الناس و التي تنزلت بها كلمات الله على رسله و أنبياءه والتي جعلها كالرواسي الثابتة في الأرض لولاها لمادت الأرض بمن عليها من الناس و الشعوب. ولذلك يعتقد الغزالي أن الحاجة إلى إحياء قيم الإسلام هو إحياء للأمة وتمكين لها و لا يتحقق ذلك إلى

بحفظ التوازن بين مطالب الإنسان المادية والمعنوية و «إن الأمة العاجزة عن استخراج بركات الله من أرض الله لن تؤدي رسالة الله، والأمة العاجزة عن تجنيد مواهب المسلمين لإعزاز المسلمين أمة تلقي بأيديها إلى التهلكة»([1]).

و يؤكد على هذه الثنائية المتلازمة –السنن التشريعية و السنن الكونية– في قوله: «لو انساق المسلمون مع توجيهات دينهم لكانوا أسبق إلى غزو الفضاء من غيرهم، ولكن معنى الدين انكمش في نفوس كثيرة، فما قدرت الله حق قدره ولا أبصرت وظيفتها في كونه ولا سمت همتها لتتبع نبيها المتجاوب مع ملكوت الله الذي أسرج مصابيح حضارة مادية لا نظير لها»([2]).

فالذين يتفكرون و يبحثون و يدرسون هم الذين يصلون حتما إلى التعرف على الآيات الإنسانية و الكونية في هذا الوجود، وما نشهده في عالم اليوم دليل واضح على ذلك فقد توقف البذل و العطاء الحضاري للمسلمين لأنهم فصلوا بين العقل و الوحي و ما الآثار الناجمة عن هذا الفصل و التي لحقت بالأمة من جراء اختلال المعادلة بين قيم الوحي الخالدة، ومدارك العقل و هذا ما قصده الغزالي في عبارته السابقة.

و أكده في هذا المقام فيقول: «إن الإسلام لا يستعيد أمجاده الأولى إلا إذا استعادت أمته فقهها في علوم الأرض، كما تستعيد فقهها في علوم السماء...»

نعم إن من الضروريات الدينية الماسة أن يبرع المسلمون في الدراسات الكونية ما ظهر منها و ما يظن و أن يسابقوا غيرهم غلى الإحاطة بالمادة خصائصها و قوانينها و ألا يكون حظهم من ذلك الوقوف على ما بلغته البشرية فحسب بل يجب أن يتحسسوا أبواب المجهول، ويعالجوا أغلاقه حتى تنفتح لهم و يستأنفوا سنة آبائهم في خدمة المعرفة و كشف الحقائق و نفع الكافة.

على أن المهم جعل هذه السيادة العلمية في خدمة المثل السماوية الرفيعة و تسخيرها لنفع العالمين بوحي الله([3]).

الفرع الرابع: دعوة القرآن لإعمال العقل كمصدر لاكتشاف سنن الكون

[1]) محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 15.

[2]) محمد الغزالي – علل و أدوية – مصدر سابق – ص 27.

[3]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 136-137.

1- دعوة القرآن لإعمال العقل كمصدر للنظر في الكون

و الغزالي عندما يتحدث عن التسخير بشقيه في السنن الكونية يربطها بالإيمان فالقرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى الكون، وذلك بقصد أن يتوصل إلى أمور أهمها:

أن الكون مؤسس على الحق و القانون و على حكمة سامية، وأن للكون نظاما ونواميس مقررة، ولذلك فالكون لم يخلق عبثا ولا لهوى، وفي هذه الحالة يجدر بالإنسان أن يدرس محتويات و مشتملات الكون و نظامه و أسراره على قدر المستطاع، وأن يدرك عظمة الخالق في كل ذلك.

وهناك صلة بين الإنسان و سائر المخلوقات، وان الله مكن الإنسان من أن يسخر الكثير من المخلوقات و من القوى الطبيعية لمنافعه المشروعة بلا تبذير و لا إسراف و الغزالي يستحث عقل المسلم للأخذ و التعامل مع هذا الكون بظواهره الطبيعية المختلفة و التفاعل معها مسترشدا بتوجيهات قرآنية كريمة لقوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات و الأرض واختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب(190) الذين يذكرون الله قياما وقعودا و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ سورة آل عمران الآيتان 190-191.

وقال أيضا: ﴿ سَنُرِيهِمُ آيَاتِنضا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الحَقُّ...﴾ سورة فصلت الآية 53.

وفي هذا يقول الغزالي: «... و هناك بعض الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم للفت النظر إليها، ودفع الناس إلى النظر و البحث و التجربة و الملاحظة و الكشف عن القوانين والسنن، وكيف يمكن الوصول إلى إدراك قوانين التسخير التي تحقق عمارة الأرض، و يمكن من القيام بأعباء الاستخلاف([1]).

و يقرن عمارة الأرض و الاستخلاف فيها بمدى ما يتحقق من علاقة بخالق الكون ومسيره، وهذا لا يتأتى إلا بسلامة فطرة الإنسان، في عنوان له "الحضارة لا تبنى بخصام الكون"، موضحا فحوى هذا العنوان قائلا: "يستحيل أن تقوم حضارة إسلامية تخاصم الكون، و تجهل مفاتحه أو تخاصم الإنسان، وتجافي فطرته، لان القران الكريم يبني الإيمان على فهم الكون و دراسة الإنسان([2]).

[1]) محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القآن – مصدر سابق – ص 210.

[2]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – مرجع سابق – ص 90.

فالمؤمن الحقيقي ينبغي أن يدرك بأن كل ما في الكون من كائنات و مخلوقات تخضع لقانون و لئن كانت القوانين الفلكية و الطبيعية و الحياتية ليست من وضع الإنسان فان الله سبحانه و تعالى قد وهب الإنسان العقل و الإرادة و حرية الاختيار ليتولى إدارة شؤونه و تطويرها بنفسه وقد زود الإنسان بالمعونة الإلهية التي تتمثل بالأنبياء و الحكماء و العلماء الذين يهدون البشرية إلى سواء السبيل أي إلى القوانين الصالحة للحياة و القوانين التي تكفل بقاء الإنسان و سعادته في الدارين.

و القرآن الكريم ينبه الإنسان إلى أن جل ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره مسخر من قبل الله عز وجل لخدمة الإنسان و تدبير أسباب عيشه و تحقيق شروط سعادته و أمنه في هذا الكون كما أن القرآن الكريم يقرن جانب إدراك عظمة الكون بجانب آخر هو دعوته للبشر جميعا إلى استغلال الكون و الاستفادة من مكنوناته تأمل هذه الآيات و هي طائفة يسيرة من حديث القرآن لنا عن الكون في هذا الجانب إذ قال تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة و باطنةً ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى و لا كتاب منير﴾ لقمان الآية 20. و قوله أيضا: ﴿و جعلنا الليل و النهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين و الحساب و كل شيء فصلناه تفصيلا﴾ الإسراء الآية 12.

وقوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾ سورة الأعراف الآية 10

وقال أيضا: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه وإليه النشور﴾ سورة الملك الآية 15.

2- العقل مصدر في الكشف عن السنن

هذه الآيات تحفيز للمسلمين ليعملوا عقولهم في البحث و التنقيب عن سنن الله في الكون و الكشف عن أسراره فان ذلك لن يكون متاحا إلا لمن لديه الاستعداد للتفكير السليم والنظر العقلي الرشيد و البحث العلمي القائم على أسس صحيحة و مناهج قويمة، كما يؤخذ ذلك من آيات القرآن الكريم و هو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار و إنما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله في الكون قائلا: ﴿الم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض...﴾ سورة لقمان الآية

20. فالنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر و البحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ الأنعام الآية 97.

و كثيرا من الآيات تحث على السير و النظر إلى "أن العلم النظري لا يكفي ذلك أن الكون مسخر للإنسان، ولن يكون طوع بنانه، إلا إذا اكتشف قوانينه وسننه و طوعه لخدمته –أو بتعبير أدق– لخدمة رسالته التي من أجلها خلق([1]).

والقرآن عندما يتحدث عن هذه المسخرات الكونية لا يكتفي بأن يرينا قدرة الله و هي تعمل في الكون، وعلمه يحيط بالمخلوقات و تصريفه للشؤون المختلفة. ولكنه مع ذلك يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها، وهي العبادة بمفهومها الشامل و "العبادة أن تعرف ربك من خلال دراستك لكونه الكبير ثم تجعل نفسك و الكون المسخر لك في خدمة دين ربك و تثبيت تعاليمه فيما تحت يدك لا تتنافى أبدا بين قوله تعالى: ﴿...هو أنشأكم من الأرض، و استعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ سورة هود الآية 61.

وقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدوني﴾ الذاريات الآية 56. و من هنا جاءت السنن تعلم أن الكدح في الأرض جهاد، وأنه يجب المضي في الزراعة ولو قامت الساعة([2]).

وفي نفس السياق يؤكد على العلاقة الوثيقة بين نشر رسالة الإسلام و تعمير الأرض يقول: «و الإسلام طلب من أتباعه تجويد علوم الدنيا لأمور ثلاثة: أولها: أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها، جزء من العبادة التي خلق من أجلها، جزء من الكدح الذي يصون به نفسه و أهله و شرفه..

و الثاني أن الله لم يخلق الإنسان ليشقى، ويجوع ويعرى، بل خلقه مكرّما يحمله ما في البر والبحر، وأحل له الطيبات، ويسر له الزينة والجمال بما فوقه من نجوم وبما بين يديه من زرع وضرع...

و لقد شرحنا ذلك بإضافة في أماكن أخرى من كتبنا فلا نزيد هنا شيئا..

لكن الأمر الثالث هو الذي لا نسأم من تكراره، فإن الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيدا عن التفوق المدني والحضاري.

---

[1]) محمد الغزالي – علل و أدوية – د ط – شركة الشهاب – الجزائر – 1986 – ص 164.

[2]) محمد الغزالي – علل و أدوية – المصدر السابق – ص165.

و الأمة الإسلامية تكون على مستوى دينها، و كي تنجح في المحافظة عليه، وكي تستطيع إفهامه للآخرين، لابد أن تكون راسخة القدمين في شؤون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة في شتى الميادين مسموعة الكلمة في آفاق العلم برا وبحرا وجوا...»([1]).

يستفاد من النص السابق مدى الارتباط الوثيق بين إدراك الإنسان لحقائق الكون وأسرار نواميسه و الانتفاع بمختلف عناصره و مخلوقاته من جهة و إيمان الإنسان بخالقه المستحق للربوبية والألوهية من جهة أخرى وهو يرى أن: «الهيمنة على قوانين الكون كما تنفع الإنسان في الحياة الدنيا ماديا فهي تقدره على إعزاز عقائده و الدفاع عنها و ما تأخر المسلمون و ذُلوا أمام أعدائهم إلا لتخلفهم في هذا الميدان»([2]) أي ميدان إدراك السنن والانتفاع بها.

المطلب الثاني: شمولية الدعوة

الفرع الأول: نماذج عملية من عصر النبوة والرعيل الأول

«وهذا النبي صلى الله عليه وسلم احترف العمل الذي كان يؤديه سواد الناس على عهده، وهو الرعي فقد رعى الغنم أجيرا لأهل مكة على قراريط من الأرض، و كذلك إخوانه الأنبياء الذين سبقوه أصحاب حرف يرتزقون منها كالنجارة و الحدادة و البناء، وعلى الدرب نفسه سار أصحابه و حملة شريعته من بعده، فكانوا بالجد و النشاط الرواد في ميادين المال والأعمال»([3]).

و هنا تحضرني نماذج و هي توفق بين الجانب الروحي و الجانب المادي فالإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان يشتغل فلاحا يعمل بالأجرة في البساتين لكي يكسب رزقه و الثاني الإمام أبو حنيفة الذي كان "بزازا" يبيع الأقمشة في حانوت فيعيش من كسبه و يجمع بين الكسب و التدريس.

---

[1]) محمد الغزالي – سر تأخر العرب و المسلمين – مصدر سابق – ص76.

[2]) محمد الغزالي – نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – ط 13 – دار الشروق – القاهرة – 2011م – ص387.

[3]) محمد الغزالي – الإسلام و المناهج الاشتراكية – ط 4 – نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع – 2005م – ص 80.

هي نماذج يسوقها محمد الغزالي ليرسخ فكرة أن طابع الجانب الإيماني و الروحي لا يتنافى مع النشاط البشري المادي، فالدين الصحيح هو الذي يحقق هذا التوازن و الانسجام بين الجانبين – الروحي و المادي– و يوجه الإنسان نحو الخير و السعادة و هو الضامن للطمأنينة والسلام في حياة الفرد و حياة المجتمع. فالمسلمون الأوائل أدركوا حقيقة أن الإسلام لا يعرف الفصل بين ما هو مادي و ما هو روحي، ولا يفرقون بين ما هو دنيوي و ما هو أخروي، فكل نشاط مادي أو دنيوي يباشره الإنسان المسلم هو "عبادة و طاعة" طالما يتجه إلى الله تعالى ابتغاء مرضاته وخشيته.

عندما فهم الجيل الأول هذه الحقيقة و انفرد بهذه الميزة أسس مجتمعا قويا متماسكا بل أمة متعاظمة ممتدة الأطراف مرهوبة الجانب عندما التزمت بمنهج ربها، واسترشدت بهدايات القرآن، ومن ثم كانت هذه الأمة «...الأمة المؤمنة المجاهدة، الأمة التي يحكمها منهج الله... أمة ممتدة مع التاريخ مع رسالتها، هي أعمق في التاريخ، من أي أمة، و هي تحمل أعظم رسالة و تجاهد اكبر جهاد، هذه الأمة هي وحدها التي تستطيع حمل أمانة العمارة و العمران و الحضارة و البنيان... هذه الأمة و هي تحمل الحضارة إنما تحمل واجبا وتؤدي عبادة وتوفي بأمانة وتصدق باستخلاف فتصبح الحضارة ماضية في حياتها جزء من دعوتها و رسالتها و تصبح الحضارة بابا من أبواب الجهاد في سبيل الله، يجعل الدعوة إلى الله و رسوله صلى الله عليه وسلم مع بركة الخير و نعمة الرزق يحوطه كله نور الهداية و الإيمان...»([1]).

إن الجيل الأول استطاع أن يثير الأرض و يعمرها ويستفيد من خيراتها و يطوعها لصالحه، وأدرك أن الله عندما خلق الإنسان هيأه لهذا السعي في الأرض و خلق الأرض و هيأها لسعي الإنسان، وسخر الله له ما في السموات و ما في الأرض ، وجعله متوافقا مع جبلته، وقدره تقديرا تصلح به حياة الإنسان ليطوف الإنسان بالكون ساعيا بأمر الله عابدا له، يوفي الأمانة ويؤدي حق الاستخلاف و يقوم بالعمارة والعمران.

الفرع الثاني: المسلمون الأوائل وتعاملهم مع سنن الكون

[1]) عدنان على رضا النحوي – لقاء المؤمنين – ج 2 – ط 2 – دار الشهاب للطباعة و النشر – باتنة، الجزائر – 1987م – ص237-238.

ينقل الغزالي فقرة لبشير تركي يتحدث فيها عن فترة من فترات الأمة الإسلامية و هي تتربع على ذروة المعارف الكونية وما تزخر به من عناصر حيوية كانت سببا في الثروة والغنى والسيادة و الريادة، يقول بشير تركي: «في العهود الأولى للإسلام أقام المسلمون صناعات عديدة في ميادين شتى، فبعد أن أخذوا كل ما وصلت إليه الحضارات السابقة، أبدعوا من جهودهم ما أربى عليها، و صهروا ذلك في صناعة متطورة كانت دعامة مكينة لليقظة الإسلامية التي شملت العالم أجمع بل كانت طورا عظيما في الارتقاء العالمي»([1]).

فالأمة الإسلامية عندما تفاعلت مع الكون لم يكن تفاعلها تفاعلا سلبيا بل كان تفاعلا ايجابيا، لأنه أخذ بحظ وافر في تعامله مع سنن الله الكونية من خلال سنة التسخير مسترشدا بنصوص القرآن الكريم و هداياته وكان أن انفتحت خزائن هذا الكون و تفتقت كنوزه و ذخائره مسخرة للإنسان ميسرة لمنافعه، وما أوتي من ملكات إنسانية «خلقت لتتجاوب مع حقائق الكون خلقت لتكون مفاتيح خزائنه و كواشف أسراره، خلقت لتعانق الحق و تقطع الحياة على أشعته لا لتصحب الباطل و تدور معه في كل منعرج و الحضارة الإسلامية الأولى قامت على تسخير العقل و البصر في مجال الحقيقة النافعة فأفادت لنفسها الخير الكثير، و ورثت العالم الخير الكثير، و هل نهض العلم في معاهده إبان العصور الأخيرة إلا بما اقتبس عن العرب الأولين من أساليب الفكر والنظر...؟»([2]).

وفي هذا إشارة توظيف هذه القدرات و الطاقات و الكفاءات في استثمار و تفتيت خزائن الأرض و استكشاف ذخائرها، "فعلى الناس أن يتصفحوا كتاب الكون المفتوح ليعرفوا من حقائقه ما يزيدهم بخالقه إعجابا و إيمانا وما يزيدهم في هذا العالم رسخوا و اتقانا([3]).

إنه تسخير يتوافق مع سنن الله الكونية لا ينفصل عن عقيدة هذا الدين و مثله العليا وبتعبير الغزالي إن ميدان التجويد فيه مفتوح لأهل الأرض أجمعين من مؤمنين و كافرين وغاية ما تمتاز الأمة الإسلامية به أنها مكلفة بتسخير إنتاجها المادي وفق مثلها العليا... و أما الإقبال على شؤون الحياة و علوم الدنيا فهو نداء الطبيعة في كل إنسان سليم الفطرة و هو مجال السباق والتفوق لكل جماعة

[1]) محمد الغزالي – الطريق من هنا – مصدر سابق – ص 31.

[2]) محمد الغزالي – الطريق من هنا – مصدر سابق – ص 46

[3]) المصدر نفسه – ص 45.

تريد خدمة رسالتها بقوة و ذكاء و كان المسلمون الأوائل مثل غيرهم من أهل الأرض أو أذكى و اقدر في خلق العمران و ترقية وسائل الحياة([1]).

الفرع الثالث: شمولية الدعوة في نظر الغزالي

و قد تحقق هذا كله في ظل دعوة واضحة جلية، تعرض حقائق الإسلام في وضوح وشمولية بعيدة عن الأهواء و النزاعات، وعندما تذكر الدعوة عند الغزالي فهو لا يقصرها على التعريف الضيق بل يعطيها بعدا شاملا يمس كل مجالات الحياة وفي هذا يقول: «الإسلام عقيدة و قانون وخلق و اقتصاد و نصح و معاملة و الأمة الإسلامية توزع نشاطها العام على المطالب الكاملة لهذه الرسالة كما توزع مملكة النحل أفرادها على وظائفهم العتيدة في تعاون و اتساق و عندما تفهم الدعوة بهذا الشمول يمكننا أن نذكر رجالها في شتى الميادين فالحاكم العادل و المشرع الضليع، والأديب الموجه و المجاهد المخلص، والواعظ النصوح، بل الثائر على المظالم و المتمرد على الطغيان كل أولئك من رجالات الدعوة و يمكن التأريخ لهم على هذا الضوء المبين و تستطيع أن تذكر لهم نماذج كثيرة على مر العصور وربما كان هذا الوصف الذي عرف به هؤلاء الدعاة واهي الصلة بالوعظ و الإرشاد»([2]).

و يستشهد ببعض الرموز الدعوية في مختلف المجالات و الميادين "كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وصاحبه رشيد رضا، ومحمد بن عبد الوهاب"، وهؤلاء الرجال و أمثالهم قدموا للدعوة من الخير ما قدمه مثلا "أبو حنيفة، و مالك، و سائر الأئمة و الفقهاء في ميدان الفتوى والتشريع و ما قدمه من قبل الخلفاء العدول و الفاتحون العسكريون في ميدان السياسة الداخلية والخارجية و المثل الأعلى لذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي انبثقت أشعة الدعوة من سيرته في جميع المجالات([3]).

و عندما تذكر انجازات العلماء المسلمين الأوائل و فتوحاتهم في هذا الكون نستذكر أسماء أسهمت في إثراء الحضارة الإنسانية و تركت آثارها الفاعلة إلى يومنا هذا.

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مكتبة رحاب – الجزائر – ص 104-105.

[2]) محمد الغزالي – مع الله – مصدر سابق – ص 172.

[3]) محمد الغزالي – مع الله – مصدر سابق – ص 172-173.

من بين هذه الأسماء: "محمد بن موسى الخوارزمي (توفى 850هـ) يعود إليه تأسيس علم الجبر، و ابن الهيثم (توفي 1039هـ) الذي برز في علم البصريات و اعتبره الباحثون بكل جدارة مؤسس علم الفيزياء، و جابر بن حيان (توفي حوالي 815هـ) الذي أجرى عددا من التجارب على المواد العضوية التي أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة في التاريخ و القائمة طويلة في شتى المجالات العلمية و الفكرية..."([1]).

إذا كان المسلمون الأُول قد أحسنوا دراسة الكون و سخروه لبناء حضارة امتدت وتعاظمت و اخترقت الحدود و الحواجز فمست كل بقعة جغرافية في هذه الأرض، و تركت بصماتها في معظم مناحي الحياة بكل مجالاتها و مبادئها فلماذا خلفُ هذه الأمة لم يستطع أن يواكب هذا الرقي الحضاري المتعاظم و لم يحقق ما حققه الجيل الأول من المسلمين.

و التساؤل مشروع يطرحه كثير من الناس، كيف أصبحت الأمم الأخرى تملك ثروة من العلم و القوة و البأس في حين أصبح الملايين من يحسبون على الإسلام يمارس عليهم الذل والهوان، والضعف و العجز و الخذلان، يعانون الإلحاق و التبعية في كل الميادين اقتصاديا و اجتماعيا وسياسيا و ثقافيا.

المطلب الثالث: كيفية النهوض بالأمة

الفرع الأول: رؤية الغزالي إلى كيفية النهوض بالأمة

حتى تعود الأمة الإسلامية إلى سابق عهدها من النهضة و العزة و المجد، يعتمد الغزالي أن تحقيق هذه النهضة يوم يصحو عقل المسلم و تتنبه حواسه كلها لالتقاط إشارات الحكمة و الإبداع في الكون الفسيح و للتعامل الواعي مع سنن الله في كونه و بتعبير الغزالي: «من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالا بالدنيا عجزة في الحياة و الصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح و إبرة الخياط وقلم الكاتب و مشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي و يصنعها الغواص في

[1]) أنظر عماد الدين خليل – أصول تشكيل العقل المسلم – دار ابن كثير للطباعة و النشر والتوزيع – دمشق – بيروت – 1426هـ، 2005م – ص 56-67.

بحره و الطيار في جوه و الباحث في معمله و المحاسب في دفتره يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء و يجعل منه أداة لنصرة ربه و إعلاء كلمته»([1]).

فهي دعوة إلى تحريض المسلمين على الحياة و الإقبال عليها بالتعمير و الهيمنة و واجب من واجبات المسلمين نحو دينهم و دنياهم، و وسيلة لا مندوحة عنها لنشر الإسلام و للذود عن حياضه.

إن الإسلام و إن جعل الإيمان بالغيب علامة للتقوى وعنوانا على التصديق بالرسالة إلا أن منهجه في توجيه المسلمين و التعامل مع الكون من حولهم ليس منهجا غيبيا بحال من الأحوال وإنما هو منهج علمي يقوم على استخدام العقل و النظر في الآفاق و الأنفس و التماس التجارب والخبرات و العبر التاريخية من سير الأمم و الشعوب و الاستفادة منها.

و إن كثيرا من المشاكل المتراكمة و المعقدة في العالم العربي و الإسلامي ترجع إلى غياب التخطيط العلمي لمواجهتها أو إلى اعتماد نوع من التخطيط الجزئي الذي يتجاهل ترابط الظواهر السياسية و الاجتماعية و الثقافية أو إلى عدم الالتزام بالخطط الواضحة و القفز عليها مراعاة لظروف و اعتبارات عارضة. فضلا عن ابتعاد الأمة الإسلامية عن دورها الرسالي ممن عمق و زاد في حدة المشاكل، ويعتقد الغزالي أن: التخلف الذي يعاني منه العالم الإسلامي لا دخل لنا فيه، ولا يتحمل الإسلام وزره بل هو عقوبة إلهية أوقعها الإسلام بأتباعه جزاء تخليهم عنه، إن المسلمين تأخروا لأنهم تركوا الإسلام لا لأنهم تمسكوا بالإسلام فحق عليهم قوله تعالى: ﴿و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا...﴾ سورة طه الآية 124([2]).

إن الحكمة ضالة المؤمن وهي ليست حكرا على امة دون امة، و على جيل دون جيل ولو كانت كذلك ما دعا الله سبحانه و تعالى المؤمنين إلى أن يسيروا في الأرض و أن ينظروا والمسلمون بعد ليسوا أمة مقطوعة الصلة بتاريخ العالم، غريبة عن سائر أممه و شعوبه و إنما هم جزء من العالم و تاريخهم جزء من تاريخه و تفاعلهم مع الدنيا من حولهم يظل دائما مدخلهم إلى إشاعة الحق و الدعوة إليه، و لا يمكن لهذا التفاعل أن يتخذ سبيله في حياتهم إذا اعرضوا عما ينفعهم و ينفع الناس

[1]) محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – مصدر سابق – ص 11.

[2]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 114.

من حولهم و الأمة الإسلامية بهذا المعنى ينبغي أن يستقر في وعيها وفي فهم الداعين إلى الإسلام و تطبيقه على المجتمعات المعاصرة، أن مناط التكليف و حمل الأمانة أمانة قارة البشرية وتوجيهها نحو الخير والحق والسلام لا يقتصر عليها وحدها بل يتعداها إلى الإنسانية جمعاء و أي تقصير في حق هذه الأمانة و المسؤولية يدفع بها إلى التراجع و التخلف و ما ضعف المسلمون و ما استكانوا إلا يوم تركوا هذه المسؤولية وقصروا في حقها، وقد لا يحكى هذا التقصير في نظر الغزالي عندما انكمش دور الأمة في دائرة ضيقة حالت دون رؤية واضحة شاملة أصابها عقم وانحصار، يقول الغزالي: "لو كانت أمتنا حين تكاسلت و استنامت، تعيش على ظهر الأرض وحدها لكان وزر تخلفها على تعاني منه في شؤونها قلت أو كثرت؟»([1]).

فالمسلمون جزء من الإنسانية معاصرة و مجتمعهم بالضرورة مشارك في شبكة واسعة من علاقات الجوار و تبادل المصالح و التنافس على مواقع الكسب و مواقع السيادة، لكن امتنا في سباق أمم أخرى لا تنام، أمم لا رسالة لها أو لها رسالة مادية محدودة قوامها الباطل و الهوى و مع ذلك فان المبطلين يسابقون الريح نشاطا و عزيمة، ونحن ممثلي الحق جامدون على الثرى ننظر ببرود أو بلاهة إلى الآخرين و لا نعي من رسالتنا شيئا ذا بال([2]).

ثم يؤكد على هذا التقصير و القصور في فهم حقائق الكون و الدنيا يقول: "إنه قصور وتقصير في فهم حقائق الكون و الدنيا، لان المسلمين المتأخرين، أبعدوا الإسلام عن حقائق الكون و بدل أن يعملوا عقولهم و تفكيرهم في تأمل الكون، و تدبر آياته و النظر في عظمته لإدراك عظمة و قدرة الخالق له و السعي نحو العمل والبحث المفيد، فإنهم حصروا أوقاتهم و مجهوداتهم في بحث قضايا هامشية تاركين مجال لاكتشاف العلمي و مسار التقدم الحضاري لغيرهم من الشعوب التي لم تضيع الوقت ولا الجهد، فكانت جديرة بقيادة العالم و صدارته([3]).

الفرع الثاني: الاستفادة من التفوق الحضاري للأمم الأخرى

و يسوق الغزالي نماذج و شواهد تظهر تخلف الأمة و ضعفها في معظم المجالات فهو عندما يتحدث عن رحلته إلى عاصمة موريتانيا الإسلامية و كيف أن بعثة صينية شيوعية هي من اكتشفت

[1]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – مصدر سابق – ص 25-26.

[2]) المصدر نفسه – ص 26.

[3]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقيل قرنها الخامس العشر – مصدر سابق – ص 72.

المياه الجوفية التي تغذيها الآن! ثم يعلق قائلا:ى "ناس يأتون من آخر الدنيا شرقا إلى شاطئ الأطلسي غربا لهم خبرة في علم المياه تتيح للعطاشى أن يرتووا و هم في بيوتهم، وان يرتفقوا كيف شاءوا بالسائل القريب البعيد، ترى أين كنا و ماذا نصنع؟([1]). و ما يقال في مشكلة الماء يقال عن النفط، ويقال في كل المواد المدفونة تحت الثرى أو المهملة فوقه.

أما المثال الثاني ففيه يتحدث عن صناعة الطيران التي بدأت في كل من مصر و الهند في سنة واحدة، كما بدأت بحوث الذرة تقريبا في السنة نفسها، و أكب علماء البلدين على القيام بأعمالهم و الاستفادة من التقدم الأوروبي في هذا المجال و بعد ربع قرن نجح الهنود في إنتاج طائرة هندية كما نجحوا في صنع قنبلة ذرية!

أما في مصر فقد توقف مصنع الطيران بعد سنوات معدودة و تجمد العمل في وكالة الطاقة الذرية و إلى الآن لم تخط خطورة مقدورة!

و السؤال المشروع الذي يطرحه الغزالي ما سبب هذا الفشل؟ هل العقل الهندي أذكى من العقل المصري؟ لم يقل ذلك أحد من المعاصرين أو الغابرين!

و يعتقد أن السبب المباشر هو استقرار الحريات في الهند أتاح لكل ذي كفاية أن يعمل ويبدع و أن ينجح دون عقبات أو مضيقات، إن النظام القائم ديمقراطي حر يمنع تزوير الانتخابات أقام سباقا لا حواجز فيه بين أصحاب المواهب والقدرات و الكفاءات العلمية...

أما عندنا فان أصحاب المواهب و القدرات العلمية ما أن يشرعوا في أعمالهم أو يفكروا في مشروعاتهم حتى يحاطوا من كل جانب بقيود و سدود لا حصر لها...([2]).

هذا النص و غيره من النصوص التي تتحدث عن الانجازات العلمية و الابتكارات التي حققتها أمم وفي مقدمتها الغرب لم تحصل لولا هامش الحرية المتاحة للكفاءات و القدرات. فالهند استطاعت أن تفجر طاقة أبناءها و تنفق عقولا و مواهب أسهمت في بناء حضارة تزاحم حضارات الأمم الأخرى رغم أنها تحسب على دول العالم الثالث أما الدول الغربية في مجال العلم والتكنولوجيا و الاكتشاف، استطاعت أن تحقق مكاسب هائلة فتجاوزت حدود الإحساس بالعجز أمام قوى

[1]) محمد غزالي – الطريق من هنا – مصدر سابق – ص26.

[2]) محمد الغزالي – علل و أدوية – مصدر سابق – ص 176.

الطبيعة و أن تندفع بقوة فائقة اختراق الحواجز و الموانع التي كانت تحول دون حركتها، وتحركت فيها روح المغامرة و البحث و الاستكشافات في تذليل الصعاب و البحث عن المجهول و ليست قصة الكشوفات و ارتياد الأراضي المجهولة منذ القرن 15 و الاكتشافات الفلكية و الفيزيائية إلى اكتشافات "نيوتن" و "اينشتاين" و الإقلاع من سطح الأرض إلى الفضاء الرحيب، والنزول على سطح القمر إلا تعبيرا عن هذه الروح الوثابة النشطة المحفزة التي تستكشف كل يوم جديد و ديدنه في ذلك تحقيق نفعه و سعادته.

فقد كان لتعمق الأوروبيين في العلوم الكونية أثره في انفتاح أبواب الغنى عليهم إن القوى و الأسرار التي اكتشفوها كانت مفاتيح لخزائن السموات و الأرض فلا غرابة في ارتفاع مستوى معيشتهم و لا غرابة في اتساع دائرة الرفاهية و التنعم لديهم.

إنهم استثار و الأرض و عمروها أكثر مما عمرها غيرهم فخدمهم الرطب و اليابس والسائل و الجامد و الحديد و الذهب والتراب والهواء وتوشك أن تأخذ الأرض زخرفها وتزدان وتتحول إلى خادم طيع لأطماع الإنسان...؟ أي إنسان الذي عرف الخلق و لم يعرف الخالق والذي يحس أهواءه في بدنه و دنياه و لا يدري عن وحى الله شيئا له وزن ولا يقدم للآخرة شيئا يكون له ذخرا([1]).

مما لاشك فيه أن الغرب استطاع أن يحرز تقدما كبير وقدرا هائلا في مجال العلوم والمعارف و أن يصنع حضارة استطاعت أن تنزل الإنسان على سطح القمر فضلا عن الكشوفات التي ساهمت في ازدهار المجتمعات الأخرى وكان من نتائج هذا التفوق العلمي الهائل تمكين الأوروبيين وتحكمهم في مقدرات الشعوب المتخلفة العاجزة.

ولم يأت هذا التفوق عن طريق المصادفة و إنما جاء عن طريق تعاملهم مع علوم الكون واستكشافهم لقوانين هذا الكون و في هذا السياق يقول الغزالي: «و ظاهر أن رسوخ عدونا في علوم الكون و الحياة جعله يطوي المسافات الشاسعة و يلطمنا كما أحب، إن ضرواته نبا كضراوة الصائد الذي يطلق بندقيته على أسراب الطير و الأنعام لينال منها ما يشتهي!»([2]).

[1]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – مصدر سابق – ص 27.

[2]) محمد الغزالي – الطريق من هنا – مصدر سابق – ص 34.

هذا حال الغرب عندما تعامل مع سنة التسخير في مجال الكون و ما الانجازات العلمية والاستكشافات الباهرة التي حققها في مجتمعه و بيئته و سائر بلدان العالم، تثبت قطعا انه أعد العدة و ملك من الدنيا ما أهله للنهوض بمجتمعه ماديا و تثبيت دعائمه في هذه المعمورة وفي غمرة هذا التقدم المذهل تخلف العالم الإسلامي تخلفا ملحوظا و ابتعد المسلمون عن سنن الله في بناء الحضارة الشاملة و الأخذ بمفاتيح العلوم التجريبية و الصنائع... فوقفوا و تقدم الزمان و استولت عليهم الغشاوة لدرجة أن سدَنة الإلحاد و سدَنة الشرك يتفوقون في هذا المجال و يحققون تقدما كبيرا في مجال العلوم التجريبية و التقنية و هو الأمر المؤسف و المؤلم حقا في نظر الغزالي مما جعله يعبر عن أساه يقول: «وقد رمقت بأسى سدنة الإلحاد و سدنة الشرك و لمحت نشاطهم الذهني و الذهني في غزو الفضاء ثم عدت إلى قومي فجف حلقي و خرس صوتي أين هذه العلوم بيننا، وما الذي أبعدها عنا؟ إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين في الأرض فان انصرافك عن التمكن من الأرض فاحشة أشد من الزنا و الربا...»([1]).

الفرع الثالث: التحذير من الانشغال بالقضايا الخلافية

واضح أن الغزالي يُحمّل الأمة الإسلامية مسؤولية التقاعس و التقصير و انصرافها عن عمارة الأرض، و الرضا بهذا الواقع البائس و يشنع جمودها و قعودها في هذا التخلف العلمي والصناعي وفقدان روح الابتكار و الإبداع و الإنتاج ، وفي هذا السياق يطرح هذا السؤال :لماذا جهلنا أسرار الحياة وعمينا عن قوى الكون و لدينا كتاب لا نظير له في لفت الأبصار إلى هذه وتلك، بم شغلنا؟ و ما هي البحوث و القضايا التي حبست أفكار العامة و الخاصة؟([2]).

ويرصد الغزالي هذا الخلل، -إهمال عمارة الأرض- إلى اكتفاء الأمة و انشغالها بقضايا من شأنها أن تفجر خلافات و شقاقات و في أحسن الحالات تستغرق مساحات زمنية في الجدل العقيم دون جدوى، و يحددها الغزالي في انشغالين يقول: «إذا كان الآباء قد شغلهم الترف العقلي، فان الأبناء قد شغلهم السخف العقلي»([3]).

---

[1]) محمد الغزالي – الطريق من هنا – مصدر سابق – ص 27.

[2]) محمد الغزالي – هموم داعية – مصدر سابق – ص 167.

[3]) المصدر نفسه – ص 167.

وهذه إشارة إلى رجال علم الكلام الذين خاضوا في مسائل خلافية عمّقت الشرح ووسعت الهوة التي تتجرع فيه الأمة الإسلامية آثارها النابجة إلى يومنا هذا. وفي هذا يقول محمد قطب: «من لوثة الفلسفة الإغريقية و العقلانية الإغريقية نشأت فرق كثيرة و تخبطات كثيرة في فكر المسلمين و يذكر الناس المعتزلة نموذجا للغزو الفكري الإغريقي في فكر المسلمين حيث جعلوا العقل هو المحكم في الوحي و جعلوه المرجع الأخير في كل أمر من الأمور حتى العقيدة ولكن المعتزلة لم يكونوا وحدهم الذين تأثروا بالعقلانية الإغريقية و انحرفوا بها عن عقيدة الإسلام الصحيحة فكل الذين خاضوا في قضايا الصفات من المتكلمة في قضايا القضاء و القدر و الجبر والاختبار كان اعتمادهم في الكلام الذي قالوه عن تلك العقلانية التي تعطي العقل أكبر من حجمه الحقيقي و تجعله المرجع الأساسي و هو الحكم في كل قضايا الوجود؛ فأُنزِلو إلى تصورات لا هي إسلامية صافية و لاهي قدمت أي خدمة لتلك العقيدة بل حولتها من تصور صاف و وجداني حي وسلوكي عملي يقصد به مرضاة الله إلى قضايا ذهنية تجريدية باردة»([1]).

إن الخوض في هذا العلم –أي علم الكلام– من شأنه أن يصرف الأمة عن جوهر رسالتها و يحرفها عن دورها الأصلي و هو المفترض قيادة المجتمع الإنساني و يحمل الغزالي أصحاب هذا الفكر إلى ما آلت إليه الأمة من ارتكاس و انتكاس في مجال الحياة و في هذا يقول: «إن الكبوة التي ثوى الفكر الإسلامي فيها أمدا طويلا هي بحوث ما وراء المادة لقد كان ذلك على حساب البحوث المادية و الحيوية التي عليها معول في قيام الإنسانية و اتساع نشاطها»([2]).

وفي نفس السياق دعا إلى نبذ هذا العلم و انتشاره في العالم الإسلامي قائلا: «أما ما شاع في هذا العالم من مباحث فلسفية، و تكليفات عقلية، و توليدات خلقها الفراغ و تخمينات أساسها الحدس، فذاك ما يجب نبذه و تطهير الثقافة منه»([3]).

إذا كان الترف العقلي عند الآباء غير محمود فأقله أن الدولة الإسلامية كانت في تلك المرحلة قوة ممتدة الأرجاء امتلكت زمام أمرها في كل القطاعات الحياتية، كانت عزيزة لا تقبل الذل،

[1]) محمد قطب – واقعنا المعاصر – مرجع سابق – ص 127.

[2]) محمد الغزالي – دفاع عن العقيدة و الشريعة – دار السلام للنشر والتوزيع – الجزائر – د ت – ص 104.

[3]) المصدر نفسه – ص 102.

قوية لا تعرف الضعف كريمة لا ترضى الضيم فدانت لها الشعوب و خضعت لها الدول، وبعبارة أدق كانت دولة مُمَكّنة في دينها و شعائرها كما كانت ممكنة في دنياها برا وبحرا و سياسيا واقتصاديا و علميا...

و لقد سعدت الأمة الإسلامية بهذا التمكين ردحا من الزمن –رغم الانحرافات– وفتح الله عليها بركات في السماء والأرض: «فقد كان المسلمون الأوائل على بصيرة من هذا الأمر، فتركوا لطبائعهم –أو طبائع الحياة فيهم وفي غيرهم– أن تبتكر وتجيد، وتوسلوا بما أفادوا في خدمة دينهم دون تكلف»([1]).

الفرع الرابع: ترشيد الغزالي للشباب المسلم وتوجيهه إلى ما هو أفيد وأنجع

أما الأخلاف كما وصفهم الغزالي بـ(الأبناء) الذين شغلهم السخف العقلي –قد انحرفوا انحرافا كبيرا عن حقيقة دينهم وقد أتت هذه الانحرافات ثمارها السيئة على مدى الأيام و مازالت تؤتي ثمارها المرة و مرد هذا الانحراف في نظره يعود إلى: «قصور و تقصير المسلمين تجاه دينهم الحنيف، و أما القصور ضعف في الفقه و أما التقصير فعصيان سافر و قد يرى القاصر أو المقصر أنه سليم المسلك و لكن المعلول لا يعد صحيحا إذا كانت الجراثيم تسرح في كيانه و لابد أن تتأثر منه سنن الله بكونه التي لا تحابي أحدا...!»([2]).

ويوضح هذا المعنى فيقول: «إن فقر العلم كفقر الدم لا يعين على نشاط و لا يجود معه إنتاج و غزاره العلم مع ضحالة الفقه تضليل للسعي و ضياع للثمرة»([3]).

و قد كانت للغزالي حوارات و سجلات مع هذا الصنف الذي خاص في مسائل و قضايا هو في غنى عنها و هي من باب السخف العقلي فهؤلاء انصبت اهتماماتهم على بعض القضايا الفقهية الخلافية –و التي تنتمي إجمالا إلى الفروع لا إلى الأصول– فبنوا عليها اختلافات شديدة

[1]) محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مصدر سابق – ص 133.

[2]) محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الـ15 – مصدر سابق – ص 56.

[3]) محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية – مصدر سابق – ص 101.

كانت نتائجها تشتتا في صفوف المسلمين بدل اتحادها وهدمها للدين بدل بنائه و هم بذلك كما يرى الغزالي إنما يظلمون السنة»([1]).

وهذا نموذج من السجالات دار بين الغزالي و أحد الشباب قال: «استوقفي شاب ساخط يقول سمعنا رأيك في الجهاد الإسلامي و أنه ما يكون إلا قمعا للفتنة و تقليما لأظافر الطغاة وحماية للحقوق المستباحة! و ما اقتنعنا بهذا الرأي فقد سمعنا غيرك و لعله أفضل منك يؤكد أن الإسلام بطبيعته السلمية يشتبك مع الطواغيط و يقاتل الجاهليات فإذا أجهز على بعضها في ميدان انتقل إلى ميدان آخر ليصطدم بها و هكذا إلى قيام الساعة...!

فقلت له: "لعل صاحب هذا الرأي يقصد الحروب الوقائية؟ أي أننا رأينا من يستعد للهجوم علينا فبدأنا بضربه سريعة أجهضت هجومه و الحرب خدعة و ربما ليس في هذا حرج.

قال الفتى دعني من تفسيراتك لا حرب وقائية و لا دفاعية و لا شيء من هذه التعِلات! الإسلام لا يحيا مع الطاغوت أو الجاهلية.

فقلت له ليتكم تعرفون حقيقة الإسلام و واقع الحياة، إنكم تجهلون الأمرين معا وتتحدثون عن خيال سقيم!

في هذه الأيام لا نعرف شعوبا برّح بها الظلم كما وقع للشعوب الإسلامية و إجماع العلماء منعقد على أن الجهاد حق لأنه دفاع عن الأرض و العرض و الحاضر و المستقبل و التاريخ و الشخصية و الدين و الدنيا، فلم الجدل البارد حول ما تزعمون من طبيعة عسكرية للإسلام وأنه دين هجوم؟»([2]).

إن المتأمل في هذا السجال –و نماذجه كثيرة و متنوعة– يدرك عمق الأزمة التي يعانيها شباب قصار الفكر و النظر في معالجة قضايا يفترض في صاحبها التبحر و التعمق في حقائق الدين، فضلا عن دراسة الواقع و فهمه.

[1]) نادية يوسف – أزمة التخلف الحضاري في العالم الإسلامي، دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي – مذكرة مقدمة لنيل ماجستير في الدعوة و الإعلام — جامعة باتنة – السنة الجامعية 1427/1426هـ، 2006/2005م – ص 121.

[2]) محمد الغزالي – جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج – مصدر سابق – ص 8-9.

وكان الأولى بهذا الصنف أن ينأى بنفسه عن مثل هذه القضايا المصيرية التي لا يقدر عليها إلا ذوو العقول الكبيرة.

كان بمقدور هؤلاء الشباب المتحمس و المندفع أن يوجه اهتماماته إلى مجالات و ميادين أخرى تنصر هذا الدين و تنتصر له، يمكنكم أن تركزوا اهتمامكم إلى ما هو أهم و أقدر عليه في تسخير طاقاتكم «أما تعرفون ميادين أخرى من ميادين الحرب الساخنة يمكنكم فيها أن تنصروا الله ورسوله...

في ميدان الإعلام –أو بلسان الشرع– ميدان الدعوة توجد مليارات من الناس سيئة العلم بالإسلام تفترسها شبهات و خرافات حول ديننا البريء فهلا أسهمتم في تبديدها.

ميدان المال و الأعمال تكاد الأديان الأخرى تنفرد بزمام الحياة و تؤثر في تياراتها سلبا وإيجابا فهل تحركتم لتمتلئ الأيدي بالشغل و لتختفي من بينكم البطالة و ليكون لكم صوت مسموع؟

في ميدان العلم مدنيا كان أو عسكريا، لا يعرف لنا وجود، فهلا نافستم و استفدتم وأفدتم؟

في ميدان السياحة و الكشوف، نقل المتحركون عقائدهم حيث ذهبوا، فماذا حبسكم في أماكنكم؟

في ميدان المساعدات و الخدمات الاجتماعية، اجتهد الكثيرون في تخفيف الآلام و تجفيف الدموع وكسبوا قلوبا تحفظ الجميل فأين أنتم؟»([1]).

يأسف الغزالي على هذا الصنف، بل ينعي عليه لأنه لا يجد فيه أدنى انفتاح على هذه المجالات، لأنه يقصر تفكيره في قضايا و مسائل لا يجيد البحث و التنقيب فيها مما ألقت بثقلها على حركة الأمة و دجنتها في عقابيل التخلف و الانهزامية، و تركتها تراوح مكانها عاجزة مشلولة لا تحرك ساكنا لأن هؤلاء الذين تصدروا الدعوة «مولعين بالثرثرة وضعوا ملصقات سيئة على عقول الشباب

[1]) محمد الغزالي – جهاد الدعوة بين عجز الداخل و كيد الخارج – مصدر سابق – ص 9.

بعد تجميدها بطريقة ما، و وجهوهم للحماس الأجوف و الاشتباكات القاتلة بدل أن يشغلوهم بالعمل الصالح الذي يفيد دينهم و أمتهم([1]).

و في سياق ذي صلة بهذا الصنف يطالب الغزالي بمحاربتهم وإضعاف شوكتهم قائلا: «يجب أن نقلم أظافر هؤلاء الواقفين أمام الفقه الصحيح و العمل الجاد المثمر... إنهم عند النصر الدقيق حرب على السلام...»([2]).

وهكذا تجمعت انحرافات القرون الطويلة، وتفاعلت بعضها مع بعض فأدت في النهاية إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية و انهيارها من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة([3]).

و الأعطاب التي أصابت الأمة ما كانت لتصيبها لولا هذه الفتوق و النتوءات التي تصدرت حياتها، وألهتها عن دورها الحقيقي و هو قيادة البشرية إلى روح الأخوة الإنسانية والاحترام المتبادل، وبذلك يحقق الإنسان ذاته و يسهم في تعمير هذا الكون ماديا و معنويا تحقيقا للمهمة التي كلفه الله بها عند خلقه بقوله تعالى: ﴿...هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها...﴾ سورة هود الآية 61 أي طلب منكم عمارتها و صنع الحضارة فيها.

و إذا أرادت الأمة أن تحقق سنة الله الجارية من خلال قوله تعالى: ﴿...أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ سورة الأنبياء الآية 105، يقول الغزالي: «ولنا أن نسأل هل الصلاح الذي تفيده هذه الآية الكريمة هو قدرة على الصلاة و الصيام وعجز عن الجهاد و عن صنع آلاته التي يحيا الإيمان في ظلها؟ هل هو رغبة في الطعام، وعجز عن أحياء الموات و تكثير النبات»([4]).

إن علاج هذه المشكلة هي في تبصير هذا الجيل، وتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة التي علقت في ذهنه و نفسه، وحتى يتحقق هذا المقصود ينبغي أن توجه الجهود إلى توضيح الإسلام الحقيقي، وأن ينقى من الشوائب التي ألصقت به عن قصد و من غير قصد، ولا يتحقق هذا إلا من خلال التركيز على الجهاد العلمي الذي يراه الغزالي من الفروض و الأولويات و يرتبه ترتيبا مميزا حيث

[1]) المصدر نفسه – ص 9.

[2]) محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – مصدر سابق – ص 51.

[3]) محمد قطب – واقعنا المعاصر – مرجع سابق – ص 162.

[4]) محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – مصدر سابق – ص 137.

يقول: «أحيانا يكون الجهاد العلمي أسبق عند الله و أجدى على الناس من الجهاد العسكري، فإن تصحيح المعرفة، ينصف الحقيقة و يحصن النفوس، ويضبط مسار الأمم إلى أهدافها»([1]).

[1]) محمد الغزالى – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – مصدر سابق – ص 59.

الخاتمة

من خلال دراستنا لموضوع "فقه السنة عند محمد الغزالي" و أثره على الدعوة الإسلامية انتهينا إلى جملة من النتائج، وقي مقدمتها يمكن أن نلمح رؤية الغزالي المنهجية والتي ذهبت إلى تأكيد الوعي بالسنن القرآنية، سنن الله وقوانينه في المجتمعات البشرية، والأخذ بها وقد اهتمامه بإبراز هذه السنن والتأكيد على أهمية فقهها والتفاعل معها بالتسخير والتطابق، وذلك بنقلها من الإدراك العقلي إلى التوظيف الفعلي.

والله سبحانه وتعالى جعل سننا كونية "يجري عليها أمر هذا الكون و أمر هذه الحياة، وإن الله سبحانه وتعالى كلفنا بأن نسير في الآفاق و أن نكتشف هذه السنن وأن نعمل على ضوئها وأن نسخرها لدين الله.

والأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فهم واسع للسنن الإلهية في الآفاق والأنفس بما يضمن لها الحصانة والعقدية والمعرفية التي تجعل الإنسان المسلم يسأل نفسه عن حقيقة الاستخلاف.

بل يجب أن يكون أكثر فقها وإدراكا لها من أعداء الإسلام، لأنه يستضيء في معرفتها بنور الله تعالى وحتما إن الإنسان المسلم سيفهم أنه مخلوق مكلف مسؤول بإقامة الحياة على أساس من الاعتدال والتوازن والوسطية، وفهم واسع لحقيقة سنن الحياة في خلقه وكونه بما يكفل له إقامة شهود حضاري يشهد له التاريخ.

و الكشف عن هذه السنن التي تحكم حركة المجتمعات يكون بالسير في الأرض والسعي فيها، وبالنظر في تاريخ الأمم والقوانين الضابطة لحركة الناس لان أعظم فائدة تحصل للناظر في سنة الله تعالى والدارس لها هي الاعتبار بعد النظر والتبصر وذلك أن الله أمر بالسير في الأرض والنظر في وقائع القرون الخالية وسنن الأمم الماضية والتبصر في سيرهم واستجلاء أخبارهم وأحوالهم، والسؤال عن أسباب صلاح الأمم وفسادها وتحقق عادة الله عز وجل فيهم بالنظر في ترتب الآثار على الواقعات واستقراء ما خلا فيهم من المثلات، و ما مضى فيهم من النعم والنقم والاتعاظ بكل ذلك، قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ سورة آل عمران الآية 137، وقال أيضا: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان كان عاقبة المكذبين﴾ سورة الروم الآية 41.

تعتبر مسألة السنن الكونية والاجتماعية و صلتها بسر تأخر المسلمين وتراجع دورهم الريادي واندثار آثارهم الحضارية من أهم القضايا التي شغلت مساحة كبيرة في فكر الغزالي واهتماماته

خاصة وأنه واحد من الذين آلوا على أنفسهم على العمل على إحياء هذه الأمة من موات وبعث الأمل ونفخ الروح في أوصالها لعلها تعود إلى سالف عهدها و تليد مجدها.

أم على الجانب التطبيقي في دراسة هذه السنن فقد وقفت على عدد من غير قليل من السنن الإلهية في الأمم والأفراد وقد تناول الغزالي بعضها بإسهاب وتفصيل والبعض الآخر بإيجاز وتركيز. و من ذلك سنة التدرج والتي تعتبرها الميزة البارزة في مسار الرسالة القرآنية الخالدة، فالقرآن الكريم المنزل من الله رب العالمين نزل منجما ثم إن التربية القرآنية كانت متدرجة فبدأت بتصحيح العقائد من الشرك و عبادة الأوثان، و افردا الله بالعبودية ثم بعد بضع سنين من تصحيح العقيدة وتثبيت قلوب المؤمنين فرضت الصلاة ثم الصوم ثم باقي الأركان، وكذلك التدريج في تحريم المنكرات مثل الخمر...

كما اعتبر هذه السنة في غاية الأهمية للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية خاصة صنف من الدعاة الذي لا يراعي سنة التدرج مخاطبا إياهم بأن تطبيق الشريعة وأحكامها ينبغي أن يطبق جزئيا بهدف الوصول إلى التطبيق الكلي لأن عملية التنزيل والتطبيق التي هي وقائع اجتماعية تحدث في دنيا الناس فأنت لا تستطيع أن تطبق حدا أو حكما من أحكام الله إلا إذا فحصت الحالة التي أمامك سواء الحالة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، لتنظر في ظروف الأفراد وظروف المكلفين وظروف المجتمع وظروف العالم الدولي الذي تعيش فيه.

وحتى يتم تنزيلها تنزيلا صحيحا على دنيا الناس لا يد من التدرج في هذا التنزيل أو هذا التطبيق بما يحقق المقاصد الإسلامية من الأحكام الشرعية لأن الأحكام الشرعية لها غايات في المجتمع، هذه الغايات تتعلق بمآلات تطبيق الأحكام لا بد من النظر إلى مآلات تطبيق الأحكام قبل تطبيق الأحكام.

و غن تهيئة المجتمع من خلال الداعية من خلال برامج الإعلام ومناهج التعليم ينبغي أن يظل مستمرا ولا تجزئة فيه، تجزئة تكون بالأساليب بمعنى أن الأسلوب الذي أخاطب فيه المجتمع الأقل علما غير الأسلوب الذي أخاطب فيه المجتمع الأكثر علما، والمجتمعات الإسلامية غير المجتمعات الغربية... و لكن الخطاب يظل باقيا ومستمرا ولا تأجيل فيه لأن الدعوة عملية حركية تتجدد بتجدد الوقائع والأحداث.

لا يمكن أن نقفز مرة واحدة وأن نجسدها دفعة واحدة، وتطبيقها على الناس مرة واحدة هذا يشق عليهم مخالف مبدأ اليسر الذي جاءت به الشريعة الإسلامية. وان ميزان المصالح والمفاسد ميزان مفتوح على الدعاة وعلى أولياء الأمور الصالحين المخلصين المتقين، يعرفون الله سبحانه وتعالى ويتقونه وأن ينظروا إلى أمانتهم نظرة صحيحة وأن يقولوا هذا يطبق الآن وهذا يطبق غدا ولكن الجميع سوف يطبق في نهاية الأمر.

و من السنن التي تناولها الغزالي سنة الأجل وهي قريبة من سنة التدرج نظرا لارتباطها بها، لأن هذه السنة (سنة الأجل) لا يستقيم أمرها ولا تتحقق مقاصدها إلى بسنة التدرج وأي استعجال لأي فكرة أو دعوة أو مشروع لا يمكنه أن ينضج وينمو نموا طبيعيا إلا من خلال سنة التدرج. والغزالي في هذه السنة غالبا ما يغرف من نماذج السيرة النبوية الشريفة ويدعوا إلى الاستفادة منها بأنها النموذج الأمثل الصالح القابل للتجدد.

- و من السنن التي أخذت حظا وافرا من التوضيح والتحليل و التدعين سنة التغيير، والتي تأتي أهميتها في زماننا أكثر مما سبقه من أزمنة لأن معالم هذا الدين عند كثير من أتباعه اختلطت والتبست في أذهانهم مفاهيم غريبة عن هذا الدين بل جاء من يتجرأ في الطعن في ثوابت هذا الدين، كما تعالت أصوات تستهدف ضعاف النفوس و تستهويهم في حمئة الرذائل والمفاسد.

و من ثم جاء الغزالي ليؤكد على هذه السنة وأهميتها في حياة الناس لأن من خصائص المنهج الإسلامي لأنه منهج تغييري جاء من اجل التغيير ولا يقبل التعايش مع واقع سيئ ولا يرضى بالترقيع والترميم وأنصاف الحلول هذه في هدفه وغايته السامية. وقاعدة التغيير عند الغزالي تستمد شرعيتها من القرآن الكريم و السنة النبوية، ومجالها العملي النماذج التطبيقية للرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والسلف الصالح.

و قد كان منهجه التغييري يدور في مجلين: مجال داخلي يتعامل مع النفس والعقل والفكر، ومجال خارجي يتعامل مع الواقع دراسة وفهما وتطبيقا، ولا يتحقق هذه التغيير إلا بتكامل هذين المجالين شريطة أن يتوافق مع الهدايات القرآنية وما خبرته التجارب الإنسانية دون الإغفال عن واقع الأمم المعاصرة ومعرفة أسباب نهضتها وقوتها وتطورها

- و من سنن الله في الحياة الإنسانية قانون السببية و الذي حذر فيه الغزالي من مغبة تعطيل الأخذ بهذه القوانين وبين آثارها المدمرة لتعطيل قانون السببية، فقد ترتب على فلسفة الجبر التي عطلت

قانون السببية تخلف أمتنا في عمارة الأرض وانطفاء جذوة التفاعل والعطاء تحت تأثير سيادة التواكل وتعطيل السنن الكونية والنفسية.

- و من السنن التي تناولها الغزالي سنة التداول التي لم تأخذ المكانة المقبولة في حياة الأمة الإسلامية لأن حقيقة هذه السنة وفقهها مرتبط بسنة النصر والتمكين والغزالي كثيرا ما يدعوا إلى دراسة التاريخ الإنساني بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة ليستفيد من سنة التداول.

و الأمة الإسلامية عند ما تخلت عن دورها و وظيفتها ومسؤوليتها جرت عليها سنة التداول فهي ليست استثناء عن نفاذ هذه السنة التي أصابت الأمم السابقة.

- التدافع بين الأمم سنة إلهية ماضية و لقد حازت المساحة الأكبر وأخذت من عمر الغزالي دعوة وفكرا وجهادا، والغزالي بتجربته الثرية وخبرته الطويلة تبين له أن هذه السنة مغيبة في عقول المسلمين وتفعيلها لا يكاد يذكر، و دعوة الغزالي أن آن الأوان لتفعيلها وإخراجها من حالة التغييب إلى دائرة الضوء ونقلها من دائرة التجريد النظري إلى التوظيف العملي. فهو عندما اقترب من الواقع وجد المسلمين يعيشون في غير عصرهم ولا يستوعبون الواقع الذي يعيشون فيه، فوقعت الأمة في حيرة من أمرها عاجزة عن فهم وتفسير الكثير من القضايا والمآسي والمحن التي تحيط بهم اليوم وتحاصرهم من كل جانب وتدفعهم إلى النزاع والخلاف والفرقة وهي من أعظم الأمراض و العلل و أقوى العوائق التي تحول دون حركتهم في الحياة. وقد كانت دعوة الغزالي أن نعرف عصرنا وأن نستوعب واقعنا و أن ندرك ما هي القوى والأفكار والنظريات والعلوم التي تدور في هذه الحياة من أجل أن نستغل ما كان مفيدا ونافعا ومحققا لمصالح الأمة ومقاصدها الكبرى.
- سنة الله في الاستبداد: وقفت في هذه المسألة على ظاهرة الاستبداد وحملة الغزالي الشديدة عليها، كيف لا؟ و هو قد كتب تلك الخواطر وقد تجرع مرارة الاعتقال الذي سقاه إياها الاستبداد و أعوانه وفي عرضه هذه السنة يذكر أن الإسلام لم يعرف حكم الفرد أو الحكم الدكتاتوري بل كانت تعاليمه ومبادئه تدعوا إلى الشورى والرأي الجماعي وذلك كان المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. إلا أن هذه الفسحة الشورية والرأي الجماعي أخذت بالانكماش في العصور اللاحقة وبدأت ملامح الدولة المستبدة تنموا وتتشكل في عصر الدولة الأموية وبدأ التضييق على الحريات والمصادرة أحيانا تتسع دائرتها في العصر

الحديث فأصبحت تشكل خطرا كبيرا على حياة الأمم و الشعوب وعندما عقد مقارنة بين الاستبداد قديما وحديثا تبين له أن الاستبداد قديما أقل ضررا من الاستبداد الحديث هذا الأخير الذي تدخل في أدق شؤون الفرد، فالدولة الحديثة بما تملكه من إمكانات هائلة تستطيع بها أن تؤثر على أفكار الناس وأذواقهم وميولهم عن طريق المؤسسات التعليمية والإعلامية والتثقيفية. ولإضعاف شوكة هذه الظاهرة قدم الغزالي رؤيته الإصلاحية منها الوقاية خير من العلاج، والاستعانة بوسائل مقاومة المستبدين وعلى رأسها قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و التناصر في وجه الظالم واستنهاض المظلوم ليدفع عن نفسه.

- سنة التسخير: من نتائج هذه السنة في نظر الغزالي أن الله عز وجل هيأ الكون للإنسان لأنه مكان العمارة والعبادة والخلافة، فكان أن سخر الله للإنسان هذا الكون لكن هذا التسخير لا يمكن أن يفيد الإنسان منه إلا إذا عرف قوانينه كما يقضي بأن يبذل الإنسان جهده لاكتشاف قوانين هذه المسخرات. إذا كان الله جل شأنه قد سخر الكون للبشر لم يتركه سدا دون توجيه وترشيد فالقرآن الكريم يبصر الإنسان بالكون الذي من حوله على أنه جملة من المظاهر المخلوقة التي أبدعها الله عز وجل وهي مظاهر كلها مسخرة في خدمة الإنسان ومصلحته وحاجاته.

و الملفت للانتباه أن العقل الغربي قد أبدع في اكتشاف قوانين الكون وخصائص مكوناته وحول هذه القوانين إلى تطبيقات عملية وتكنولوجية في حين أن العقل العربي الإسلامي لم يتعامل مع هذه السنن الكونية ولم يسخرها في حياته وفي نظر الغزالي أن من يستحق السيادة والقيادة هو الذي يسخر مظاهر الكون وهذا ما تجسد عمليا للغرب بحيث أصبح يتحكم في العالم كله بما فيه العالم الإسلامي والتحكم بناصيته ومقدرات أموره.

والنهوض من هذه الكبوة في نظر الغزالي أن تجمع الأمة الإسلامية في فقهها وتطبيقاتها بين السنن الكونية والسنن التشريعية.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

أولا: المصادر

القرآن الكريم

كتب الأحاديث الشريفة

كتب التفسير للقرآن الكريم

المعاجم و القواميس

مؤلفات الإمام الغزالي

ثانيا: المراجع

الكتب

الرسائل الجامعية

ثالثا: المقالات و مواقع الإنترنيت

أولا: المصادر

القرآن الكريم

1- المصحف الشريف للقرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.

كتب الحديث الشريف

2- صحيح البخاري – جـ 1.

3- صحيح مسلم – جـ 2.

4- صحيح ابن حبان – جـ 15.

5- الحكام – المستدرك – جـ 3.

6- أبو مسلم بن الحجاج النيسابوري – صحيح مسلم – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – ج 2 – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ص 705.

7- الوجيز في علوم الحديث – المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – الرغاية – الجزائر 1998.

كتب التفسير

8- ابن كثير: الحافظ بن فداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (ت774هـ)– تفسير القرآن العظيم – جـ 2 – مطبعة دار الحديث – القاهرة – ط 2 – 1410هـ 1990م.

9- ابن كثير: الحافظ بن فداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (ت774هـ) – – تفسير القرآن العظيم ج 4 – مطبعة دار الحديث – القاهرة – ط 2 – 1410هـ 1990م.

10- جامع البيان في تأويل القرآن – للإمام الطبري (183/5) – دار المعرفة – بيروت – ط 3 – 1398هـ/1978م.

11- سيد قطب – في ظلال القرآن – ج 1 – ط 9 – دار الشروق – القاهرة، مصر – 1400هـ،–1980م.

12- سيد قطب – في ظلال القرآن – ج 2 – ط 9 – دار الشروق – القاهرة – 1400هـ، 1980م.

13- سيد قطب – في ضلال القرآن – ج 3 – ط 9 – دار الشروق – القاهرة، مصر – 1400هـ،–1980م.

14- سيد قطب – في ضلال القرآن – ج 4 – ط 9 – دار الشروق – القاهرة، مصر – 1400هـ،–1980م.

15- سيد قطب – في ظلال القرآن، (78/5) – ط 7– دار إحياء التراث العربي – بيروت – 1391هـ/1971م.

16- محمد رشيد رضا – تفسير القرآن الحكيم المسمى بـ "تفسير المنار" – ج 1 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 1973م.
17- محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ج1 – دار المعرفة – بيروت، لبنان.
18- أنظر تفسير المنار – ج 7.
19- سيد قطب – في ظلال القرآن – ج 2 - ط 9 – دار الشروق – القاهرة – 1400هـ، 1980م.
20- الإمام الرازي – التفسير الكبير – ط 1 – دار الغد العربي – 1412هـ، 1991م.
21- سيد قطب – في ظلال القرآن مجلد 4 ط 5، دار الشروق القاهرة 1428 هـ 1982م.
22- الفيروز أبادي – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – 169/3.
23- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين – القاموس المحيط – تحقيق مكتب التراث – ج 4 – ط 3 – مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان – 1395هـ.
24- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المالكي – الجامع لأحكام القرآن – 33/16 – أو
25- جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي – تفسير الجلالين – مطبعة مصطفى الباي الحلبي– القاهرة – 43/3.
26- الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسن بن علي الرازي – مفاتيح الغيب – التفسير الكبير – جـ 2 – ط 1 – دار الغد العربي – القاهرة، مصر– د ت.
27- الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن كتاب السنن – تحقيق محمد السيد كيلاني – ط 5 – دار المعرفة – 1403هـ، 1983م.
28- محمد الرَّازي فخر الدين: الفخر الرَّازي – المشتهر بـ "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب" – (49/11–50) – دار الفكر – بيروت – 1404هـ/1994م.
29- أبو حيَّان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي – تفسير البحر المحيط – (354/3) – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة – ط 1 – 1413هـ/1992م.

المعاجم و القواميس

30- إبراهيم أنيس وآخرون – المعجم الفلسفي – ج 1 – ط 2– مجمع اللغة العربية – مصر.
31- ابن فارس – معجم مقاييس اللغة – جـ 4 – ص 442.
32- ابن منظور الإفريقي – لسان العرب – جـ 1 – ط1 – دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان –1413هـ، 1993م.
33- ابن منظور الإفريقي – لسان العرب – جـ 2 – ط1 – دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان – 1413هـ، 1993م.

34- أبو الحسين بن فارس بن زكرياء – معجم مقاييس اللغة – 60/3 – تحقيق عبد السلام محمد هارون – دار الجيل – بيروت – (د ت).
35- أحمد بن الفارس بن زكرياء – معجم مقاييس اللغة – ط 2 – تحقيق و ضبط عبد السلام محمد هارون – ج 3 – شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر – 1389هـ، 1969م.
36- الأزهري: للإمام محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت 370هـ) – تهذيب اللغة – تحقيق عبد السلام محمد هارون و محمد علي النجار – الدار المصرية للتأليف و النشر – (د ت).
37- الأزهري: للإمام محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت 370هـ) – تهذيب اللغة – جـ 98/3.
38- الأزهري: للإمام محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت 370هـ) – تهذيب اللغة – جـ 5.
39- جميل صليبا – المعجم الفلسفي – ج 2 – دار الكتاب اللبناني – بيروت – 1982م. الكفوى – الكليات.
40- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – مختار الصحاح – ج 2– مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – طبعة جديدة – 1415هـ، 1995م.
41- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين – القاموس المحيط – تحقيق مكتب التراث – ج 4 – ط 3 – مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان – 1395هـ.
42- مرتضى الزبيدي – تاج العروس 329/5 – دار صادر – بيروت، لبنان – ط 1– 1306هـ
43- المعجم الوسيط – جـ 1.

مؤلفات الإمام الغزالي

44- محمد الغزالي – ركائز الإيمان بين العقل والقلب – ط 6 – دار الاعتصام – القاهرة – 1399هـ، 1979م.
45- حوار مع الشيخ محمد الغزالي – إعداد دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع – القاهرة – 1996
46- محمد الغزالي – هذا ديننا – دار الكتب – الجزائر – 1988م.
47- محمد الغزالي– الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر – دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة، أم البواقي، الجزائر – 1988م.
48- محمد الغزالي – تراثنا الفكري في ميزان الشرع و العقل – دار المعرفة – باب الوادي، الجزائر – د ت.
49- محمد الغزالي – الحق المر– مكتبة التراث الإسلامي– دار الشهاب باتنة الجزائر– 1987م.
50- محمد الغزالي – من مقالات الشيخ محمد الغزالي – جمع عبد الحميد حسانين حسن– جـ 3 – ط 4 – شركة نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع – يناير 2005م.

51- محمد الغزالي – محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد و المجتمع– جمع و إعداد قطب عبد الحميد قطب – دار رحاب للنشر و الفنون المطبعية – ساحة بور سعيد، الجزائر – 1987م.
52- محمد الغزالي – خلق المسلم– دار الكتب المصرية – عابدين مصر– ط 9 – 1403 هـ، 1983م.
53- أنظر محمد الغزالي بقلمه– موسوعة الخطب – ج 1 – دار الاعتصام – ص 13. المكان التاريخ .
54- محمد الغزالي – هموم داعية – ط 6 – دار نهضة – مصر، القاهرة – 2006م.
55- محمد الغزالي – فتاوى في الدين والحياة – إعداد وتقديم أبو أسامة عمر – خلفه للطباعة والنشر والتوزيع – الجزائر – 2009م.
56- محمد الغزالي – كيف نفهم الإسلام دار الكتب – الجزائر – 1407هـ، 1987م.
57- محمد الغزالي – ليس من الإسلام – ط 1 – دار القلم – دمشق – 1420هـ، 1999م.
58- محمد الغزالي – المحاور الخمسة للقرآن الكريم – دار الهدى للطباعة والنشر – عين مليلة، الجزائر – 1990م.
59- محمد الغزالي– مع الله، دراسات في الدعوة و الدعاة – ط 4 – دار القلم – دمشق – 1421هـ، 2000م.
60- محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – مكتبة رحاب – ساحة بور سعيد، الجزائر – د ت.
61- محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – نوميديا للطباعة والنشر – قسنطينة، الجزائر – 2008م.
62- محمد الغزالي وشهادة التاريخ – إعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية – مراجعة وتقديم محمد عمارة – ط 1 – دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع – الإسكندرية – 1422هـ، 2002م.
63- محمد الغزالي – السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – ط 8 – منشورات دار الكتب – الجزائر – 1990م.
64- محمد الغزالي – تأملات في الدين والحياة – ط 4 – درا نهضة – مصر، القاهرة – 2005م. (كتاب دعا فيه لتحديد الملكيات الكبيرة).
65- محمد الغزالي – سر تأخر العرب المسلمين – دار البعث قسنطينة – 1406هـ، 1986م.
66- محمد الغزالي – كيف نتعامل مع القرآن – دار الرجاء – عنابة، الجزائر– رمضان 1409هـ، 1989م.
67- محمد الغزالي – الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – دار الكتب – الجزائر – 1988م.

68- محمد الغزالي – حديث الاثنين الذي سجل حصصه للإذاعة والتلفزيون الجزائري – جمع و إعداد الأستاذ عبد القادر نور– ط 1 – دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع – رويبة الجزائر– 2011م.
69- محمد الغزالي – فقه السيرة – دار المعرفة – بولوغين، الجزائر – 1999م.
70- محمد الغزالي – من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث – ط 2 – شركة الشهاب للطباعة و النشر – باتنة، الجزائر– 1987م.
71- محمد الغزالي – جدد حياتك – دار القلم – دمشق – ط 13 – 1420هـ، 2000م.
72- محمد الغزالي – قصة حياة (مذكرات الشيخ محمد الغزالي) – دار الرشاد للنشر و التوزيع – قسنطينة، الجزائر – 2006م.
73- محمد الغزالي – حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة – دار الهناء للطباعة والنشر والتوزيع – برج الكيفان، الجزائر – د ت –
74- محمد الغزالي – خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين و الحياة – ج2 – إعداد قطب عبد الحميد قطب – مراجعة الدكتور محمد عاشور – مكتبة رحاب – الجزائر – 1988م.
75- محمد الغزالي – مستقبل الإسلام خارج أرضه – هؤلاء الفرنسيون اختاروا الله... ؟ – مكتبة رحاب – الجزائر – ط 2 – 1409هـ، 1989م.
76- محمد الغزالي – حديث الاثنين الذي سجل حصصه للإذاعة والتلفزيون الجزائري – جمع و إعداد الأستاذ عبد القادر نور– ط 1 – دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع – رويبة الجزائر– 2011م.
77- الإمام محمد الغزالي– عقيدة المسلم – – شركة الشهاب – باتنة، الجزائر – د ت.
78- منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، ثنائية العقل والقلب عند الشيخ محمد الغزالي – مقال لـ عبد الوهاب بوخلخال – دار اليمن للنشر والتوزيع – الجزائر – 2004م.
79- محمد الغزالي – فتاوى في الدين والحياة – إعداد وتقديم الأستاذ أبو أسامة عمر خلفة – نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع – قسنطينة، الجزائر – 2009م.
80- محمد الغزالي – جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج – ط 1 – دار القلم – دمشق – 1421هـ، 2000م.
81- محمد الغزالي – الإسلام والطاقات المعطلة– نشر الزيتونة للإعلام والنشر – باتنة، الجزائر – 1982.
82- محمد الغزالي – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – كتاب الأمة – رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية – دولة قطر – 1402هـ.
83- محمد الغزالي – نظرات في القرآن الكريم – شركة الشهاب – باتنة – الجزائر – د ت.

84- محمد الغزالي – الفساد السياسي في المجتمعات العربية الإسلامية – دار المعرفة بولوغين – الجزائر – 2004م.
85- خطب الشيخ محمد الغزالي في شؤون الدين والحياة – إعداد قطب عبد الحميد قطب – جـ 2 – مكتبة رحاب – الجزائر – 1988م.
86- محمد الغزالي – دفاع عن العقيدة و الشريعة ضد مطاعن المستشرقين – دار السلام للنشر والتوزيع – الجزائر – د ت .
87- العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) – حلقة دراسية – المحرر فتحي حسن مكاوي – عمان – الأردن – 1996م.
88- حوارات الشيخ الغزالي – السيرة والمسيرة – تقديم طه جابر العلواني – ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة، مصر – 1433هـ، 2012م.
89- نجيب بن خيرة – منهج الغزالي في التجديد والإصلاح: نظرات في التاريخ الإسلامي للشيخ محمد الغزالي – دار اليمن للنشر والتوزيع و الإعلام – قسنطينة، الجزائر – 2004م.
90- محمد الغزالي – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – ط 1 – مكتبة رحاب، الجزائر – د ت.
91- محمد الغزالي – مع الله دراسات في الدعوة والداعية – الطبعة الرابعة – دار القلم دمشق – 1421 هـ، 2000م.
92- محمد الغزالي – لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة – إعداد وتقديم الأستاذ أبو أسامة عمر خلفة – نومديا للطباعة والنشر والتوزيع – الجزائر – 1429هـ 2008م.
93- محمد الغزالي – دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، التعصب المذهبي – دار السلام للنشر والتوزيع الوادي – الجزائر– 1401هـ.
94- محمد الغزالي – قذائف الحق – طبعة دار القلم الأولى – دار القلم – دمشق – 1411هـ، 1991م.
95- محمد الغزالي –حقيقة القومية العربية – مكتبة العروبة – القاهرة – د ت.
96- محمد الغزالي – الإسلام و الاستبداد السياسي – تحقيق و تعليق مسعود فلوسي – الطبعة الجزائرية الأولى – دار ريحانة – الجزائر – 1420هـ، 1999م.
97- محمد الغزالي – علل وأدوية – علل و أدوية – د ط – شركة الشهاب – الجزائر – 1986م.
98- خطب الشيخ محمد الغزالي – في شؤون الدنيا والحياة – إعداد قطب عبد الحميد قطب – جـ4.
99- محمد الغزالي – فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة في حوار مع الشيخ محمد الغزالي – دار الشهاب – باتنة، الجزائر – 1981م.
100- محمد الغزالي – علل وأدوية – شركة الشهاب – الجزائر – 1983م.
محمد الغزالي – علل وأدوية – د ط – شركة الشهاب – الجزائر – 1986

101-محمد الغزالي – مائة سؤال عن الإسلام – ج 2 – ط1 – دار ثابت للنشر والتوزيع – القاهرة – 1404هـ 1984م.
102-محمد الغزالي – الإسلام المفترى بين الشيوعيين والرأسماليين – دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة، الجزائر – 1991م.
103-محمد الغزالي – ظلام من الغرب – دار الشهاب – باتنة – 1986م.
104-أحمد الغزالي – الطريق من هنا -- دار الكتب – الجزائر – 1986م.
105-أحمد الغزالي – نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – ط 13 – دار الشروق – القاهرة – 2011م.
106-محمد الغزالي – الإسلام و المناهج الاشتراكية – ط 4 – نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع – 2005.
107-محمد الغزالي – دفاع عن العقيدة و الشريعة – دار السلام للنشر والتوزيع – الجزائر – د ت.
108-محمد الغزالي – الإسلام والطاقات المعطلة– نشر الزيتونة للإعلام والنشر – باتنة، الجزائر – 1982.
109-محمد الغزالي – فقه الدعوة الإسلامية و مشكلة الدعاة – في حوار مع الشيخ محمد الغزالي – رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية – مطابع الدوحة الحديثة – قطر – 1404هـ.

ثانيا: المراجع و هي على نوعين؛ الكتب و الرسائل الجامعية

الكتب

110-ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة – جـ 9.
111-أبو محمد الحسين بن مسعود الفرَّاء البغوي – معالم التنزيل – (482/1) – تحقيق خالد العك ومروان سوار – دار المعرفة – بيروت – ط 2 – 1407هـ/1987م.
112-أبو حامد الغزالي بن محمد الغزالي – المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى – تحقيق فضلة شحادة – دار المشرق – بيروت.
113-أبي الحسن على بن محمد الجرجاني – التعريفات 166/1 – تحقيق إبراهيم الابياري – ط 1 – دار الكتاب العربي – بيروت – 1405هـ، 1985م.
114-أحمد بن محمد الفيومي (الإمام: ت 770هـ) – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي – المكتبة العلمية – بيروت – د ت.
115-أحمد محمد كنعان – أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق – ط1 – كتاب الأمة دار الكتاب القطرية – 1990م.

116-أحمد عرفات القاضي – تجديد الخطاب الديني – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 2008م.
117-أحمد بن إدريس القرافي (شهاب الدين أبو العباس) - شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول – تحقيق : مكتب البحوث والدراسات بدار الفكر - دار الفكر - لبنان - 1424هـ، 2004م.
118-إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين – ط 1 - دار الثقافة – بيروت – 1962.
119-الزركشي - البحر المحيط في أصول الفقه – جـ 1 –.
120-السعادات الجزري - النهاية في غريب الحديث والأثر - حرف العين المعجمة – (باب الغين مع الراء).
121-الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسن بن علي الرازي - مفاتيح الغيب - التفسير الكبير – جـ 3 – ط 1 – دار الغد العربي – القاهرة، مصر– د ت.
122-الطبري - غرائب القرآن ورغائب القرآن، بهامش "جامع البيان" للطبري أعلاه، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي النيسابوري (ت 406) (14/10).
123-الماوردي - الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي - تحقيق علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود - دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان - الطبعة الأولى - 1419 هـ -1999 م عدد الأجزاء 19.
124-جار الله الزمخشري – أساس البلاغة – ط 1 – القاهرة – 1372هـ، 1953م.
125-حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي الديني الثقافي الاجتماعي – ج 2 – ط 15 – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – 1422هـ، 2001م.
126-حسن عبد الحميد أحمد رشوان – التغيير الاجتماعي و المجتمع – درا الهناء للتجليد الفني – القاهرة – 2008م.
127-خير الدين هنى – الصهيونية وجه آخر للصليبية – ط 1 – دار مداني للطباعة و النشر و التوزيع – الجزائر – 2003م.
128-ديل كارينجي: صاحب الكتاب المعروف "دع القلق وابدأ الحياة".
129-راشد سعيد شهوان - السنن الربانية في التصور الإسلامي – ج 1 - ط1 - الأكاديميون للنشر و التوزيع – عمان، الأردن - 1430 هـ، 2009م.
130-راشد سعيد شهوان - السنن الربانية في التصور الإسلامي – ج 2 - ط1 - الأكاديميون للنشر و التوزيع – عمان، الأردن - 1430 هـ، 2009م.
131-رمضان خميس زكي - مفهوم السنن الربانية - ط 1 - مكتبة الشروق الدولية – القاهرة - 1427هـ، يناير 2006م.

132-سفيان ابن الشيخ– سنن الله في الخلق بين السنن الاجتماعية و السنن الكونية – ديوان المطبوعات الجامعية – المطبعة الجهوية – قسنطينة – د ت.
133-سيد قطب – هذا الدين – ط 14 – القاهرة – 1412هـ، 1992م.
134-صلاح الصاوي –الثوابت و المتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر– ط 1– منشورات دار قرطبة للنشر و التوزيع– 2003م.
135-طه جابر العلواني – إصلاح الفكر الإسلامي – المعهد العالي للفكر الإسلامي– دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع – عين مليلة، الجزائر– 1991م.
136-عبد الإله بلقزيز – الخطاب الإصلاحي في المغرب –التكوين والمصادر ط 1 –دار المنتخب العربي – بيروت، لبنان – 1417هـ، 1997م –
137-عبد الحليم عويس – الشيخ محمد الغزالي تاريخه وجهوده وآراؤه – ط 1 – دار القلم – دمشق – 1421هـ، 2000م.
138-عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد –كلمات عربية للترجمة والنشر – القاهرة، مصر – 2011م.
139-عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (109/14)، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجلدات التفسير، طبعه خادم الحرمَين الشريفين بإشراف المكتب العلمي السعودي بالمغرب.
140-عبد العزيز انميرات – مفهوم الفكر الإسلامي، مقاربة تأصيلية – ملحق الفكر الإسلامي لجريدة العلم – 1997/01/10 – السنة 6.
141-عبد العزيز انميرات – مفهوم الفكر الإسلامي، مساهمة نقدية – ملحق الفكر الإسلامي لجريدة العلم – ع 23/68 – مارس 1993.
142-عبد الكريم زيدان – السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية – ط 3 - مؤسسة الرسالة – دمشق - 1419هـ-1998م.
143-عبيد الله بن مسعود المحبوبي – التوضيح في حلّ غوامض التنقيح – جـ 1.
144-عدنان علي رضا النحوي – لقاء المؤمنين – ج 2 – ط 2 – دار الشهاب للطباعة و النشر – باتنة، الجزائر – 1987م.
145-علاء الدين البخاري – كشف الأسرار – جـ 1.
146-علاء محمد الغزالي – السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي – بحث منشور ضمن كتاب العطاء الفكري للشيخ الغزالي – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن.
147-علي محمد الصلابي – فقه النصر والتمكين في القرآن – ط 1 – مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة القاهرة – 1428هـ، 2006م.

148-عماد الدين خليل – التفسير الإسلامي للتاريخ – ط 1 – دار العلم للملايين – بيروت – 1975م.
149-عماد الدين خليل – التفسير الإسلامي للتاريخ – دار العلم للملايين – بيروت – 1981م.
150-عماد الدين خليل – أصول تشكيل العقل المسلم – دار ابن كثير للطباعة و النشر والتوزيع – دمشق – بيروت – 1426هـ، 2005م.
151-عمار جيدل – منهج الشيخ محمد الغزالي في التجديد والإصلاح، دور الشيخ الغزالي في ترشيد الواقع الإسلامي – دار اليمن للنشر والتوزيع و الإعلام – قسنطينة، الجزائر – 2004م.
152-عمر فروخ – كلمة في التعليل التاريخ – ط 3 – دار العلم للملايين – بيروت – 1397هـ 1977م.
153-عمر عبيد حسنة – حتى لا تكون فتنة – المكتب الإسلامي – دمشق – ط 1 – 1415هـ، 1994م
154-عمر عبيد حسنة – على طريق الشهود– ط – المكتب الإسلامي – بيروت – 1422هـ،2001م.
155-فتحي حسن ملكاوي – العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي – حلقة دراسية – ط 1– المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الأردن – 1996.
156-فتحي يكن – الشباب والتغير – شركة الشهاب للنشر والتوزيع – باب الواد، الجزائر – 1989م.
157-مجدي عبد المعطي البطل – الشيخ الغزالي وحصاد نصف قرن – دار النشر – القاهرة – 2007م.
158-مجدي محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في الأمم و الأفراد – ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، مصر –1427هـ، 2006م.
159-مجدى محمد محمد عاشور – السنن الإلهية في القرآن الكريم، أصول و ضوابط – ط1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – القاهرة، مصر – 1427هـ، 2006م.
160-محمد أبو الفتوح البيانوني – المدخل إلى علم الدعوة – ط 3 – مؤسسة الرسالة – القاهرة – 1395هـ.
161-محمد التومي – المجتمع الإنساني في القرآن الكريم – الدار التونسية للنشر – تونس – المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر – ربيع الثاني 1407هـ، 1986م.
162-محمد السيد محمد يوسف – التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم – ط 3 – دار السلام – القاهرة – 1422هـ، 2003م.
163-محمد الصادق عرجون – سنن الله في المجتمع من خلال القرآن – ط 3 – الدار السعودية – 1404هـ، 1984م.

164-محمد الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – جـ2 – الجلى، مصر – 1394هـ، 1964م.
165-محمد المجذوب – علماء ومفكرون عرفتهم – ج 1 – ط 4 – دار الشواف – القاهرة – 1992م.
166-محمد حسين نصار – الأجل في الفقه الإسلامي – ط 1 – المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية – مطبعة نكار – إيران – 1428هـ، 2007م.
167-محمد حسن هيتو – الوجيز في أصول التشريع الإسلامي – مؤسسة الرسالة ناشرون – ط 1 – 2006.
168-محمد زكي الدين محمد قاسم – الدعوة إلى الله فقها ومنهجا – جـ 1 – ط 2 – دار الصحوة للطباعة والنشر والتوزيع – مصر 1413هـ، 1993م.
169-محمد سعيد رمضان البوطي – من المسؤول عن تخلف المسلمين – دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر – باتنة – دت.
170-محمد سيد محمد – المسؤولية الإعلامية في الإسلام – ط 1 – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1403هـ، 1983م.
171-محمد قطب– حول التفسير الإسلامي للتاريخ – ط 3 – المجموعة الإسلامية – بدون تاريخ.
172-محمد قطب – واقعنا المعاصر – المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – وحدة الرغاية، الجزائر – 1989م.
173-محمد محمد حسين – الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر – ط 3 – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت، لبنان – 1972.
174-محمد عمارة – الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية – ط 1 – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – الإسكندرية – القاهرة – 1430هـ، 2009م.
175-محمد عمارة – فقه المواجهة بين الغرب و الإسلام – ط 1 – مكتبة الشروق الدولية – القاهرة – 1423هـ، 2003م.
176-محمد عمارة – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – ج 5 – دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة – طبعة بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر –1972م.
177-محمد هيشور – سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها – ط 1 – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع –مصر –1417هـ، 1997م
178-محمود عبده – محمد الغزالي داعية النهضة الإسلامية – ط 1 – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت – 2009م.
179-مسعود فلوسي – الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث – ط1 – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – 1421هـ، 2000م.

180-مصطفى السباعي – السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي – طبعة 2 – المكتب الإسلامي – دمشق –1298ه 1978 م.
181-معن زيادة – الموسوعة الفلسفية العربية – جـ 1 – ط 1 – معهد الإنماء العربي – بيروت لبنان – 1988م.
182-منير شفيق – الإسلام و تحريات الانحطاط المعاصر – ط – دار طه للنشر –لندن – 1403ه، 1983م.
183-نخبة من الباحثين السوفييت – الموسوعة الفلسفية – ترجمة سمير كرم – الطبعة 6 – دار الطليعة – بيروت – 1987.
184-وهبة الزحيلي – الفقه الإسلامي وأدلته – ج 1 – ط 4 – دار الفكر – دمشق، سوريا – 1997.
185-ياقوت الحموي أبو عبد الله ابن ياقوت عبد الله– معجم البلدان – دار الفكر – بيروت – 74/5.
186-يوسف القرضاوي – الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن – ط1 – مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، لبنان – 1421ه، 2001م.
187-يوسف القرضاوي – الخصائص العامة للإسلام – مكتبة وهبة – القاهرة.
188-يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود و التطرف – ط 3 – رئاسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية – قطر – شوال 1402 ه.
189-يوسف القرضاوي – الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف – ط 3 – كتاب الأمة – رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية قطر – الشهاب للطباعة والنشر – باتنة، الجزائر– شوال 1402.
190-يوسف القرضاوي – الحل الإسلامي فريضة و ضرورة – ط 3 – مكتبة وهبة – القاهرة – 1397ه، 1977م.
191-يوسف القرضاوي – الوقت في حياة المسلم – دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة الجزائر – د ت.

الرسائل الجامعية

192-إبراهيم نويري – الشيخ محمد الغزالي مفكر وداعية – بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الدعوة والإعلام الإسلامي – جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة – 1419/1418ه، 1999/1998م.

193-حسين شرفة – سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب و السنة – أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتواره الدولة في العلوم الإسلامية، تخصص كتاب و سنة – إشراف أحمد رحماني – جامعة باتنة – السنة الجامعية 1425/1424هـ، 2004/2003م.

194-عمر حدوسي – التدافع وسننه في القرآن الكريم – رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية – السنة الجامعية 2002/2001.

195-نادية يوسف – أزمة التخلف الحضاري في العالم الإسلامي، دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي – مذكرة مقدمة لنيل ماجستير في الدعوة و الإعلام – جامعة باتنة – السنة الجامعية 1427/1426هـ، 2006/2005م.

ثالثا: المقالات و مواقع الإنترنيت

196-محمد محفوظ – في البدء كانت الأمة، جدلية الأمة والدولة في الفكر الإسلامي المعاصر – مجلة الكلمة – مجلة فكرية ثقافية تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث – العدد 22 – السنة السادسة – 1420هـ، 1999م.

197-محمد محفوظ – سؤال الحرية في الفكر الإسلامي المعاصر، مجلة الكلمة، مجلة فكرية ثقافية إسلامية – العدد 24 – السنة السادسة – 1420هـ، 1999م.

198-فتحي يكن – فقه التسخير – موقع: http://www.ikhwanwayonline.workpress.com يتاريخ 2013/03/20.

199-فتحي يكن – مقالة بعنوان فقه التسخير منشورة في موقع دعوة نت – بتاريخ 13 يونيو 2009 – http://www.ikhwanwayonline.wordpress.com/2009/06/13 يوم 2013/03/20.

200-محمد عمارة – سنة التدرج في الإصلاح – دراسات إسلامية – مقالة بمجلة حراء – العدد 10 يناير–مارس 2008. نشرت بموقع حراء – http://www.hiramagazine.com/archives/title/214. 2013/07/20.

الفهارس

فهرس الآيات الكريمة

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الموضوعات

فهرس الآيات الكريمة

آيـات سورة البقرة	الرقم	الصفحة
﴿و إذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك...﴾	124	82
﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾	134	338
﴿...وكذالك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على...﴾	143	88-80
﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ ...﴾	184	199
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ... ﴾	189	199
﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله...﴾	190	159
﴿يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة...لكم عدو مبين﴾	208	159
﴿...و لا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله...﴾	235	202
﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾	244	159
﴿...و لو لا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت...﴾	251	97-94
﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من ...لها والله سميع عليم﴾	256	173-164
﴿...واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله...﴾	281	202

آيـات سورة آل عمران	الرقم	الصفحة
﴿...هنَّ أُمُّ الكتاب...﴾	7	245
﴿... وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم...﴾	19	279
﴿...إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾	47	73
﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر قال... واشهد بأنا مسلمون﴾	52	196
﴿...وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة...﴾	55	200
﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما ...﴾	79	70
﴿...ليس لك من الأمر شئ...﴾	128	77
﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة...﴾	137	-83-63 379-138
﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا...﴾	140-137	182

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون...*نداولها بين الناس...﴾	140-139	-188 190-189
﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم...الله لا يحب الظالمين﴾	140	181
﴿...حتى إذا فشلتم و تنازعتم في الأمر وعصيتم...﴾	152	73
﴿...قل هو من عند أنفسكم...﴾	165	199
﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنا هذا قل...﴾	165	-73-39 189
﴿ذلك بما قدمتَ أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾	182	231
﴿إن في خلق السموات و الأرض واختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب...﴾	191-190	360

آيـات سورة النساء	الرقم	الصفحة
﴿...يريد الله لبين لكم و يهديكم سنن الذين من قبلكم...﴾	26	75
﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثباتا أو انفروا جميعا﴾	71	225
﴿ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾	78	18
﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهمُ الصلاة فلتقم طائفة منهم...﴾	102	225
﴿ود الذي كفروا لو تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلوا عليكم ميلة واحدة﴾	102	232
﴿... إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُومِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾	103	199
﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾	103	341
﴿...وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ...﴾	119	253
﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سؤ يجز به...﴾	123	86-67

آيـات سورة المائدة	الرقم	الصفحة
﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكمُ الإسلام دينا...﴾	3	245-202
﴿...ولا يجرمنكم شنأن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى...﴾	8	279
﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق...﴾	18	73-72

آيـات سورة الأنعام	الرقم	الصفحة
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلا...ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾	2	199
﴿وَقَالُوا لوْ لاَ أُنْزِلَ عليْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾	8	200

﴿...أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات و الأرض ...﴾	14	70
﴿...و هو القاهر فوق عباده و هو الحكيم الخبير﴾	18	73
﴿و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر و البحر...﴾	97	361
﴿و كذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾	129	141
﴿قل أغير الله أبغي ربا و هو رب كل شيء...﴾	164	70

آيات سورة الأعراف	الرقم	الصفحة
﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾	10	361
﴿وَلِكُل أُمة أجل فإذا جاء أجلُهُم ... ساعةً ولا يستقدمونَ﴾	34	200
﴿إن ربكمُ اللهُ الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام...﴾	54	239

آيات سورة الأنفال	الرقم	الصفحة
﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون ... لعلكم تشكرون﴾	26	216
﴿...ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...﴾	46	175
﴿ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد كدأب...﴾	52-51	356-82
﴿...ذالك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد...﴾	53-51	83
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى...﴾	53	254-251
﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به...﴾	60	-161-160-100 340-236
﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو...﴾	61	159

آيات سورة التوبة	الرقم	الصفحة
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ ...﴾	122	20-19

آيات سورة يونس	الرقم	الصفحات
﴿وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمُ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ...﴾	46	152
﴿...لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا ... ولا يستقدمون﴾	49	202

﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله ... كره المجرمون﴾	82-81	192
﴿قل انظروا ما في السماوات و الأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾	101	353-326

آيات سورة هود	الرقم	الصفحات
﴿ألرَ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾	1	74
﴿...هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾	61	377-362
﴿...قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول...﴾	91	19-18
﴿وَلوْ شاء ربُّك لجَعل الناس أمة واحدةً ولا يزالون مُخْتَلِفِينَ﴾	118	205

آيات سورة يوسف	الرقم	الصفحة
﴿...لا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا ...﴾	87	81
﴿...أنه من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾	90	81

آيات سورة الرعد	الرقم	الصفحة
﴿...وكل شيء عنده بمقدار﴾	8	325
﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾	11	-241-150-82 261-257-256
﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ...﴾	11	255
﴿...إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه و ما هو ببالغه وما...﴾	14	222
﴿...كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الزبد فيذهب...﴾	17	97
﴿...و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو...﴾	31	109

آيات سورة إبراهيم	الرقم	الصفحة
﴿و سخر لكم الشمس والقمر...﴾	33	323
﴿و سخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار* وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها...﴾	34-33	340
آيات سورة الحجر	**الرقم**	**الصفحة**
﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾	5	202
﴿وَإِن من شيء إلا عِنْدنا خَزَائِنُهُ وما نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُوم﴾	21	2165

﴿إلى يَومِ الوَقْتِ المعْلُومِ﴾	38	204
﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق...﴾	85	77

آيـات سورة النحل	الرقم	الصفحة
﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات...﴾	12	327
﴿و قال الذين أشركوا لو شاء الله...الرسل إلا البلاغ المبين﴾	35	234
﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ...﴾	125	172

آيـات سورة الإسراء	الرقم	الصفحة
﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين...﴾	4-3	356
﴿و جعلنا الليل و النهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية...﴾	12	361
﴿كلاّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾	20	340
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل...﴾	36	333
﴿و قُرآنا فرقناهُ لتقرأه على الناس على مُكُث ونزلناه تنزيلا﴾	106	241

آيـات سورة الكهف	الرقم	الصفحة
﴿إنّا مَكّنا لهُ في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا* فاتّبع سببا...﴾	85-84	223

آيـات سورة طه	الرقم	الصفحة
﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾	28-27	19
﴿قال ربُّنا الذي أعْطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾	50	220
﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا و نحشره يوْمَ القيامَةِ أعْمَى﴾	124	1-356-369

آيـات سورة الأنبياء	الرقم	الصفحة
﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين*لو أردنا...﴾	18-16	77
﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾	18	97
﴿...أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾	105	377
﴿وَمَا أَرْسلنَاكَ إِلاَّ رحمةً لِلْعَالمينَ﴾	107	200

آيـات سورة الحج	الرقم	الصفحة
﴿...و لو لا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت...﴾	40	94
﴿أَفَلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها...﴾	46	186
﴿...يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمُ ءَايَاتِنَا...﴾	72	162

آيـات سورة المؤمنون	الرقم	الصفحة
﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستاخِرُون﴾	43	202
﴿ثم أرسلنا رُسُلَنَا تَتْرا كلَّ ما جاء أُمَّةً رسولها كذبوه ...﴾	44	83

آيـات سورة الفرقان	الرقم	الصفحة
﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾	30	89
﴿و لقد أتوا على القرية التي أُمطِرت مطر السوء ...﴾	40	189
﴿و هو الذي جعل لكم الليل و النهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكر أو...﴾	62	340

آيـات سورة النمل	الرقم	الصفحة
﴿وَقُلِ الحمد لله سَيُرِيكُم آياتِه...وما ربك بغافل عما تعملون﴾	93	190

آيـات سورة القصص	الرقم	الصفحة
﴿قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت...﴾	28	198
﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في ...﴾	83	81

آيـات سورة العنكبوت	الرقم	الصفحة
﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ... وَ لَيَعْلَمَنّ الكاذِبين﴾	3-2	125
﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه...﴾	6	251
﴿ويستعجلونك بالعذاب ولو لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُم العَذَابُ...﴾	53	205

آيـات سورة الروم	الرقم	الصفحة
﴿...فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾	30	253

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلُ كان أكثرهم مشركين﴾	41	380
﴿ويوم تقوم الساعة يقسم...في كتاب الله إلى يوم البعث...﴾	56-55	195

آيات سورة لقمان	الرقم	الصفحات
﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة و باطنةً ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى و لا كتاب منير﴾	20	324-323-322

آيات سورة السجدة	الرقم	الصفحات
﴿وجعلنا منهم أمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾	24	124-82

آيات سورة الأحزاب	الرقم	الصفحة
﴿يأيها النبي إنا أرسلناك شاهد ومبشرا ونذيرا* وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾	46-45	261
﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾	62	71

آيات سورة فاطر	الرقم	الصفحة
﴿...فلن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا﴾	43	71

آيات سورة فُصلت	الرقم	الصفحات
﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق...على كل شيء شهيد﴾	53	360-323-198

آيات سورة الزخرف	الرقم	الصفحة
﴿...ليتخذ بعضكم بعضا سخريا...﴾	32	323

آيات سورة الجاثية	الرقم	الصفحة
﴿و سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعا منه ...﴾	13	321

آيات سورة الأحقاف	الرقم	الصفحة
﴿و أذكر أخ عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف و قد خلت...﴾	21	64

آيـات سورة محمد	الرقم	الصفحة
﴿...ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا...﴾	4	97
﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين...﴾	10	64

آيـات سورة الذاريات	الرقم	الصفحات
﴿وفي الأرض آيات للموقنين* و في أنفسكم أفلا تبصرون﴾	21-20	324
﴿وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدوني﴾	56	362-322

آيـات سورة القمر	الرقم	الصفحة
﴿...وكل أمر مستقر﴾	3	71
﴿إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر﴾	49	328

آيـات سورة الرحمان	الرقم	الصفحة
﴿و النجم و الشجر يسجدان﴾	6	222

آيـات سورة الحشر	الرقم	الصفحة
﴿...فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾	2	17
﴿ما أفاءَ الله على رسولِه من أهل القرى فلله وللرسول...﴾	7	181

آيـات سورة الطلاق	الرقم	الصفحة
﴿...قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾	3	325

آيـات سورة الملك	الرقم	الصفحة
﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه وإليه النشور﴾	15	100-236
﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون﴾	23	325

آيـات سورة القلم	الرقم	الصفحة
﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ...﴾	44	240

آيـات سورة المزمل	الرقم	الصفحة
﴿...واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا* رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾	9-8	226

آيـات سورة الشمس	الرقم	الصفحة
﴿ونفس و ما سواها(7) فألهنها فجورها ...خاب من دساها﴾	10–7	98

آيـات سورة العلق	الرقم	الصفحة
﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾	1	205
﴿كلا إن الإنسان ليطغى* أن رءاه استغنى﴾	7-6	272

آيـات سورة العصر	الصفحة
﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾	342

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث	الصفحة
{اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل}	19
{من يُرِدِ الله بهِ خيْراً يفقِّههُ في الدّين}	19
{والله ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولن يبقى أهل بدر ولا وبر إلا دخلوا في الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل}	200
{ما مِن قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقْدرون أن يغيِّروا فلا يغيرون، إلاَّ أصابَهم الله بعقاب}	258
{ ما مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أو يُنَصِّرَانِه أو يُمَجِّسَانِه }	260
{إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتُغِيَ به وَجْهُه}	273
{إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب}	297
{الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني}	341

فهرس الموضوعات

المقدمة..... 1
إشكالية البحث..... 5
أسباب اختيار الموضوع..... 6
الدراسات السابقة..... 7
خطة البحث..... 13
منهج البحث..... 16
أهداف البحث..... 17
مصطلحات البحث..... 18
صعوبات البحث..... 26

الفصل التمهيدي

تمهيد..... 29
المبحث الأول: محمد الغزالي السيرة الذاتية والمسار الفكري والدعوي..... 30
المطلب الأول: حياة الشيخ محمد الغزالي..... 30
الفرع الأول: كنيته و مولده ونشأته..... 30
الفرع الثاني: تعليمه في الأزهر..... 31
الفرع الثالث: انضمام الغزالي إلى جماعة الإخوان المسلمين..... 31
الفرع الرابع: حياته في المعتقل..... 33
الفرع الخامس: خروجه من الجماعة..... 34
المطلب الثاني: علاقة الغزالي مع رؤساء مصر..... 34
الفرع الأول: في عهد الرئيس جمال عبد الناصر..... 34
الفرع الثاني: الشيخ الغزالي والسادات..... 36
المطلب الثالث: عمل الغزالي في حقل الدعوة..... 38
الفرع الأول: جهود الغزالي الدعوية خارج مصر..... 38
الفرع الثاني: الغزالي و ما جاد به في الجزائر..... 39
الفرع الثالث: تكريم الشيخ الغزالي إكبارا لجهوده في نشر العلم والمعرفة الإسلامية..... 42
المطلب الرابع: وفاة الشيخ الغزالي..... 43

المبحث الثاني: ركائز المشروع الفكري والدعوى عند الشيخ **محمد الغزالي** 44
المطلب الأول: ركائز المشروع.....44
الفرع الأول: القرآن الكريم.....44
الفرع الثاني: السنة.....47
الفرع الثالث: التاريخ.....48
الفرع الرابع: الثقافة الإسلامية.....50
الفرع الخامس: الثقافة الإنسانية.....51
الفرع السادس: الواقع.....53
المطلب الثاني: شمول الإسلام و العقل.....55
الفرع الأول: شمول الإسلام.....55
الفرع الثاني: العقل و مكانته عند الغزال.....56
الفرع الثالث: جمعه بين العقل والنقل.....57
المبحث الثالث: تعريف السنة و خصائص السنن الإلهية و حاجة المسلمين إلى السنن 60
المطلب الأول: السنة لغة و اصطلاحا.....60
الفرع الأول: السنة لغة.....60
الفرع الثاني: السنة اصطلاحا.....62
المطلب الثاني: خصائص السنن الإلهية.....69
الفرع الأول: الربانية.....69
الفرع الثاني: الثبات و الاطراد.....71
الفرع الثالث: العموم و الشمول.....72
الفرع الرابع: النفاذ و عدم التخلف.....73
المطلب الثالث: حاجة المسلمين للسنن الإلهية.....75
الفرع الأول: الحاجة لفهم السنن القرآنية.....75
الفرع الثاني: حاجة المسلمين لفهم السنن والتعامل معها.....75
الفرع الثالث: حاجة المفكر المسلم لإدراك السنن الإلهية.....79

الفصل الأول: سنة التدافع

تمهيد 91
المبحث الأول: سنة التدافع بين التوازن والاستقامة 93
المطلب الأول: سنة التدافع لغة و اصطلاحا 93
الفرع الأول: سنة التدافع لغة 93
الفرع الثاني: سنة التدافع اصطلاحا 93
الفرع الثالث: سنة التدافع في القرآن الكريم 94
الفرع الرابع: سنة التدافع عند الغزالي 95
المطلب الثاني: دعوة الغزالي إلى امتلاك مصادر القوة و الانتفاع من السنة وتجارب الغير 100
الفرع الأول: دعوة الغزالي إلى امتلاك مصادر القوة 100
الفرع الثاني: الاستفادة من سنة التدافع 104
الفرع الثالث: الانتفاع بتجارب الآخرين و الاستفادة من منجزاتهم في ظل التدافع 107
الفرع الرابع: إحياء سنة المدافعة من خلال التجارب و الخبرات السابقة 108
المطلب الثالث: محاولة إبعاد الإسلام و معاييره عن التداول 110
الفرع الأول: محاربة الإسلام و إبعاده عن العقول و النفوس و نفيه عن الحضارة 110
الفرع الثاني: المفهوم الغربي للتدافع 114
الفرع الثالث: تدافع أم صراع و تصادم 115
المطلب الرابع: تفعيل سنة التدافع 116
الفرع الأول: المدافعة عامل قوي لإنهاض الأمة و تحريكها 116
الفرع الثاني: سنة التدافع تحفيز للطاقات و شحذ للهمم 118
الفرع الثالث: سنة التدافع تحفيز للطاقات و قدرة على تحريكها و تفعيلها 120
المبحث الثاني: ضرورة الاقتباس من منجزات الحضارة الغربية 125
المطلب الأول: التعامل مع منجزات الغرب بعقلانية و تفتح 125
المطلب الثاني: التدافع لاستغلال ما بين الجبهات المتصارعة 128
المطلب الثالث: سنة التدافع حصانة لكيان الأمة 132

الفرع الأول: سنة التدافع بين الإفراط و التفريط..... 132
الفرع الثاني: تحصين الجبهة في حسن التعامل مع سنة المدافعة..... 133
المطلب الرابع: نماذج عملية لسنة المدافعة..... 136
المطلب الخامس: تعاملوا مع سنة المدافعة فتفوقوا..... 144
المبحث الثالث: الإسلام مصدر قوة الأمة و بقاؤها..... 150
المطلب الأول: دعوة الغزالي إلى مراجعة تفكيرنا الديني..... 150
الفرع الأول: مراجعة لا رجوع..... 150
الفرع الثاني: بالتخطيط والبناء تتحقق سنة التدافع..... 155
الفرع الثالث: الجهاد أحد ركائز سنة التدافع..... 158
المطلب الثاني: سنة التدافع و الحوار..... 162
الفرع الأول: الحوار البناء سبيل لتحقيق سنة التدافع..... 162
الفرع الثاني: الحوار البناء يتحقق في كنف الحرية..... 163
المطلب الثالث: غياب الحريات في الفضاء العربي و الإسلامي..... 167
الفرع الأول: الاستبداد يعيق تطور المجتمع..... 167
الفرع الثاني: معارك الغزالي الفكرية وتصديه لأعداء الأمة..... 168
الفرع الثالث: مرتكزات الحوار عند الغزالي..... 170
الفرع الرابع: بالحوار تحل كل أشكال النزاعات والخلافات..... 172
خاتمة..... 174

الفصل الثاني: سنن التداول، الأجل و السببية

المبحث الأول: سنة التداول..... 179
مقدمة..... 179
المطلب الأول: مفهوم سنة التداول..... 180
الفرع الأول: تعريف التداول لغة..... 180
الفرع الثاني: تعريف التداول اصطلاحا..... 181
المطلب الثاني: القصص القرآني و سنة التداول..... 182

الفرع الأول: سنة التداول عند الغزالي 182
الفرع الثاني: الاستفادة من توجيهات القرآن من خلال قصصه 183
الفرع الثالث: دراسة التاريخ سبيل لمعرفة سنن الله 184
الفرع الرابع: خصوصية دراسة التاريخ الإسلامي 186
المطلب الثالث: سنة التداول الحضاري (التنقل الحضاري) 188
الفرع الأول: للحضارات أعمار 188
الفرع الثاني: أثر سنة التداول في تبصير المسلمين 189
الفرع الثالث: أمة العقيدة لا تجري عليها ذات السنن التي تجري على الجاهليات 191
الفرع الرابع: الأمل في عودة الأمة إلى مكانتها في ظل سنة التداول 193
الفرع الخامس: شواهد من القرآن والسنة ببعث الحضارة الإسلامية 195
المبحث الثاني: سنة الأجل 197
مقدمة 197
المطلب الأول: سنة الأجل و الدعوة 197
الفرع الأول: سنة الأجل لغة و اصطلاحا 197
الفرع الثاني: لكل أمة اجل 199
الفرع الثالث: التكامل بين سنة الأجل و سنة التدرج 200
الفرع الرابع: الدعوة بين الاستعجال و سنة الأجل 201
الفرع الخامس: التنوع والاختلاف و احترام المراحل 205
الفرع السادس: الصبر تدرج في سنن الأجل 206
الفرع السابع: أسباب داخلية و أسباب خارجية أذنت بسنن الفشل 208
المطلب الثاني: الشروط السننية للنجاح 210
الفرع الأول: تفعيل الدعوة لبعث الأمة 210
الفرع الثاني: ارتباط الدعوة إلى الله بالتمكين 213
الفرع الثالث: الشورى مبدأ سنني 214
المطلب الثالث: البذور النبوية للحضارة الإسلامية 215
الفرع الأول: الأفكار و التغيير و شروط النهضة 215
الفرع الثاني: التدرج التربوي في نشأة النهضة 217

الفرع الثالث: تضييع فن الكلام من أسباب الفشل..... 219
الفرع الرابع: شروط الأهلية السننية..... 220
المبحث الثالث: قانون السببية 222
مقدمة 222
المطلب الأول: تعريف السببية و أهميتها في الإسلام..... 223
الفرع الأول: تعريف السببية لغة واصطلاحا 223
الفرع الثاني: حديث الغزالي عن قانون السببية 224
الفرع الثالث: الأخذ بالأسباب عبادة ومخالفتها غفلة وجهل..... 227
الفرع الرابع: أثر النظر إلى الأسباب في الفكر الإسلامي 228
المطلب الثاني: المسلمون و قانون السببية..... 229
الفرع الأول: من أسباب تخلف العالم الإسلامي 229
الفرع الثاني: تصحيح الفهم الخاطئ لقانون السببية 231
الفرع الثالث: لا تناقض بين القضاء والقدر و قانون السببية 232
الفرع الرابع: شيوع مبدأ الجبرية مناف لقانون السببية..... 233
الفرع الخامس: الاستفادة من تجارب الآخرين في علوم الكون..... 235
الفرع السادس: الدعوة إلى الاقتداء بالمسلمين الأوائل في الأخذ بالأسباب 236

الفصل الثالث: سنتا التدرج و التغيير

المبحث الأول: سنة التدرج 239
مقدمة 239
المطلب الأول: التدرج سنة إلهية في الكون والاجتماع 239
الفرع الأول: تعريف سنة التغيير لغة و اصطلاحا 239
الفرع الثاني: التدرج سنة إلهية مطردة في خلق الله 240
الفرع الثالث: مفهوم سنة التدرج عند الغزالي..... 242
الفرع الرابع: مراعاة العلماء و الدعاة لسنة التدرج..... 242
الفرع الخامس: غياب فقه سنة التدرج 244
المطلب الثاني: إحياء سنة التدرج و تفعيلها في حياة المجتمع..... 245
الفرع الأول: إحياء سنة التدرج..... 245

الفرع الثاني: التدرج في التطبيق..... 247
الفرع الثالث: احترام سنة التدرج في التطبيق 248
المبحث الثاني: سنة التغيير..... 251
مقدمة 251
المطلب الأول: مفهوم التغيير عند الغزالي..... 252
الفرع الأول: تعريف سنة التغيير لغة..... 252
الفرع الثاني: لفظ التغيير في القرآن الكريم 253
الفرع الثالث: تعريف سنة التغيير اصطلاحا..... 256
الفرع الرابع: عملية التغيير تبدأ بالنفس..... 256
الفرع الخامس: خضوع سنة التغير للسنن الإلهية والكونية..... 258
الفرع السادس: سنة التغيير و آثارها على جيل الصحابة..... 260
الفرع السابع: إصلاح النفوس تغيير ما بداخلها..... 262
المطلب الثاني: الدعوة و الداعية و سنة التغيير..... 263
الفرع الأول: مراعاة الداعية لسنة التغيير 264
الفرع الثاني: العوائق التي تحول دون سنة التغير 264
الفرع الثالث: دعوة الغزالي إلى فقه الواقع 265
الفرع الرابع: التغيير يبدأ بأوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية 266
الفرع الخامس: الاضطراب الاقتصادي يمهد لاضطراب أخلاقي..... 268
الفرع السادس: النظام العادل ضمانة لكرامة الإنسان 268
المطلب الثالث: صلاح أمر الدين مؤسس على صلاح أمور الدنيا 270
الفرع الأول: الدعوة إلى تأمين الجانب الاقتصادي 270
الفرع الثاني: الجانب المادي مكمل للجانب الروحي 271
الفرع الثالث: الولاء للإسلام عقيدة و شريعة 273
الفرع الرابع: علماء اليوم بين القصور و التقصير 275
المطلب الرابع: التحذير من الخلافات وتداعياتها على الأمة..... 277
الفرع الأول: التعصب المذهبي و الخلافات القديمة 277
الفرع الثاني: إقحام الدعاة في الخلافات الفقهية و في فقه الفروع..... 279
الفرع الثالث: الدعوة على تجديد الخطاب الديني بما يتوافق ومتطلبات العصر 281

الفصل الرابع: سنة الله في الاستبداد

مقدمة 284
المبحث الأول: الدول الإسلامية بين الحرية و الاستبداد 286
المطلب الأول: الحرية ضمان لتحقيق كرامة وإنسانية البشر 286
الفرع الأول: سنة الاستبداد لغة..... 298
الفرع الثاني: الاستبداد اصطلاحا..... 287
الفرع الثالث: المجتمع الإنساني بين الحرية والاستبداد 288
المطلب الثاني: الحرية في عهد الخلافة الراشدة ثم في عهد الأمويين..... 289
الفرع الأول: الحرية في ظل الحكم الراشد..... 289
الفرع الثاني: الحرية في عصر الدولة الأموية..... 290
الفرع الثالث: الدعوة في ظل الدولة الأموية 292
الفرع الرابع: أسباب انهيار الدولة الأموية..... 293
المطلب الثالث: العباسيون والدعوة الإسلامية 294
الفرع الأول: بسط ونفوذ أركان الدولة العباسية 294
الفرع الثاني: ملامح تفكك وحدة العالم الإسلامي في العصر العباسي 296
المطلب الرابع: دولة الإسلام في الأندلس..... 299
الفرع الأول: نشأة الدولة الأندلسية 299
الفرع الثاني: انقسام الدولة الأندلسية إلى دويلات و طوائف 299
الفرع الثالث: أهم الأسباب التي عجلت بانهيار الدولة الأندلسية 300
المطلب الخامس: الدولة العثمانية..... 302
الفرع الأول: نشأة و ظهور الدولة العثمانية كقوة عالمية..... 302
الفرع الثاني: الملامح الأولى لتفكك الدولة العثمانية..... 303
الفرع الثالث: أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة العثمانية 303
المبحث الثاني: الاستبداد في الدولة العربية القُطرية..... 306
المطلب الأول: الاستبداد الحديث صنيعة استعمارية..... 306
الفرع الأول: الاستبداد الحديث أخطر من الاستبداد القديم..... 306
الفرع الثاني: ظاهرة الاستبداد تنسحب على معظم أقطار العالم العربي..... 307

الفرع الثالث: الانقلابات العسكرية وتداعياتها على الأمة 308
الفرع الرابع: إيجاد مشروع سياسي بديل يحرر الأمة من الاستبداد 309
الفرع الخامس: مجابهة ظاهرة الاستبداد 310
المطلب الثاني: مفاهيم ينبغي أن تصحح 311
الفرع الأول: مفهوم السمع والطاعة 311
الفرع الثاني: متى يكون الخروج عن الحاكم؟ 313
الفرع الثالث: تصحيح مفهوم مبدأ الشورى 314
المطلب الثالث: النتائج المستخلصة 316

الفصل الخامس: فقه التسخير

المبحث الأول: سنة التسخير في العمل الإسلامي 322
تمهيد 322
المطلب الأول: مفهوم التسخير و أقسامه و أنواعه 323
الفرع الأول: التسخير لغة و اصطلاحا 323
الفرع الثاني: أقسام التسخير 324
الفرع الثالث: سنة التسخير وأنواعها 326
الفرع الرابع: إسهامات الغزالي في سنة التسخير 328
المطلب الثاني: وظيفة العمل الإسلامي المعاصر 331
الفرع الأول: العودة إلى المنهج القرآني 332
الفرع الثاني: دعوت الغزالي إلى نبذ التعصب المذهبي 334
الفرع الثالث: التقريب بين المذاهب 337
الفرع الرابع: الداعية و سنة التسخير 339
المطلب الثالث: الوقت في فكر محمد الغزالي 341
الفرع الأول: قيمة الوقت وأهميته في الإسلام 341
الفرع الثاني: أهمية الوقت عند الغربيين 343
الفرع الثالث: أهمية الوقت عند الغزالي 344
الفرع الرابع: اغتنام الفراغ 344
الفرع الخامس: الحذر من آفة الفراغ 345
المطلب الرابع: القضايا الخلافية إهدار للوقت و تمزيق لوحدة الأمة 345

الفرع الأول: الخلافات الفرعية و آثارها..... 345
الفرع الثاني: حصر الخلافات مسؤولية الدعاة..... 348
الفرع الثالث: إذا كان المال عصب الحياة فالوقت هو الحياة..... 349
الفرع الرابع: نماذج من عهد النبوة..... 351
المبحث الثاني: التكامل بين السنن التشريعية والكونية..... 353
المطلب الأول: الجهل بأسرار الدنيا جهل بسنن الكون..... 353
الفرع الأول: الجهاد العلمي والفكري طريق لتسخير السنن..... 353
الفرع الثاني: ترك الإسلام سبب في تأخر المسلمين..... 355
الفرع الثالث: التوازن بين مطالب الإنسان المادية والمعنوية..... 358
الفرع الرابع: دعوة القرآن لإعمال العقل كمصدر لاكتشاف سنن الكون 359
المطلب الثاني: شمولية الدعوة 364
الفرع الأول: نماذج عملية من عصر النبوة والرعيل الأول 364
الفرع الثاني: المسلمون الأوائل وتعاملهم مع سنن الكون 365
الفرع الثالث: شمولية الدعوة في نظر الغزالي 366
المطلب الثالث: كيفية النهوض بالأمة..... 368
الفرع الأول: رؤية الغزالي إلى كيفية النهوض بالأمة 368
الفرع الثاني: الاستفادة من التفوق الحضاري للأمم الأخرى..... 370
الفرع الثالث: التحذير من الانشغال بالقضايا الخلافية..... 373
الفرع الرابع: ترشيد الغزالي للشباب المسلم وتوجيهه إلى ما هو أفيد وأنجع 374
الخاتمة..... 380
قائمة المصادر و المراجع
الفهارس
الملخص

الملخص

ملخص البحث

ملخص باللغة الفرنسية: Résumé

ملخص البحث

إن البحث و عنوانه فقه السنن عند محمد الغزالي و أثره على الدعوة الإسلامية دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي و هو محاولة لإبراز موقع قضية السنن الإلهية عند المسلمين و حضورها في واقعهم، و قد نالت هذه السنن الإلهية حيزا من فكره، و هذا من خلال التطرق لها، وذلك بنقلها من الجانب النظري إلى الجانب العملي التطبيقي وتفعيلها في حياة الناس.

لأن أزمة الأمة الإسلامية –في رؤيته– هي جهلها للسنن الإلهية وتخليها عنها، كما تناول السبل التي قدمها الغزالي كمخرج من هذه المعضلة الحضارية، و الفريضة الغائبة في دنيا الناس.

و بناء على ذلك فإن البحث تم تقسيمه إلى مقدمة و أربعة فصول:

فأما المقدمة تضمنت بيانا لأهمية البحث و أسباب اختياره و أهدافه و إطاره و إشكاليته والدراسات السابقة له و منهجه ومصادره ثم الصعوبات التي اعترضت إعداده.

و أما فصول البحث فإن أولها كان تمهيديا مخصصا في جزءه الأول لتقديم تعريف دقيق و مضبوط لمصطلح السنة و مفهومها عند المحدثين والأصوليين والفقهاء والمفسرين و الكتاب المعاصرين. ثم تطرقت إلى خصائص السنن الإلهية، ثم إلى السنن الإلهية عند الأقدمين بإيجاز، كما ذكرت الحاجة إلى فهم السنن القرآنية وإدراكها و منها تحدثنا عن مفهومها عند الغزالي. كما تناولت السيرة الذاتية لمحمد الغزالي و مرتكزات مشروعه الفكري و الدعوي.

الفصل الأول تطرق إلى أهم السنن التي تناولها الغزالي و هي سنة التدافع التي أخذت حيزا معتبرا في فكر محمد الغزالي نظرا لأهميتها فهي سبب الحركة في الحياة و بدونها تأسن وتتعفن فضلا عن أنها سنة الله في إعمار الأرض و أمر لازم لنمو الحياة و امتدادها وتدفقها و استمرار التاريخ وابتلاءات لا بد منها لتمييز الحق من الباطل، و قد ذكر جملة من العناصر التي تمكن للأمة الإسلامية كدعوته إلى امتلاك مصادر القوة و الانتفاع بتجارب الآخرين و منجزاتهم وتحصين الجبهة الداخلية واستغلال ما بين الجبهات المتصارعة و لا يتحقق هذا إلا بفريضة الجهاد بمفهومه الشامل، كما دعا إلى الحوار البناء في كنف الحرية لأنه هو السبيل الأسلم لحل كل النزاعات بين الأفراد و كذا الأمم، و التحذير من غياب الحرية في الفضاء العربي الإسلامي و ما ينجر عنه من تداعيات.

و يأتي بعد ذلك الفصل الثاني الذي تناول سنن التداول و الأجل و السببية. و من السنن الحاكمة التي قام عليها الكون والتكليف ز هي سنن قائمة إلى قيام الساعة...، و الداعية الحصين هو الذي يستطيع أن يحقق سيقا و يحرز نصرا في ميدان الدعوة و يصل إلى أهدافه.

ملخص البحث

سنة التداول و دعوة الغزالي للاستفادة من توصيات القرآن الكريم من خلال القصص القرآني ودراسة التاريخ الإنساني فهما ووعيا و أثر سنة التداول في تبصير المسلمين. سنة الأجل و كيفية الاستفادة منها خاصة الدعوة وتفعيلها في حياة الأمة. ثم يأتي قانون السببية و ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور و الأحوال و مراعاة هذه السنة في كل الشؤون الدنيوية و الأخروية.

ثم يأتي الفصل الثالث الذي تناول سنتا التدرج والتغيير؛ سنة التدرج سنة جارية على جميع المخلوقات في هذا الكون كما أنه الميزة البارزة في مسار الرسالة القرآنية الخالدة، و عندما يرصد هذه السنة يدعوا إلى الاستفادة منها مستحضرا نماذج من تجارب التاريخ الإسلامي ليؤكد على اطرادها و مراعاتها في حياة الناس، و ليذكر بأن تبليغ الدعوة يجب فيه مراعاة هذه السنة، و أن نجاح الدعوة الإسلامية يكمن في قدرة الداعية و تمكنه من حسن عرض حقائق الإسلام و يحذر من صنف من الدعاة و هم خطر على الدعوة لأنهم غير مؤهلين علميا و لا نفسيا ولا اجتماعيا لممارسة هذه المهمة السامية. كما يدعو إلى التدرج في التطبيق انطلاقا من فهم الواقع و لكن على أسس وركائز البناء والتكوين.

و يأتي بعد ذلك الفصل الرابع مخصصا لسنة الله في الاستبداد مبرزا آثارها و تداعياتها على المجتمع، مذكرا بحقب تاريخية مر بها العالم الإسلامي في ظل حكم دول سادت فيه مظاهر الاستبداد خاصة الأعصار المتأخرة، و لمجابهة هذه الظاهرة والتخلص منها دعا إلى إعادة النظر في مفاهيم أُسيء فهمها كمفهوم السمع و الطاعة، و متى يكون الخروج عن الحاكم، و إعادة الاعتبار لمفهوم الشورى.

ثم يأتي الفصل الخامس و الأخير و هو سنة التسخير التي يمكن أن يستفيد الإنسان منها متى عرف قوانين هذا الكون و استكشف قوانين هذه المسخرات، والدعوة الإسلامية ليست استثناء من سنة التسخير بالنسبة للداعية، و من المسخرات التي دعا إلى استثمارها والاستفادة منها الوقت و أهميته وتوظيفه في مصالح الأمة، ثم يأتي التكامل بين السنن التشريعية والكونية كعامل قوي للنهوض بالأمة من كبوتها و إخراجها من دائرة التخلف إلى دائرة التفوق الحضاري.

و في الأخير تأتي الخاتمة و التي ضمنت بين ثناياها أبرز النتائج التي تمخض عنها البحث و أهم التوصيات التي أفضى إليها.

Résumé

Cette étude intitulée "Fikh Sounan et son influence sur la daâwa" inspirée de la pensée de Mohamed El Ghazali, consiste à mettre en évidence le rôle des lois divines dans la vie

des musulmans, car la question a eu sa bonne part dans la pensée d'El Ghazali. Et aussi - d'après cet éminent- la crise que vit la nation musulmane aujourd'hui est due à son ignorance des sounanes (lois) divines et de son éloignement des voies qu'elles procurent, et il préconise quelques procédures d'ordre pratiques pour sortir de la crise civilisationnelle.

On débute par l'exposé, le choix, la méthodologie, le plan et les difficultés du sujet. Ensuite vient le chapitre préliminaire qui parle de la vie, du parcours scientifique, de l'apport intellectuel d'El Ghazali et des fondements de son projet intellectuel, et en 3ème lieu expose des définitions des terminologies utilisées.

Le premier chapitre parle de la sunna "Tadafouê" (bousculade ou opposition) qui crée ce sens de la concurrence et de l'équilibre et de combat entre le bien et le mal, dans le monde et dont il résulte le progrès et le développement de l'humanité en général.

Le second chapitre parle de trois sounates: "Tadaoul" l'alternance, "Adjal", l'échéance et "Sababia" la causalité: Nous devons admettre que dans l'évolution de notre univers, à chacun son tour et son rôle, et que les choses doivent se faire dans le respect de leur échéances, sans trop tarder ni trop anticiper., et que la réussite des choses imposent de procurer le minimum nécessaire.

Le troisième chapitre parle de sounates "Tadaroudj" la progression ou la graduation et "Taghiir" le changement: comme les autres lois divines ces deux régissent l'univers et s'imposent malgré tout, car on ne peut avancer si on précipite trop les choses et que le changement vient fatalement marquer le déroulement et la vie, pour que rien ne demeure intact dans ce monde.

Le quatrième chapitre parle de l'"Istibdad" la dictature ou le despotisme, qui en fait est une loi divine qui existe et qui régit le monde, à ne pas prendre avec confusion, car la bonne connaissance peut éviter la dérive et le mal éventuel.

Le cinquième et dernier chapitre parle d'une sounna de "Taskhir" l'exploitation et/ou la mise à profit, car Allah comme Il Doit avoir Imposé des prescriptions de tenue et de conduite, Il A aussi Procuré des biens immenses que l'homme peut de toute liberté exploiter et en tirer profit, pour son bien.

Pour toutes ces lois la bonne connaissance, la pratique et la prudence sont de mise, comme la modération, la tolérance et ce qui s'en suit. En conclusion les résultats de l'étude et les éventuelles recommandations qu'on peut apporter.